مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد الخامس

الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية الجزء الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

(المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ، وَالَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ(١) أَللهُ الَّذي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، تَرَوْنَها ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمّىً ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢) وَهُوَ الَّذي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ، وَزَرْعٌ ، ونَخِيلٌ ، صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(٤)

قوله تعالى : (المر) الكلام فيه معنىً وإعراباً مثل ما تقدم في أمثاله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن معنى

ذلك أنا الله أعلم وأرى (تلك آياتُ الكتاب) الإشارة إلى آياتها باعتبار أنها لتلاوة بعضها ، وكون الباقي في معرض التلاوة صارت كالحاضرة مع الملك . والمراد بالكتاب السورة أو القرآن أو اللوح. أي تلك الآياتُ آياتُ السورة أو القرآن أو اللوح المحفوظ (والذي أنزِلَ إليكَ من ربك الحقُّ) مبتدأ وخبر ، والمراد وكل ما أنزل إليك من الله تعالى من آيات هذه السورة أو غيرها هو الأمر الثابت المطابق للواقع منشأً ونزولاً وغايةً . فهي من الله لا من غيره ، ونزل مع المَلك الأمين لا مع الأرواح الخبيثة . وغاية النزول غايةٌ شريفة هي إرشاد المكلفين إلى طريق سعادة الدارين (ولكن أكثر الناس) ممن نزل لإرشادهم (لا يؤمنون) بذلك الحق المبين لأن سوء استعدادهم وغلبة الشهوات النفسية عليهم جعَلتهم كمن لا عقل له ولا نظر ولا فكر في شيىء يدل على أنه الحق ، فإن هناك أشياء محسوسة وأشياء معقولة يدل كل منها على أن العالم له صانع واجب الوجود موصوفٌ بالكمال ، منزه عن النقص وكل فِعلٍ من أفعاله مقرون بحكمة كما سَرَدَها بقوله الكريم :

(الله الذي رَفَعَ السماواتِ بغير عمدٍ ترونها) أي رفع المواد العالية المسماة بالسماء ، وتجمعُ على سماوات مرتفعا بعضها فوق بعض ، وعددها سبع، وهي شداد لا تنخرق ولا تتمزق.أما عددها فلآياتٍ منها : قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء فسواهُنّ سبع سماوات) وأما أن بعضها فوق بعض فلقوله تعالى : (الذي خلق سبع سماوات طِباقا) وقوله : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا) . وأما أنها شداد فلقوله تعالى (وبَنينا فوقكم سبعاً شدادا) واما أنها لا تتمزق ولا تنخرق فلقوله تعالى (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) فصريح هذه الآيات الابداعية تدل على أن السماوات

أجرام" علوية واسعة بعضها فوق بعض وبعضها متصل بالبعض ، وأنها موجات" مكفوفة وثابتة على حد محدود بجاذبية خاصة تحافظ على شخصيتها ، فليست السماوات السبع عبارة عن السيارات السبع التي تسبح في مدارات مختلفة حسب موازينها الخاصة ، بل إنها مع كبر حجمها كجوهرة محدودة في بحر محيط ، ولا يعلم مقدار طولها وعرضها إلا الله ، وان الشمس والقمر وسائر الكواكب مكشوفة أولا كلها في السماء الدنيا الأولى التي هي أقرب السماوات إلينا لقوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح) وإن جرم الكرسي فوق السماوات السبع لقوله (وسع كرسيه السماوات والأرض) وأن الجنة فوق السماوات لقوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض) ولقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) وهي فوق الكرسي وتحت العرش : « سقف الجنة عرش الرحمن » إلى غير ذلك من الآثار • وان الماسكة هي قوة جاذبية لا تدرك بالأجهزة المادية لقوله تعالى (بغير عمد ترونها) •

وأن العرش فوق الكل لظاهر قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) أي إستولى عليه • أو على معنى آخر أراده الله تعالى موافقا لنزاهته من التحيز والتمكن ومن الحاجة إلى ما يماسه وغير ذلك مما لا يليق بذاته الواجب الوجود • وهذه المفاهيم واضحة ظاهرة لكل ذي عقل وإدراك وبصيرة • وأما كشفها والإحاطة بما فيها فهو عائد إلى الله سبحانه وتعالى •

وقوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) أي ذللهما لما أراد منهما من الحركة المستمرة (كل يجري لأجل مسمى) أي لمدة معينة محدودة ببقاء هذا العالم ، إذ عند انتهائه وقيام الساعة لا تبقى هذه السماوات ولا الشمس ولا القمر ولا باقي الكواكب ، إذ يُشرقُ العالمُ بنور يَخلُقُه الله تعالى

(وأشرقت الأرض بنور ربها) ونور الله تعالى المخلوق لإضاءة العالم يكفي لإنارة سمائه وأرضه بطوله وعرضه ، فإن عالم الآخرة عالمُ الخلود وعالمُ البقاء بدون الأمراض والأعراض ، وعالم كذلك لا يتناسب إلا مع إشراق رباني ونور سبحاني ، وذلك هو العالم الثاني والدار الآخرة التي خلِقَت للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، وذلك العالم هو العالم الذي يليق بلقاء ذاته الكريم والنظر إلى الرب العظيم كما قال : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وكما أفاده بقوله الكريم (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالواجب على المؤمن الوقوف على هذه الظواهر والتوقف عن التأويلات الزائفة التي لا قيمة لها في الواقع ، فكم من وجوه أبدَوْها وبعد مدة وجيزة ثبت أنها اغلاط" واخلاط ؟ وقوله تعالى (كل يجري لاجل مسمى) ظاهره جريان كل من الشمس والقمر . أما جريان القمر فلا كلام فيه . وأما الشمس فكان الناس القدامى يقولون بحركتها كما هو مذكور في كتبهم . وأما الأخراء فكانوا يؤولون جريانها بجريانٍ في الحس لا جريانا واقعيا لأنهم اعتبروها مركزا لحركات السيارات حولها واعتقدوا سكونها في محلها ، لكن اليوم بدأ القول بأنها مع مجموعتها الشمسية في حركة في العالم كما يعلمها الله تعالى .

وقوله تعالى (يدبر الأمر) جملة مستأنفة وجواب لما يقال : من الذي يدبر أمر هذه السماوات وما فيها من النيرات والمصابيح ؟ فقال : (يدبر الأمر) أي الله الذي يدبر أمر العالم العلوي والسفلي . والمقصود أن الله سبحانه وتعالى كما خلقها ورفعها وزينها بمصابيح كذلك دبر أمرها وسيدبرها ويدبر شئونها إلى أجل مسمى إذ وجب الإعتراف بالمعلول عند الإعتراف بالعلة والتصديق بالمدلول عند التصديق بالدليل ، فما دام علمنا أن هذه المواد العلوية والسفلية ممكنات مستوية الوجود والعدم في ذاتها

وانما رجح وجودها على عدمها واجب الوجود وعلمنا أنها حادثة والحادث يحتاج الى المحدث .. علمنا أنها ذاتا وصفة حدوثاً وبقاءً مربوطة بخالقها العالم بها القادر على التصرف فيها . وقوله تعالى (يفصل الآيات) أي ينزل آيات الكتاب المبين منفصلة واضحة لمن تدبر فيها . أو يفصل الآيات الكونية الدالة على وجود الواجب وكماله لمن يستدل بها بإمعان وتفكر . وقوله تعالى : (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أي لعلكم تتفكرون في عظمة الباري وقدرته الغالبة على الممكنات فكما خلقكم وأوجدكم من العدم كذلك إلى الوجود ، وتلقون ربكم وتحاسبون على أحوالكم واعمالكم وتستفيدون من هذا التدبر شعورا بالمسؤولية وتستسلمون للرسول الأمين الآتي بالكتاب المبين . (وهو الذي مد الارض) أي خلقها ممدودة محدودة ، وجعل لها طولا وعرضا وأطرافا ومناطق على وضع خاص مناسب لمعيشة الحيوانات عليها ، وموافق لرعاية الشروق والغروب ومعرفة الأبعاد بين البلاد حتى يسعد البشر عليها بإدراك المعلومات من العالم العلوي والسفلي ، وبتطور في مراتبها ، ويستدل بها على نظام خالقها ، وأن الله لم يخلق هذه المواد العزيزة عبثا بل كل جزء من أجزائها فيه حكمة ورحمة ، ويستفاد منه بركة ونعمة ، فيتمتع بتلك النعم ويشكر الخالق المنعم على الوجه الأتم . (وجعل فيها رواسي) أي جبالا ذوات استقرار في محالها على قواعدها الرصينة حتى تكون وسيلة لتوازن أطرافها في الحركات ، ولا تميد بكم في المدارات ، وتستفيد من الثلوج والأمطار والهواء الصافي النقي فيختزن فيها العيون ، وتأخذ مجراها في سطوح الأرض وتتكون الانهار ، وتستغل في الزراعات والبساتين والغابات والأشجار (وجعل فيها أنهارا) يستفاد منها بشتى وجوه الإستفادة (ومن كل الثمرات) جعل فيها (زوجين اثنين) أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا صنفين مختلفين في اللون كالأسود والابيض ،

أو في الطعم كالحلو والحامض ، أو في المقدار كالصغير والكبير ، أو في الحرارة والبرودة إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف ... (يُغشي الليل النهار) أي جعل الليل غاشيا ساترا للنهار ، فيصير الجو مظلما ويستريح المتعبون بالنهار في دار القرار ، ويخرج المختفون في النهار إلى وسائل معيشتهم في الديار (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فإن جولان النفس في المعلومات المخزونة عندها ووجدان المواد المناسبة للإستدلال بها، أو التعريف لمجهولاتها يفيد أصحاب العقول القوية فوائد فرائد وعوائد توضع على الموائد فيأخذ اللاحق من السابق وجوه الحقائق .

(وفي الأرض) الممدودة كما ذكر (قطع) منها (متجاورات) وهي مختلفات في الصورة النوعية والصفات فمنها طيبة نقية تنبت الزرع والأشجار ومنها فاسدة خبيثة لا تنبت إلاّ الأشواك بدون الثمار (وجنات) أي وفي الأرض جنات أي بساتين كثيرة (من أعناب) أي من أشجار الكرم يستفاد منها رطبا ويابسا جامدا وسيالا (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب (ونخيل صنوان) جمع صنو وهو الفرع الذي يجمعه وفرعا آخر أصلٌ واحد ، وأصل الصنو المثل (وغير صنوان) أي ونخيل غير مضمومة بعضها إلى بعض وغير متفرعة من أصل واحد (يسقى) ماذكر (بماء) واحد لا اختلاف في طبعه (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) بإرادتنا بدون تأثير شيىء آخر في ذلك الإختلاف . (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) شمول قدرة الباري للممكنات كلها على حد سواء .

(وإنْ تعَجبْ فعَجبٌ قَوْلُهُمْ : أَئِذَا كُنَّا تُراباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ أولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٥)

ويَسْتَعْجِلونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ ، وإنَّ رَبَّكَ لَذُومَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ(٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ !إنَّما انْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ(٧) اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ اُنْثى وما تَغِيضُ الأرْحَامُ ، وما تزْدَادُ ، وكلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(٨) عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ الْكَبِيرُ المُتَعَالِ(٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ اَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هو مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ(١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ اَمْرِ الله ، انَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإذَا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءً فلا مَرَدَّ لَهُ ، وما لَهُم مِنْ دونِهِ مِنْ والٍ)(١١)

قوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولـهُم) عبارة تستعمل في إظهار التعجب من شيىء غريب يستحق أن يتعجب منه ، فيقول الباري سبحانه وتعالى خطابا لحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن ترد أن تتعجب من شيء مناسب فعجب أي فأمر عجيب غريب لم يسبق له في عقول العقلاء إستقرار (قولهم) في مقام إستنكار البعث (أإذا كنا ترابا) ورفاتاً لا يتميز فيه العظم من العصب ولا العصب من اللحم ولا اللحم من غيره (أإنا) في ذلك الطور والدور (ل) حادثون (في خلق جديد ؟) أي إنهم يعدون أنفسهم من العقلاء مع أنهم بعد رؤية آثار قدرة الله في الكائنات الغالبة على إماتة الأحياء وإحياء الأموات يستنكرون الإحياء مرة ثانية ، ولا يتفكرون أن الله قبل

وجود أية مادة من المواد وأية صورة من الصور خلق المادة وصورتها وتصرف بالوجوه المختلفة فيها فأحيا بعضا منها وأبقى بعضا على حالها ، ثم أزال الحياة عن الأحياء وهي في كل دور مسخر ؛ لتأثير القادر العليم الخبير ، ومع ذلك ينكر تصرف الباري فيها بإحيائها بعد فناء تلك الصورة ، ولا يدرى أن من قدر على الإيجاد قبل الوجود قادر على إعادة الوجود في ذلك الموجود ، لأن القابل باق والفاعل أبقى والقدرة لم تتغير ، فإنكار التأثير في وقت دون آخر مكابرة لا طائل تحتها • (أولئك الذين كفروا بربهم) أي أولئك المنكرون للبعث وإنشاء الخلق الجديد بعد ما رأوا الآيات الدالة على أنه يسير على الله القدير هم الذين كفروا بربهم واستمروا على الجهالة العمياء في الدنيا ، (وأولئك الأغلال في أعناقهم) في الآخرة جزاء لهذه البادرة المنكرة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها أبدا •

ثم ذكر الباري تعالى بعد بيان كفرهم وسوء عاقبة أمرهم بعض أحوالهم الفاسدة فقال (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) أي يطلبون منك استعجال العقوبة قبل الحسنة وهي الستر والأمان والعافية (وقد خلت من قبلهم المثلات) وقد مضت وانقضت من قبل زمان مجيئهم إلى الدنيا المثلات وهي جمع مثلة بمعنى العقوبة الفاضحة • يعني لو لم تسبق قبلهم العقوبات ولم تقرع أسماعهم أخبار حوادث الكائنات كانت لهم معذرة في الجراءة وطلب بعض المصائب لكن مع سبق ذلك وقرع السمع مما هنالك يطلبون إنزال العقوبة عليهم ، وإن ذلك مما يتعجب منه العاقلون (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي مع وجود ظلمهم على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي ، فما داموا تابوا إلى الله وانتهوا عن تلك المعاصي فالله غفور رحيم (وإن ربك لشديد العقاب) على من عاند واستمر على المعاصي ولم يزل إلى أن جاءه الأجل لأنه مقتضى كلامه ومنتهى نظامه وأحكامه •

ثم ذكر حالا أحرى بالتعجب من الأولى وهو أنه (يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه) أي على محمد (آية من ربه) مثل آيات عيسى وموسى من قلب العصا حية تسعى (إنما أنت منذر) يعني فإذا فوجئت بذلك فاسكت واصبر إنما أنت منذر مرسل للإنذار من سوء عاقبة أولئك الناس ، ولست مخولا بإظهار المعجزة كما يريدون (ولكل قوم هاد) يبشر قومه وينذرهم ، فمن آمن به فهو المهتدي للصراط المستقيم ومن كفر به فهو الخاسر الذي خسر رأس مال العقل والحلم ورجع إلى سواء الجحيم .

ثم ذكرهم ببعض صفات الباري تعالى حتى يهتموا بها فينتبهوا وقال (الله يعلم) بالذات بدون الحاجة إلى أي جهاز وآلة (ما تحمل كل أنثى) من الذكر أو الأنثى أو الصنفين (وما تغيض الأرحام ، وما تزداد) أي وبما تنقصه الأرحام وما تزيده في الجثة والاعضاء (وكل شيىء عنده) متلبس (بمقدار) محدود لا يزيد ولا ينقص منه (عالم الغيب والشهادة الكبير) العظيم الشأن (المتعال) .

ولما كان الشيىء عندنا هو الموجود ، والكل أداة الإحاطة صار معنى الآية الشريفة : إن كل موجود عيني جوهرا أو عرضا له في مراحل حدوثه وبقائه كمية محدودة مشخصة لا يزيد عليها ولا ينقص منها ؛ فتستوعب الآية دقائق وجود الأعيان والأعراض وتفيد أن زيدا مثلا في مبدإ حدوثه ومسافة بقائه وآخر أمده في كل دقيقة له مقدار مقرر في علمه تعالى لا تتبدل ولا تتحول . هذا إذا فسرنا الشيىء بالموجود الخارجي ، وأما إذا فسرناه بما يعم الشخص والصنف والنوع والجنس مطلقا ، فمعناها أن كل جنس مطلقا وكل نوع وكل صنف وكل شخص من الصنف له أفق خاص لا يزيد عليه ذلك الشيىء ولا ينقص ، وأوسع الآفاق أفق الجنس العالي ، ثم المتوسط ، ثم السافل ، ثم النوع ، ثم الصنف ، ثم الشخص . ومعنى ذلك إحاطة علم

الله وقدرته بجميع الكائنات بحيث لا يشذ شيىء عنهما سواء كان مشهودا عندنا أو غائبا ، وبذلك يتناسب مع قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) ويدخل في ذلك أحوال الإنسان وأعراضه وأمراضه وأغراضه وأعماله وآجاله وآماله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) فإذا آمن الإنسان بذلك استراح واطمأن قلبه ولم يبق عنده قلق من كل ما يجري عليه في مبدإ حياته إلى منتهاها ، ولا ييأس من روح الله لأن كل آن وكل دقيقة وكل ساعة له ميزان خاص مقرر في علمه تعالى ، فقد يكون حاله في الآنات التالية غيرها في الحالات السابقة .

ويترتب على إحاطة علمه تعالى قوله (سواء منكم من أسر القول) أي أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ، أو تلفظ به ولم يسمعه نفسه ، أو تلفظ بـه واسمعه نفسه فقط دون غيره (ومن جهر به) بحيث أسمعه من يليه أو أسمعه نفسه (ومن هو مستخف بالليل) أي من يبالغ في الإختفاء علاوة على ما عليه من غشاء ظلمته (وسارب بالنهار) أي ظاهر فيه من سرب إذا ذهب في طريقه ؛ فإن من كان عالما بالغيب والشهادة لا يخرج عن علمه شيىء مما ذكر . وقوله (له معقبات) أي لمن تقدم ممن أسر بالقول إلى آخره ملائكة معقبات تعتقب في حفظه وصيانته من المضار والمصائب (يحفظونه) من بين يديه ومن خلفه حراس له أمامه ورقباء خلفه يحفظونه حفظا ناشئا (من أمر الله) أي من أجل إصدار الأمر من الله تعالى لهم بحفظه ، وذلك كما في قوله تعالى : (إن كل نفس لما عليها حافظ) ودائرة الحفظ تسع الحفظ من الماديات والمعنويات من شياطين الجن والإنس ومن الأعداء والسباع والحشرات والأمراض ... وذلك مربوط بأمره تعالى ليلا ونهارا ويبدو ذلك بكثرة في صيانة الصبيان والبله الذين لا يقدرون على رعاية أنفسهم ، وإلا فلو لم يكن عليه حفظة من

الله لتاه الإنسان في متاهات وتراكمت عليه المصائب والبليات ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين •

والأخبار الدالة على هذه المحافظة كثيرة وفيرة مؤيدة ومفسرة للآية الكريمة ، فإن قيل ما وجه هذا الحفظ وما معناه ؟ فإن كل مقدر لابد أن يكون ، وكل ما لم يقدر لم يكن كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » ! قلنا : إن ما شاء الله وقضاه وقدره منها ما هو مربوط بشرائط وأسباب معلومة لنا ، ومنها ما هو مربوط بشرائط وأسباب غير معلومة لنا ، وتيسير تلك الأسباب كلها من الله سبحانه ، فاذا أراد شيئا هيأ أسبابه ، وإذا لم يهيىء أسبابه فمعناه أنه ما أراده ، ومن أسباب الصيانة والحفظ شعور الإنسان وانتباهه وسعيه في أسباب أمنه وراحته • ومنها الملائكة المأمورون بها كما في الآية الكريمة • ومنها الدعوات والصدقات فإن تسببها في حصول المأمول بأمر الله تعالى ثابت محقق لا مجال لإنكاره من أهل الشعور ، كما أن الباري تعالى جعل على العيون أجفانا ، وعلى الألسنة شفاها ، وعلى المنافذ أوكية وعلى الدور أبوابا فالماديات والمعنويات متظاهرة ومتضافرة في هذا الموضوع • وينص على ذلك قوله تعالى (وآتيناه من كل شيىء سببا فأتبع سببا) والصدقات والنذور من جملة أسباب الأمان والصيانة ، وما ورد من « أن الحذر لا يغني عن القدر » فحق لا شبهة فيه ، ولكنه في ما إذا أبرم الله القضاء فإنه هو الفاعل المختار ، ومنه العوارض والآثار ، فعلى المؤمن العاقل أن ينتبه لهذه الأمور ويشرح لها الصدور حتى يتنور بنور الحق ويسلك مسلك الحبيب أكرم الخلق في رعاية الأسباب وإعداد المعدات ، وإلا فلم يشرب العطشان ، ولم يأكل الجوعان ، ولم يكتسب الانسان أسباب معيشته في طول الزمان ، فالملائكة من جملة الأسباب ، والإكساب من جملة الأسباب ، وأدعية الصالحين من

جملة الأسباب ، وبركات أهل التقوى وعصمة الصبيان واحترام الشيوخ من أهل الصدق والإيمان ، من جملة أسباب جلب الخيرات ودفع البلايا والمصائب وكذلك التوسل بالأرواح الطيبة النقية التقية فإن بركاتها وأنوارها ظاهرة في حياتها ومماتها ، وإلا فلم يأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن معه من أصحابه أن يسرعوا في الخروج من ديار ثمود وينتقبوا ولا يتفرجوا عليها مع مضيّ قرون وأحقاب على هلاكها ودمارها ، أليس ذلك دليلا على إستحباب التبرك بالعدوة في بدر مهبط الأنوار ونزول الملائكة الأنصار ؟ والنقطة الوحيدة التي هي قطب دائرة الإيمان والأمان هي التصديق بأن كل ما كان وما يكون من هذه الأنواع فهي أسباب موجودة مرتبة والفاعل والمؤثر والخالق هو الله تعالى لا غيره •

قال السعد في تهذيبه : ولما كان الموجد عندنا هو الله تعالى وحده فمعنى العلية والتأثير في الممكن هو التسبب العادي انتهى • أي لما كانت الممكنات مستندة إلى الله تعالى إبتداء فمعنى مباشرة الأسباب هو التسبب العادي ، أي مباشرة أسباب الجذب والدفع حسب جريان عادة الله تعالى بها •

ويدل على وجوب رعاية الأسباب ومباشرتها بصورة مشروعة نافعة والسلوك على مسلك سنة الله تعالى في خلقه قوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فإن هذه الآية أو الجملة الجميلة تليق بأن تكتب بالنور على الصدور • ومعناها : إن الله تعالى هو الذي خلق الانسان من العدم وزوده بالصفات العالية ، وعلمه ما لم يعلم ، وألهمه التحرير بالقلم، والمشي على القدم ، وهداه بعد العقل السليم الى الشرع الشريف الذي جاء به الرسول الكريم وشرع له طريق الشورى في المهمات والإعتصام والوحدة لدفع النائبات والإبتعاد عن العقائد الفاسدة والاعمال السيئة الكاسدة وسوء الأخلاق من الشقاق والنفاق ، وأذ يرى خيره في خير بني مبدإه الأمين ،

وينقاد في أحواله وأعماله لدستور رب العالمين . فإذا نظروا إلى ما شرعه الله تعالى وتفكروا في ما يستفاد منه من الآيات البينات والبراهين القاطعة والأدلة اللامعة ، وسعوا في تحصيل النتائج الخيرية ، ودفع المصائب والبلية ، وتحولوا من سيىء إلى حسن ، ومن الحسن إلى الأحسن ، وغيروا ما بأنفسهم من الرذائل وتنوروا بالفضائل فقد وعد الله تعالى ، ومن أوفى منه بالعهود ؟ إنه يغير ما بهم من النقصان ويرقّيهم إلى قمة الكرامة والإحسان . وهذه سنته في كل فرد وجماعة ، ولكن التنصيص على القوم إشارة إلى أن خير الخيرات هي نتائج أعمال الجماعة ، فإنها رحمة وجالبة لكل خير ونعمة (وإذا أراد الله بقوم سوء) لجريان علمه بسوء إستعدادهم وفساد عقائدهم وأعمالهم وابتلوا بالنفاق والشقاق وسوء الأخلاق ، وإظلام القلوب بالكروب ، والإستمرار على الأعمال المشينة ، وعدم المبالاة بنصائح الناصحين (فلا مرد له) أي فلا رد له (وما لهم من دونه من وال) يلي أمرهم ، فإنه تعالى في الحقيقة صاحب كل شيىء ووال عليه يتولاه برفق ورحمة ولطف ، ولا سيما للصالحين . ولذا قال تعالى (وهو يتولى الصالحين) .

(هو الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ويُنْشِيءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(١٢) ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، والملائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ ، وهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ(١٣) لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْىءٍ إلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وما هُوَ بِبَالِغِهِ ، وما دُعاءَ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلالٍ(١٤) ولله يَسْجُدُ مَنْ فِي

السَّماواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً ، وظِلالُهُمْ بِالغُدوِّ والآصالِ)(١٥)

قوله تعالى : (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) من جملة ما أنزله الله تعالى من صفات ذاته وأفعاله الدالة على كماله في كل باب من الأبواب ، سواء من ناحية علمه الشامل للغيب والشهادة ، وحفظه لعباده بالمعقبات فيقول هو الذي يريكم البرق إخافةً لكم من الصاعقة وإطماعاً لكم في الغيث النازل المفيد لأرزاقكم ، فالقادر القوي الذي سخر السماوات وما فيها لإحداث ما يريد هو الذي يُعْبَد وحدَه لا من لاحظ له من الوجود الثابت والجود المفيد . هذا . وأوَّلْنا الخوفَ والطمع بالإخافة والإطماع حتى يتحد العامل والمفعول من أجله في الفاعل فيتحقق شرط النصب ، ومنهم من لم يشترط هذا الشرط ونصبهما مع بقائهما على معناهما المعروف الذي هو من صفاتنا . ففي شرح الكافية للرضي وبعض النحاة : لا يشترط تشاركهما في الفاعل ، ويسندون هذا الرأي الى سيبويه ويستدلون عليه بظواهر النصوص والآثار الواردة ، ومنها هذه الآية التي نفسرها هنا .

ثم إنهم فسروا الخوف والطمع بالخوف للمسافر من أذى المطر والطمع للمقيم في نفعه ، وبالخوف من العذاب والطمع في الثواب أو الخوف من الصواعق والطمع فيالنباتات النابتة النامية بها (وينشيء السحاب) أي الغمام المنسحب في الهواء (الثقال) بالماء وجمعه ، وإن كان الموصوف مفردا لكونه اسم جنس في معنى الجمع ، ويذكر ويؤنث فكأنه جمع سحابة ثقيلة (ويسبح الرعد بحمده) والرعد اسم للصوت المعلوم . وفي إسناد التسبيح إليه تجوز أي يسبح سامعوه ويتلبسون بحمده على حدوثه لدلالته على القوة القاهرة في جمع السحب وإصعادها ، واحتكاك بعضها ببعض ، وحدوث ذلك الصوت المهول منها ، وعلى النعمة الوافرة مما يحدث بالأمطار النازلة منها . أو تجوز

على طريق الإستعارة تشبيها لدلالة الرعد بنفسه على تنزيهه تعالى عن الشريك بالتسبيح والتنزيه اللفظي ، ودلالته على فضله ورحمته بحمد الحامدين • ومنهم من يقول : إنه إسناد حقيقي والرعد اسم للملك الموكل بإدارة هذا الصوت وإنشائه ويناسبه قوله تعالى (والملائكة من خيفته) أي ويسبح الملائكة الكرام ـ عليهم السلام ـ من هيبته تعالى وإجلاله جل جلاله (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهي النار النازلة من السحاب مع صوت شديد (فيصيب بها من يشاء) إصابته فتحرقه وتهلكه ، وتلك النار تحدث من إحتكاك أجزاء السحاب بعضها مع بعض • (وهم يجادلون في الله) أي أولئك الذين كفروا وكذبوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجادلون في الله أي في وجوده ، أو في وحدته ، أو في تأثير قدرته ، أو في الجميع (وهو شديد المحال) أي والله هو شديد المماحلة والمكايدة • لا يعارضه أحد إلا هلك •

(له دعوة الحق) أي آختص به الدعاء والطلب لدفع البلاء والغلاء وإنزال الرحمة والنعماء ، فهو الذي يدعى فيجيب ، وأنه هو السميع القريب (والذين يدعون) أي الأصنام الذين يدعوهم المشركون (من دونه) أي من دون الله (لا يستجيبون لهم) أي للمشركين الداعين (بشيىء) من آمالهم ومقاصدهم المطلوبة (إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه) أي إلا إستجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد يطلبه ليأتي ويصل إلى فمه (وما هو ببالغه) أي وليس كذلك الماء ببالغ إلى فيه لأن الماء جماد لا يشعر بعطش العطاش وطلبهم حتى يستجيب لهم (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أي في ضياع وخسار وعدم افادة •

واستشكل عدم إستجابة دعواتهم باستجابة دعاء إبليس عندما قال (رب فانظرني إلى يوم يبعثون • قال فإنك من المنظرين) • وأجيب بأن المراد

دعاؤهم في شأن الآخرة ورفع العذاب عنهم . وقد يقال : إن الإستجابة نوعان : نوع مقرون باللطف والرفق والرحمة بالداعي ، فهذا هو المسلوب إجابته عن الكفار ، وقسم فائض من إنعامه العام والرفق بكل ذي روح ، ولو من السباع الضارية والحشرات العادية والكفار الغاوية ، فهذا يشمل الكل ، ولكن لا من باب إستجابة الدعاء .

ثم قال الباري تعالى : (ولله يسجد من في السماوات والأرض) أي ولله تعالى وحده لا لغيره أو مع غيره يسجد ويخضع ويعبد من في السماوات والارض من الملائكة والجن والإنس (طوعا أو كرها) طائعين في حال الإسلام، وكارهين في حال القهر والاستسلام فان الشخص المؤمن بالله ساجد طوعا خوفا وروعاً ، ويخضع ويتذلل ويبتهل إليه تعالى لرفع عذابه وعقابه ونيل خيره وثوابه ، والشخص الحي الكافر والمتمرد المعاند له تعالى والجامد الذي لا شعور له حادث مسخر لتصرفه تعالى ومتذلل له أينما كان .

(و) معنى السجود هو الخضوع للمعبود اي لا يسجد هؤلاء بانفسهم فقط بل ويسجد كذلك (ظلالهم) الحادثة مع الطول تارة ومع القصر اخرى. هذا للماديات ، وأما لغيرها فالمراد بها الآثار والتفرعات الناتجة منها ، والمقصود أن كل موجود حادث فهو في إدارة ربه ، ومنقاد لحكمه ، ومطيع لشوكته ، (بالغدو والآصال) خلافا لسجود الكل . والمراد إما الوقتان المعلومان نفسهما ، فإن الوقت الأول يشبه زمان بداية الخلق ، والثاني يشبه زمان إنتهائه ، أو المراد بهما الإستمرار في هذا الإنقياد والتذلل في كل وقت وحين .

(قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ؟ قُلِ اللهُ . قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلياء لاَ يمْلِكُون لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً

وَلا ضَرّاً ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الأعْمى وَالبَصِيرُ ؟ أمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ ؟ أمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ : اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهّارُ(١٦) أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءٍ فَسالَتْ أوْدِيَةٌ بِقَدَرِها ، فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ، وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ والباطِلَ ، فَأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمْثالَ(١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ الحُسْنى ، والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أنَّ لَهُمْ ما فِي الأرْضِ جَمِيعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ لا فْتَدَوْا بِهِ ، أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسابِ ، وَمَأْويهِمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ)(١٨)

قوله : (قل من رَبّ السماواتِ والارض ؟) هذا الأمر والإستفهام للإنتباه ، وأخذ الجواب الحق وتقرير أن خالقهما وصاحب شئونهما هو الله الذي لا إله إلا هو القادر على كل ممكن عالٍ أو سافل ، ولذلك يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه أن يجيب عن الإستفهام بقوله (قل الله) يعني أن العالِمَ حقيقة بشخصية الخالق هو نفسه لا غيره ، ومنه يسري العلم إلى غيره، وإذا أنت أقررت وقررت أن خالقهما هو الله، وأخذتَ العلم بهذا الأمر المهم منه تعالى يُقِرّ العقل السليم في أي زمان ومكان بذلك فحينئذ لك المجال أن تستفهم الناس المشركين إستنكارا على انحرافهم عن ذلك الأمر الحق ، ولذلك قال له ـ صلى الله عليه وسلم (قل) يا حبيبي (أفاتخذتم من دونه أولياء) لمناصرتكم حالكونهم (لا يملكون لأنفسهم) وهي أعز الأشياء عليهم

لو كانوا عقلاء (نفعا ولا ضرا ؟) فضلا عن إنفاع الغير وإضراره • (قل) لهم للمثيل بعد تحقيق الفرق بين المحسوسين المتقابلين : (هل يستوي الأعمى والبصير) المشرك الجاهل بالعقائد الحقة والموحد العارف بها (أم هل تستوي الظلمات والنور ؟) حتى تستوي غياهب الكفر والضلال ومراتب الأنوار والهدى ، فإن جهل المشرك وعلم الموحد معنويان، والعمى والإبصار ماديان ومحسوسان باعتبار مبدإ الإنتزاع ، وكذلك الظلمات والنور محسوسان والكفر والإيمان معقولان ، فإذا أدركتَ الفرقَ الواضح بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور أدركت الفرق بين المشرك والموحد والكافر والمؤمن • وكلمة (أم) في قوله تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة فتشابه الخلق عليهم ؟) منقطعة بمعنى بَلْ للاضراب ، وهمزة الإستفهام يعنى ابَل جَعلوا أي أولئك المشركون لله جل جلاله الرفيع شركاء من الأوثان والأصنام خلقوا المواد العلوية والسفلية كخلقه تعالى لها فالتبس عليهم خلقه تعالى بخلقهم ، وجعلوا لهم خلقا وإيجادا كما لله تعالى واعتقدوا إستحقاقهم للعبادة كاستحقاقه تعالى لها • والإستفهام إنكاري لأن إنتفاء ما بعدها محقق • (قل) لإعلان الحق وبيان الواقع (ألله خالق كل شيىء) من الجواهر والأعراض ، (وهو الواحد القهار) •

ثم أخذ يذكر من أفعال الباري تعالى ماتنقاد له العقول وتعترف بأن فاعلها هو الفعال لما يريد • فقال (أنزل) أي الله تعالى (من السماء) أي من جهتها على ما هو المشاهد (ماء) أي مياها كثيرة تعم الأقطار والأقاليم ، أو نوعا منه وهو الماء الذي ينبت به النبات (فسالت به) أي بذلك الماء (أودية) كثيرة أراد تخصيصها به بحسب حكمته ، ونسبة السيلان اليها مجاز لأنها محل سيلانه (فاحتمل السيل زبدا) أي غثاء يطرحه الوادي اذا جاش الماء واضطربت الامواج (رابيا) أي عاليا منتفخا فوق الماء ،

وقوله : (ومما يوقدون عليه ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) إبتداء جملة أخرى ، أي ومن المعادن التي يوقدون عليها في النار أي في المجمر الموضوع على النار ، لطلب حلية تتحلى بها النساء والصبيان كثيرا والرجال قليلا ، أو لطلب ما يتمتع باستعماله كالأواني والكؤس زبد مثل زبد الماء المائج (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق والباطل (فأما الزبد) الرابي على الماء السائل ، أو على المواد المعدنية التي يوقد عليها النار (فيذهب جفاء) فيفوت خاليا عن الفائدة ويتفرق في الهواء ، أو في الأرض وينمحي بدون منفعة فيه (وأما ما ينفع الناس) من الماء الصافي عن الغثاء ، أو الجواهر الخالصة المعدنية من الذهب والفضة وغيرهما (فيمكث في الأرض) ويبقى فيها للسقي والزرع وغيرهما ، أو للحلية وسائر الأمتعة النفيسة (كذلك يضرب الله الأمثال) في كل باب لإرشاد العباد •

ولما بين الباري تعالى شأن كل من الحق والباطل شرع في بيان أهل كل منهما وهم المستجيبون لله وغير المستجيبين له فقال : (للذين استجابوا لربهم) ولبّوا دعوته إذا دعاهم إلى الحق (الحسنى) أي المثوبة الحسنى وهي الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا وفسدوا وأفسدوا لهم مصير شر مصير ومآل شر مآل فيقعون في العذاب والعقاب والنكال والوبال في المآل (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) عن أنفسهم ليتخلصوا من العذاب الذي ابتلوا به ، ولكن لو افتدوا به وبأضعافه ما تقبل من أحد منهم ، لأنهم أصروا على العقيدة الفاسدة والعقدة النفسية الخالدة ، والجزاء على وزان الاعمال ، ولا نجاة لهم (أولئك لهم سوء الحساب) أي حساب سيىء جدا لا يسامح منهم قيد ذرة لابتعادهم في الدنيا عن كل خير ومبرة (ومأويهم جهنم وبئس المهاد) والمستقر جهنم •

وفي تلك الأمثال عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين ، وذكرى للمتذكرين، ذلك أن الله سبحانه وتعالى إستدل بالآيات الآفاقية والأنفسية على وجوده ووحدته وكمال صفاته ، ثم وعد الملبين له الجنات والدرجات وأوعد المتمردين بالعذاب والدركات ، وأفاد أن ذينك المآلين ليسا أزمنة مؤقتة يخلص منها وإنما هما مآل موصوف بالدوام والخلود ، وقرر في تضاعيفها أن الثراء والمال ورفعة الحال أشياء تافهة لا قيمة لها عند أولي العقول النيرة النابهة ، وأن ما ينفع هو العقيدة السليمة والعمل الصالح والخلق العالي .

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ، وَلا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ(٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ:(٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)(٢٥)

قوله تعالى (أفمن يعلم) يعني أبعدَ بيانِ حال الفريقين من المؤمنين والكافرين يكون مَنْ يعلم (أنّ ما أنزل إليك من ربك) وهو القرآن الكريم

(هو الحق) لا ريب فيه (كمن هو أعمى) لا يبصره ببصره ولا ببصيرته،وابتلى بسوء سريرته ، ولا يؤمن بالله الواجب الوجود ، ولا يؤمن أنه هو الخالق المعبود ، ولا يصدق بأن الرسول هو الواسطة الصادقة بين الخالق والخليقة في تبليغ العقائد والأحكام ؟ وجواب الإستفهام كلا ومعاذ الله لا يستويان لأن الإيمان موقوف على التذكر و (إنما يتذكر أولو الألباب) الذين يوفون بعهد الله عهدا روحيا في ما مضى من الأوقات ، وعهدا على أيدي الرسل أولي الكرامات أي أصحاب العقول الخالية عن الإرتياب (الذين يوفون بعد الله) أي بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بوجوده ووحدته والتزام شريعته (ولا ينقضون الميثاق) الذي وثقوا به بينهم وبين الله أو بينهم وبين الناس على الوجه المشروع • ومنها المبايعات والمراهنات والإيجارات والشركات والعقود الجارية بينهم في الأحوال الشخصية وغيرها فإن العالم مبني على النظام والنظام لا يفيد إلا مع الإلتزام وهذا الإلتزام هو الفارق بين أهل الحق والباطل (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) كنفقات الزوجات وأفراد العائلة والمماليك وأجور العمال وصلة الأرحام ورعاية حقوق الأساتذة والاصدقاء الاوفياء ومن له حق على الإنسان ديناً أو دنيا (ويخشون ربهم) أي يخافون وعيده من عدم الوفاء بالملتزمات ، أو الخلل في الوفاء بها (ويخافون سوء الحساب) من إضافة الصفة الى الموصوف ، أي يخافون الحساب السيىء ، والحساب السيىء هو المحاسبة على الأعمال السيئة ، وإلا فمحاسبة الباري لعباده كلها حسنة (والذين صبروا) على مكاره ترد عليهم من الإلتزامات والوفاء بها من أداء الصلوات في الأوقات الحرجة ، وإسباغ الوضوء ، والغسل في المكاره ، والصيام في وقت التعب ، والمصابرة مع الأعداء في الحرب ، والرباط في الثغور ، ورعاية الواجبات بالشعور ، وإنما صبروا عليها (ابتغاء وجه ربهم) أي طلبا لمرضاته لا للرياء والسمعة وغيرهما من الرذائل

(وأقاموا الصلاة) المفروضة والمسنونة (وأنفقوا مما رزقناهم سرا) لا يعلم به إلا الله (وعلانية) إذا استحب الإعلان (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أي يدرؤن بالأقوال والأعمال والأخلاق الحسنة الأقوال والاعمال والاخلاق السيئة • فإذا سمعوا الشتام تصامموا ، وإذا رأوا الاعمال البذيئة تعامَوا ، وإذا عوملوا بالإعتداء عفوا عن المعتدين (أولئك) الناس الموصوفون بالنعوت المذكورة (لهم عقبى الدار) أي العاقبة الحسنة لأصحاب هذه الدار وتلك العاقبة (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم) من أبواب المنازل المعدة لهم قائلين لهم (سلام عليكم) سلاما خالدا من كل بلاء وآفات مادية ومعنوية وذلك جزاء لكم (بما صبرتم) على مشاق ترك المحرمات وأداء الواجبات (فنعم عقبى الدار) أي فنعم الدار الواصلة إليهم في العاقبة ، وهي الجنة ، أو فنعم عاقبة الدنيا الجنة •

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أي ذلك حال الذين وفوا بالعهود ووقفوا عند الحدود ، وأما الذين (ينقضون عهد الله) أي أبطلوا العهد الذي عاهدوا الله عليه من الإيمان والإحسان وترك المحرمات وأداء الواجبات (من بعد ميثاقه) وهو الإعتراف بالإلزام في عالم الارواح ، أو بتوديع العقل السليم ، أو بالقبول من الأنبياء والرسل في عهودهم ونوابهم العلماء الأمناء بعدهم (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أي ما أمر الله بوصله على غرار ما قدمناه (ويفسدون في الأرض) بذور الإشراك والمعاصي وتعدي الحدود وترك العهود (أولئك لهم اللعنة) والطرد الأبدي النازل عليهم من الله (ولهم سوء الدار) أي سوء عاقبة الدار والدار الدنيا وسوء عاقبتها الموت بلا إيمان أو الدار الآخرة وسوء عاقبتها عذاب جهنم أعاذنا الله تعالى بفضله منه •

(اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاء وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بالحَيوةِ الدُّنْيا وَمَا الحَيوةُ الدُّنيا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مَتَاعٌ(٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّه ! قُلْ : إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧) ، الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلوبُ(٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحَاتِ طوبى لَهم وحُسْنُ مآبٍ(٢٩) كذلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحمنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِله إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ مَتَابِ)(٣٠)

قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) إستئناف لبيان أن البسط في الرزق ليس من محبة الله تعالى للمرزوق والقبض فيه ليس عن كراهيته له، وإنما ذلك من جريان الإرادة الأزلية التابعة لعلمه تعالى باكتساب المرزوق رزقه ومعيشته ، فمنهم من يتيسر له أسباب البسط ، ومنهم من لا يتيسر له ذلك ، مع أن شيئا من البسط والقبض ليس من أسباب الحب والكراهية . وعلى أي حال فالبسط في الدنيا ، وإن كان يفرح به الناس على العادة، لكن الفرح به ليس منأخلاق المؤمن المخلص لأن العاقبة الحسنة في إطاعة الله تعالى . (وفرحوا) أي أهل مكة ، أو الكفار مطلقا ، أو أهل الدنيا مطلقا ، بالحياة الدنيا لقصور نظرهم فيها . (وما الحياة الدنيا في الآخرة) أي في جانب نعيمها (إلا متاع) قليل يسير حقير لا قيمة له .

(ويقول الذين كفروا) أي أهل مكة أو منافقو أهل المدينة : (لولا نزل عليه آية من ربه) وذلك من أقصى مراتب الجهالة ، وأقسى مراتب القلوب الغافلة ، فإنهم لو كانوا ينظرون إلى نشأته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونموه ونمو شريعته والقرآن النازل عليه الهادي للعقول إلى الطبائع وماوراءها وإلى أخلاقه وسيرته لعلموا أنه هو عين الأعيان، وكلام الله النازل عليه أعظم آية وأجلى برهان • (قل) في جواب أولئك الناس الذين عميت أبصارهم عن إبصار الحقائق وبصائرهم عن إدراك الدقائق : (إن الله يضل من يشاء) إضلاله لعلمه أزلاً بغفلته عن سلوك مسالك الحق (ويهدي إليه من أناب) أي أقبل إلى الله وهداه ، وترك شهواته وهواه • يعني لو لم يكن هذا الضلال العميق لم يكن كلامكم ذلك الكلام الخريق (والذين هداهم الله) وأنابوا إليه وكانت لهم مكانة لديه هم الذين آمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله ، ويداومون على ترك المحرمات وأداء الواجبات ، وتطمئن قلوبهم أي تستقر وتستكن بذكر الله قياما وقعودا ركوعا وسجودا ويقظة وهجودا (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) لا بغيره من المتاع الحقير الذي يميل إليه الطبع الحقير • والمراد بذكر الله تعالى كل فكر وقول وعمل يقرب صاحبه من الله ، سواء كانت ترك المحرمات لله ، أو أداء الواجبات لله ، أو إرشاد الناس إلى الخير لله ، أو ذكر توحيده وتقديسه وتمجيده وتوحيده وتهليله وتسبيحه وتكبيره لله •

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) أي يقال لهم طوبى لكم وحسن مآب • فهو دعاء لهم بالطيب في العيش الخالد الأخروي والهناء • وقال القرطبي : الصحيح أنها شجرة في الجنة واحدة بالذات متفرعة منها فروع وأغصان تعم حدائق الجنة ، أو نوع من الأشجار توجد في حدائقها • (كذلك) أي مثل ذلك الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن

الكريم والخلق العظيم (أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) كثيرة أي ليس إرسالك إليها أمراً خارقا للعادة ، ولم يسبق مثله ، بل سبقت أمثاله ، فإن الله تعالى ما خلى أمة إلا وقد خلا فيها نذير ، وكل ذلك توفير لنعمة الله وتوسيع دائرة رحمته وبسط لمائدة نعمته وإنما أرسلت (لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك) من آيات القرآن لتوجيه العباد بحسن الإرشاد إلى الإعتراف بواجب الوجود ووحدته ورسله وشريعته وينبثق من ذلك نور وشعور بالمسؤولية أمام الله العلام ، فإن الكائنات لا تبقى بدون نظام ، ولا نظام بدون التزام• (وهم) معهذه الجهود الجبارة (يكفرون بالرحمن) ويستنكرون العهود والأيمان والإيمان • (قل) معرضا عن أهواء الخلق ومتوجها إلى هدي الخالق : (هو) أي الرحمن الذي يكفرون به (ربي) خلقني وسواني وهداني وأيدني بالعقل السليم ، وأنعم علي بالرسول الكريم (لا إله إلا هو) أي لا واجب ولا خالق ولا معبود إلا هو (عليه) لا على غيره (توكلت) حق التوكل (وإليه) لا إلى غيره (متاب) أي مرجعي فإنه إلى الله تصير الأمور •

(ولوْ أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ ، أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرْضُ ، أوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتى ، بَلْ للهِ الأمْرُ جَمِيعاً ، أفَلَمْ يَيْأسِ الَّذِين آمَنُوا أنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهدى النّاس جَمِيعاً ؟ ولا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قارِعَةٌ أوْ تَحُلُّ قرِيباً مِنْ دارِهِمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ، إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعادَ(٣١) وَلَقَدِ اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأمْلَيْتُ للَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ؟(٣٢) أفَمَنْ هُو قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ،

وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ ؟ قُلْ : سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ في الأَرْضِ ؟ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ القَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ، وصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ(٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ)(٣٤)

قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) معناه إن هذه الفرقة الضالة الفاسدة يتعللون بما ليس بعلة ويعتذرون بما ليس معذرة، ولا يريدون إلا إستمرارهم على استكبارهم ، فهم في نفسية خبيثة فاسدة بحيث (لو أن قرآنا) ، أي قرآنٍ كان ، (سيرت بهِ الجبال) بظهور آثار عظمة الله (أو قطعت به الأرض) قطعا مختلفة فجعلت أنهارا وغابات وعيونا وأشجارا مرتبة مثمرة مظللة (أو كلم به الموتى) بأن يقرأه أحد عليهم فيحيوا ، ويتكلم معهم وظهرت هذه الخوارق بذلك الكلام المنزل ما آمنوا به وأصروا على عنادهم واستكبارهم لأن فكرتهم صارت عقدة نفسية ، ولا تحل العقدة النفسية إلا النجدة القدسية (بل لله الأمر) الذي يدور عليه الهداية والإضلال وسائر أمور العالم في الماضي والحال والإستقبال (جميعا ، أفلم ييأس الذين آمنوا) من الرسل ومن معه عن إيمان أولئك المتمردين المعاندين ولم يعلموا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) ولو لم تظهر له تلك الآثار العجيبة ، ولكن الباري بحكمته السارية لم يشأ ذلك ، فما دام الأمر كذلك تبين أن القلم قد جف (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من سوء الأعمال (قارعة) أي ما يقرعهم من صاعقة سماوية كما خلت ، أو من قاصفة جوية ؛ كما نراها ، فتقع عليهم بالذات وتهلكهم (أو تحل قريبا من دارهم) على سيئات أعمالهم وآثارهم (حتى يأتي وعد الله) بتحقيق عذاب يوم القيامة الموعود (إن الله لا يخلف الميعاد) بمعنى الوعد كالميلاد بمعنى الولادة .

ويا أيها الرسول ليس هذا الإستكبار مختصا بهم معك (ولقد استهزىء) (برسل) كثيرين (من قبلك فأمليت للذين كفروا) أي أجلت عذابهم إلى وقت معلوم مقرر (ثم أخذتهم) بعد أن جاء وقت عذابهم (فكيف كان عقاب ؟) لا يعلم كيفيته إلا من ذاقه أو شاهده (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ومراقب عليها وعلى أعمالها لمن لا حياة فيه ولا شعور (وجعلوا) أي الكفار (لله شركاء ؟) من هذا القبيل (قُلْ : سَمّوهُمْ) تبكيتٌ إثرَ تبكيت أي سموهم منْ هم ؟ وماذا أسماؤهم ؟ وفي البحر : إنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى، إنما يذكر ويسمى من ينفع ويضر لا ما لا ينفع ولا يضر. (أم تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض ؟) أم منقطعة أي أبل تخبرون الله تعالى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم سبحانه وتعالى ؟ وهذا أمر مستحيل لأنه يخرج عن علمه تعالى شيىء ، فإذاً ليسوا بشيىء (أم بظاهر من القول ؟) وقوله (أم بظاهر من القول) كلمة أم فيه أيضا منقطعة أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول الذي لا مدلول له في الواقع ونفس الأمر ؟ (بل زين للذين كفروا مكرهم) إضراب عن الإحتجاج عليهم ، أي ليسو أهل حجة ودليل يناظرون ويستدل عليهم بالأدلة ، بل هم قوم سفهاء الأحلام توارثوا شيئا من الأوهام وجعلوها حقائق ودقائق عليها ، واستمروا عليها . والمكر يحتمل أن يراد به مكرهم بأنفسهم لأنهم إحتالوا على أنفسهم باعتناق هذه التقاليد الباطلة بشبهة أنها أخذوها من آبائهم ، أو مكرهم بغيرهم أيضا لأنهم يغررون بها أناسا جَهَلَةً لا علم لهم بالحقائق الإعتقادية (وصدوا عن السبيل) أي مُنعوا بسوء إختيارهم عن سلوك سبيل الحق وأضلهم الله (ومن يضلل الله فما له من هادٍ) يهديهم إلى الخير (لهم عذاب في الحياة الدنيا) بالتقلب في نار الحسد والعناد والقتل والأسر وسائر المصائب إنتقاما منهم (ولعذاب الآخرة أشق) لشدته وبقائه (وما لهم من الله من واق)

أي من حافظ يحفظهم وناصر ينصرهم وملجأ يلتجئون إليه ، إذ (إلى الله تصير الامور) •

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)(٣٧)

قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون) المثل في أصل اللغة صفة مشبهة بمعنى الشبيه • وجاء بمعنى المَثَلِ السائر ، أي الكلام الدائر المشهور بين الناس مثل « لا يلدغ المؤمن من جحْرٍ مرتين » وذلك في الاستعارات التمثيلية المشتهرة • وجاء بمعنى الصفة الغريبة ، وهو معنى مجازي مأخوذ من المثل بالمعنى المذكور آنفا بعلاقة الغرابة لأن المثل إنما يسير بين الناس لغرابته ، وهو في هذه الآية على هذا المعنى ، أي الصفة الغريبة العجيبة للجنة التي وعد المتقون أنها منازل غالية وقصور عالية ، (تجري من تحتها الأنهار) فتسقي الاشجار وتنمو وتنضج بها الثمار (أُكُلها دائم) لا مقسومة على الموسم (وظلّها) كذلك لا تتناثر الأوراق منها بالرياح والمهالك و (تلك) الجنة العزيزة (عقبى الذين اتقوا) ربهم ولم يكفروا به، ولم يشركوا به، ولم يعصوا أمره ونهيه، أي تلك عاقبة حالهم وجزاؤهم في مآلهم (وعقبى الكافرين) بالله (النار) وبئس القرار •

(والذين آتيناهم الكتاب) نزلت في مؤمني أهل الكتابين كعبدالله بن سلام وكعب وأضرابهما من اليهود ، والثمانين المشهورين من النصارى ، وهم أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة . فالمراد بالكتاب المعنى الشامل للتوراة والإنجيل (يفرحون بما أنزل اليك) . لأن الله لما شرح صدورهم للإسلام وآمنوا بالرسول فبالطبيعة الإسلامية يفرحون بالكلام المنزل عليه لأن الإيمان مستلزم للمحبة ، والمحبة سارية في المحبوب وفي ما له علاقة صحيحة به (ومِنَ الأحزاب) أي أحزابهم الكفرة الفجرة المارقين (من ينكر بعضه) أي بعض ما أنزل إليه وهُوَ الذي لا يوافق أغراضهم الفاسدة (قل) ياحبيبي : (إنما أُمرتُ أن أعبد الله ولا أشرك به) فمن لا يؤمن بالله أو يشرك به فليس منّا ولسنا منه (إليه أدعوا) المكلفين لا إلى غيره (وإليه مآب) ي ومرجعي وَحدَه (وكذلك أنزلناه حُكْماً) أي ومثل إنزال الكتابين السابقين أنزلنا القرآن ، حالكونه حكما من الله (عربيا) باللغة . وكما أن الهدي في السابق ما كان موافقا لتلك الكتب فالهدي في عصرك هو ما وافق كتابك ، وما عداه هو من الأهواء الباطلة التي لا تفيد (ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم) بأن ما أنزل إليك هو الحق (ما لك من الله من واق) يحفظك عن عقابه . والآية تعريض بالناس الموجودين ، وإلا فمعاذ الله أن يتبع سيد المسعودين غيرما أمره الله رب العالمين .

(وَلَقَدْ أَرْسَلنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً ، وَما كانَ لِرَسُولٍ انْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلاّ بِإذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩) وَاِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنا

الْحِسابُ(٤٠) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ؟ وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ(٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلهِ الْمَكْرُ جميعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ(٤٢) ويقولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلاً ! قُلْ : كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ)(٤٣)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روي أن اليهود عَيَّرَتْ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقالوا : نرى هذا الرجل مهتما بالنساء والأولاد وما يتعلق بهما مع أن شأن الأنبياء الزهد عنها وقطع العلاقة والتوجه الصرف إلى الدين وقدسياته • فرد الله عليهم بقوله : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) من آدم إلى عصرك هذا (وجعلنا لهم أزواجا) حرائر (وذرية) بنين وبنات وحفدة مكرمين ومكرمات ، ولم يقدح ذلك في جلالة رسالتهم ، ويعلم القادحون أن مسألة الأزواج والجواري في عهد أنبياء بني إسرائيل كانت على نسبة متصاعدة ، فما بالهم لم تقدح فيهم وتَقْدَح فيكَ وأنت واحد منهم ؟ ثم إنهم لم يزنوا الأمر بالقسطاس المستقيم ، فمن الذي قال إنّ أهل النبوة والرسالة والتقوى والجلالة يجب أن يُحرِّموا من الطيبات التي أحلها الله لعباده ؟ ثم إن الإشتغال بتلك العلاقات في ساعات محدودة معدودة لا يمنع من الإشتغال بالدين والدعوة إلى الله وإلى الأعمال الصالحة والأخلاق السليمة • فهذه الدعاوى كلها خالية من رعاية الحق والعدل ، وإنما هي ناشئة عن الاستكبار والعناد والجهل • (و) إذا أرادوا من وراء هذه الدعاوى أنه لو لم يكن لهم هذه العلاقة كان لهم مجال أَنْ يأتوا بآيات من الله تعالى

لإرغام الناس على الإيمان فذلك أيضا شيىء باطل لأنه (ما كان لرسول) كائنا ما كان (أن يأتي بآية إلا بإذن الله) سواء كانت الآية معجزة تعجز الناس عن الإتيان بمثلها أو دعاءً مستجابا لتدمير المتمردين أو آيات بالغة في تنوير أفكار الناس ، فإن كل ذلك في قبضة قدرة الباري تعالى • وإذا أتى اللوم على بعض منهم لابد من إتيانه على الآخرين ، وحاشاهم عن ذلك ! وقد أعلن أنه (ما على الرسول إلا البلاغ المبين) وأن ارسال الرسل من سنة الله تعالى في الكائنات بحسب الآجال المتسلسلة و (لكل اجل كتاب يمحوا الله) تعالى بحسب حكمته (ما يشاء) محوه من الفروع السابقة (ويثبت) مايشاء ثبوته ، وأما الأصول فهي مقررة لا تبديل لها أبد الآبدين (وعنده) أي عند الباري جل شأنه (أم الكتاب) وهو اللوح المحفوظ الجامع لكل شريعة مقررة في أي زمان من الأزمان ، ومادام الأمر كذلك فلا مجال لأي قائل في أي قول بالنسبة إلى المرسلين •

ثم بعد تقرير المعنى المذكور في الآية الشريفة أن هذه الآية الكريمة معترك آراء العلماء والعقلاء من حيث أن الله تعالى إذا تعلق علمه الأزلي بشيىء فلا يقبل الزوال والتغير وإلا انقلب العلم جهلا وتعالى عنه فما معنى (يمحو الله ما يشاء ويثبت ؟) والجواب : إنه بعد وجود النصوص الدالة على هذا المعنى كهذه الآية ، وآية (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) وبعدما تواتر من أدعية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكثير من الناس بطول العمر ومزيد العلم والعمل الصالح ، ودعائه للوقاية من شر القضاء ، وبعد الأحاديث الكثيرة الواردة في أن الصدقات تدفع البلاء وتزيد العمر ، بل وفي تقرير الباري سبحانه ترتب المسببات على الاسباب •• لا وجه قطعا للتردد في أن القضاء منه مبرم لا تعلق له بأي شيىء وأي سبب من الأسباب المعروفة عند الناس ، ومنه ما يتعلق بالأسباب والشروط التي ترتب عليها

المشروط والمسبب . ومن جملة القضاء المعلق ربط الشفاء للمرضى بإجراء العمليات ، وشرب الأدوية ، وإسعافهم حسب الأصول ، وربط كل أمر ذي علاقة بشرط أو علة أو سبب عادي بذلك ، وإن إنكار ذلك مكابرة مع النقل والعقل ...

والحاصل إن بعض القضاء جرى بحيث لا يتعلق بشيء من الأشياء التي تقبل الجذب والدفع ، وهذا النوع مبرم نافذ ولا يفيد في مقابله أي عمل إيجابي أو سلبي ، وبعض منه مربوط بوجود أسباب كزيادة رزق فلان بسعيه في تحصيله ، وزيادة عمره بسبب تداويه ومباشرة أسباب الصحة ، وزيادة العلم بسبب زيادة السعي في تحصيله ، وزيادة الأحباب بسبب كثرة المجاملة والخيرات الواصلة منه إليهم ...

وكما أن هذا النوع من القضاء قضاء معلق قد جرى علمه الأزلي بأن فلانا يأتي بالأسباب والشرائط فيتحقق القضاء فيه ، وبعضهم لا يأتي بها فلا يتحقق فيه ذلك ، فالمحو لقضاء تعلق علمه تعالى بأن فلانا باشر سبب محوه ، والإثبات لقضاء تعلق علمه بأنه باشر سبب إثباته ، ونحن لا نعلم ذلك ، وانما نعلم على القواعد الإعتيادية أو العلمية أن ذلك الشيء سبب لذلك أو مانع عنه ، وعلينا إذا اطلعنا على تلك القواعد السعي بقدر الإمكان، فما تحقق في حقنا عَلِمنا أن علمه تعلق بوجود أسبابه وقد صار ، وما لم يتحقق علمنا أن علمه تعالى لم يتعلق بسعينا في تحصيله .

وأما الحديث الشريف الوارد في بعض النذور بأن ذلك لا يرد شيئا من القضاء فقد يجاب عنه بأنه محمول على مادة جرى القضاء فيها بتحقيق الشيء المعهود ، ومعلوم أنه لا رادّ له ، أو المراد به أن هذا المنذور وإن كان له سببية ما في دفعه لكن المؤثر في الواقع هو الله تعالى لا السبب وهو عين مذهب أهل الدين أو أنه يراد به استكراه النذور بصورة المعاوضة

والمقابلة ، وإلا فرد الصدقات للبلايا معلوم بالتجارب عبر القرون والأزمان . نعم إن الله سبحانه وتعالى يعلم أزلا من الذي يأتي بالأسباب ومن الذي لا يأتي بها ، فالأمر بالنسبة إليه محقق مقرر مبرم معلوم لا خدشة فيه قطعا ، فالمحو والإثبات من شئونه الفعلية الجارية الثابتة بقوله تعالى كُلَّ يوم هُوَ في شأن ، وبعبارة أخرى من مكتوبات اللوح المحفوظ ، والثباتُ وعدم التبدل بالنسبة إلى علمه الأزلي اللازم لذاته الجليل المعبر عنه بأم الكتاب . هذا والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُم أَوْ نَتَوفينك فَإِنَّما عليكَ البلاغُ وعَلَيْنا الحساب) . أصل إمّا : إن ما ، وكلمة إن للشرط ، وما زائدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك لحقت نون التأكيد بالفعل ، والفعل مضارع باب الإفعال للمتكلم مع الغير ، وأصله نرئينك كنكرمنك ، حذفنا الهمزة للتخفيف ، بعد نقل كسرتها إلى ما قبلها ، والفاعل نحن ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذي نعدهم مفعول ثان . والمراد به بعض ما وعدناهم من إنزال العذاب . وقوله أو نتوفينك معطوف على الشرط السابق ، وحاصل المعنى وكيفما دارت الحال أي إن أريناك بعض الذي وعدناهم من العذاب في الدنيا ، أو توفيناك وأخرنا عذابهم فعلينا ذلك وما عليك إلا البلاغ فلا تهتم بما وراء ذلك ونحن نكفيكه ونكمل ما وعدناك به من الظفر وفتح مكة وسائر البلاد ، فظهر أن قوله تعالى فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ليسا جوابين للشرطين ، لأنهما لا يترتبان عليهما وهو ظاهر ، فيحتاج إلى تأويل وهو أن يقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاء له مترتبا عليه . وإجمال الجوابين ما ذكرناه أي فلا تهتم بهم . وتفصيلهما : وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك يشفيك من ألم أعدائك لأنه دليل صدقك ، وإما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب . وقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ) دليل على الجوابين .

والذي وقع من الشرطين هو الأول الحادث في غزوة بدر الكبرى • وقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ) أي ليس عليك إلا تبليغ ما أنزلنا عليك لا تحقيق مضمون الوعيد • وقوله (وعلينا الحساب) أي محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها دون جبرهم على اتباعك أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات • وفي كل من الجملتين حصران : الأول هو المستفاد من تقديم الخبر ؛ أي عليك البلاغ لا على غيرك ، وعلينا الحساب لا على غيرنا • والثاني : هو المستفاد من كلمة إنما فيكون المقصور في الجملة الأولى الأمر الثابت على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم والمقصور عليه البلاغ أي إنما عليك البلاغ فقط لا تحقيق المقترح منهم • وفي الجملة الثانية المقصور هو الأمر الثابت على الله بمقتضى وعده وسنته والمقصور عليه الحساب ، أي إنما علينا محاسبتهم في الآخرة دون جبرهم على اتباعك أو إنزال مقترحهم فافهم هذه المعاني فإنها نافعة •

ثم أشار الباري تعالى الى ظهور تباشير الظفر فقال عزّ من قائل ليدركوا او يفتهموا (أو لم يروا) بالعيون ليبصروا (أنا نأتي الارض) أي أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها ؟) وجوانبها بأن نفتحها شيئا فشيئا ، ونلحقها بدار الإسلام أفبعد ذلك يشكون في سيطرة الإسلام ؟ (والله يحكم) بما يشاء على من يشاء (لا معقب) ولا مغير (لحكمه وهو سريع الحساب) في الآخرة فكما حكم عليهم بالدمار والتباب في الدنيا يحكم عليهم بالحساب والعقاب في الآخرة •

(وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) أي من قبل كفار مكة بأنبيائهم ورسلهم وبالمؤمنين من أتباعهم ، ولم يفد المكر الماكرين ، ولم يمنع رسالة الرسل الشاكرين (فلله المكر) إبداعه وإضراره بالناس من الأنبياء والرسل وغيرهم (جميعا) فلا قدر له ولا قيمة (يعلم) الله (ما تكسب كل

نفس) من الخير والشر ومن الخديعة والمكر ولا تأثير لشيىء من مكاسبهم في أي شيىء من مطاليبهم إلا بإذن الله ، وتنتهى السيئات والحسنات (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أي العاقبة الحميدة في دار القرار ، هل لهم أو للأنبياء والرسل وأتباعهم الأبرار (ويقول الذين كفروا) جهلا وتعنتا وعنادا وتزمتا : (لَسْتَ مُرسلا) يا محمد ، قيل إن قائله رؤساء اليهود ، وقيل أسقف يمني سأله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هل تجدني رسولا في الإنجيل ؟ فقال : لا . فأنزل الله الآية . (قل) في رد من قال هذا القول : (كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) فإنه إذا شهد بشيىء فمن عداه كالفيىء (ومن عنده علم الكتاب) لإلزام أصحاب العناد والعتاب ، وليس الحق مربوطا بقول الخلق .

سورة ابراهيم ، مكية ، وهي اثنتان وخمسون آية نزلت بعد سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١) اللهِ الَّذي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ(٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ(٣) وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٤)

(الر) أنا الله أعلم وأرى (كتاب أنزلناه إليك) هذا كتاب مبين وهو القرآن العظيم أنزلناه إليك (لتُخْرِجَ الناس) أي الجن والإنسان (من الظلمات) أي ظلمات الجهل المركب من العقائد الباطلة (إلى النور) أي العلم وهو العلم بالعقائد الحقة ، وذلك الإخراج ثابت (بإذن ربهم)لأنه لا تأثير للأسباب إلا بإرادة الله تعالى وخلقه وإيجاده وقوله (إلى صراط العزيز الحميد) بدل من قوله إلى النور بدلَ الكل من الكل • أي هذا العلم هو

الشرع الشريف الجامع للعقيدة والعمل الذي هو صراط مستقيم قرره الله سبحانه وتعالى لسلوك المسلمين عليه ليصلوا إلى منزل الرحمة الأبدية والنعمة السرمدية ، وهذا الصراط قرره ربٌ" عزيز" غالب على ما أراد وَفعال" لما يريد ، وحميد" في كل فعاله ، إذ لا يشوبها عَيْب" ، وذلك عبارة عن (الله) فقوله (الله) بالجر على قراءة السبعة بدل مما قبله (الذي له مافي السموات وما في الارض) والمراد بما في السماوات وما في الارض الظرف والمظروف فإن التعبير لبيان حيازة الله لكل موجود (وويل للكافرين) الذين يكفرون بوجود ذلك المالك أو بوحدته (من عذاب شديد) لا يتحمل إلا بالإلجاء .

ثم جاء بصفات لأولئك الكافرين تؤهلهم لِذلك العذاب الشديد بقوله (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) وهذه الصفة مِلاك الجهل والسفاهة ، فإن من لم يتفكر في ملكوت السماوات والأرض ونظامهما وميزان دورانهما وما يجري على نظام متقن عجيب بديع حتى يعترف بخالق حي قيوم قادر ويشعر بمسؤليته إزاءه وإزاء سائر ماخلقه الخالق ، ولم يعرف نفسه إلا بصفة كائن حي مرزوق يعيش مدة ويموت ويمحى مستحق لذلك العذاب الشديد وبقوله (ويصدون عن سبيل الله) يعني علاوة على ما سبق مما كان مدلوله عدم الإيمان برب العالمين أضافوا صفة فاسدة إلى ذلك وهي أنهم يصدّون الناس ويمنعونهم عن سلوك سبيل الله وهو الدين الإسلامي القويم، وأي جريمة أشنع من تجهيل الناس وتعطيل حواسهم ومشاعرهم عن ادراك الحق واتباعه بالأوهام والخرافات والشبهات ؟ وقد كان كفار مكة كذلك ، إذ كلما رأوا واحدا آمن بالله وبرسوله مَنَعوه ، فإن امتنع وإلا عَذّبوه وهجروه . وبقوله (ويبغونها عوجا) يعني علاوة على كفرهم بالله وصدهم عن سبيل الله يَرمون نفس الدين والصراط بالإعوجاج . وأنه ليس مما

يناسب الإنسان ويحتمل أن يكون هذا الكلام من تتمة الصدّ والمنع ، أي يجعلون هذا الوصف المفترَى دليلا على وجوب صد الناس عن دين الإسلام وأن يكون كلاما مستقلا ودليلا قائما بذاته لأن الدين المعوج الذي لا استقامة فيه على مزاعمهم الباطلة لا يجوز اعتناقه ، ويجوز أن يكون اضافته إلى الصد بالنسبة للأقوياء ، وإلا فالضعفاء يمنعون قهرا بدون تعليل واستدلال (أولئك في ضلال بعيد) عن الوصول الى الصراط المستقيم لأن في طبائعهم نفورا عن الدين ، وزاد عليها التقليد الاعمى ، وأضيف اليهما العناد والاستكبار •

(وما أرسلنا) في الأمم السابقة والأزمنة الغابرة (من رسول إلا بلسان قومه) أي إلا متكلما بلغة من أرسل إليهم (ليبين لهم) الشريعة بيانا شافيا لأمراض القلوب كافيا لهم الحقائق ذلك لأن لاتفاق لغتي المتكلم والمخاطب وتوافقهما في اللهجات التعبيرية والأمثال والآداب الحكمية والمصطلحات القومية دَوْراً هامّاً في الإفهام والتفهيم والإرشاد والتعليم وكان غايتنا من إرسالك إلى قومك ذلك المعنى المطلوب ، وكان الواجب عليهم والمناسب لسعادتهم أن يسمعوا ويَعُوا ويطيعُوا لأن كلامنا منزل على أفصح لهجة من لغتهم وهي لغة مضر ، والمبلغ أفصح إنسان في العرب وأوضح بيانا منهم وأشرح صدرا من حكمائهم وشعرائهم وخطبائهم ، مع أن كثيرا منهم تمردوا وعاندوا فضلوا وأضلوا فتبين من تجاريب عصور النبوة والرسالة أنه (يضل الله من يشاء) ضلاله (ويهدي) الى الحق بعنايته (من يشاء) هدايته وهو العزيز الغالب على ما أراد والحكيم في صنعه مع العباد •

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ

لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ أَنْجَيكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ،وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ،وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(٦)وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(٧) وقال مُوسى : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)(٨)

قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أي ومن جملة أولئك الرسل الذين أرسلناهم بلغة قومهم موسى بن عمران ــ عليه السلام ــ (أن أخرج قومك) أي أخرج قومك (من الظلمات الى النور) أي من ظلمات الجهل التي أتت عليهم من سيطرة فرعون وأشياعه وهي ظلمات عبادة الأوثان والركون إلى المادة ونسيان المعنى • وظلمات الإسترقاق والتسخير لخدمة من لا تأتيهم إلا بالوهن على الوهن والضعف على الضعف إلى نور الحرية والعمل للذات المثمر لكرامة صيانة تراث النبوة في النسل ، وإلى نور عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، كما قررها في الأرض جدهم إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ (وذكرهم بأيام الله) أي بأيام نعمه وبلاياه ، أي ذكرهم بأن الله كما بيده إفاضة النعم على عباده في أيام ومواسم ، كذلك بيده إنزال المصائب والنقم في أيام وأزمنةٍ ، فلا تيأسوا من روح الله ولاتأمنوا مكره (إن في ذلك) التذكير (لآياتٍ) عظيمةٌ (لكل صبار شكور) أي لكل إنسان كثير الصبر على بلائه وكثير الشكر على نعمائه فإذا جاءه بلاء ينتظر الجلاء ، وإذا جاءته نعم يشكره عليها حتى لا يعقبها نقم (وإذ قال موسى لقومه) امتثالا لما أمره به الله تعالى : (اذكروا نعمة الله عليكم إذ

أنجيكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) أي يبغونكم ويولونكم سوء العذاب حيث سلبوا عنكم كل الحريات الدينية والدنيوية وحقروكم وسخروكم في الخدمات الصعبة (ويذبحون أبناءكم) حتى لا يبقى فيكم مُطالِبٌ للحقوق مُحارب (ويستحيون نساءكم) لا رحمة بكم ولا بهن بل ليستخدموهن في المهن البيتية وسائر الأمور (وفي ذلكم) الأفعال الشديدة (بلاء من ربكم عظيم) لا يتحمله إلا مضطر متعود على الإعتساف (و)اذكروا (إذ تأذن ربكم) أي أذن إيذانا بليغا وأعلن إعلانا بالغا درجته (لئن شكرتم) على نعمة إنجائكم من فرعون وأتباعه (لأزيدنكم) نعما على النعم فنزيدكم نعمة السلطة على الوطن بعد أن خلّصناكم من سطوتهم (ولئن كفرتم) بتلك النعمة (إن عذابي لشديد) وعوده عليكم لا يحتاج إلى زمان مديد (وقال موسى) لقومه : (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض) من الناس (جميعا فإنّ الله لغني حميد) مستوجب للحمد بذاته تعالى فشكركم له تعالى مما تحتاجون إليه أنتم وليس هو محتاجا إلى ذلك •

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ؟ : قَوْمِ نُوحٍ ، وعَادٍ ، وثَمُودَ ، والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ••• لا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللهُ ، جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُوا : إنَّا كَفَرْنا بِما اُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٩) قالَتْ رُسُلُهُمْ : اَفِي اللهِ شَكٌ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُم ويُؤَخِّرَكُمْ اِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ؟ قَالُوا : اِنْ اَنْتُمْ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنَا، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ(١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ

إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وما كانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ(١١) وَمالَنا ألاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا ؟ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمونا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ)(١٢)

قوله تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) قال بعض المفسرين : من تتمة كلام موسى ـ عليه السلام ـ لقومه بعدما نَصَحهم بالأوجه السابقة . وقال بعض منهم : إنه استئناف كلام من الله تعالى ، وتوجيه خطاب وعتاب للمشركين ومن حاذى حذوهم ، فيقول في مقام النصح والوعيد : (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلكم) وقوله (قوم نوح) بدل مما قبله أي وهم قوم نوح (وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم) عَدَداً أو عدداً (إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالآيات الواضحة لبيان العقائد والأحكام ، أو بالمعجزات الواضحة التأثير وواضحة الدلالة على أنها من الله تعالى ، وأن من نزلت عليه رسول من الله . (فردوا أيديهم في أفواههم) أي فرَدوا أناملهم في أفواههم وعضوا عليها غيظا وحقدا (وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به) على زعمكم يعني لسنا مؤمنين ولا نؤمن بالكتاب الذي تزعمون أنكم أرسلتم إلينا به لتبليغه (وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) وإنا بلاشبهة وتردد في قلوبنا شك مورث للقلق العميق في ما تدعون إرسالكم به إلينا فلسنا مؤمنين لا بالله الذي أرسلكم ولا برسالتكم ، ولا بالكتاب الذي تقولون أنكم أرسلتم به إلينا .

(قالت رسلهم) في استنكار ما أبدوه من وجود الشك والريب فيما جاؤا به : (أفي الله شك فاطر السماوات والارض) أي هل يصح وهل ينبغي

أن يكون لكم شك وتردد في الذات الجامع للكمالات المنزه عن النقائص، المُعْلَم باسم الجلالة ، الموصوف بفاطِرِ السماوات والارض ومبدعهما من العدم إلى الوجود مع أن كل عاقل له نور وشعور ويتفكر بقلبه وينظر بعينه في آثار قدرة الله تعالى اللائحة على العالم على نظامٍ ثابتٍ مستمر يعلم ويتيقن أن هذه الكائنات ، وأن هذه الحركات ، وأن هذا الليل والنهار ، وأن هذا الدوران والإستمرار لا يمكن إلا من خالق حي قيوم قادر قهار ؟! والحال انه (يدعوكم) إلى عبادته وإطاعته (ليغفر لكم) بسببه (من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مُسمى) أي ويؤخر مماتكم وانتقالكم من هذه النشأة إلى وقت سماه الله وعينه لانتهاء أمدكم • ومعنى الآية أن طول حياتكم معلقة بإيمانكم ، فإن آمنتم تأجل الموت إلى أمد مديد وإلا عجل الله لكم بالاستئصال والعذاب الشديد • (قالوا) أي القوم الذين أرسل الرسل إليهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) من غير اختصاص بمزية وفضل (تريدون أن تصدونا) وتمنعونا بما تدعوننا إليه (عما كان يعبد آباؤنا) من الأوثان والأصنام فأتونا بسلطانٍ مبين على رسالتكم (قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم) كما تقولون ولكن كلامكم هذا لا يوجب مطلوبكم وهو مساواتنا معكم في كل الأمور ، فإن الله يمنّ على من يشاء من عباده المستوين لغيرهم في البشرية ببعض المواهب والمزايا فجعلنا من هذه الزاوية مشمولين لرحمته وشرفنا برسالته (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) أي بحجة من الحجج فضلا عما اقترحتموه إلا بإذن الله (وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون) في شئونهم كافة • فما ادعيتم من استوائنا معكم في البشرية صحيح ، ولكنه لا يوجب منع المواهب الخاصة كالرسالة وغيرها ، وما ندعيه من الرسالة حق ولكنها لا يوجب أن نقدر على شيء من الآيات إلاّ بإذن الله • فلنعد جميعا الى الإعتدال (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟) أي وقد أرشد

كلا منا إلى طريق سعادته في دنياه من أسباب معيشته بشتى أصناف المكاسب من الزراعة والتجارة والصناعة والفنون الدقيقة الارضية والسماوية من علم الانواء وغيرها ، وفي دينه عن طريق نجاحه بالنوافل وأصناف الخيرات والمبرات باليد وباللسان وبسائر الجوارح والقوى ولا يدري أحد من أين جاء هذا المدد والتوفيق ومن أين حصل هذا الثراء والترزيق (ولنصبرن) ومادام الله عاملنا وجاملنا وهدانا سُبُلَنا فوالله الذي له الأمر كله لنصبرن على (ما آذيتمونا) فإنها أمر مؤقت يذهب ويفنى (وعلى الله) لا على غيره (فليتوكل المتوكلون) لأنه مصدر كل خير في الدنيا والدين •

(وَقالَ الَّذِين كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعودُنَّ في مِلَّتِنَا ، فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ : لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ(١٤) واسْتَفْتَحوا وَخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ(١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَما هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ(١٧) • مَثَلُ الَّذِين كَفَرُوا بربِّهِمْ : أَعمالهُمْ كرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ، لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبوا علىشَيْءٍ ذلك هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ)(١٨)

قوله : (وقال الذين كفروا) أي وقال قادةُ الذين كفروا وسادَتهم (لِرُسُلِهِم) مُتَوَعدين لهم مستكبرين (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) وهذا الكلام مبني على التوزيع • أي وقال قائد القوم

الكافرين في كل زمان لرسول ذلك الزمان لنخرجنك من أرضنا أو لتعودن الى ملتنا • فالحلف جار على المنفصلة الحقيقية وهي إخراجهم عن الأمة مع بقائهم على مهمة الرسالة أو بقائهم فيها مع العود الى الكفر • (فأوحى اليهم ربهم) في تلك الحالة الحرجة أن اثبتوا على المهمة مع علو الهمة ، ولا تهتموا بوعيد أولئك المتمردين فوالله (لنهلكن الظالمين) المتوعدين لكم بحيث لا يبقى لهم أي مجال ومقال (ولنسكننكم الارض) التي طغوا فيها (من بعدهم) أي من بعد إهلاكهم (ذلك) الإيحاء (لمن خاف مقامي) أي لرسول خاف موقفي الرهيب (وخاف وعيدي) وهم الرسل الكرام وأتباعهم المؤمنون الصادقون الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه لأنهم هم المؤمنون الذين يخافون الموقف الذي تقام فيه العباد للحكم يوم القيامة ، وهم الذين يخافون وعيد الباري سبحانه وتعالى وعقابه ، وهذا الخوف خوف الهيبة والرهبة والإجلال فلا ينافي كونهم معصومين مبشرين بلقاء الله تعالى يوم الآخرة ، فإن أهل الشرف هم أهل المخافة •

(واستفتحوا) أي وبعد أن أوحى إليهم ربهم بما ذكر طلبوا الفتح من الله تعالى بقوة القلب والعزيمة الصادقة لأنهم علموا أن الوقت وقت التضرع والابتهال الى ذي الجلال ، ولعلهم عند الإيحاء إليهم بما ذكر أمروا أيضا بالإستفتاح حتى يكون إهلاك الظالمين على حسب دعواتهم ويكون له منة عليهم • ويؤيد هذا المعنى قراءة واستفتحوا بصيغة الامر أي فاستفتحوا • وتقبل الله طلب الفتح والنصر منهم (وخاب كل جبار عنيد) معاند للحق متكبر طاغ على الاستغناء • (من ورائه جهنم) أي حالكونه من قدامه وبين يديه جهنم أي أن خيبته لم تكن خاتمة آلامه بل كانت مقدمة لعذابه وعقابه ونكاله ووباله (ويسقى) بعد عطشه من حرّ جهنم (من ماءٍ صديد) وهو الذي يسيل من أجساد أهل النار أو من ماءٍ مستكره يصد عنه ويعرض لأنه

لا يطفىء حر العطش وحال ذلك الماء أنه يتجرعه طالبه (ولا يكاد يسيغه) ولا يقرب له إساغته واحداره من الحلقوم الى محله المعتاد لشدة حرارته أو لاختلاطه بمواد مانعة عن الإنحدار بسهولة (ويأتيه الموت من كل مكان) أي ويقاربه الموت من كل جهة وجانب • يعني أنه يقع في هول شديد ويحاول الخلاص بشتى الوسائل ، لكنه أينما توجه وَجَدَ بوادِرَ الهلاك ولم يأنس الخير والخلاص (وما هو بميت) أي والحال أنه ليس بميت حقيقة ولم يبق مجال عروض الموت لأن تلك الدار دار الخلود (ومن ورائه عذاب غليظ) أي إذا اعتبرنا الأحوال السابقة أحوال الكفار في البرزخ فالمراد بقوله (ومن ورائه) زمان مجيىء الآخرة ويكون غلظ عذابه مبنيا على انتهاء حسابه وعلمه بدوام عقابه وعذابه ، وان كانت أحواله في الآخرة فمعناه ليس له مجال تخفيف العذاب لأن الكفار لا يخفف عنهم العذاب ، بل في كل زمان وأوان يعذبون فيه يكون وراء ذلك عذاب غليظ قوي يناسب حالهم وكفرهم واعتقادهم الإستمراري في أيام دنياهم • أعاذنا الله بفضله ورحمته عن كل عقيدة فاسدة وعمل سيىء •

ولما كان المقام مقام أن يسأل كيف يكون هذا الجزاء الشديد المديد للكفار في ذلك اليوم مع أن كثيرا منهم كانت له الأعمال الحسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام والطاعة حسب أصول أديانهم وتسوية الطرق وإنشاء الجسور وهندسة القصور ونشر علوم يستفاد منها •• أجاب عن ذلك الباري تعالى بقوله الكريم : (مثل الذين كفروا بربهم) أي صفتهم الغريبة هي أن (أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح) أي حملته وأسرعت للذهاب به (في يوم عاصف) أي يوم مشتد الريح ، فكما أن ذلك الرماد لا يبقى له أثر في ذلك اليوم كذلك أعمالهم (لا يقدرون) أي يوم القيامة مما كسبوا في أيام حياتهم على شيىء من الجزاء الحسن أو تخفيف عذاب ، وهذا شامل لكل

الكفار . روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : يا رسول الله إن ابن جدعان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين هل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه لأنه لم يقل رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

وهنا سؤال آخر هو أن الكفار منهم من له أنواع من الحيل والأعمال المدمرة بالنسبة للناس من المسلمين وغيرهم ، وأشكال من التعذيب بالنار ، وبالأشرار وبالحيوانات الضارية المعلمة ، وبالسجون المظلمة .. فكيف يتساوى جزاؤه وجزاء كافر مستور في محل يعيش على كسبه لا يضر ولا ينفع ؟ والجواب إن الذي تحقق هو أن عذاب الكفر الصرف عذابٌ مقرر ومقدر ، وأما عذاب الأعمال السيئة مما قلتم فذلك يزاد عليه موافقة لأعماله حتى يكون جزاؤه جزاء وفاقا . وهذا هو المناسب لفضل الله تعالى وعدله ورحمته وحكمته . ويرى بعض العلماء أن الأعمال الصالحة الدنيوية تقابل بجزاء لهم في الدنيا فيكون المراد بقوله تعالى (فحبطت أعمالهم) أنها حبطت بالنسبة إلى الآخرة ويؤيده قوله تعالى : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) . (ذلك) الذي دل عليه البيان بالمثل المذكور (هو الضلال البعيد) عن الوصول إلى طريق الحق والصواب .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ؟ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخلقٍ جَدِيدٍ(١٩) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ(٢٠) وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ؟ قالُوا : لَوْ هَدَانا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ، ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ(٢١) وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ : إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ

الحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِين فيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ)(٢٣)

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السماوات والارضَ بالحق ؟) خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به أمته ، أو خطابٌ لكل من يصلح للخطاب • أي ألَمْ تُدرِكْ بالعقل والعلم الناتج منه استدلالاً قطعيا (أن الله) سبحانه وتعالى (خلق) وحده بدون علاقة غيره (السماواتِ والارض) أي العلويات والسفليات بالنسبة لكل مخاطب خلقا متلبسا بالحكمة منها ظهور ذاته العظيم على العقلاء ، ومنها طاعتهم له وحده ، ومنها تعمير الكائنات بالأعيان والاعراض النافعة بدون حاجة إليها • وإذا أدركتم أن الله هو الذي خلق هذه الاشياء بالحق علمتم أنه (إن يشأ يذهبكم) يبدكم عن بكرة أبيكم ويمحكم إمحاء صرفا بحيث لا يبقى منكم شيىء إلا الخبر (ويأت بخلق جديد) في محلكم إذا كنتم كافرين فهم مؤمنون ، وإذا كنتم جاهلين فهم عالمون ، وإن كنتم كسالى عن العمل فهم عاملون بحيث لا تكون بينكم وبينهم مناسبة إلا بالمباينة ، فبأي شيىء تعتزون ؟ وعلى أي سند تستندون ؟ (وما ذلك)الإذهاب والإتيان (على الله) العليم القدير (بعزيز) أي بمتعذر أو متعسر بل سهلٌ في سهل من الامور •

ثم بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الناس في دنياهم أخذ يذكر حالهم في دار آخرتهم ويقول : (وبرزوا لله جميعا) أي وسيبرزون ويظهرون يوم القيامة أمام الله لمحاسبة الأعمال وتقرير المصير والمآل ، فلما اجتمعوا وظهرت بوادر الأحوال والأهوال ، وأن هذا اليوم هو اليوم الموعود المشهود ، وندم المجرمون على جرائمهم وفَرِحَ المؤمنون بمكارمهم (قال الضعفاء) من الكَفَرَةِ للذين استكبروا : (إنا كنا) في الدنيا (لكم تبعا) في إنكار دين الله وبعث رسول الله (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أي أنا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال ، فهل أنتم اليوم دافعون عنا من عذاب الله من شيء ؟ (قالوا) أي المستكبرون في جواب الضعفاء : (لو هدانا الله) في الدنيا إلى الخير من الإيمان والعمل الصالح (لهديناكم) إليهما أي لو هدانا الله اليوم إلى وسيلة خلاص من هذه الأهوال لهديناكم إليها ، ولكن لا هداية فلا رعاية ولا وقاية لنا ولكم (سواء علينا) والحالة هذه (أجزعنا أم صبرنا) على الحساب والعذاب (ما لنا من محيص) أي مَيلٍ وفرارٍ . والمحيص إما مصدر ميمي أو اسم مكان ، أي لا مفر نفرّ إليه .

وبعد إتمام الحساب وإصدار الأمر بالعذاب لامَ الناسُ ضعفاؤهم وكبراؤهم الشيطان ، وقالوا إنك أنت الذي أغويتنا وحولتنا إلى هذا المصير فأين وعودك وعهودك ؟ (وقال الشيطان) في جوابهم : (إن الله وعدكم) على ألسِنَةِ الأنبياء والرسل (وعد الحق ووعدتكم) وعد الباطل (فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان) في الدنيا (إلا أن دعوتكم) دعوة فارغة عن سلطانٍ وحجة (فاستجبتم لي) بدون بصيرة وشعور ولا دليل يأتي بالنور (فلا تلوموني) على إخلافي لموعدي فإن المُشتَبِهَ لا وعد له حتى يُطلَبَ منه الوفاء أو يلامَ إذا أخلَفَ (ولُومُوا أنفسكم) حيث استجبتم لي

(ما أنا بمصرخكم) أي بمغيثكم ومنجيكم من العذاب الذي أنتم فيه (وما أنتم بمصرخي) أي بمنجين لي مما وقعت فيه (إني كفرت بما أشركتموني) أي كفرت بإشراككم إياي لله تعالى في الطاعة في الدنيا (من قبل) أي من قبل هذا اليوم ولا مجال لي لأي محاولة لنفسي ولا لكم (إنّ الظالمين لهم عذابٌ أليم) وهذا قطع كلي لأطماعهم في أي نوع من الفائدة المأخوذة من الشيطان وأعوانه ، وهم ، وإن لم يشركوه ظاهرا في الأعمال ، لكنهم اشركوا غيره على تلبيسه •

(و) لجريان قضاء الله تعالى بالعدل الرباني ولرغم أنوف الشيطان وأتباعه الكبراء والحقراء (أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) وذلك بإذن ربهم الرءوف الرحيم العادل الحكيم (تحيتهم) أي تحية الداخلين (فيها) أي في الجنة من جانب الملائكة الكرام المستقبلين لهم (سلام) وقد أتى هذا مفصلا في أواخر سورة الزمر بقولهم (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) •

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فِي السَّمَاءِ(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ؟ ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مالَها مِنْ قَرارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ)(٢٧)

قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا ؟) الخطاب للحبيب ، أو لكل عاقل مجيب • أي ألم تعلم كيف ذكر الله تعالى مثلا ووضعه في الموضع اللائق وهو استعماله مع أمة الرسول العربي الكريم الذي هي خير أمة أخرجت للناس ليستفيدوا منه ؟ (كلمة طيبة) الصفة والموصوف بدل من قوله مثلاً، وقوله (كشجرة طيبة) صفة للبدل، ويجوز تراكيب اخرى (أصلها ثابت) أي ضارب ذلك الأصل بعروقه في أعماق الأرض بقدر مايتطلبه نوع الشجرة (وفرعها في السماء) أي والأغصان العالية منها ارتفعت نحو السماء (تؤتي أكلها كل حين) أي تعطي ثمارها في كل وقت وزمان (بإذن ربها) بإرادة خالقها جل جلاله • وفي بيان الكلمة الطيبة أقوال منها : أنها شهادة أن لا إله إلا الله ، ومنها أنها القرآن الكريم ، ومنها أنها التسبيح والتنزيه ، ومنها أنها الطاعات ، ومنها أنها كل كلمة حسنة • وإذا نظرنا إلى المشبه به فتفسيرها بالشهادتين أوفق التفاسير ، لأنهما صنوان على أصل واحد وهو الإيمان ، ولهما أغصان وفروع لا تتناهى مثمرة وتوجدان عند كل مؤمن في كل زمان ومكان (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) فيفتهمون المعاني المقصودة منها ويقتدرون على تصوير المعاني المعقولة بصور المباني المحسوسة • (ومثل كلمة خبيثة) وهي كلمة ناطقة بما يخالف الإسلام أو كل كلمة لا يرضاها الله ورسوله (كشجرة خبيثة) لا يرغب فيها أحد لا فيها ثمر ولا خير (اجتثت) أي أقتلعت ووقعت (من فوق الارض ، ما لها من قرار) على استقامتها لأن المقتلعة لا تنبت مرة أخرى فشأنها البقاء على الارض لتيبس أو تحرق وتذروها الرياح • والمقصود من المثالين بيان حال المؤمن وكلمته ومنفعته وثمرته وبقائه نافعا لبني دينه وشريعته وأمته •

ثم الكلمة الطيبة هي القول الثابت المطابق للواقع الآتي به الأنبياء والرسل الكرام مَرَّ العصورِ والأيام وذلك القول قول المؤمن الموحد

توحيدا سالما من الشوائب الذي استقر في العالم ببعث النبي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويمدح الله تعالى اصحابه بقوله (يثبت الله الذين آمنوا) أي بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . والمعنى إن الله يثبت أولئك المؤمنين على العقائد السليمة ، والأعمال القويمة ، والأخلاق الكريمة ؛ فلا يؤثر فيهم إضلال الناس وإخلالهم ، ولا تعذيب الناس لهم وتأنيبهم ، فيكونون كالطّود الشامخ ببركة ذلك القول الثابت وقوته ورباطه في مدة الحياة الدنيا حتى يكونَ آخرَ كلامهم ، وفي وقت الدخول في عالم الآخرة أي عند عود الحياة البرزخية في القبر أو أي محل آخر كان . فكما تكلموا به في الدنيا تكلموا به في آخر أوانها ، وكما أعلنوا بها فيها ، أعلنوا بها في جواب الملكين في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة .

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية : التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا له : من ربك ؟ قال : ربي الله . قالا : وما دينك ؟ قال : ديني الإسلام . قالا : ومن نبيك ؟ قال نبيي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وعلى هذا فالمراد بالآخرة يوم القيامة، وبالحياة الدنيا الحياة في الدنيا وملحقاتها وهي القبر الموجود في البرزخ . وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول في هذه الآية أي (يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة .. القبر) وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة . وإلى ذلك ذهب الجمهور من العلماء . وليعلم المؤمن أن تلك الحياة الموجودة في القبر حياة برزخية تتصور عند الميت بأنه إنسان يرى في نومه أنه جالس بين جمع من الأصدقاء والأحباء يتفاهمون ويتكلمون فيما بينهم ، وهذا النوع من الحياة البرزخية والإدراك لا ينفك

عن الميت في عالم البرزخ إلى يوم البعث والنشور . وإن كانت لها درجات على مناسبة قدسية أرواح للفرق الفارق بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وتلك الحياة موجودة عند الكافرين أيضا . وعلى ذلك خاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتلى بدر بقوله : « إنّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ » ولذلك أجاب عن كلام عمر : « هل تسألهم وهم أجساد جيَف ؟ » بقوله الكريم : « والذي نفسي بيده إنكم لستم بأسمع منهم ولكنهم لا يطيقون الجواب » أو كما قال .

(ويضل الله الظالمين) أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنون لسوء اختيارهم الناشيء عن سوء استعدادهم (ويفعل الله ما يشاء) من تثبيت المؤمنين وإختلال الكافرين حسبما توجبه مشيئته التابعة لعلمه الحاكي عن أحوال العباد وأفكارهم وأعمالهم من أهل الغي والرشاد .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ؟(٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ(٢٩) وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ : تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ !(٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا : يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ(٣١) اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(٣٣)

وَآتيكُم مِن كُلِّ ما سَألتُمُوهُ ، وَإنْ تَعُدّوا نِعمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ)(٣٤)

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا) لما كان القائد السيىء الأفكار والأخلاق يقود قومه إلى الدمار ، والقائد الحسن التدبير والأفكار والآثار يقودهم الى السعادة في الدنيا وفي دار القرار جعل الله سبحانه وتعالى أعمال القادة المفسدين منشأ لسوء عاقبة الامة التابعة لهم فقال على وجه التعجيب لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا ؟) أي ألم تنظر الى سوء أفكار وأعمال القادة المفسدين الذين بدلوا شكر نعمة الله كفرا ؟ فبدل أن يشكروه عليها كفروا به وبها .والمراد بهم قادة أهل مكة ؛ فإن الله تعالى أسكنهم حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكفروا بنعمة الله ، فضربهم الباري تعالى بالقحط سبع سنين ، ووقع فيهم القتل والأسر والتمزق والتفرق ، فحصل لهم الكفر بدل الشكر والنقمة بدل النعمة . ومع أنهم كانوا مورد النزول فالآية عامة لكل قادة يقودون القوم إلى الفساد . أعاذنا الله تعالى (وَأَحلوا قومهم دار البوار) أي أنزلوا قومهم في دار الهلاك أي في منزل أو منزلة لا يكون نصيبهم فيها إلاّ الهلاك . وذلك المنزل (جهنم) عطف بيان للدار (يصلونها) حال من الدار أي يدخلونها (وبئس القرار) والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم .

(وجعلوا) أولئك الكبار (لله) الواحد الأحد الصمد (أندادا) أي أمثالا في العبادة (ليضلوا) قومهم (عن سبيله) أي عن سبيل الله القويم (قل) لاولئك القادة الى السوء : (تمتعوا) بما تلتذونه وتستفيدون منه زمانا قليلا (فإن مصيركم) بعد زمان حقير قليل (إلى النار . قل لعبادي

الذين آمنوا) بالله ورسوله : (يقيموا الصلاة) إقامة بها الثمرات المجتناة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر (وينفقوا) على الفقراء والمساكين وفي سائر طرق الإحسان (مما رزقناهم سراً وعلانية) الأولى بمقام يخاف منه الفتنة كالرياء وما شاكلها ، والثاني أولى بمقام منزه عن ذلك أو كان مناسبا لتعويد الناس على الإنفاق في الخيرات (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) حتى يعامل الناس مع غيره معاملة تجلب الأرباح وتجبر الخسارات (ولا خلال) أي مخاللة ومحابية وتعاون مبني على الصداقة بينهم لدفع مكروه أو جلب محبوب .

وقوله تعالى (الله الذي خلق) مبتدأ وخبر ، والجملة في صورة الإستئناف في تحصيل مايوجب مرضاته تعالى ، ولكنه بحسب المقام خبر لمبتدأ مستفاد من بيان حال السعداء والأشقياء الذين سعدوا بطاعة الله أو شقوا بمعصيته ، فكأنه هو اي الذات الذي سعد السعداء به وشقي الاشقياء به (الله الذي خلق السماوات والارض) بالوحي المتوارث من الرسل المؤيدين بالمعجزات وبالبراهين القاطعة المستقاة من المقدمات البديهية . (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) من المزروعات والمغروسات وغيرهما كأنواع النبات النابت به على الارض (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) وحكمه وإقداره لعباده الصانعين للمراكب البحرية (وسخر لكم الانهار) التي ليست قابلة لسير السفن سخرها للعبور بدون السفن ، ولأخذ المياه منها بالجداول لسقي الاراضي المكروبة وشرب المياه المطلوبة (وسخر لكم الشمس) لإضاءة العالم حتى يستفيد أهله من المكاسب والمعايش (و) سخر لكم (القمر) بالليالي حتى تسير القوافل في أشعة نوره حالكونهما (دائبين) أي دائمين في عملهما حسب ما سخرهما الله تعالى له (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان حتى يتهيأ زمان لهدوء

أعصاب العمال واستراحة نفوسهم وأبدانهم من كدّ مشاق الأعمال ويتجدد زمان للإستمرار في العمل النافع للحال والمستقبل مَرّ الأجيال • (وآتاكم) أي هيأ لكم ووفر اسباب تحصيله عندكم (من كل ما سألتموه) حسب مجاري العادات وتطور الأزمان فهيأ السدود لخزن المياه لتتوفر المحصولات والمكائن لحرث الاراضي وبث البذور فيها ، وللحصاد وتصفية الحبوب وإخراجها إلى مقام الإستفادة منها • والسيارات لنقل الركاب والطيارات لقطع المسافات الشاسعة أرضا وجوا لنيل المطالب من وصول البلاد في بضع ساعات• وهيأ الكهرباء لتنوير الدنيا ورفع ظلمة المنازل في الليالي والسراديب في النهار ولوقاية الإنسان وحوائجه من الحر الشديد ولدفع برودة الهواء في الشتاء القارص ، وعلم الناس الطب الوافي بمدافعة الأوبئة والأمراض ••• وكل ذلك ناتج عن إلهامه العلم لأصحاب المعارف ببعض فوائد المواد المصنوعة ، ويمكن أن يكون فيها فوائد أخرى لم تكتشف بعد يقربها إليكم العلم في المستقبل القريب أو البعيد • (وإن تعدوا نعمت الله) أي وإن أردتم عدها لا تحصوها ولا تضبطوها ؛ إذ كلما اطلعتم على نعمة استفدتم نعمة أخرى ••• وهكذا فيطول العدّ بلا مقدار ولا حدّ • (إن الإنسان لظلوم) بإنكار المنعم ونعمته (كفار) بالقصور عن أداء شكرها ونسأل المولى الكريم أن يجعلنا من الشاكرين وبالقلوب والألسنة من الذاكرين آمين •

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا

لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، فاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وما نُعْلِنُ ، وما يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الحَمْدُ للهِ الَّذي وَهَبَ لي عَلَى الكِبَرِ إسماعيلَ وإسْحاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ ولِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسابُ)(٤١)

قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم) مفعول لفعل محذوف أي أذكر ذلك الوقت (رب اجعل هذا البلد) يعني مكة المكرمة زادها الله شرفا (آمنا) أي ذا أمنٍ (وَاجْنُبْنِي وَبَنِي أن نعبدَ الأصنام) بعدني وإياهم عن التذلل التقليدي المفتعل للأخشاب والأحجار (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) أي تسببن في ضلال الناس بسبب بعض أوهام تقليدية لا أصل لها ولا أساس (فمن تبعني) في عبادة الله وحده لا شريك له (فإنه مني) أي كجزء مني أو قريب مني (ومن عصاني) اي لم يتبعني (فإنك غفور رحيم) أي قادر على أن تغفر له وان جرى اخبارك المقدس بأنك لا تغفر لمن يكفر بك وتغفر مادون ذلك لمن تشاء (ربنا إني أسكنت من ذريتي) أي بعض ذريتي أي إسماعيل ونسله (بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) بتحريمك إياها عن تعرض الناس لصيدها وأشجارها ونباتها ، أو المحرم بصيانتك عن إستيلاء الجبارين وقهرهم على أهلها (ربنا) أسكنتهم هناك (ليقيموا الصلاة) لا لغاية أخرى ، وخص الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين وركنه الركين (فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم) أي تسرع إليهم شوقا إلى

طواف كعبة وودّاداً لها ووتذكراً لبنائها لإقامة الدين وتوحيد الناس في التوجه إليها ليكون ذلك سببا للوحدة والإعتصام (وارزقهم من الثمرات) التي تجلب إليها من النقود المعدنية الذهب والفضة والأقوات والأدهان والألبسة والفرُش والمواعين وسائر الأشياء المحببة للناس (لعلهم يشكرون) الله أي يأخذونها ويتنعمون بها ويشكرون الله تعالى على تلك النعم التي لا تحصى •

ثم لما بين أن ذريته التي سكنت في الوادي تحتاج إلى المعونة بالرزق والإمتاع من كل الثمرات وأنه طلب منه تعالى إمدادهم بها قال : (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) فتعلم أن ما نريده للتقوية على الطاعة ونشر توحيد الله تعالى في الأرض ، ولا نريد تخصيص بعض ذرياتنا لذلك • أو إنك تعلم ما نخفي من الحاجيات لجهلنا به أو لعدم سماح الوقت ببيان كلها ، وما نعلن منها لكونها معلومة محدودة (وما يخفى على الله من شيىء في الأرض ولا في السماء) لأن العالم بعلم هو صفته الأزلية يستوي إدراكه لكل معلوم جزئي أو كلي علوي أو سفلي •

ثم شرع بحمد الله تعالى على أن أضاف الى خوارق العادات التي أعطيها من نجاحه ونجاته من نار نمرود وغلبته عليه في المحاجة مع ذلك العدو اللدود ، وخلاصه من أولئك المتمردين إلى أرض فلسطين المباركة بأهل الركوع والسجود ، وتلقي ملك مصر له بالإكرام والإحترام ، وإعطائه الجارية أم إسماعيل وإسكانهما في أرض مكة ، وإقدار الله تعالى على بناء الكعبة الشريفة أن وهب له وهو في عمر لا يناسب التوليد إسماعيل وإسحاق الأبوين الطاهرين للأنبياء والرسل الكرام •• فقال : (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق) أي وهب لي مع تجاوز عمري عن حد الايلاد ذينك الابنين الجليلين (إن ربي لسميع الدعاء) ولذلك أجابني عندما

طلبت منه الأولاد فإذا تقبلت مني أدعيتي في ما مضى من حياتي فيا (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين) بك وبرسلك (يوم يقوم الحساب) .

وقد يستدل بهذه الآية على أن آزر الذي كان يدعوه باسم الأب عندما استغفر له وقال (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) لم يكن والده وإنما كان عمه ويدعوه باسم الأب لتربيه عنده . وأما هذا الذي استغفر له هنا فهو والده الذي ولده فجمعه مع والدته ، وإلا فلو كان ذلك ما كان يستغفر له بعد النهي عنه . فتأمل .

(وَلا تَحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عمَّا يَعمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنمَّا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ(٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنا اخِّرْنا إِلى اَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ! أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مالَكُمْ مِنْ زَوالٍ ؟(٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الأَمْثَالَ(٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبالُ(٤٦) فلا تَحسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرضِ والسَّماواتُ ، وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشى وجُوهَهُمُ

النَّارُ(٥٠) لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٥١) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبابِ(٥٢)

قوله تعالى : (ولا تحسبَن الله غافِلاً) بعد ما سرد من قصة أبيه إبراهيم توجه إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُسلياً له عن تحمل اتعاب المشركين وقالَ : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) من تعدي الحدود ، ومن الجحود بالله الواجب الوجود ، أو الإشراك به في العبادة أو الظلم على حقوق العباد وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، أو تماديهم في غفلتهم وإعراضهم عن إطاعة ربهم (إنما يؤخرهم ليوم) هائل (تشخص فيه الأبصار) أي ترتفع أبصار أهل الموقف وتتوقف من الهول والدهشة فلا تتحرك ولا ترى (مُهطعين) مسرعين إلى داعي الحق (مُقْنِعي رُءوسهم) أي رافعيها مع شخوص الأبصار (لا يرتد إليهم طرفهم) أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم (وأفئدتهم هواء) أي وقلوبهم خالية عن الفهم • ومادام تكون عاقبة الظالمين هكذا (فأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أي من يوم يأتيهم عذاب جهنم (فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب) أي رجعنا إلى حال حياتنا الدنيوية (نجب دعوتك)الى الإيمان بك وبوحدتك (وتتبع الرسل) فيما جاءوا به من عندك • فيرد عليهم الباري جل شأنه ، أو ملائكته بأمره ويقول لهم : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل) أي من قبل حلول الآخرة ومشاهدة عذابها (مالكم من زوال ؟) على ما أنتم عليه من المتاع والشهوات النفسية والإعراض عن الطاعات القدسية (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالإشراك وسائر المعاصي (وتبين) وظهر (لكم كيف فعَلنا بهم) من الإبادة والإستئصال ، أو التمزيق والتفريق في البلاد بالعذاب او النكال (وضربنا لكم) في القرآن الحكيم أو على ألسنة كل

رسول كريم (الأمثال) أي صفات أمثالكم قبل الدمار وصفاتهم بعد الوبال ، لتكون ذلك عبرة لكم ، ولم يفدكم إلا مزيدا من العناد في الحال .

(وقد مكروا مكرهم) وأولئك الناس لم يكونوا ضعفاء لا يعرفون شيئا بل كانوا صناديد أهل القوة والمكر والإحتيال ، وفعلوا ما في طاقتهم من العصيان والعتو على الله ذي الجلال ، وعلى رسله وأتباعهم بكل حال (وعند الله مكرهم) أي وكان معلوما عند الله مكرهم . والمكر إذا كان معلوما عنده كان دفعه وإبطاله معلوما كذلك فلا يفيدهم ذلك لأن مكر سنةٍ يَبْطُل في سِنَةٍ أو كان عند الله جزاءُ مكرهم بمعنى أنّ كل حيلة ووسيلة لهم للمتمرد كان عليه عقاب عند الله وَاَجّلها لَهم إلى يومه المقرر (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) والحقيقة أن مكرهم كان جسيما وكيدهم كان عظيما ، إذ كان في أيديهم شتى أصناف العلم والإطلاع بما يجري في البلاد والبقاع ، ورصدوا في مقابل كل ذلك طرقا للاستيلاء على مناوئيهم ومقابليهم فكان مكرهم لو تجسم كمعاول أو مكائن تدميرية لأزالت الجبال وأقلعتها عن أماكنها . فعلى هذا المعنى كلمة إن شرطية وصلية ، واللام حرف جر ، والمضارع منصوب بأن المضمرة . يعني وعند الله إبطال مكرهم وإن كان مكرهم مناسبا وموافقا لزوال الجبال لكنه ما بقي بل انمحى ولم يبق له أثر . وزعم بعض أن إن نافية يعني وما كان مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي قويا جدا ، بل كان ضعيفا حقيرا .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رُسُلَه) بانتصارهم وانتصار أتباعهم المخلصين على الكافرين ، ولا وعده بحلول العقاب المدمر عليهم إن عاجلا أو آجلا ، ولا وعده بالانتقام منهم وعقابهم بما يناسب أفكارهم وآثارهم ، (إن الله عزيز) غالب على ما أراد ، (ذو انتقام) من ظلمة العباد وإن أجلهم إلى يوم المعاد . (يوم) ظرف لعامل مقدر مستفاد من النهي المذكور ،

أي ينجز ما وعد به يوم (تُبدل الارض غيرَ الارض والسماوات) أي وتبدل السماوات غيرَ السماوات • والتبديل قد يكون في الذات كما في : بدلنا الدراهم دنانير • وقد يكون في الصفات كما في : بدلت الحلقة خاتما إذا غيرت شكلها • والآية الكريمة ليست بنص في واحد منهما • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال تبدل الارض أي يزاد فيها وينقص منها ، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وأشجارها وما فيها ، وتُمَدّ مَدّ الأديم العُكاظي ، وتصير مستوية لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتبدل السماوات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها ••• وحاصله يغير كل عما هو عليه في الدنيا • وقال ابن الأنباري : تبدل السماوات بطيها وجعلها مرة كالمهل ومرة وردة كالدهان • والحق الذي يجب أن يعتبر أن النصوص إذا أضيف بعضها إلى بعض تدل على أنه لا تبقى هذه الارض يوم القيامة ولا السماوات ولا الشمس والقمر والنجوم ، وإنما هناك عند قيام الساعة عالم آخر لا الأرض أرضنا ولا السماء سماؤنا • وقد قال تعالى : (يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) أي وبرز الخلائق من الظالمين وغيرهم ، أو الظالمون فقط • وبروزهم لله كناية عن عرضهم للحساب بصورة مخزية • فالسكوت عن تفصيل ذلك بدون نص يدل عليه واجب • على أن عالم الآخرة حسب ظاهر النصوص محصور في عالم الجنة والنار • والجنة عرضها السماوات والارض • والنار مسافتها في علم العزيز الجبار • ولا تفي هذه الارض ولا هذه المسافات المحدودة المحسوسة لأن تكون مستقرا لأهل الدارين •

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين) أي يوم إذ برزوا لله مقرنين بعضهم إلى بعض (في الأصفاد) جمع صفد وهو القيد الذي يوضع في الرِّجل ، أو الغل الذي يكون في اليد والعنق (سرابيلهم) أي ما يستر أجسادهم (من

قطرانٍ) وهو ما يحلب من شجر الأبهل فيطبخ وتهنأ به الإبل الجربى فيحرق بحدته وحرارته الجرب في الجلد (وتغشى وجوههم النار) أي تعلو وجوههم وتحيط بها النار التي تتسعّر بأجسادهم المُسَربَلَةُ بالقطران ٠ وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعالي الأجساد ، فإذا علت الوجوه فقد علت الوجود ، ويعاملون بما ذكر (ليجزي الله كل نفس) ظالمة مجرمة جسورة على الله وعلى عباده ، ومتعدية على حدوده (ما كسبت) من الكفر والمعاصي لاسيما من التعدي على حقوق الناس (إن الله سريع الحساب) لا يشغله كتاب عن كتاب ولا حساب عن حساب ٠ (هذا) البيان الذي عرض الآخرة في معرض العيان من قوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا) إلى هنا (بلاغ للناس) أي كفاية لهم في الموعظة (ولينذروا به) أي ولينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ الكافي (وليعلموا أنما هو إله واحد) أي وليعلموا بالتأمل في الأنفس والآفاق ، أو بالإيمان بالرسول صاحب محاسن الأخلاق ، أنما هو إله واحد أي أن الله الذي له السيطرة في الدنيا والآخرة هو إله واحد لا شريك له ذاتا أو صفة أو فعلا (وليذكر أولوا الألباب) فيأخذوا حذرهم من عقاب يوم الحساب ٠

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر ، مكية ، وآياتها تسع وتسعون نزلت بعد سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين(١) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين(٢) ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون(٣) وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم(٤) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون(٥) وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون(٦) لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين(٧) ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين(٨) إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٩)

(الـر) قد تقدم الكلام فيه • (تلك)إشارة إلى هذه السورة (آيات الكتاب) أي الكتاب الكامل المحقق المختص اسم الكتاب به (وقرآن مبين) مظهر لما فيه من الأحكام للأنام والقرآن تفسير للكتاب للتفخيم •

وقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) جاء لبيان حالة نفسية وندم شخصي يعتري الكفار عند البعث ورؤية ما يستحقونه من الأهوال التي لا مرد لها ، فكان الباري ــ جل شأنه ــ يقول لهم : أيها

الناس لا تستمروا على الكفر والعناد وتوجهوا إلى طريق الرشاد قبل أن يأتيكم يوم تتندّمون فيه على ما فاتكم من الإيمان بدون أية استفادة . وأما مورده الخاص ففيه روايات . منها : ما روى عن ابن مسعود أن الآية نزلت في كفار قريش ودوا ذلك يومَ بدرٍ حين رأوا الغلبة للمسلمين . ومنها ما أخرج الطبراني وابن مردويه بسندٍ صحيح عن جابر عن عبدِ الله قال قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إن ناساً مِن أمّتي يُعذبون بذُنوبهم فيكونونَ في النار ما شاء الله تعالى أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى مُوَحد إلاّ أخرجه الله تعالى من النار ثم قرأ رسول الله الآية . وذكر ابنُ الأنباري أن هذه الوِدادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ويسلمُ المُسْلِمُ .

وربّ على كثرةٍ وقوعها في كلام العرب لم تقع في القرآن إلاّ في هذه الآية . وهي للتكثير لأن الكفار كثيرا ما يرون المسلمين في راحة وأمان وهدُوء ونعمةٍ ورِضوان فيتمنون ذلك بدون استفادة من تمنيهم . ومن الناس من قال إنها في الآية للتقليل لأن عذابَ الآخرة يدهشهم فلا يبقى لهم مجال أن ينظروا إلى غيرهم ويتعرفوا على أحوالهم إلا في قليل من الأوقات وذلك لمزيد الحسرات عليهم حيث يرون سلامة المسلمين فيتمنون ذلك .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) أي أترك أولئك الكفار الغافلين عن الحال والمآل يأكلوا مما يشاءون ويتمتعوا كيف يشاءون (ويلههِمُ الأمل) أي وذرهم يشغلهم التوقع للمتمنيات التي هي ابعد من آجالِهم (فسوف يعلمون) ماذا ينالون من العذاب والعقاب . والطلب تهديدي فإنّ الله لا يرضى لعباده الأعمال السيئة والآمال الدنيئة (وما أهلكنا مِنْ قرية) من القرى الكبيرة او الصغيرة ؛ أي وما دمرناها بأهلها أو أهلكنا أهلها (إلاّ ولَها منذرون)

قبل ذلك يُنذِرهم به قبل حلوله وبشدته قبل نزوله و (ما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون) أي وما يتقدم أي أمة على وقتِ عذابها ، ولا تتأخر عنه فالوقت مقدر والحساب مقرر • وكما أن وقت العذاب مقدر كذلك وقت النعيم ولكن التهويل في الأول لا في الثاني • (وقالوا) أي أولئك الكفار المشركون السفهاء الذين لا يميزون بين صاحبي العقل والجنون في مقام إيذاء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكرُ) أي القرآنُ (إنك لمجنون) لأن من تعود الأمور السافلة الرذيلة وابتعد عن مستوى الأمور العالية والفضيلة يرى العقل جنونا والجنون عقلا ، ويرى اليقظة غفلةً والغفلة يقظة • ألا ترونَ بعض الحشرات السافلة لا تنزل إلا على النباتات ذوات الرائحة الكريهة وتنفرُ عن ذوات العطور الكريمة ؟ ويقولون له (لو ما تأتينا بالملائكة) المأمورين بإهلاكنا أو بالملائكة الذين يشهدون بصحة دعواك للرسالة (ان كنت من الصادقين) أن الله يعذبنا عقابا لنا على مخالفتك ، أو أن الله أرسلك للناس رسولا • (ما ننزل الملائكة إلا بالحق) أي ولا يعلمون أنا لا ننزل الملائكة إلا متلبسين بالوجه الحق المطابق والحكمة الموافقة لإدارة شئون العباد المقتضية لإرسالهم للإفادة حين الافادة ، ولإبادة الأمة حين الإبادة ، ولو أنزلنا الملائكة لقضوا عليهم عن بكرة أبيهم (وما كانوا إذاً منظرين) ساعةً من الساعات في اي ساحة من الساحات (إنا نحن نزلنا الذكر) العظيم وهو القرآن الكريم على الرسول الهادي لإنذار الناس من العذاب الأليم وتبشيرهم بالنعيم المقيم (وإنا له لحافظون) أي وإنا لهذا الذكر لحافظون من تطرق أيدي العابثين ، فيبقى مادام العالم باقيا لاستفادة أحكام الدين وكل من تعرض لصاحبه الذي نزل عليه نسحبه إلى جهنم ونعذبه بالعذاب العقيم •

ولقد حقق الله وحده وعده ونصر ذكره وقرآنه المنزل وَجُنده ولم يقدر احد أن يأتي بمثله أو بمثل سورٍ منه حتى تنكسر شوكته وتزول دولته ، ولم يقدر أحد أن يحرف حرفاً أو كلمة أو جملة أو آيةً من آياته ، فبَقيت على ما نزلت عليه من سماواته . وكما حَفِظَ هذا القرآن فقد حفظ صاحبه وصانه عن أعدائه إلى أن تمم مهمته وأكمل رسالته ونشر شريعته فتحقق ماقاله الباري جل جلاله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) والخوفُ كل الخوف من أن يأتي النّاس يحرفونه عن معانيه الثابتة التي درجت عليها الأمة المرحومة ويحولونه الى أهوائهم ، ولكن الله لهم بالمرصاد ونلتجيء إليه في كافة الأمور إنه بصير بالعباد .

ومع ذلك فقد ثبت تأريخيا أن كل من جاء بهذا النوع من التفسير ، وأراد أن يغير المعاني المقررة الموافقة لظواهر النصوص وقواعد الدين قد رد الله كيده في نحره وسهمه الى صدره، وقيض أناساً مخلصين عارفين بالمباني والمعاني ، وأبطلوا كُلّ ما قرروا ونقضوا كل غزل غزلوا ، ورجعوا الحقائق إلى الأذهان . فلله المنة والحمد مر الزمان .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ(١١) كذلِكَ نَسْلُكُهُ في قلُوبِ المُجْرِمين(١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقالُوا : إنمَّا سُكِّرَتْ أَبْصارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)(١٥)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين) تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن تمرد الكفار المشركين ليس شيئا مستحدثا في

زمانك بل إنه عادة مستمرة على الأشقياء حيث عارضوا الأنبياء والرسل (و) الله (لقد أرسلنا رسلا) مبشرين ومنذرين في شعوب من الأناس الأولين (وما يأتيهم من رسول) في أي حال من الأحوال (إلا) في حال (كانوا به يستهزءون) في تلك الحال (كذلك) أي مثل السلك الذي سلكناه في قلوب المجرمين المستهزئين الأقدمين (نسلكه) أي ندخله (في قلوب المجرمين) الآخرين أي إن الإنسان نوع واحد والطبيعة طبيعة نوعية واحدة، ومن وفقه الله للسلوك على مسلك الحق والسداد كلما أرسل إليهم رسول سلكوا معه مسلك الرشاد ، وكل مَنْ خَذَلَه الله عاندهم وتمرد عليهم وسلك مسلك العناد ، ولم يهتم الرسل إلا بأداء واجب التبليغ فبلغوا ونالوا خيرهم في الدارين . ولا تهتم باقتراحات أولئك الفاسدين لأنها ليست بنية الاستصلاح وإنما هي للاستهلاك الوقتي والاسترواح (و) إلا فـ (لو فتحنا عليهم باباً من) أبواب (السماء) أي من المواقع التي يجوز ويمكن العروج فيها (فَظَلّوا فيهِ) أي في ذلك الباب (يَعرُجُون) أي يصعدون حَسْبما تيسر لهم (لقالوا) من شدة العتوّ والغلوّ في المكابرة : (إنما سُكِّرَتْ أبصارنا) أي مُنِعت من إبصار الحقائق ، والذي نراه ليس من السماء ولا من عجائب آلاءِ الله تعالى (بل نحن مسحورون) أي أعرض عن سَدِّ الأبصار ومنعها عن الإبصار ، وقل إنه قد فتحت أبصارنا وترى الحقائق ولكنا قوم مسحورون ، وغَلَب محمد على عقولنا وندرك الحقائق على غيرما هي عليه . فالجواب الأول الإختلال في الحواس . والجواب الثاني مما وقع بعد الإضراب الاختلال في العقول فلا ينفع فيهم أي دليل وأي تعليل، لأن حواسهم وقلوبهم مؤوفة بآفة العناد والعناد مع الحق حماقة .

لكل داءٍ دواء يُستَطَبّ به ... إلاّ الحماقَةَ أعْيَتْ مَنْ يُداويها

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ، وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(٢٥)

وبعد أنْ ذكر الله سبحانه وتعالى تمرد الأشقياء على الأنبياء ، وأنهم استمروا في عنادهم •• أخذ يعظ أولئك الناس وغيرهم إلى الإيمان بالله القادر القهار الذي خلق الكائنات من الأرض والسماوات حتى إذا اعترفوا بذلك سهلت طرق المباحثة معهم • ويمكن توجيههم بأن الله القادر على هذه الأشياء قادر على بعث الرسل لتنوير العقول ، وأن ذلك البعث المزين لأحوال أهل الأرض مناسب لتزيين السماوات بالبروج وسائر الامور المستحسنة • فقال : (ولقد جعلنا في السماء بروجا) أي قررنا فيها منازل ودرجات مسماة بالبروج تكون مدة سير الشمس فيها على مرأى الناس دليلا على الفصول والمواسم ، وهي اثنا عشر برجا ، ستة منها في بلادنا شمالية هي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، للربيع • والسرطان ، والاسد ،

والسنبلة ، للصيف • وست منها جنوبية وهي : الميزان ، والعقرب ، والقوس ، للخريف • والجدي ، والدلو ، والحوت للشتاء • وبالسير فيها تنتهي أيام السنة فتتجدد إلى ما شاء الله • وقيل : البروج الكواكب العظام لأن البرج في أصل اللغة القلعة أو القصر العالي • (وزيّناها للناظرين) أي وزينا السماء بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت للناظرين بأبصارهم في الليل الصافي فيرون فيها عجائب اللمع وعجائب المجموعات على أشكال مختلفة من أشكال الحيوان والأوراد المجتمعة والميزان وغيرها فكأنها فرش معلقة في الجو منقوشة بالنقوش المستحسنة • أو زيناها لعقول الناظرين ورتبناها بحيث يستدل بوجودها وأضوائها المختلفة وحركاتها كذلك سرعة وبطء وجهة ومواسم طلوعها وغروبها في ملك المسافات الشاسعة على وجود فاعل قادر مختار يتصرف في الكائنات بما يشاء • (وحفظناها) أي تلك البروج أو سماءها (من كل شيطان رجيم) أي منعناهم من الوصول إليها والتعرف على أحوالها ومد الأيدي إليها بالتغيير والتبديل فهي عوامل ثابتة قائمة بامر ربها • وقوله (إلا من استرق السمع) إستثناء منقطع • أي لكن من لم يصل إليها ووصل إلى حيث يسترق السمع أي يسترق بعض الكلمات من الملائكة هناك لينزل بها ويبثها بين شياطين الإنس والجن بالإلقاء والوسواس (فأتبعه شهاب مبين) والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو • يعني إن الشياطين إذا أرادوا أن يصلوا الى السماء ، أو إلى تلك البروج لا يصلون إليها ولكن يصلون إلى منازل في الجو فهناك يستمعون كلام الملائكة • بينما هم في ذلك الوضع إذا امتدت إليهم الشهب النارية وأحرقتهم •

ولا قدح في أن يكون في الجو كواكبُ وشهب من قديم الزمان وتكون بحيث يترتب عليها حكم ومصالح كثيرة نعلمها أو لا نعلمها • ومن جملتها

رجم الشياطين المسترقة في الجو لاستماع كلام الملائكة لنشرها في الأرض • وأما القول بأن الجن خلقن من النار فكيف تؤثر فيها نار الشهب وتحرقها ؟ فجوابه : أن الجن مركب وفيه أجزاء كثيرة ، وإن كانت النار أغلب أجزائها ، ولا مانع من تأثير النار الخالصة في المركب منها ومن غيرها • وإلا لـزم أن لا تؤثر نار جهنم في المعذبين من الجن في نار جهنم ، وذلك خلاف الإجماع الصّرف والنصوص القطعية من الكتاب والسنة السنية • وإذا نظرنا إلى الواقع السليم وجدنا أنه إلى الآن لم تكشف السماوات وما فيها من الكواكب السيارة أو الثوابت إلا شيىء قليل من آثارها وفوائدها ، ولعل في تلك الكواكب العالية عالما من أصحاب العقول ومن الحيوانات الغير العاقلة كما أن في المحيطات أصنافاً من الحيوانات بأشكال مختلفة لم تر نظائرها في الصحارى والجبال • هذا من جهة المادة • وأما من جهة المعنويات والأرواح الطيبة والخبيثة فلا كاشف لها إلا الله ، وقد يطلع الله على بعض غيوبه بعض الناس من الأنبياء والرسل الكرام ، فإذا قرر الله سبحانه وتعالى أن بعض الجن يصعدون في السماوات لتلقي بعض الأمور فإذا وصلوا الى منزلة معينة رماهم بالشهاب وأمحاهم ؛ فذلك بيان جزئي لبعض المغيبات السماوية ولا عجب فيه أبدا ولا مجال لإنكار أحد من العقلاء ذلك بحال من الأحوال •

(والأرض مددناها) أي جعلناها ممدودة مبسوطة ، ولا ينافي هذا المد والبسط كونها كروية أو بيضية ، أو اهليلجية ، فإن المادة كيفما كانت ما دامت كبيرة الحجم يرى كل مقدار منها كالفرش المبسوط • ولو نظرنا إلى الجبال العالية لم نجد لها منعا من كونها كروية أو بيضية مثلا ، فإن نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى الارض كنسبة سبع عرض شعيرة إلى قطر كرة هو ذراع كما حقق في محله من علم الهيئة • (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا عالية مستحكمة ثابتة القواعد في أعماق الارض ، وذلك لفوائد منها

أن تحفظ الجذور النارية الملتهبة من الإنفجار الهائل وتدمير الارض • ومنها حفظ توازن الكرة في الحركات اليومية والسنوية • ومنها امتصاص الثلوج والأمطار وخزنها في طياتها لتنفجر منها العيون والانهار • ومنها إنبات النباتات المختلفة النافعة فيها وبقاؤها في صفاء الهواء حتى تصل إلى مستواها المناسب المقرر لها ••• إلى غير ذلك مما يعلمه أهله • كما قال تعالى (وأنبتنا فيها من كل شيىء موزون) والضمير يعود إلى الأرض الشاملة للجبال أو إلى الرواسي • (وجعلنا لكم فيها) أي في الأرض (معايش) ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها مما يتعلق بها بقاء الإنسان والحيوان (ومن لستم له برازقين) كلمة من إما معطوفة على الضمير المجرور عند من لم يشترط إعادة الخافض على المعطوف • أي وجعلنا فيها معايش لمن لستم له برازقين من العيال والمماليك والخدم والدواب وغيرها • أو عطف على معايش • أي وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين كما ذكرناه آنفا •

(وان من شيء) أي وما من شيء (إلا عندنا خزائنه) من الأقوات والفواكه والملابس ومواد الأثاث والمواعين وغيرها • (وما ننزله إلا بقدر معلوم) محدود مناسب لتطور البشر في الدنيا وحاجتها إلى الأمور الخمسة المذكورة وغيرها من المعدات الحربية والأدوية والعقاقير الطبية وغيرها • يعني إن الخزينة موجودة عندنا وهيأنا البشر لتعلم العلوم والفنون والصنائع ليستخدمها في استحصال ما يفيده من الأرض برحابة الصدر لتكميل ما يحتاج إليه في العسر واليسر • ولا ينال أي قوم وأي فرد من أي قوم إلا بقدر قابليتها علماً وعملاً وطموحاً وأملاً •

(وَأَرْسَلْنا الرياح لَواقِحَ) أي أرسلناها من الأرض إلى الهواء المرتفع ومن بلد إلى بلد آخر لواقح أي حاملات بمواد الأمطار الغزيرة (فأنزلنا من السماء) حيث شئنا (ماء) بقدر ما تعلقت به إرادتنا (فَأَسْقَيْنا كمُوهُ)

أي فأسقيناكم به نفوسا ومزارع وبساتين ومراتع (وما أنتم له بخازنين) أي وما كنتم بجامعين حافظين لذلك الماء ، وإنما انبعثت الرياح بأمرنا وأخذت مواد الأمطار بإرادتنا وأفاضتها على الاراضي بمشيئتنا (وإنا لنحن نحي) بإيجاد الحياة في المواد القابلة لها (ونميت) بإزالتها عنها (ونحن الوارثون) أي الباقون بعد فناء الخلق قاطبة والمالكون حقيقة لما ملكوه مجازا (ولقد علمنا المُسْتَقْدِمين منكم) أي الذين ماتوا (ولقد علمنا المستأخرين) الذين لم يموتوا بعد (وإن ربك هو يحشرهم) بعد أن أماتهم ثم بعثهم . يعني أن الله سيبعث الجميع ويحشرهم في صعيد واحد ، ويحاسبهم ويقرر مصيرهم أجمعين (إنه حكيم) في خلقهم وإحيائهم (وعليم) بجزاء أعمالهم .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ(٢٦) والجانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبلُ مِنْ نَارِ السَّمومِ(٢٧) وإذ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ : إنِّي خالِقٌ بشراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسنونٍ(٢٨) فَإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ(٢٩) فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٣٠) إلاَّ إبْليسَ ؛ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣١) قَالَ : يا إبْلِيس مالَكَ ألاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ؟(٣٢) قالَ : لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ !(٣٣) قالَ : فَاخْرُجْ مِنها فإنَّكَ رَجِيمٌ(٣٤) وَإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ(٣٥) قَالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٣٦) قَالَ : فَإنكَ مِنَ المُنْظَرِينَ(٣٧) إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ)(٣٨)

قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان) أي (ولقد خلقنا) أصل هذا النوع وأول فرد من أفراده (من صَلْصالٍ) أي من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقره ناقر (من حمأ) أي من طين تَغَيَّرَ واسْوَدَّ مِن مُجاوَرة الماءِ (مَسْنونٍ) مُصَوَّر من سُنَّةِ الوَجه أي صورته • أو مَصبوب من سنّ الماء صَبَّه • (والجانّ) أي ولقد (خلقناه) أصل نوع الجن وهو الجانّ يعنى به آَبا الجن (مِن قبلُ) أي من قبل خلق الإنسان بعصور وأزمان لا يعلم كلّها إلاّ الله تعالى (من نار السموم) قيل:السموم نار لا دخان لها فالإضافة من إضافة العام إلى الخاص • وقيل السموم المُفْرِطُ في الحرارة والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة • وقد جاء في بعض الآثار أَن النار التي خلق منها الجان أشد حرارةً من النار المعروفة عندنا • ولا يخفى أنا إذا نظرنا إلى هذه الكائنات الموجودة المحسوسة عندنا وَجدنا أنّ هناك مواد كثيفة لا تغور فيها الأقدام ، ومواد لطيفة تغور هي فيها • ونحسّ بالمعيشة في جوّ منطلق ومملوء بالمادة اللطيفة المسماة بالهواء وقد تكون هادئة ، وقد تكون هابّة قوية الحركة بحيث تقلع البناء والاشجار ، وإذا نظرنا إلى ما فوق رؤوسنا رأينا جوّاً منفتحا واسعاً لا يدرك مداه مزيناً بالمواد المشعة التي تسمى بالكواكب ومنها ما هو أعظم حجما وأكثر نورا وأقوى تأثيرا وهو الشمس ومنها ما هو أقل من ذلك وهو المسمى بالقمر ، وعليهما مدار حساب الايام والليالي والشهور والسنين في القلة والكثرة ، واذا دققنا النظر فيما على سطح الارض والبحر وما فوقهما من الأجواء وجدنا أنواعا من الحيوانات أي الأجسام الحساسة النامية المتحركة بإرادتها ، متشكلة بأشكال مختلفة ؛ ومتلونة بألوان مختلفة وموصوفة بصفات مختلفة ، وعندما حققنا النظر فيها وجدنا أن هذا النوع المعروف بالإنسان هو أشرف أنواع الموجود لأن لها العقل والعلم الهاديين إلى العمل

المثمر النافع وتبديل السيىء بالحَسَنِ ، وتحويل الحَسَنِ إلى الأحسن . وتقدير النظام للمعيشة ، والإستفادة من المواد المخلوقة أمامَنا .

وهذا النوع العريق في الوجود المتطور في العالم بالعلم والصناعة الواصل إلى هذا الحد الموجود الآن وَجَدَ بَعدَ الإمعانِ أن هذا المجموع من العالم ، وان كان نوعُهُ باقيا ، ولكن كل جزء من أجزائه التي وَصَلَتْه أيْدِينا مُسَخَّرة للقدرة وعاجزة أمام القوة ، فتبين له أنه ليس هذا العالم وهذه الأجزاء واجبةَ الوجود ، وإلا لم يكن متأثرا ومتغيرا وأن وجوده ناشىء من فاعِلٍ حي عالم قادر مريد مختار ، لأنه بعد ثبوتِ أنه ليس واجب الوجود ثبت أنه محتاج الى الصانع ، ولا يجوز أن يكون الصانع شيئا لا يعقل ولا يعلم ولا يهتدي لأن ظهور النظام في الكون عن قوة لا شعورية لا يقبله الشعور السليم ، ومن هنا وَصَلَ الفكر السليم إلى الخالق القادر الحكيم ، وهذا الخالق القادر الحكيم ميّز في العُصور السابقة الى اللاحقة أُناسا ممتازين بالفضائل وأرسلهم لتنوير باقي البشر وأيّد صدقهم بالمعجزات القاهرة الباهرة الى يومنا هذا .

وآخر فرد من هذه السلسلة الذهبية الاصيلة أي سلسلة الرسل الكرام وهو سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بالقرآن الكريم والكتاب العظيم المحتوي على زبدة معلومات بُني عليها النظام الحق ، وهذا الكتاب ناطق بأن أصل نوع اشرف الموجود أعني الإنسان مخلوق من صلصال ، وهناك نوع ثان مزود بالعقل والعلم وهو الجن ، وأن أصل سلسلته وهو الجانّ أبو الجنّ خُلق من نار ، وكان خلقُ الجانّ ووجوده في العالم قبلَ خلق الإنسان بعصور وأزمان لا يعلمُها إلا الله . وهذان النوعان مستمران في العالم على سبيل التوالد والتناسل ومنهم المذكر والمؤنث والمطيع والعاصي ، وأن الرسل كما أرسلوا الى الانسان أرسلوا الى الجان ،

وأن رسولنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل الى النوعين كافة عامة . وأن في العالم نوعا آخر يسمى بالملائكة ، وخُلقوا بأمر إبداعي يعبر عنه في سرعة النفوذ بعبارة (كن فيكون) ومعناه أنه ليس فيهم الذكور والإناث وكلهم مطيع لأمر الله جل جلاله لا يَعصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وهذا المقدار مما يجب على المكلف الايمان به إجمالاً فيما علم اجمالا وتفصيلا فيما علم تفصيلا . وتفصيل خلق الأنواع الثلاثة وسر القدر فيها موكول الى علم الباري تعالى . ولكن الجنّ والملائكة ليسا من عالم الحس والعيان ، فلا يُدرك الجِنُ ولا الملائكة بالعين المجردة إلا بخرق العادة كما للأنبياء والرسل الكرام .

وكما أن نصوص الكتاب العظيم والقرآن الكريم ناطقة بخلق الأنواع الثلاثة كلها كذلك الدليل العقلي يرشدنا الى وجود الجن والملائكة ، فإن الإنسان إذا راجع وجدانه علم أنه قد يكون في حيرة من أمرٍ مّا لا يتبصّر ولا يَهتدي ، فإذا هُو تأتيه إلهامات مُنيرة للقلوب توجهه إلى المطلوب ، ولا شك أنها ليست من نفسه وإنما هي أتته من قوى قدسية مباركة يعبر عنها بالملائكة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (له مُعَقِّبات مِنْ بين يَدَيه ومِنْ خلفه يَحفَظُونه من أمْرِ الله) .

وربما يسكن الإنسان في منزله فارغ البال عن الدنيا فتأتيه إلقاءات فاسدة تزعجه وتثيره على الناس وتحمله على أعمال لا تحمد عواقبها أو على ارتكاب الشهوات النفسية أو غير ذلك مما لم يكن له فيه قصد وإقدام ، وذلك ليس من أحواله النفسيةِ المجردة ، وانما هي من الواردات الاجنبية الدنيّة ، كما في قوله تعالى (وإن الشياطين ليُوحُونَ الى أوليائِهم

ليُجادِلوكم) وعلى كل فالسند لوجود الجن والملائكة هو النص الوارد ، ولكن لا بأس في تأييد العقل للنقل ولا في عكس ذلك • وفي هذه السورة الكريمة بَيّن اللهُ خَلْقَ الانسان والجانّ،وذَكَرَ أنّ الله تعالى لَمّا خَلَقَ أوّلَ فرد من الإنسان أمرَ الملائكة بسجود التشريف له ، لانه مَجْمَعُ المادة والمعنى ، ومَجمعُ العقل والعلم ، ومنبعُ الخيرات ومقومات خلافة الله تعالى في الارض • وكان أحد أفراد الجان المدعو بعزازيلَ بينهم ، فسَجدتِ الملائكة له وأبى ذلك واستكبر عنه ، فطرده الله من ساحة السعادة وألقاه في وادي الشقاوة ، فصار من ألد أعداء آدَمَ وذريته إلى يوم الدين ، كما ذكر ذلك الباري تعالى بقوله (وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مَسْنون • فإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فيه مِن رُوحي فقعوا لَهُ ساجدين) •

أي فإذا فعلتُ فيه مايصير به مُسْتَوياً مُستعداً لفَيضان الروح ونفختُ فيه من روحي ، وأَفَضتُ ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها وصار إنسانا حيا مُتمتعا بآثار الروح والحواس (فَقَعُوا له ساجدين) أي فَأحْنُوا رؤسكم واجعلوا جباهكم على الارض على وجه الإكرام والتشريف له بأمر الله تعالى (فَسَجَدَ الملائكة) أي فَخلقه وسَوّاه ونَفَخَ فيه من رُوحه فَسجَدَ لَهُ الملائكة (كلّهُم اجمَعُون) بحيث لم يتأخر أحدٌ منهم عن أحَدٍ (إلا إبليسَ أبى أن يكون مع الساجدين• قال) الله تعالى : يا ابليس (مالك) اي ما هو السبب لك (ان لا تكونمعالساجدين) أي في أن لا تكون مع الساجدين (قال) في جوابه تعالى (لم أكن لأسْجُدَ لبشر خلقته من صَلصال مِنْ حَمأ مسنون • قال) الله تعالى : (فاخرج منها) أي مِنَ الجنة ، وإن لم يجر ذكر لها لاستفادتها من السياق (فإن) الله خلق آدم فيها وأمر بسكونه مع حواء هناك ، وسجدت الملائكة له فيها وقوله

(فانك رجيم) أي مطرود من كل خير وبَرَكة ورحمة (وإن عليك اللعنة الى يوم الدين) أي يوم الجزاء (قال : رب فأنظرني الى يوم يبعثون) أي فأمهلني ولا تميتني إلى يوم بعث آدمَ وذريته للجزاء • وقصد بذلك أن تكونَ لهُ فسحة لإغوائهم وينتقم منهم لأن سجودَ آدم كان سببا لطرده عَن رحمة الله تعالى حيثُ لَم يَسجد له (قال : فإنكَ مِنَ المنظرين) أي من جمْلة المنظرين الذين قرر لهم الإمهالَ والتأجيلَ (إلى يوم الوقت المعلوم) وهو خروجهم عن الدنيا وعالم التكليف ، ويعتبر ذلك وقت النفخة الاولى لأن الإنسان يبقى منهم جيل الى ذلك الوقت وهو معلوم عند الله تعالى

فإن قيل : إن كان إبليس من الملائكة فكيف خالف أمر الله سبحانه وتعالى • بسجوده لآدم ـ عليه السلام ـ مع أن الله تعالى أخبر أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن كان من الجن فكيف يشمله أمر الله تعالى الملائكة بالسجود حتى يكون عاصيا بمخالفة الأمر ؟ قلنا : إنه كان من الجن بلا شبهة لأدلة :

الأول قوله تعالى في شأنه : (كان مِنَ الجن ففسق عن أمر ربه) •

الثاني : أن له الذرية لقوله تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ) والملائكة لا ذرية لهم •

الثالث قوله تعالى : (خلقتني من نار وخلقته من طين) فإن الملائكة لم يخلقوا من النار ، وإنما خلقوا من النور بأمر إبداعي آني ، والمادة النارية محرقة والنور مضيىء مشرق •

الرابع : أنه لو كان من الملائكة ما كان يخالف أمر الباري تعالى لإخباره تعالى بعصمة الملائكة ، وإخبارُه تعالى لا يتغير ولا يتبدل • وإذا ثبت كونه من الجن فشمول أمره تعالى إما لأنه كان مغمورا بينهم ومعدوداً

منهم إذ ذاك فالإستثناء يكون متصلا في الصورة ، وإما لأنه تعالى أمره أمراً خاصا متوجها إليه علاوةً على أمر الملائكة بدليل قوله تعالى : (وما مَنَعكَ أن لا تسجد إذ أَمَرتُكَ ؟) .

(قال : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعينَ(٣٩) إلاّ عِبادَكَ مِنْهُمْ المُخلَصينَ(٤٠). قالَ : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُستَقيمٌ(٤١) إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ ، إلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ(٤٢) وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أجْمَعينَ(٤٣) لها سَبْعَةُ أبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ(٤٤) إنَّ المُتَّقين في جَنّاتٍ وعُيونٍ(٤٥) أدْخُلوها بِسَلامٍ آمِنِينَ(٤٦) وَنَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ ، وَما هُم مِنْها بِمُخرَجينَ(٤٨) نَبِّئْ عِبادِي انّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) ، وَأَنّ عَذَابِي هُوَ العَذابُ الأَلِيمُ)(٥٠)

قوله تعالى : (رب بما أغويتني لأزَيِنَنّ لهم في الارض) قال الشيطان مخاطبا ربه : يا رب بسبب اغوائك إيّاي ، وخذلِكَ لي ، وحرماني من النعيم المقيم أُقسِمُ بالتأكيد لأزينن لآدم ولذريته في الارض كل ما كان سببا للإغراء والإغواء من المشتهيات النفسية والمال والجاه والامور التي يتنافس فيها الناس ، حتى يعارض بعضهم بعضا وتقع الفتنةُ بين أخص الأحبّاء ، فضلا عن الناس الآخرين ، (ولأغْوِيَنّهم) أجعَلنّهم من الغُواة الهواة للفَسادِ (أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين) الذين اخترتهم وأخلصتهم لطاعتك ومحبتك ومعرفتك . (قال) الله تعالى : (هذا صراطٌ

علَيّ مستقيم) لابد أن أراعيه . بمحض حكمتي في شئوني أي أن المخلصين لا قدرة لك عليهم ، وأن المفلسين من الإخلاص تؤثر فيهم بشتّى جهاتِ التأثير ، و (إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين . وإن جهَنم لموعدُهم أجمعين) أي لموعد الغاوين (لها سبعة أبواب) أي سبع طبقات بحسب مراتب أحوالهم في الغواية (لكل بابٍ منهم) أي من الأتباع والغواة (جزء مقسوم) فريقٌ معين محدود منهم حَسب استحقاقهم ونعوذ بالله الستار الرؤوف الرحيم من أخفها فضلا عن أشدّها وأعْنَفها .

(إن المتقين في جنات وعيون) يعني إن الذين اتقوا الكفر والفواحش وسائر ما يتقى منه مستقرون في جنات وعيون مباشرةً . وأما من اتقى الشرك ولم يتق الفواحش أو اتقى الفواحش ولم يتق سائر المحرمات فاستقرارهم فيهما مربوط بالعفو أو بمرور مدة العذاب الذي يستحقونه . وسواء في العفو عندنا من تاب ومن لم يتب . فإن دخول الجنة ليس مربوطا بالإجتناب عن الكبائر ولا بالتوبة (أدخلوها بسلام آمنين) أي يقال لهم من جانب الملائكة المأمورين لها : أدخلوها سالمين أو مسلما عليكم ، آمنين من طروءِ العذاب بعد ذلك ، فإن الجنة دار السلام الخالد (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ) ورفعنا ما في صدورهم من غلّ أي حقد سواء كان قَبَليِاً أو شخصيا فكما لا يبقى عذابُ النيران كذلك لا يبقى عذابُ الوجدان من الخزي والعار (إخوانا) حال من فاعل أدخلوها (على سرر متقابلين) صفتان لقوله اخوانا أي إخوانا مستقرين على سُررٍ ويقابل بعضهم بعضا لمزيد الصفاء وراحة القلوب حالكونهم (لا يمسهم فيها) أي في الجنات (نَصب) وتعب من المرض أو الملل أو خلل في الصحة أو في غير ذلك (وما هم منِها بمخرجين) أي هم خالدون في الجنات ولا يخرجون منها (نبىء) يانبيي ورسولي (عبادي) المؤمنين بي حق الإيمان (أنّي أنا الغفور الرحيم) أي

بأني أنا الغفور للذنوب والرحيم بكشف الكروب وستر العيوب لا غيري. (وأن عذابي هو العذاب الأليم) لمن عذب به سواء كان عذاب الخلود كما لأهل الكفر والجحود أو العذاب المحدود كما للمؤمن العاصي اللدود . ونسأله العافية مِنْه بمنّه ورحمته .

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إبراهيمَ(٥١) : إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلاماً . قالَ : إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ(٥٢) قالُوا : لاتَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغلامٍ عليم(٥٣) قَالَ : أَبَشَّرْتُمُوني عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ؟! فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ؟(٥٤) قالُوا : بَشَّرْنَاكَ بالحَقِّ ، فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ(٥٥) قالَ : وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضالُّونَ ؟!(٥٦) قال : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُون ؟(٥٧) قالُو : إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قوْمٍ مُجْرِمِينَ(٥٨) إِلاَّ آلَ لوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(٥٩) إلاَّ امْرَأَتَه قَدَّرْنا إنَّها لَمِنَ الغابِرِين)(٦٠)

قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) كان لسيدنا إبراهيم دار" لها اربعة أبواب من الجهات الأربع حتى لا يفوته الضيف . ولذلك كان يُكَنّى أبا الضّيفان . والضيف في الاصل مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث . وكان الضيف من الملائكة المرسلين لتبشيره بالغلام ، ثم بخلاص لوط ابن أخيه من خزي المجرمين . وفي الحكاية تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه قد مضى في الدنيا رُسُل جاءَهم ما ساءَهم وصبروا حتى جاءهم النصر ، ولك بهم أسوة حسنة (إذ دخلوا عليهِ) متعلق بالضيف لتضمنه معنى الورود والنزول (فقالوا : سلاما) أي نُسلّم عليك سلاما (قال) بعد رد السلام لهم : (إنا منكم وَجِلُون) أي خائِفون . وهذا

القول بَعْد أَن قرّب إليهم لَحم العجل وامتنعوا عن الأكل ، فظن إبراهيم أنهم جاؤا بقصد الإساءة إليهم ، ولذلك لا يأكلون طعامهم • (قالــوا) في تهدئة باله : (لا توجل • إنا نبشرك بغلام عليم) أي بولــد يولــد فيصير شخصا عليما بالكتاب والصحف المنزلــة عليه علمــا وافيا كافيا • (قــال : أبشرتموني) بذلك (على أن مسّني الكبر) وأثر في ظهري ويئست من الإيلاد (فبم تبشرون ؟) أي فبأي شيىء تبشرونني بولد ولادته خارقــة للعــادة ناشئة عن سلطان الإرادة الربانية ، او بولد وجوده غير محقق وانمــا يبشر به لفظا ؟ (قالوا : بشرناك بالحق) أي بالأمر الثابت الذي لا خلاف فيــه وهو ولد ناشيء عن الإرادة ، وليس إخبارنا محض التلفظ الذي لا أصل له (فلا تكن من القانطين) عن ظهور الامور الخارقة للعادة بحسب الإرادة (قال) إبراهيم : (ومن يقنط) و ييأس (من رحمــة ربــه إلا الضالون) المخطئون طريق معرفة الباري تعالى ومعرفة سيطرتــه وقدرتــه على كــل ما تعلقت به إرادته ؟ وبعد أن تعرف على أنهم مبشرون لا منذرون (قال : فما خطبكم) أي شأنكم الخطير الداعي لنزولكم جماعــة لا وحدانا (أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) هم قوم لوط الموصوفون بالإستهتار وعدم المبالاة بالخزي والعار علاوة على عدم الإستحياء من الملك الجبار (إلا آل لوط ، إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته) فآل لوطٍ مستثنى من القوم المجرمين ولا يعذبون ، وامرأته مستثناة من آل لــوط الناجــين فتعذب معَ المجرمين (قدرنا انها لمن الغابرين) أي قررنا كونها من الباقين في العذاب ولا تنجو منه وكسرت همزة إن لأن التقدير متضمن لمعنى العلم • وقد علق عن العمل فيما بعده بسبب وجود لام الإبتداء التي لهــا صــدر الكلام • وهذا التعليق هو إبطال العمل لفظا لا محلا فيجوز العطف علــى تلك الجملة مع نصب جزءيها •

(فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ المُرْسَلُونَ(٦١) قالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ(٦٢) قالُوا : بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ(٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(٦٥) وقَضَيْنَا إليهِ ذلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)(٦٦)

قوله تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) أي فلما جاء المرسلون إلى بيت لوط مباغتة وما عرفهم قبل ذلك خاف أن جاؤه لشر يريدونه ، أو لما رآهم على سَمتٍ حَسن وخاف أن يصيبهم قومه بسوء (قال : إنكم قوم منكرون) أي غير معروفين ذاتا وشخصا ، أو منكر مجيئهم إلينا بهذا الوجه لأنه يخاف عليكم من المس بسوء الأدب • فأضربوا في الجواب عن إرادة السوء به أو عن جهل بأحوال قومه الفاسدين المتمردين (وقالوا) أعرض عن خيال أنا جئناك لشر نريده لك أو جئناك جاهلين بأحوال قومك (بل جئناك) عارفين بأحوال أولئك الناس الطغاة وطالبين الخير لك لنُهْلِكهم فتبقى سالماً من أذاهم وأحوالهم المختلة المستكرهة المنفورة • وجئناك (بما) أي بالعذاب الذي (كانوا فيه يمترون) ويشكون ولا يؤمنون نزوله عليهم (واتيناك بالحق) أي بالأمر المتيقن الذي لا مجال للشك فيه (وإنا لصادقون) فيما نقوله لك (فَأَسْر بأهلك بِقطع من الليل) أي مع بقاء طائفة من الليل (واتبع أدْبارَهم) وتتبع واطلع على أحوالهم كيف يهلكون (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يرى من الهول ما لا يطيقه فيختل عقله (وامضوا حيثُ تؤمَرون) أي إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضيِّ إليه وهو الشام أو مصر أو الأردن • وقيل : موضع نجاة غير معين (وقضينا إليه ذلك الأمر)

أي وأوحينا إليه ذلك الأمر وهو مبهم يفسره (أنّ دابِرَ هؤلاء مقطوع مُصبحين) أي حالكونكم داخلين في الصبح • والمعنى أنهم يستأصلون لا يبقى منهم أحد إذا دخلوا في الصبح •

(وَجاء أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ : إِنَّ هؤلاءِ ضَيْفي فَلا تَفْضَحُونِ(٦٨) واتَّقُوا اللهَ ولا تُخْزُونِ(٦٩) قالوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ ؟(٧٠) قال : هؤلاء بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(٧١) لَعَمْرُكَ ! إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) فَجعَلْنا عالِيَهَا سافِلَهَا وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِن سِجِّيلٍ(٧٤) إِنَّ فِي ذلِك لآياتٍ لِلمُتَوسِّمِينَ(٧٥) وَإِنهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ(٧٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً للمُؤْمِنِينَ)(٧٧)

قوله تعالى : (وجاء أهلُ المدينة يستبشرون) إستئناف لبيان ما صدر من القوم البُغاة بَعدَ علمهم بنزول الضيف على بيت لوط ـ عليه السلام ـ • فيقول : ولما علم القوم بذلك جاء أهل المدينة منهم أي الذين تعودا مباشرة البغي مستبشرين مسرورين إذ سمعوا أن عنده ـ عليه السلام ـ ضيوفا كذا وكذا • (قال : إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون) أي قال لوط عليه السلام ـ لما جاؤا : ان هؤلاء الواردين ضيوفي ونزلوا في بيتي وإهانتهم إهانة لي فلا تتعرضوا لهم بسوء (واتقوا الله) أي واتقوا عذابه على بغيكم (ولا تخزون) أي لا تهينوني بالتعرض لمن نزل بيتي •

(قالوا : أولم نَنهكَ عن العالمين ؟) أي إيواء أحد منهم ومنعك لنا عن التعرض لهم (قال : هؤلاءِ بَناتي) أي نساؤكم اللاتي في إدارتكم وهن كبناتي بالنسبة إلى مقام رسالتي ، أو نساء

القوم اللاتي يمكن تزوجهن بسهولة وهن كبناتي، أو بناتي الموجودات عندي إذا رغبتم في نكاحهن (إن كنتم فاعلين) شيئا أقولُ لكم ويرضى به الله تعالى • وقوله تعالى (لَعَمرُكَ إنهم لَفي سكرتهم يَعمَهُون) قَسَم من الله تعالى بحياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنهم ، أي الطغاة ، من قوم لوط ـ عليه السلام ـ منهمكون في غوايتهم وضلالتهم يتحيرون بحيث لا يُصغُون إلى نصيحة الناصح أيّاً كان •

والذي ظهر من الروايات في الموضوع أن الملائكة الواردين على سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ كانوا عبارة عن جبريل ـ عليه السلام وجمع آخرين كانوا مأمورين بالنزول إلى بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قرية الخليل ، ثم الذهاب إلى بيت لوط ـ عليه السلام ـ في سدوم على أربعة فراسخ من محل إبراهيم ، ونزلوا على إبراهيم بعد نصف النهار وكان الوقت وقت الغذاء ، فقدم إليهم عجلا حنيذا فأبوا أن يأكلوا منه ، فأوجَس إبراهيم خيفة منهم فهدأوه وبشروه بالولد وولده ، وودعوا مِن عِندِه ، وجاؤا إلى بيت لوط والوقت قريب من المغرب ، فنزلوا عليه ولم يعرفهم لوط ـ عليه السلام ـ أول الأمر ، وأظهر الخوف منهم ، فأخبروه بالامر الذي جاؤا له ، وأن يرتحل في آخر الليل مع أهله والمؤمنين معه ، إلاّ امرأته • ولما علم قومه بنزول الضيف عليه أسرعوا الى بيت لوط فاستقبلهم لوط ـ عليه السلام ـ وترجاهم أن يتركوا بيته وضيفه ، فأبوا ، فرجع لوط الى بيته وسد عليهم الباب ، ولما اقتحموا عليه الباب وأرادوا دخول البيت استأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه في عقوبته فأذن له ، فتحول إلى صورته التي يكون فيها ، ونشر جناحيه فضرب بهما وجوههم فأعماهم ، وطمس أعينهم حتى ساوت وجوههم، فصاروا لا يعرفون الطريق فانصرفوا وهم يقولون:النجاء النجاء، في بيت لوط سحرة قد سحرونا • يالوط سترى مناغداً ما ترى ! ولما قرب

الصباح ارتحل لوط وآله ومن معه من القرية الى حيث أمرهم الله • ولما دخل الفجر حلّ الأمر (فأخذتهم الصيحة) أي صيحة هائلة (مشرقين) أي داخلين في شروق الشمس • والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والإنتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق • ومعنى أخذتهم الصيحة قهرتهم وغلبتهم وتمكنت منهم ودمرت بلدتهم • فأماتتهم وجعلتهم في أعماق الارض المقلوبة الى يوم البعث والنشور ومثواهم ملئت نارا بدلَ النور • كما قال تعالى (فجعلنا عاليها سافلها) أي فجعلنا أعالي الارض أسافلها ، فقلبت عما كانت (وأمطرنا عليهم) في تضاعيف ذلك (حجارة من سجيل) أي من طين متحجر (إن في ذلك) الأمر الهائل وقلب المكان بالقوم المتمرد الغافل (لآيات) لعلامات يستدل بها على مسؤلية الإنسان إزاء أحكام ربه • وإن سنة الله تعالى جارية بإهلاك القوم عند خروجه عن حده وأدبه تظهر تلك الآيات (للمتوسمين) الناظرين من القرن الى القدم، ويستقصون وجوه التعريف والتمييز لأهل اللؤم من الكرم • وإلا فغير المتفكر لا ينتفع من العبر ولو نزلت عليه كالمطر •

(وإنها) أي مدينة لوط المقلوبة (لبسبيل مقيم) أي لفي طريق ثابت يسلكه الناس (إن في ذلك) أي إن في ادراك ذلك (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ(٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ(٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ، فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ(٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَكسبُونَ(٨٤) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وما بَيْنَهُمَا إلاّ بالحقِّ وإنَّ الساعةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ(٨٥) إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ)(٨٦)

قوله تعالى : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) كلمة إن مخففة من المثقلة ، والأيكة في الأصل الشجرة الملتفّة واحدة الأيك • والمراد بها غيضة أي بقعة كثيفة الاشجار • وأصحاب الايكة قوم شُعيب من نسل مدين ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام • بعث الله اليهم شعيبا وكانوا يخسرون في المكيال والميزان ، فنصحهم ولم تفدهم النصيحة • والمعنى لا شك أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين أنفسهم بالمعصية وأنفس الناس بالخيانة في معاملاتهم (فانتقمنا منهم) أي جازيناهم على جنايتهم السابقة وبعثنا عليهم نارا في غمام مطبق ، فأهلكتهم في يوم الظّلّة (وإنّهما) أي وإن مَحَلّي قومِ لوطٍ وقوم شعيب (لَبِإمامٍ مُبين) لفي طريق واضح تَمرُون بهما في أسفارِ التجارات الى الشام (وَلَقَد كذب أصحابُ الحجر) وهم قوم ثمود والحجر وادٍ بين الحجاز والشام كانوا يسكنون به •

قال الراغب يسمى ما يحيط به الحجارةِ حجراً • وبه سُمي حجرُ الكعبة وديارثمود •

وقد نهى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أن يكونوا باكين حَذَراً من أن يصيبهم مثلُ ما أصابهم كما في صحيح البخاري وغيره • وجاء عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن الناس عام غزوة تبوك استقوا من مياهِ الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ، ونصبوا القُدور باللحم فأمرهم النبي ـ صلى

الله عليه وسلم ــ بإهراق القدر ، وأن يعلفوا الإبل العجينَ ، وأمرهم أن يَستَقُوا من البئر التي كانت ترِدُه الناقة هذا .

وأخذ بعض العلماء من هذا الحديث بطريق دليل العكس أن البقاء في موارد أهل العلم والدين والإحسان مبارك ومرغوب فيه ، لأن آثار الرحمة ليست أقل من آثار النقمة . فكما يبقى شؤم محل الظلم وديار الفساد كذلك تبقى ميمنة ديار الخير والرشاد . وذلك على غرار قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم . قال : فكذلك إذا وضعها في حلال كانَ له أجْر » وقوله تعالى : (المرسلين) مع أن من أرسل إليهم هو سيدنا صالح لأن من كذّب رسولاً فكأنما كذب رسلا ، وذلك لأن الهدف واحد وأسباب الاثبات من قبيلة واحدة .

(وآتيناهم آياتنا) من الناقة المخلوقة من الصخرة وسقيها وشربِها ودرّها . وقد روي أنه كان لسيدنا صالح ــ عليه السلام ــ معجزات كثيرة غير الناقة (فكانوا) أي أصحاب الحجر (عنها) أي عن قبول تلك الآيات (معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً) حالكونهم (آمنين) من الإنهدام ، وهجوم الاعداء ، وتخريب المخالفين لهم (فأخذتهم الصيحة مصبحين) حالكونهم داخلين في الصبح (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون) من نحت البيوت واتخاذ الملاجىء الحصينة (وماخلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق) أي إلا خلقا متلبسا بالحكمة بحيث لا يُلائمه ولا يناسبه استمرار إفساد الطغاة البُغاة على الحق (وإن الساعة) أي يوم البعث والحشر والميزان والحساب والثواب والعقاب (لآتية) بلا شك وشبهة (فاصفح) عن الكفرة (الصفح الجميل) الخالي عن عتاب من الله يرد عليك ومن محبة لهم ترجع بالوبال عليك . والصفح الجميل : ما خلا من العتاب

(إن ربك هو الخلاق) لكل موجود (العليم) بأحوال كل ما دخل في الوجود، ولا يهمل حق العابد ولا المعبود •

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ، ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) وَقُلْ : إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ(٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)(٩٩)

قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) والقرآن العظيم يعني آتيناك ووهبنا لك من رحمتنا وأنزلنا إليك من مخزن لوحنا المحفوظ سبعا من الآيات القرآنية التي تحتوي على مجمل جميع ما في القرآن الكريم ، وهي سورة الفاتحة وتسمى بالسبع المثاني ، لأنها سبع آيات بالإتفاق إلا أن منهم من عد البسملة آية منها دون أنعمت عليهم ومنهم من عكس • وتكرر في جميع الصّلوات والمثاني جمع المثنى بمعنى المكرر أو لأنها نزلت مرتين ، إن صح ذلك مرة بمكة حين فرضت الصلاة ، وبالمدينة حين حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة • وقوله تعالى (والقرآن العظيم) إما

المراد به نفس الفاتحة فيكون بيانا لصفة ثانية للفاتحة : الأولى السبع المثانى ، والثانية القرآن العظيم • ووجه عظمتها اختصاصها بالتكرار في أحد أركان الإسلام أعني الصلاة ، أو احتواؤها على إجمال جميع القرآن الكريم • وإما المراد به كل القرآن فيكون ذكره من ذكر الكل بعد الجزء كما يقول القائل مدحت عيون حبيبتي وشخصها • وإذ قد خَصَّصْناكُم بهذه المنحة العجيبة العظيمة التي لا مثل لها (لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا) أي أصنافا (منهم) من الكفرة كاليهود والنصاري والمشركين (ولا تحزن عليهم) حيث إنهم لم يؤمنوا (واخفض جناحك للمؤمنين) أي تواضع لهم وارفق بهم • وَأَصْلُ ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بَسَطَ جناحيه له • وحكى بعض في سبب نزول الآية أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير في يوم واحد ، فيها أنواع من البرّ والطيب والجواهر ••• فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى • فنزلت فكأنه سبحانه وتعالى يقول : قد أعطيناكم سبعا من الآيات هي خير من تلك القوافل السبع (وقل : إني أنا النذير المبين) أي المنذر من الله تعالى الموضح والكاشف لنزول عذابه على من لم يؤمن به ، وقوله تعالى (كما انزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين) أي مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم فالجار والمجرور وصف لمفعول النذير أقيم مقامه • والمقتسمون هم الرجال الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة المكرمة أيام المواسم لينفروا الناس الواردين عن اللقاء بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن الإيمان به فأهلكهم الله تعالى يوم بدر •

ولا يقدح في صحة التركيب كون الإنذار من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكون العذاب المشبه به من افعاله تعالى لان الرسول لما كان رسول الله وأوامره أوامر الله وإنذاراته لهم جاءته من الله ••• فكأنه

من أهل إنزال العذاب أيضا كما أنه لا يضر بصحة المعنى كون العذاب المشبه به غير واقع بعد ، لأن الآية مكية ونزول العذاب بالمقتسمين كان في بدر بعد الهجرة لأن المستقبل المحقق كالماضي الفائت والحال الحاضر . والمقتسمون هم أبو جهل ، و الوليد بن المغيرة المخزومي ، وحنظلة ابن أبي سفيان ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ... وسائر أصحابهم الذين قتلوا يوم بدر . وعِضِينَ جمع عِضَةٍ ، وأصلها عِضَو" حذفت الواو وعوض عنها تاء التأنيث . أي جَعَلوا القرآن أجزاء وأعضاء عديدة يؤمنون ببعض منه مما يوافق طبعهم ويكفرون ببعض آخر منه وهو الذي يخالفه . أو لأنهم وصفوه بصفات متخالفة ، فمنهم من يقول : إنه سحر ، ومنهم من يقول إنه قول كاهن ، ومنهم من يقول إنه قول مجنون يتكلم بما لا يقصده إلى غير ذلك من الاوصاف...

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) من التقسيمات حيث اقتسموا أعتاب مكة وأنقابها وفِجاجها . ويقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الرجل الذي خرج عن عادتنا وتقاليدنا ، ويدعي النبوة إلى التوحيد فإنه مجنون . وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا كاهن . وسُمّوا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق فأماتهم الله شر ميتةٍ . وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَما على باب المسجد فإذا سألوه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال صَدَقَ أولئك الناقمون عليه . أو مما كانوا يصفون به القرآن الكريم من الصفات الذميمة أو من كل ما فعلوه من طرق العناد مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، أو من كل ما فعلوه من الكفر والمعاصي أي الأمور الفاسدة الإعتقادية والعملية . (فاصدع بما تؤمر) أي اجهر بما تؤمر به ، وأعلنه على رؤس الأشهاد ، من صدع بالحجة إذا تكلم به جهارا ، أو فرق ببيان القرآن الذي اُمرت بتبليغه بين الحق والباطل (وأعرض عن المشركين) فلا تهتم بهم ، فإن أجوافهم خالية وأحرفهم بالية ، وإن كانت

أصواتهم عالية • فعما قليل تخمد نارهم ويخلد عارهم ولا يؤخذ ثارهم (إنا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وإهلاكهم ومنعهم عن استمرار الإفساد وهم خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي ابن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب • وكل منهم أصيب بداء عضال مات به والحمد لله • و (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) ما ينالونه من العقاب الصارم الخالد (ولقد نعلم إنك يضيق صدرك بما يقولون) من شتى الكلمات القادحة في الله تعالى وفي كلامه وفي رسوله وفي شريعته التي جاء بها (فَسَبِّح بحمد ربك) أي فافزع إلى الله في دفع الشر عنك وكشف غمك وشرح صدرك وظهور نصرك بالتسبيح والتحميد ، فإنه يكفيك شر كل كفار عنيد (وكن من الساجدين) أي من المصلين الذين أقرب أحوالهم من الله أن يكونوا ساجدين لأنهم يضعون أشرف أعضائهم على أدنى الأماكن التي تطأها الأقدام إعزازا لله العلام • وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حزَبَهُ أمر فزعَ إلى الصلاة • وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين) (واعبد ربك) واثبت واستقم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أي الموت ، فإنه أمر متيقن لا شبهة في عروضه لكل حيّ • أو فاعبد ربك حتى يأتيك العلم اليقين بما نهدد به المشركين المستهزئين من الهلاك والدمار في بدر وحنين وسائر الديار • وهذا الخطاب وإن كان متوجها إلى حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنه يُرادُ به خطابُ كل مؤمن لوجوب ثباته على اعتقاده وأعماله حتى يأتيه الموت ، وبالنسبة إلى غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجوز أن يقال واعبد ربك حتى يزداد إيمانك ويصل اعتقادك إلى مقام اليقين الذي لا مقام فوقه •

سورة النحل مكية ، وهي مائة وثمان وعشرون آية نزلت بعد سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

(أتى أمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١) يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ : أَنْ أَنْذِرُوا أنَّه لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ(٢) خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ بالحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٣) خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)(٤)

قوله تعالى (أتى أَمْرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ) قال المفسرون كان المشركون يستعجلون نزول العذاب الذي أوعدهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ به فأنزل الله الآية • أي إن نزول العذاب المنتظر محقق لا شك فيه ترونه عاجلا أو آجلا ، فلا تستعجلوا وقوعه فانه لا خلاص لكم منه إذا نزل ولا خير لكم فيه • ولما كانوا يقولون إن نزل العذاب الموعود علينا فرضاً فلنا شفعاء من الشركاء يخلصوننا منه قال الله سبحانه (تعالى عما يشركون) تبرأ جل جلاله عن أن يكون له شريك فيدفع عن الكافرين ما نزل عليهم منه • ولما كان إنكارهم لنزول العذاب متفرعا عن إنكار رسالة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصدقه في دعوى الرسالة قال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره) أي إن الله تعالى قادر يقتدر على تنفيذ كل ما أراده وأنه ينزل الملائكة المأمورين عنده بالوحي الذي هو كالروح للاجساد ، وذلك الروح ينزل بسبب أمره بنزوله (على من يشاء من عباده) الأنبياء الذين خصّهم الله تعالى بهذه المواهب الجليلة (أنْ أنذروا) أي بأن أنذروا الناس (بأنه لا إله) أي

لا واجب فيالوجود ولا خالق ولا معبود (إلا أنا) لا شريك لي ذاتاً وصفةً وفعلاً (فاتقون) فاحذروا مخالفتي عن أيشيء مما لا أرضى به .

ولـما جعل مناطَ الإنذار ومدار الإعتبار هو نشر كلمةِ التوحيد وحصر العبادة فيه .. إستأنف ببيان خلق السماوات والارض الدال على استحقاقه للعبادة ، وأن لا شريك له فيها ؛ فقال (خَلَقَ السماوات والارض بالحق) أي خلقا متلبسا بالحق فاوجدهما على مقدار محدود وأشكال وآثار وصفات مختلفة خصصها بها بمحض إرادته المرجحة لهـا بالوجود . و (تعالـى) وتبارك ذلك الخالق المبدع (عما يشركون) أي عن إحتياجه لما يشركونه له فلم يفتقر ، لا في خلقها وإبداعها ، ولا في تخصيصها بصفاتها ، ولا في إبقائها الى شريك له يعاونه فيها ، لأن القدرة الابداعية لا تقبل أي إضافةٍ وانضمامٍ لغيرها إليها لكفايتها في تنفيذ ما شاء تعالى . وكما خلق السماوات والارض وعمرهما خلقَ الإنسان الذي هو أشرف الموجودات المفيدة للفضائل العلمية والعملية من نطفة أمشاج خلقها أطواراً من المائية فالدموية فالمضغية فسـائر الأطوار الاخرى الملحقة بما تقدم ... حتى صار انسانا سويا قويا قادرا على اكتساب الفضائل من شتى الوجوه ، فمنهم من اختصه برحمته وجذبه الـى حضرة قدسه بحكمته ؛ ومنهم من تَدَهْوَرَ بدَلَ أن يتطور إلى الإتصاف بكمال الإنسان ، فاتصف بمبادىء النقصان (فإذا هو خصيمٌ مبين) للحجة، أو خصيم مكافح لخلقه قائلا من يحيى العظام وهي رميم ؟

(وَالْأَنْعامَ خَلَقَها ، لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحمِلُ أَثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ، اِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ، ومِنها جائِرٌ ، وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ)(٩)

قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) الأنعام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز . ولا يقال لها أنعام إلا إذا كان فيها إبل . وهو منصوب بفعل مضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) وهذا التركيب أرجح من رفعه على الابتداء لتتناسب مع الجملة الفعلية السابقة (لكم فيها دفء) أي مايدفأ به فيحفظ من البرد (ومنافع) هي نسلها ودَرّها وظهورها (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان (ولكم فيها جمال) أي زينة (حين تريحون) أي تردّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) أي تخرجونها بالغداة إلى المراعي . وهذه نعمة دنيوية ، وقد تنقلب نعمة دينية لمن يريد اقتناءها لمنفعة المسلمين (وتحمل أثقالكم) أي أحمالكم الثقيلة . والحامل منها الإبل والثور (الى بلد لم تكونوا بالغيه) واصلين إليه بأنفسكم (إلا بشق الأنفس) أي بمشقة الأنفس وتعبها (انّ ربكم لرؤف رحيم) ولذلك خصكم بهذه النعم المفيدة من شتى جهات الإفادة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل . وذكر الراغب أنه يطلق على الأفراس والفرسان (والبغال) جمع بغل (والحمير) جمع حمار ، ويجمع في القلة على أحمرة وفي الكثرة على حُمُرٍ (لتركبوها) أي خلقها لكم لتركبوها (وزينة) أي ولتتزينوا بها زينة. او مفعول به لفعل محذوف أي وجعلها زينة لكم في حياتكم الدنيوية.

وقوله تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون) بيان لكثرة مخلوقات الله تعالى بحيث يفوت نطاقَ البيان في التعبير عنها ، فمنها ما في البراري والجبال

والوذيان والكهوف والبحار مما يمكن تربيتها والاستفادة منها . ومنها ما ليس كذلك • أو إيماء إعجازي لما خلقه الله في عالمنا من السيارات والطيارات والغواصات البحرية والنهرية والمكائن والأجهزة المستعملة في الحرث والحصاد والتصفية والتنقية ، والآلات المستعملة في استخراج المعادن والمياه الجوفية ••• وغير ذلك فإن كلها تحصل من المواد المخلوقة لله تعالى بلا شبهة من أهل العقل السليم • وهذه الجملة على غرار قوله تعالى في سورة (يس) وخلقنا له من مثله ما يركبون • فكل ذلك من مخلوقات الله تعالى لأن أجزاءها التكوينية من المعادن والبخار والهواء والأثير والوقود•• كلها من خلقه تعالى • وكذلك إنشاء تفكير الصنع وتركيبه ونفس الصانع لهذه الأشياء أو المخترع لها من مخلوقاته تعالى (وعلى الله قصد السبيل) والقصد بمعنى القاصد أي المستقيم ، والسبيل هو الطريق ، فالإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي وعلى الله بيان الطريق المستقيم وهو الشرع المبعوث به الرسول الكريم ، لأن الله هو الحق ويهدي المكلفين إلى الحق • وقوله تعالى : (ومنها جائر) أي ومن السبل سبيل جائر منحرف عن الحق إلى الباطل ، وهو ما اتخذه أهل الضلال من طرق عبادة غير الله سبحانه من الكواكب والأشجار والأحجار والحيوانات ••• وغير ذلك • ومعنى قوله (وعلى الله) هو الإستقرار والبدء أي هو يبدأ بتشريعها ؛ ويستقر هذا الأمر عليه فضلا ورحمة لا وجوبا منه أو عليه ، لأن الله سبحانه مختار في كل فعل من أفعاله تعالى • والحاصل أن الله تعالى بين طريق الحق وأرشد الناس إليه فمنهم من سلك فيه حتى وصل إلى ما يبتغيه ، ومنهم من لم يسلك فيه فهلك فيما يرتئيه ، لا يجب على الله تعالى خلق الإهتداء القسري فيهم ، وإلا ما كان للثواب والعقاب طريق مع أنه تعالى قادر على

كل شيء (ولو شاء لهداكم أجمعين) لكن لم يشأ ذلك لأنّ مشيئته تابعة للحكمة ، ولا حكمة في تلك المشيئة ، لما أن المدار للتكليف هو الاختيار لا القسر والإجبار .

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟! (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) (١٩)

قوله تعالى (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم) شروع في بيان نوع آخر من النعم الدالة على توحيده تعالى يعني هو الخالق المنفرد بالتأثير الذي أنزل من السماء من نفسها أو من السحاب ماء لا تنفاعكم (منه شراب) أي

بعض منه شراب تشربونه (ومنه شجر) أي ومن ذلك الماء أو بعض ذلك الماء نبات (فيه تُسيمُونَ) أي تَرْعَونَ مواشيكم (ينبت لكم به الزرع) من الأقوات وغيرها (والزيتون) الذي فيه منافع كثيرة في نفس ثمرها وعصارتها (والنخيل) الّذي يتكفل حياة القوم (والأعناب) الّتي يتفكّه بها ويجعل منه الزبيب والدبس وسائر ما يستحصل منها (وينبت) لكم به (من كل الثمرات) أعم مما ذكر وغيره لو استقصيته لمللت دون الوصول إلى منتهاه (إنّ في ذلك) المذكور (لآية لقوم يتفكرون) في أنّ الجنّة كيف خُصّت بأن تكون أساسا لاستمرار نوع الشجرة إلى الأبد .

(وسخر لكم الليل والنهار) أي وسخر لكم المتحرك الذي من شروقه وغروبه يحصل الليل والنهار (والشمس والقمر) أي وسخر لكم الشمس والقمر ، إذا كانا متحركين في السماء فقد سخرهما للحركة المدورة الدائمة المستمرة التي يحصل منها الليل والنهار ، وإن كانا ساكنين فقد سخرهما للبقاء في محلهما . والمقرر اليوم(1) هو أن الشمس مسخرة للسكون والارض والقمر وسائر الكواكب للحركة اليومية حول أنفسها ، وللحركة السنوية للارض حول الشمس والقمر حول الارض ، ونسمع اليومَ من بعض الناس أن الفلكيين اكتشفوا أن للشمس حركة لنفسها ولمجموعتها التابعة لها جوا . (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر ، أي وسائر النجوم مسخرات بأمر الله تعالى لما خلق له والمقصود من ذلك أن كل ما في الوجود من المحسوس المشهود شيىء مسخر بأمر المعبود فوظيفة الخدمة والسجود لمن له العزة فتعالى وتبارك الملك المعبود (إن في ذلك) المذكور (لآيات) باهرة ظاهرة على أنها ممكنات حادثة ، وحدوثها كان بأمر الله تعالى وتلك الآيات ثابتة أو مفهومة (لقوم يعقلون) ولا يغفلون (وما ذرأ لكم في

(1) علما بأننا نؤمن بجريان الشمس على ظاهر الآية .

الأرض) أي وخلق مانشر لكم في الأرض (مختلفا ألوانه) من حيوان ونبات ومَعْدَن وسائر ما يتفرع منها (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) يتفكرون في أن اختصاصها ببعض الجهات والأمكنة والأزمنة والأحوال ليس إلا بإرادة الفاعل المختار رب العالمين .

(وهو الذي سخر البحر) فجعله هادئا بحيث يغوصُ فيه الغواصون ليُخرجوا منه الأسماك وسائر الحيوانات الناعمة (لتأكلوا منه لحماً طريا) طريفا ظريفا نظيفا (وتستخرجوا منه حلية) من اللآلى وسائر المواد المضيئة بحيث تتزينون بها و (تلبسونها . وترى الفلك مواخر فيه) مقبلة ومدبرة وقوله (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا ، وما عطف عليه ومابينهما اعتراض، أي ولتبتغوا بالسير فيه (من فضله) من رزقه الواسع (ولعلكم تشكرون) على تلك النعم (وألقى في الأرض رواسي) أي وأثبت في أعماق الارض جبالا رواسي ثابتة فيها (أن تميد بكم) أي كراهة أن تميل بكم الارض في سيرها ودورانها ، أي جعلها بحيث تعتدل بها أثقال الاطراف حتى تتحرك على المنهج المعتدل، ولا تنحرف يمنة ويسرة "ككُرَة نصفها حديد" ونصفها خَشَب (وأنهاراً وسُبُلا) أي وألقى فيها أنهارا وسبلا ، وجعلها طرقا لمقاصدكم (لعلكم تهتدون) بها إلى ماتريدونه من المنازل والمقاصد (وعلامات) أي وجعل لكم معالم يستدل بها أهل العقل والمعرفة من العوام والخواص حسب مستوياتهم المختلفة ، فمن الناس من يستدل بمطلع الشمس ومغربها أو بمطلع القمر ومغربه ، ومنهم من يستدل بالجبال وبحركات الأنهار ، ونبت النباتات والاشجار وروائح الارض ، ومنهم من يستدل بالخطوط الطولية والعرضية وبحسب ما وجده من طول النهار وقصره . فيستدل بذلك على خط السير نحو الشمال أو الجنوب والمشرق أو المغرب ، أو يستدل بها على أوقات الليل والنهار (وبالنجم هم يهتدون) في البر والبحر وقت الليل . وكانت

تلك المعالم سابقا غير مضبوطة ولا محدودة ، واليوم وصل العلم الى درجة ضبط الاوقات باجزاء الثواني ، وضبط حرارة المنطقة وبرودتها وعروض الرياح والأمواج الباردة والحارة ، وأوقات الزوابع •• وظاهر الآية الإهتداء بجنس النجم أيا كان • ولا مانع من أن يكون بعض النجوم أنفع وأوسع في الإهتداء من بعض فإن نجم الجدي وهو أصغر الكواكب من بنات النعش الصغرى الواقعة شمالي أفقنا يستدلّ به للشرق والغرب واتجاه سمت القبلة • ففي العراق إذا وقفت بحيث تراه وراء الأذن اليمنى عند الإلتفات فذلك الموضع موضع اتجاهك للكعبة المشرفة ، وفي الشام يكون وراء الرأس، وفي اليمن يكون أمام وجهك ، وفي مصر يكون في المشرق منك ، وكذلك يستدل بها لاختلاف الفصول والمواسم ، فكلما طلعت الشعرى كان دليلاً على حلول وقت البرودة بالليل ثم انطفاء حرارة النهار • ومنهم من خص الثريا والفرقدين وبنات نعش • ولكل وجهة •

(أفمن يخلق) أي أفمن يخلق ماذكر من النعم التي عمت الإنسان أو يخلق كلّ شيىء أراده (كمن لا يخلق شيئا) جليلا أو حقيرا ؟ والجواب : كلاّ • فإن الفرق بين المعدوم والموجود بأن الاول لا يكون أو ليس بكائن حتى يحصل منه أثر ، والثاني كائن ومبدأ للآثار بديهي لا ريب فيه • وكذلك الفرق بين موجود لا يحصل منه أثر وموجود تحصل منه الآثار واضح (أفلا تذكرون ؟) ذلك حتى لا تبقى لكم شبهة في أنّ الله هو الخالق المعبود والمالك ، وأن غيره مخلوق هالك • (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فإن تعدادها فرع عن العلم بأعدادها ، ولا علم بها إلا بشيىء قليل مما نشاهده فينا وفي غيرنا (إن الله لغفور) حيث يستر كفركم لنعمه (ورحيم) حيث لا يستعجلكم بالعذاب عليه • أو لا يمنعها عنكم مع قصوركم عن شكرها (والله يعلم ما تسرّون) من إضمار ما لا يوافق رضاء الحق (وما تعلنون) من إشراك الخلق •

(والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وهُمْ يُخْلَقُونَ(٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أحياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٢١) إلهكُمْ إلهٌ واحِدٌ فالَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنْكِرَةٌ ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ(٢٢) لا جَرَمَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ ومَا يُعْلِنُونَ ، اِنَّه لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِين)(٢٣)

قوله تعالى (والذين يدعون من دون الله) شروع في إثبات أن آلهتهم المزعومة معزولة عن استحقاق العبادة ، فيقول تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا) من الأشياء أصلاً (وهم يخلقون) ومن لا يخلق شيئا ليس قابلا للعبادة ، لأن العبادة تذلّل وخضوع ، ولا يصح ذلك إلا للخالق العزيز الحكيم • (أموات غير أحياء) أي الذين يَدْعَوْنَ من دون الله أموات لا حياة فيها غير أحياء • وفائدة ذكره التنبيه ، على أنّ بعض ما لاحياة فيه قد تعتريه الحياة كالنطفة والمواد الغذائية • وتلك الأصنام كما لا حياة فيها ليست قابلة لعروضها عليها • (وما يشعرون أيّان يبعثون) أي ما يشعر أولئك الاصنام أيان يبعث الذين يعبدونهم • فعجيبٌ أن يعبد الإنسان الذي يدّعي الشعور بالأشياء شيئا جامدا هامدا لا شعور له بنفسه ولا شعور بغيره ! فانتبهوا أيها الناس وابتعدوا عن هذه الجهالات والضلالات (إلهكم إلهٌ واحِد) واجب الوجود قديمٌ لا أول له ، باق لا نهاية له ، واحد لا نظير له ، قائم بذاته لا حاجة له الى ما سواه ، مخالف لغيره بذاته وصفاته ، حي ، قيوم ، عليم ، سميع ، بصير ، قادر ، مريد ، متكلم مع رسله بتشريع سُبُله (فالذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحوالِها وأهوالها (قلوبهم منكرة) لذات موصوف بالكمال

منزه عن النقص (وهم مستكبرون) عن قبول دواء نافع يتداوون به لجهلهم وإنكارهم للحقائق واستكبارهم عن قبول الحق • وذلك غاية في حمقهم •

(لا جرم) أي حَقّ وثَبتَ (أن الله يعلم مايسرون) مِن الإنكار (وما يعلنون) من الإستكبار ، فلا ينظر الله إليهم ولا يحبهم (إنه لا يحب المستكبرين) •

وفي لا جَرمَ أقوال : منها أنه اسم مركب مع لا تركيب خمسة عشر وبَعْدَ التركيب صار معناه حق ، وما بعده مرفوع على الفاعلية له • ومنها أنه مركب كلا رجل ومابعده خبر ، ومعناه لا محالَةَ • وقيل : معناه لا صَدّ ولا مَنع • وجرم اسم لا بمعنى القطع ، وأن وما بعدها خبر حذف منه الجار اي لامنع في أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون • ومنها غيرُ ذلك •

(وَاِذَا قِيلَ لَهُم : ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قالُوا : اَساطِيرُ الأَوَّلِينَ !(٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، ألا ساءَ ما يَزِرُونَ(٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَى الله بُنيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ ، فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتيهمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ(٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ : اَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشاقُّونَ فِيهِمْ؟ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : اِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ والسُّوءَ عَلى الْكافِرِينَ(٢٧) الَّذِينَ تَتوفَّيهمُ الملائِكَةُ ظالِمِي اَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ! بَلى

إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)(٢٩)

قوله تعالى (وإذا قيل لَهُم : ماذا أَنْزَل ربكم ؟) أي وإذا نزلت آية من آيات الله تعالى في شأن من الشئون ، وقيل لأولئك المستكبرين : (ماذا أنزل ربكم ؟) استكبروا واستنكروا الحق ، (وقالوا) : الذي نزل هو (أساطير الأولين !) يعني ماكتبه الأولون من شتى جهات الحياة ، ويُملى على هذا الرجلِ ويَنشرُه بدَعوى أنه آية من آياتِ الله ، فيأتون بهذا الجمود والجحود عناداً وعتوا ، ولا يعرفون أن الأساطير لا تخرج عن نطاق بعض أشياء إعتيادية ، وإذا كانت لها قيمة فهي محدودة وأما هذه الآيات المنزلة ففي ألفاظها براعة وفصاحة وسماحة ، وفي معانيها بلاغة وعلوٌ على مراتب الجمال من مطابقة المقام والحال ، وفيها أحوال ما وراء الطبيعة ، وفيها أمورٌ علمية لا يعلمها إلا الراسخون ، وفيها تنظيم لحياة السعادة ، وبيان شئون العبادة ، وطريق معيشة البشر بكرامة ، وتنويرُ القلوب بتزويد العمل زاداً ليوم القيامة • وقالوا ذلك (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) بسبب فساد اعتقادهم وأعمالهم (و) يحملوا (من أوزار الذين يضلونهم) بهذه الإضلالات الجامدة الهدامة حالكون الذين يضلونهم متلبسين (بغير علم) عندهم حتى يميزوا به بين الصالح وغيره وشر التعليم وخيره (ألا) أيها العقلاء (ساء ما يزرون) أي ساء ما يحمله أولئك المستكبرون المضللون •

وليس هذا أوّل قارورة كُسِرت في العالم بل (قد مكر الذين من قبلهم) كقوم عيسى وموسى ومَنْ سبقهما من الرسل فأتوا بما في إمكانهم من المقالات والمعاول الهدامة للدين (فأتى اللهُ بنيانهم من القواعد)

أي فأتى اللهُ ودمَّرَ أعمدة بيوتهم التي بنوا عليها (فَخَرَّ عليهم السقفُ من فوقهم) إذ لما انقلع الاساس وتدمرت القواعد انهدم البناء ، وما بقيت لها فائدة من الفوائد (وأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) بإتيانه منه ، بل كانوا يتوقعون تدمير مقابليهم وتعمير موافقيهم ومقاوليهم • فجاء الله بضد ذلك • هذا في الدنيا (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي يذلهم ويحقرهم ويعذبهم (ويقول) الله تعالى لهم : (أينَ شركائى الذين كنتم تشاقون) الرّسل وتنازعونهم (فيهم ؟ قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء ـ عليهم السلام ـ والمؤمنون الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد أو الملائكة الحاضرون : (إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين • الذين تتوفيهم الملائكة) حالكونهم (ظالمي أنفسهم) باستمرارهم على الشرك والمعاصي (فَألْقَوُا السَّلَمَ) أي فأظهروا خضوعهم واستسلامهم لله حيث لم يبق عندهم معذرة يعتذرون بها ولا قوة يقتدرون بها • وأصل الكلام وألقوا السلاح أمامَ الغالب شعارا للسلم والطاعة قائلين : (ماكنا نعمل من سوء) يعني أنا لما عملنا ما عملناه في الدنيا وارتكبنا ما ارتكبناه فيها اعتقدنا أن ما فعلناه عَمَلُ خير لا فساد وسوء ، والآن وقد تبين الأمر وحصحص الحق فنطلب العفو والسماح ، فيأتي عليهم الرد من جانب الباري جل شأنه أو من جانب الملائكة المأمورين هناك (بلى) فعلتم ما فعلتم وأنتم مستكبرون ومنكرون ولا ينفعكم هذا الكلام (إن الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم ، وهذا اليوم أوانه (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أي مقدرين الخلود فيها (فلبئس مثوى المتكبرين) أي مأويهم ومنزلهم الحقير جهنم •

(وقِيلَ للَّذِينَ اتَّقَوْا : ماذا أَنْزَلَ ربُّكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْراً • للَّذِينَ أَحْسَنُوا في هذهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ ، ولَدارُ الآخِرَةِ

خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دارُ المُتَّقِينَ(٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ لَهُمْ فِيهَا ما يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ المُتَّقِينَ(٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّيهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ : سَلامٌ عَلَيْكُم ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ ، أَوْ يأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، ولكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٣٣) فَأَصابَهُمْ سَيِّئَاتُ ما عَمِلوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهزِءُون)(٣٤)

قوله تعالى : (وقيل للذين اتقوا) بيان لمقابل ماذكره ، يعني قد علمتم الجواب من الذين استكبروا عن الذي أنزل الله ، وأما الذين اتصفوا بالتقوى فإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أَنزَلَ خيراً • روي أن قبائل العربكانوا يَبْعثونَ في أيام مواسم الحج مَنْ ينظر في الأحوال ويأتيهم بأخبار الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإذا جاء الوافد المستكبرين المقتسمين من صناديد قريش وسألهم : ماذا انزَلَ ربكم ؟ قالوا أساطيرُ الأولين • وإذا جاء إلى المؤمنين وسألهم أجابوهم بأنه أَنْزَلَ خيراً حتى يكون الجوابُ موافقا للحق من جهةٍ وترغيباً للوافد وأهله في اعتناق دين الإسلام المبين • ومقصودهم من قولهم أنزل خيراً أن الله تعالى ترحم على عباده ، وبعث اليهم رسولاً جليلا ، وأنزل عليه كتابا مبينا يهديهم الى الحق والى صراط مستقيم ، يهديهم الى التوحيد والايمان بالله المجيد ورسوله وما جاء به حتى يكون لهم نظام مبارك يمشون عليه ويفوزون به بسعادة الدارين •

وقوله تعالى (للذين أحسنوا) بيان من الله تعالى لجزاء جواب أولئك المتقين المجيبين على الواقع فيقول الله تعالى : (للذين احسنوا) وأتوا بالأقوال الصادقة والاعمال الصالحة المبنية على الإعتقاد بالله تعالى ورسوله وما جاء به من عند الله تعالى (في هذه الدنيا حسنة) وهي بشارة واطمئنان روحي ونشاط نفسي واعتماد على الله في كل الامور فإذا جاءتهم حسنة شكروا الله عليها ، واذا جاءتهم سيئة صبروا . وأما في الآخرة فجزاؤهم أحسن (ولدار الاخرة خير) أي ولثواب دار الآخرة خير من جزاء دار الدنيا بدرجات. (ولنعم دار المتقين) أي دار الآخرة (جنات عدن يدخلونها، تجري من تحتها الانهار ، لهم فيها ما يشاؤن) من النعيم واللذات المحترمة المشروعة (كذلك يجزي الله المتقين الذين) اي المتقين الذين (تتوفاهم الملائكة) وتتسلم أرواحهم حال كونهم محفوظين (طيبين) من نجاسة الفسق والمعاصي وقبائح الاعمال ، ومزينين بالعلم والايمان ومحاسن الاعمال ، (يقولون) أي يقول الملائكة لهم : (سلام عليكم) لا يأتيكم بعد اليوم مكروه (ادخلوا الجنة) التي أعدها الله لكم جزاء (بما كنتم تعملون) مخلصين لله .

(هل ينظرون) أي ما ينتظر كفار مكة (إلا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم أو لإنزال العذاب عليهم (أو يأتي أمر ربك) أي بقيام الساعة (كذلك فَعلَ الذين من قبلهم) أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فعل الذين كانوا قبلهم (فأصابهم) جزاء (ماعملوا ، وما ظلمهم الله) إذ عاملهم بما يستحقونه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فأصابهم سيئات ماعملوا) أي جزاء ما عملوا من السيئات (وحاق بهم) أي أحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب ولا يستهزأ بعذابٍ استهزىء بهِ .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللهُ ما عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنَا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ

شَيْءٍ ! كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَيهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ! بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا : أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ، إِذَا أَرَدْنَاهُ ، أَنْ نَقُولَ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ)(٤٠)

قوله تعالى (وقال الذين أشركوا) أي واستدل المشركون عند إنزال الحجة بما تعوّدوا عليه من قولهم : (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرّمنا من دونه من شيء ! كذلك فعلَ الذين من قبلهم) من الأمم الضالة المشركة ، واستدلوا بمثل هذا الدليل ولكنهم لا ينفعهم هذا الدليل العليل ، ولا تفيدهم هذه الشبهة الواهية ، لأن كل من يؤمن بصانع العالم الحي القيوم يعلم أن جميع الممكنات تحت مشيئته ، ولا يجري في ملكه إلاّ ما يشاء ، وأنه لو شاء الله إيمانَ جميع الكفار لآمنوا لأنهم تحت الأمر وفي مجرى السيطرة والقهر ، ولكن لم تجر سنةُ الله تعالى بإلجاء الناس إلى الإيمان والأعمال الحسنة ، لأن الإلجاء يخرج الملْجأ عن دائرة التكليف ،

ولا يخلي له كل شيىء يناسب التشريف ، بل السنة جرت بتكليف جميع المكلفين بعد تزويدهم بالعقل والعلم و بعث الرسل وبيان السبل ، فمن اختار الحق والهدى اهتدى ، ومن اختار الباطل والضلال تردى ، حيث ضيّع ماعنده من الإستعداد لقبول الرشاد ، ثم قولهم ذلك وحجتهم هذه ليس عن علم بجريان المشيئة السابقة ، لأنه لا علم لهم بها ، بل من شؤم ضلالاتهم وجهالاتهم اللاحقة ، لأنه بعد العتو والعناد ، وترك طريق الرشاد ، وما آلت إليه القلوب من الفساد ، يتمسكون بمشيئة رب العباد • وهذه شبهة كل جاهل عاطل لا يحصل من حياته على طائل ، فإن تبعية المشيئة حَقّ الإتّباعِ هي أن يعرف التابع بها قبل أن يبدأ بالعمل فيعمل بما شاءه عز وجل • (فهل على الرسل) المأمورين بتبليغ الرسالة (إلاّ البلاغ المبين ؟) والإبلاغ ؟ وقد فعلوا ما كلفوا به ، وسيعلم الناسُ كلهم من المُشرّف بالإطاعة ومن المحقّر والمخفف بالإضاعة يوم يجري الحساب بين يدي رب العالمين •

(وَلقد بَعَثنا في كلّ أمةٍ) من الأمم السابقة (رَسولاً : أن اعبدوا اللهَ) وحده (واجتنبوا الطاغوتَ) الداعي الى الضلالة من الإشراك وسائر المفاسد (فمنهم من هدى الله) أي هداه الله إلى الحق واجتناب الطاغوت بحسن إستعداده واختياره الحسن ، وتوجهه إلى ما يليق بإطاعة صاحب الملك والملكوت (ومنهم من حقت عليه الضلالة) لاختياره طريق الجهالة ، فأهلكناهم بذنوبهم ودمرناهم ، فإن لم تعلموا ذلك (فسيروا في الأرض) أرض عادٍ وثمود ونمرود (فانظروا) إلى آثار بلاد أهل الجحود حتى تشاهدوا فتشهدوا (كيف كان عاقبة المكذبين) فقد سبق الأمر وتحقق الخبر وانتهى الأثر (إن تَحرص على هُداهم) وتلك أحوالهم (فإن الله لا يهدي من يُضل) أي من يضله لسوء أفكاره وآثاره (وما لهم من ناصرين)

ينصرونهم في قلب الدين وأوامر رب العالمين (وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم) أي وحلفوا أيماناً جهدَ الأيمان (لا يبعث الله من يموت ! بلى) إنه يبعثهم جميعا فإنه وعدهم بالبعث (وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنه وعدهم ويبعثهم لجهلهم بشؤن رب العالمين • وإنما يبعثهم (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) من البعث والجمود من الحساب والجهود (وليعلم الذين كفروا) بالله المعبود (أنهم كانوا كاذبين) فيخزون في اليوم المشهود وقصارى ماوصلوا إليه من وسائل إنكار البعث إستبعاد إعادة الحياة الى الموتى ولا يعلمون أنه لا صعب علينا (انما قولنا لشيىء اذا أردناه) أي أردنا خروجه من القوة الى الفعل ومن الصورة العلمية الى الصورة العينية (أن نقول له : كن) موجودا عينيا (فيكون) إياه •

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ ، مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ؟(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ

لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ داخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَللهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (والذين هاجروا) أي والمؤمنون الذين هاجروا من ديارهم في سبيل إعلاء كلمة الله (مِن بَعدِ ما ظُلِموا) من جانب الكفار بإزعاجهم وإخراجهم عنها ظُلماً (لنبوئنهم في الدنيا حَسَنَةً) أي مَباءَةً واستقرارةً حسنة فالدار تبدل بالدار والرائد رضا الجبار (ولأجرُ الآخرة أكبر) مما استُعجِل لهم في الدنيا (لو كانوا يَعلَمُون) أي أولئك المؤمنون المهاجرون لفرحوا بهجرتهم • أو لو كانوا يَعلمون أي أولئك الكفار المُخرِجُون لهم عن الديار بما نال المهاجرون لكانوا معهم في الدين (الذين صبروا) بَدَل من الذين سابقا أي صبروا على ما نالهم من الظلم ولم يتندموا عن ما فعلوا (وعلى ربهم يتوكلون) منقطعين إليه ، أو خبر مبتدأ محذوف • وما نقموا به عليك من كونك رجلا منهم ليس محل النقمة أبداً فإن ذلك جارٍ على سنتنا (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً) أمثال أفراد قومهم في أكلهم وشربهم وقيامهم ونومهم ••• وفي سائر مقتضيات الطبيعة البشرية من الأعراض والأمراض لكننا (نوحي إليهم) من فضلنا ، ونخصهم بالإيحاء إليهم ، وهذه رتبة عالية سنية ومزية بشرية علية (فاسألوا أهل الذكر) أي أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى (إن كنتم لا تعلمون) وجواب هذا الشرط ما تقدم إن جوز التقديم ، وإلا فمحذوف يدل ذلك عليه وأرسلنا أولئك الرجال (بالبينات) من المعجزات

(وبالزبر) والآيات والبينات للتصديق والآيات للتطبيق (وأنزلنا إليك الذكر) أي القرآن الجامع لجانبي الإعجاز والتطبيق (لتبين للناس ما نزل اليهم) والبيان بالنسبة الى النصوص الواضحة هو التبليغ كما نزل ، وبالنسبة إلى ما يحتاج إلى الإيضاح هو تفسيره وكشف الغطاء عنه بتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وإيضاح المجمل ، ونسخ ما نسخ منه وغير ذلك (ولعلهم يتفكرون) الضمير راجع إلى الكفار ، والمقصود لتبين ما نزل لعل الناس الجاهلين المعاندين يتأملون بعقول صافية في تلك الحقائق ويؤمنون بها أو إلى الناس جميعا ، أي ليتأمل الكل فينال الكل نصيبه بحسب مستواه ، فيهتدي الكافر الى الإيمان ويزيد المؤمنون هُدىً بربهم (أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئاتِ) مِن أهل مكة الذين مكروا بك (أن يخسف الله بهم الأرضَ ؟ أو يأتيهم العذابُ من حيث لا يشعرون ؟) كجهة مأمنهم أو جهةٍ لا يتصور مجيىء العذاب منه (أو يأخذهم الله في تقلبهم) يمنة ويسرةً ، فإن عذاب الله لا يحتاج إلا إلى آن النزول (فما هم بمعجزين ؟) وفائتين من الله بالهرب فلا ملجأ من الله إلا إليه (أو يأخذهم على تخوف) أي على حين مخافة وحذر من الله تعالى بأن يهلك قوما قبلهم فيخافون من نزول العذاب عليهم كما نزل على تلك الامة السابقة لوجود العلة فيهم أيضا ، أو يأخذهم على تَنَقُّصٍ من نفوسهم وأموالهم ووسائل معيشتهم شيئا فشيئا ، فإن الناس إذا أتاهم نقص في النفوس ثم في الاموال ثم في المقام والاحترام خافوا من هذا الترتيب في النقصان مآسِيَ وعقوباتٍ أخرى ، فان لم يأتهم بما يخافون منه (فإن ربكم لرؤف رحيم ؟) حيث لا يأتيكم بما تخافون منه .

ومما ينبغي أن يعلم أن ليس المراد من الآية الشريفة حصر أسباب هلاك القوم ، لأن الأسباب لا تدخل في الحساب . وقد قال تعالى

(وما يعلم جنودَ ربك إلا هو) فإن من جنده الهجوم من الأعداء ، او نزول العذاب من السماء ، أو حدوث الأمراض والوباء ، او الموت بالقحط والغلاء ، أو بوقوع الفتنة بين الناس فيقتل بعضهم بعضا ، أو باجتياح الحشرات السامة أو السباع الضارية أو السيل والغرق والحرق أو الزلازل والبراكين وغير ذلك مما لا يكاد يحصى . ولكن الله تعالى أراد أن يهددهم بما سمعوا من المصائب الواردة على الأقوام المجاورة الساكنة في جزيرة العرب وحاصل ذلك إما عذاب الإستئصال أو لا ، والأول قد كان بالبركان كما لقوم ثمود فخسف الله بهم الأرض ، أو بالرياح المهلكة كما لقوم عاد . والثاني إما عند السفر إلى خارج البلد في الاعمال التجارية . واما اتى عليهم في مساكنهم وأوطانهم من البلايا المهلكة للناس شيئا فشيئا لا مرة واحدة وهذا القسم أخفها كما ترى ولذلك عقبه بقوله الكريم (فان ربكم لرؤف رحيم) ثم إنه ليس سياق القرآن الكريم سياق الفلسفة الواردة المترددة بين النفي والإثبات حتى تتباين الأقسام . وعلى العموم بعضها مع بعض لجواز اجتماع البراكين الارضية مع نزول العذاب السماوي كأن يكون مع البركان الخاسف للناس في الأرض نوازل سماوية تهلك المشردين من القوم في أطراف البلد كامطار الحجارة مِن السماء على أرض ثمود التي تسببت في قتل ما بقي من أفراد القوم والأمر في رعاية ذلك سهل يسير .

ثم إن في قوله تعالى (والذين هاجروا) إلى قوله تعالى (فان ربكم لرؤوف رحيم) فوائد مهمة .

الأولى : إن الذين أرادوا إعلاء كلمة الله في الأرض وتسبب ذلك لهجرتهم وتركهم الديار وصلوا إلى السعادة الكاملة بالرفاه والراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، بشرط مقارنة هجرتهم بالصبر وتحمل الأذى والأتعاب ، فإن الصبر هي دعامة الوصول إلى السعادة .

الثانية : وجوب النظر إلى الرجال البارزين في العالم سواء كانوا من أهل الدين أو الدنيا نظرة واقعية، فإنهم لم يكونوا من النحاس ولا من الذهب، بل كانوا بشرا كسائر البشر ، وكان لهم مناسبة مع سائر الناس في الهيكل والصورة ، ولكنهم خالفوهم في السيرة وجهات الإختصاص في تلك الطبقة تميزهم عن سائر الناس بالأخلاق العالية من : الفكرة السليمة ، والمشاورة ، والإنتباه ، وإعداد العدّة ، والنظر إلى المستقبل ، والإستقامة ، والوفاء بالعهود والوعود ، وسائر مايتقدم به الانسان على بني نوعه ...

الثالثة : أن القادة هم أعلم بمبادىء النظام المقرر للحركة الدينية أو الدنيوية ، ويجب مراجعتهم لشرح نصوص المبادىء في حياتهم ومراجعة من قام بأعباء مهماتهم بعد مماتهم .

الرابعة : أن الأمة كائنة ما كانت يجب أن لا تغفل في طريق سيرها عن العثرات والزلات ، ومن أهمها الكفر لنقمة الله تعالى والتولي عن الحق ، والتوغل في الشهوات ، فإن الله لعباده بالمرصاد ، وإن جنود الله لا تعدّ ولا تحصى فكم من أمة أتاها عذاب الله تعالى من حيث لم تتصور ورود ذلك العذاب عليها سواء كان العذاب عذاب الإستئصال أو عذابا نزّلها إلى محل لا يليق بها حتى تزول عن مكانها ومكانتها . وأهم أسبابه البطر والغرور والكفر بنعم الله تعالى وترك ما استقر عليه كيانها أولاً . وفي ذلك كفاية لأهل العناية .

ثم نبه الله سبحانه وتعالى أولئك الكفار المبتعدين عن ادراك الحقائق بالقلوب إلى احساسها بالحواس يعني هب إنهم ليسوا من أهل العقول ، أليسوا من أهل الحواس حتى يستعملوها في ما يفيدهم فائدة تخرجهم من العناد والإستكبار وترجعهم إلى إطاعة الملك الجبار ، وقال : (أَوَ لم يَرَوا إلى ما خَلَقَ اللهُ من شيىء) أيّ شيىءٍ كانَ مِن الشواخص المادية

المتظلّلة التي ترى ظلالها عند ظهور الشمس على الأفق إلى غروبها عن الأفق المقابل حيث (يتفيؤ) أي ترجع وتميل (ظلاله عن اليمين) نحو الغرب إذا طلعت الشمس (وعن الشمائل) نحو الشرق إذا مالت نحو المغرب حالكون الظلال أو أصحابها (سجدا لله) أي منقادة له جارية على ما أراد من الإمتداد والتقلص وغيرهما ، غير ممتنعة عليه ، أليس ذلك الوضعُ من ظهورِ الشمس وارتفاعها ووصولها إلى خط نصف النهار وميلها إلى المغرب ؟ وأليست الشمسُ كوكباً نهاريا يستضييء أكثرُ من نصفِ الكرة الارضية بنورها ؟ أليست هذه الكرة وأمثالُها والأرض والأعيان والشواخص مسخرة بأمره تعالى أليست الكرة الارضية تظلم بغيابها عن الافق وتضييء بظهورها وطلوعها مرةً اخرى منه تعالى ؟ وقوله (وهم داخرون) بوصف المذكر العاقل وضميره لمراعاة وصف السجود الذي لا يليق إلا بأهل العقل والإدراك والشهود لا بالحيوان الغير العاقل ولا بالجماد الواقع بلا إدراك للوجود . أي والظلال وأصحابها داخرون متصاغرون وأذلاءُ خاضعون لله الواجب الوجود الخالق لكل ممكنٍ موجود ، المعبود بالحق لمن يتأتى منه السجود .

ثم نبه الباري تعالى على أن ليس السجود مختصا بها ، بل يعمها وغيرها وقال : (ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة) أيّةَ دابةٍ في الأرض أو البحر أو الجو أو السماء (والملائكة) الكائنة فيها أو في الارض أو غيرهما (وهم لا يستكبرون عن عبادته) تعالى والسجود له (يخافون ربهم) أي يخافون مالك أمرهم وخالقهم الغالب (من فوقهم) واستيلاء الفوق والغلبة منه استيلاء على باقي الوجود (ويفعلون مايؤمرون) وإذا أرجعنا الضمائر إلى العقلاء مما ذكر فالمعنى واضح ، واذا أرجعناه الى الكل فمعنى الخوف واطاعة الامر الخضوع وعدم المعارضة لما يرد ويتوجه

إليها حسب مستواها • واستدل بالآية على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء • أما دلالتها على التكليف فلقوله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) وأما على الخوف فهو أظهر من أن يخفى ، وأما على الرجاء فلاستلزام الخوف له ولكنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون •

(وقالَ اللهُ : لا تَتَّخِذُوا إلهَيْنِ اثْنَيْنِ إنمّا هُوَ إلهٌ واحِدٌ ، فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ واصِباً ، أفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ؟(٥٢) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ اذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ اذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسوفَ تَعلَمُونَ (٥٥) ويَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عمّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ويجعلونَ للهِ البَناتِ سُبحانَهُ ! ولهُمْ ما يشْتَهُونَ (٥٧) وَاذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُو كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ ، أيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ امْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ ؟ ألا ساءَ مايَحْكُمُونَ ! (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وللهِ الْمَثَلُ الأَعْلى وهوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٦٠)

قوله تعالى (وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين) عطف على قوله تعالى (ولله يسجد) الآية ••• فيقول (وقال الله) أي وحكم الله تعالى وقرر أن

(لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إلـه" واحد" فإياي َ فارْهَبُونِ) أي فخافوني ولا تخافوا غيري • والفاء في قوله (فارهبون) واقعة في جواب شرط مقدر، وإيّايَ مفعول لفعلٍ محذوف يقدر مؤخرا يدل عليه فارهبون : أي إن رهبتم شيئاً فإياي ارْهَبوا • (وله ما في السماوات والارض وله الدين) وحده (واصبا) واجبا لازما لا زوال له (أفغير الله تتقون ؟!) والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب ، أي أبعد ما تقرر من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى ، وكون ذلك كله له سبحانه ، ونهيه عن اتخاذ الالهين ، وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به تعالى تتقونَ غيرهُ ؟!

(وما بكم من نعمة فمن الله) أي أيّ شيىء يلابسكم من نعمة ، أيّ نعمة كانت ، فهي منه تعالى واعلموا أن منه تعالى لا من غيره (ثم إذا مَسكم الضرّ" فإليه تَجئرون) أي فإليه تتضرّعون في كشفه لا إلى غيره (ثم إذا كَشَفَ الضُرَّ عنكم) أي رَفَع ما مَسَّكُم من الضرّ (إذا فريق" منكم بربهِمْ يُشركون) أي يتجدّدُ إشراكهم ويستمرّ ذلك (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة كشفِ الضرِّ (فتَمتّعوا) أمرُ تهديدٍ (فسوف تعلمون !) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب (ويجعلون لما لا يعلمون) أي لآلهتهم المزعومة مما لا يعلمون شيئا ولا يهتدون سبيلا (نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والأنعام وغيرهما ، وهذا اجتراء" وافتراء على الغيب (تالله لتسئلنّ عما كنتم تفترون) من قولكم بأنها آلِهة وأنها تُعبدُ وأن لها شأنا من الإختصاصات (ويجعلون لله البنات) أي يعتقد بعض من العرب المشركين وهم خزاعة وكنانة أن الملائكة بناتُ الله تعالى ، وأطلقوا عليها اسم البنات لاستتارهن عن العيون كالنساء المخدرات (سبحانه !) تنزيه

وتقديس له تعالى عما نَسبو اليه حسبَ زعمهم (ولهم ما يشتهون) أي وجعلوا لله البنات وجعلوا لأنفسهم ما يشتهونه ويحبونه من البنين .

(وإذا بشّر أحدهم بالأنثى) أي وإذا أخبر أحدهم بولادة أنثى له (ظل وجهه مُسْوَدا) من الكآبة والحزن والحياء من الناس (وهو كظيم) أي مملوء" غيظا (يتوارى) أي يتستر ويختفي (من القوم من سوء ما بشر به) بحسب عرفهم ، وإلا فالبنت قد تكون أسعد وأنفع من الابن. ويتردد في قلبه : (أَيمسِكُهُ على هُونٍ ؟) يعني أيُبْقي ما بُشر به ويخدمه ويربيه مع حقارة وهَوانٍ له (أم يدسه في التراب ؟) أم يحفر له حفرة ويخفيه في التراب ؟ (ألا ساء ما يحكمون !) به من اختيار البنين لأنفسهم واختيار البنات له تعالى ، مع أنهم لا يرضون بها ، ويخجلون من وجودها ، هذا من ناحية اختيار أنفسهم بالخير ، ومن ناحية أخرى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم المشركون (مثلُ السوءِ) أي صفة السوء وهي الحاجة الى الولد (ولله المثل الأعلى) وهو الإستغناء عنه (وهو العزيز) المنفرد بالقدرة الكاملة الدائمة (الحكيم) الذي يفعل ما يفعل بالحكمة ، ولا حاجة الى ذات واجب الوجود كامل الصفات إلى غيره بأي وجه من الوجوه .

(وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِن دابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى اَجَلٍ مُسَمّى ، فَإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) وَيَجْعَلُونَ لله ما يَكْرَهُونَ ! وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى ، لاجَرَمَ اَنَّ لَهُمُ النّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ(٦٢) تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(٦٣)

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٦٤)

قوله تعالى : (وَلَو يُؤاخِذُ اللهُ النَاسَ) يعني ولو يوآخِذُ اللهُ الناسَ الظالمين مطلقا من أيّ وَجه ، أو الظالمين بالإشراك بظلمهم ، أي بسبب ظلمهم (ما تركَ عليها) أي على الأرض (من دابة) أي من أيّ إنسان يدب على الأرض من الظالمين ، لأن فساد الظلم يوجب إبادة الظالم جزاء وفاقا ، أو ماترك على ظهرها من دابة من الإنسان الظالم وغيره ، أما الظالم فلظلمه ، وأما غير الظالم فلشؤم ظلم الظالم على جريان سنة الله تعالى في الكون ، من ان إهلاك الملزوم اهلاك اللازم ، فإذا أراد إغراق الظالمين بالماء فقد أراد إغراق ما في مجرى الماء • ولذلك قال تعالى : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) والمشهور في تفسير الآية أنه لويؤاخذ الله الناس الظالمين بظلمهم ماترك على الارض من دابة من انسان أو غيره من ظالم أو غيره • أما الظالم فلظلمه ، وأما غيره مطلقا فلشؤم ظلمه الساري الى غيره• وقال بعض : معناها أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم كانَ أَهلكَ آباءنا الظالمين بظلمهم فما كان يحصلُ وراءهم عَقَب، وما من سلسلة الا وفي أصلها ظالم أو ظالمون • وإذا أهلك الاصل والنسل أهلك الدواب أيضا لانها خلقت لمنفعة الناس بالذات أو بالواسطة ، كما أفاده قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) ولكن لا يؤاخذهم بذلك بل يؤخرهم الى أجل مسمى عينهُ سبحانه وتعالى لكل ما دَبَّ عَلَى الارض (فاذا جاء أجلهم) المعين في علمه تعالى (لا يستأخرون) عنه (ساعة) أي أقلّ مدة (ولا يستقدمون) •

قيل ان الإستئخار معقول ، فما معنى الإستقدام ؟ وأجيب عنه بأجوبة :

الاول : أن عطف جملة (لا يستقدمون) على ما قبلها مقدم على ربطهما بصدر الكلام ، فالمعنى فإذا جاء أجلهم لا مجال للتبدل مطلقا •

الثاني : أن جملة (ولا يستقدمون) معطوف على الشرط لا على جوابه. فالجملة الأولى انتهت في قوله (لايستأخرون ساعة) . ثم عطف جملة ولا يستأخرون على قوله (إذا جاء أجلهم) فتكون بيانا لاستحالة طلب التأخير .

الثالث : أن في الكلام طيّا ونشراً فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة ؛ وإذا لم يجيء لا يستقدمون . أي وقبل مجيىء الأجل لا يطلب أحد تقديم أجله ، لأن الله مادام عين ذلك الوقت للفوت لا يُخلي الإنسانَ يَطلبُ تقديمه ولا يقدمه .

(ويجعلون لله ما يكرهون) : أي ويعتقد الكفار المشركون ثبوتَ مايكرهونه من البنات لله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذبَ) أي ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذبَ وهو (أن لهم الحُسنى) أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى . وأي حمقٍ أوفى من عِداء ذاتٍ يكون مرجعا للخيرات ، واعتقاد إختصاص أعدائه بأوفى الحظوظ منها ؟ (لاجرم أن لهم النار) أي لا شبهة في أن لهم النار جزاء لتلك العقائد الفاسدة والاعمال السيئة (وأنهم مفرطون) أي معجل" بهم إليها ، أي فكما ماتوا وقعوا في العذاب ، وما في البرزخ يكون مقدمة نزلهم يُبشرهم بلذة ماوراء ذلك من النار .

ثم صبر رسوله وسلاه بأن" هذه الامة المشركة الفاسدة ليست مختصة بك بل قد كان في السابق مثل أمتك أو أعلى منها في غلوها في الفساد فقال (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) أي رسلا (فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم) أي قرينهم (اليوم) أي يوم زين لهم الاعمال وأضلهم اضلالا (ولهم عذاب أليم) وهو عذاب نار الجحيم (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) من البعث والحشر والنشور (وهدى ورحمة) عظيمين (لقوم يؤمنون) فإنهم المغتنمون بخيراته في الدارين .

(وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَحيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً : نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ(٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(٦٩)

قوله تعالى (واللهُ أنزل من السماء ماء) جرى الباري بحكمته على ما تقرر من سنته في إرشاد العباد من بيان نعمه التي لا يحصى المحسوس منها والمعقول فقال (والله أنزل من السماء ماء) أي من السحاب ، أو من الجهة العليا النظيفة اللطيفة التي ليس فيها شائبة الأدناس والاوساخ ماءً ومادة من أنفع المواد لمعيشة الحيوانات وإنبات النبات وبث الرخص في الكائنات (فأحيا به الأرض) بما أنبت فيها من أنواع النبات (بعد موتها) أي بعد يبسها . فالإحياء استعارة للإنبات ، والموت للجدَبِ واليبس واليأسِ من المُخضّرات (إن في ذلك) العمل المتقن الحكيم أي إنزال الماء من السماءِ لإحياء الأرض (لآيةً) وعلامةً عظيمة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته واختصاصه بالتأثير ووجدته (لقوم يَسْمَعُون) أي يسمعون الآيات ويَقبلونها وينتفعون بها في الاستدلال على الحق واليقين (وإن لكم في الأنعام) أي في خلقها وجعلها محتوية على المنافع (لعبرة) أي لأمراً يعتبر

وينعظ به ويتجاوز به من الجهل الى العلم ، فاستأنف لبيان ما فيها وقال : (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا) مُصفى مما يصحبه من المواد الكثيفة بتضييق مخرجه ، سائغا للشاربين سهل المرور في حلقهم لدهنيته ، والفرث على ما في الصحاح : السرجين مادام في الكرش ، والجمع فروث . وفي البحر : إنه كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المعى . وبين تقتضى متعددا ، وهو هنا الفرث والدم ، فيكون مقتضى الظاهر توسط اللبن بينهما . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن البهيمة إذا اعتلفت وانضج العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دماً . وفي البيضاوي : ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة للبن ، وأعلاه مادة للدم الذي يغذي البدن ، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش ، ويبقى تفله وهو الفرث ثم يُمسكها ريثما يهضمها هضما ثانيا فيحدث اخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين ، وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها، ثم إن كان الحيوان أنثى زادت أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها ، فيندفع الزائد أوّلاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها الغُدَدِيَّة البيض فيصير لبنا . ومن تدبر صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارّها ومجاريها ، والاسباب المُولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به أضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهى رحمته انتهى .

وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والأعناب) متعلق بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وتتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، كشف لكنه الأسقاء . والسَّكر مصدر سمي به الخمر

والرزق الحسن كالتمر والزبيب والدبس والخل . والآية سابقة على تحريم الخمر لأنها مكية والتحريم كان بالمدينة . وفيها إشارة إلى كراهة شربها إذ ذاك لمقابلتها بالرزق الحسن . ولعل أصل الكراهة أمر" ذاتي قبل ملاحظة الشرع ، وذلك لتشويشها للعقل الذي هو مداد السعادة . وقيل : السكر النبيذ (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم بالنظر والاستدلال بالآيات على النتائج النظريات .

(وأوحى ربك إلى النحل) أي ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه الا اللطيف الخبير ، وكذلك كل ما كان من الغرائز في تربية النسل وصيانته وتداوي الامراض والجروح الحيوانية ، وحتى في كثير من الاوضاع النباتية في التفافها حول الشواخص ، والتفاتها الى الحرارة الشمسية وما شابه ذلك ... (أن اتخذي من الجبال بيوتا) أي أوكارا ومحلاتِ قرارٍ تناسب أوقات الحرارة والبرودة وتربية العسل وتوليد النسل وغير ذلك مما تحتاج إليه . (ومن الشجر) أي واتخذي من الشجر بيوتا (ومما يعرشون) أي ومما يعرشه الناس أي يرفعه من الكروم . ومن في المواضع للتبعيض ، فإن النحل لا يتخذ البيت في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش (ثم كلي من كل الثمرات) التي تناسب طبعك وتوافق منتوجك (فاسلكي سبل ربك) أي فاسلكي في تحصيل ما تتغذينَ به ، وفي العود إلى المقرات الاساسية السُبُل التي ألهمك بها ربك حالكونها (ذُلُلا) أي مُذَللة ذللها الله تعالى وسهلها لكَ (يخرجُ من بطونها شراب) أي عسل" يشرب (مختلف ألوانه) بالبياض والصفرة والحمرة والسواد على اختلاف المراعي حسب سنته تعالى في مناسبة الناتج للأصول أو لغير ذلك . (فيه شفاء للناس) إما بنفسه أو مع امتزاجه بغيره وليس معنى الآية الكريمة أن في العسل شفاءً لكل الناس من كل الأمراض ، بل أن فيه شفاء لكلهم من الامراض التي

تعالج بشربه حسب إرادته تعالى (إن في ذلك) المذكور من اعمال الباري جل جلاله (لاية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فإن من تفكر في خلقِ النحلِ بتلك الاوصاف والمُهمات الدقيقة لأخذ البيوت من الجبال والأشجار والعريش ، ولصنع الكوارة المسدسة التي تُعجِبُ المهندسين ، وفي رعيها من الثمار ، ورجوعها الى الأوكار ، وإدارة العسل ، وتربية النسل ، ثم في إلهام النظام الى ذلك النوع من حيث إطاعة الأمير والإصطفاف حوله ، والتغني بأصوات رنانةٍ كالموسيقى العجيبة حتى يخرج الأمير ويطير فيطيرون وراءه .. لآياتٍ للمهتدين .

(وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّيكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى اَرْذَلِ العُمُرِ ، لِكَيلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئاً ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٧٠) وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ في الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذينَ فُضِّلُوا برادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَهُمْ فيهِ سَواءٌ ، اَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ؟(٧١) وَاللهُ جَعَلَ لكم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، اَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ؟(٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ(٧٣) فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثالَ ، اِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)(٧٤)

قوله تعالى : (والله خلقكم ثم يتوفاكم) إستئناف لبيان قدرته تعالى على إبداء الإنسان من النطفة المعينة وتعريضه للعوارض فقال : (واللهُ

خلقكم) وأخرجكم من عالم صورةٍ نوعية الى صورة نوعية أخرى وأبْقاكم حسبما تقتضيه علمه وإرادته (ثم) إذا جاءَ الأجل المسمى (يتوفاكم) ويقبض أرواحكم فتعودون إلى عالم البرزخ إلى يوم تُبعثون (ومنكم مَن يُرَدّ إلى أرذل العُمر) أي وبعد أن خَلَقكم فمنكم من يتوفى قبل الوصول الى أرذل العمر (ومنكم) من يرد الى أخسّ العمر وأحقره ، وهو وقت الهَرَم الذي تنقص فيه القوى والحواسّ ويعود الانسان كالطفل الضعيف عقلاً وإدراكاً • وأرذل العمر لا حَدّ مُعيناً لهُ ، وانما هو يختلف باختلاف الأمزجة ، فربّ معمر واصل الى المائة لم تنقص قواه ، ورب منتقص في القوة لم يتجاوز ثمانين • وكان من دعائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما اخرجه البخاري عن أنس « اللهم إني أعوذ بك من البُخل والكَسَل وأرْذَلِ العمر وعذابِ القبر وفتنة الدجال وفتنة المَحيا والممات » وقوله (لكي لا يعلم بعد علم شيئا) اللام فيه للعاقبة وهي في الأصل للتعليل ولكنها استعيرت للصيرورة والعاقبة كما في قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) والكلام كناية عن غاية النسيان، أي ليصير الإنسان ، نَسّاءً بحيث إذا كسب علما في شيىء لم يلبث أن ينساه ان الله عليم بكل شيىء قدير على كل شيىء فهو قادر على كل شيىء وعليم به •

(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) وجعلكم متفاوتين فيه (فما الذين فُضّلوا) على غيرهم فيه (بِرادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) أي لا يقدرون على أن يَرُدوا رزقهم الذي رزقهم الله على مماليكهم • أي أن السادة المُفَضّلين على العبيد في الرزق لا يقدرون أن يجعلوهم مستوين لأنفسهم في الرزق ، فكلٌ يستوفي رزقه • ومعنى ذلك أن السادة وإن كانوا مفضلين في الرزق وأغنياء لا يقدرون على زيادة أرزاق العبيد على ما قدره الله تعالى وقرره ، (فهم) أي السادة والعبيد فيه أي في الرزق سواء لا قدرة

لاحد الطرفين أن يزيد في رزق الآخر ، فإن الكل مرزوق لله ورزقه من الله تعالى ، وما يرى ظاهراً من أن السيد قادر على زيادة رزق العبيد ليس كذلك فالإنسانُ أينما كان ، وفي أي زمانٍ فرِزقه من الله لا مِن غيره ، فكيفَ ينسبُ أولئك الكفار المشركون أرزاقهم الى الأصنام ويجعلونها مبدأ لسعة أرزاقهم دون الله ؟ (أفبنعمة) الله تعالى وهي الأرزاق الواردة منه إليهم (يجحدون) وينسبونها إلى أولئك الهياكل الجامدة ؟ فسبحان الله عما يشركون •

(واللهُ جَعَلَ لكم من أنفسكم) أي من بني نوعكم (أزواجا) تَستأنسون بهن وتقيمُون مَعَهُن مَصالِحكم في الدنيا وتَبْنونَ اساس النسلِ والعائلة (وجعل لكم من أزواجكم بَنينَ) في الدرجة الاولى (وحَفَدة) في سائر الدرجات (ورزقكم من الطيبات) في طبائعكم للزواج من النساء كما قال تعالى (فانكحوا ما طابَ لكم من النساء) أو رزقكم مع أزواجكم وبنيكم وحفدتكم الطيباتِ من الأقوات والألبان واللحوم والفواكه وغيرها (أفبالباطل) وهو نسبة هذه المنافع الى الاصنام (يؤمنون وبنعمة الله) وهي النعم المخلوقة لله الواصلة منه تعالى (هم يكفرون ؟!) •

(ويعبدون) أي أولئك المشركون (من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والارض شيئا) أي ما لا يقدر أن يرزقهم شيئا (ولا يستطيعون) تملكَ شيىءٍ لأن التملك يتفرع من الحياة والعلم والقدرة والاصنام بَراءٌ من تلك الصفات (فلا تضربوا لله الأمثال) أي فلا تجعلوا لله الموصوف بالكمال الأمثال والاكفاء تعالى عن ذلك ، ولَم يكن لَهُ كفواً احَدٌ ، إن الله يعلم كنه ما تفعلون فيعاقبكم عليها (وأنتم لا تعلمون) كنه ذاته وصفاته • او لا تضربوا الأمثال كما يضرب الله الامثال ، فإن الله يعلم الامثال المناسبة

وضربها ، وأنتم لا تعلمون فقفوا عند حدودكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين .

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً، فهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً .. هَلْ يَسْتَوونَ ؟ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ؛ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلِيهُ ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟(٧٦) وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٧٧)

قوله تعالى (ضرب الله مثلا) بعد أن نهاهم الله عن ضرب الأمثال لأنهم لا يقدرون اللهَ حقَّ قدره والله سبحانه وتعالى عالم بكل مادق وجل فيضرب الأمثال مطلقا وهو حقيق بذلك .. قال (ضَرَبَ اللهُ مثلا) أي وذكر لكم مثلا تعتبرون به وتتركون الإشراك . وقوله (عبداً مملوكا) بدل من قوله مثلا . والحاصل أن الله سبحانه ذكر أن هناك عبدا مملوكا ضعيفا نحيفا جاهلاً بالحقائق (لا يقدر على شيء) فهو جامع لموجبات الوهن أي العبودية والإنقياد لأمر سيده ، وجهله وعدم قدرته على الوفاء بأية مهمة من المهمات (وَمَنْ رَزَقناه) أي وشخصا حرا في تصرفاته رزقناه (رزقا حسنا) حلالا طيباً أو مستحسنا عند الناس (فهو ينفق منه) أي مما رزقناه (سرا وجهرا) لأنه ملكه المختص به والناس يستفيدون منه (هل يستوون ؟) أي ذانك الإنسانان في الحيازة للأموال والصرف على الناس مع النساء

والرجال ، وهل يستويان في عقول العقلاء قدرا وشرفا ؟! والجواب : لا • فالشركاء الجامدون الهامدون أمثال للعبد المملوك بل العبد المملوك أقوى وأقدر ، لأن فيه إنسانية وعلما وقوة وحركة ذاتية ، والباري سبحانه وتعالى مثل للشخص الحر القوي القادر المتنفذ الباذل ماله للناس حسب ما أراد ، ولا يستوي الطرفان بأي عقلية وتصورٍ ناشيء من المتصورين الخبراء • وإنما جَمع الضمير مع أن المرجع مثنى للإشارة إلى أن المقصود هنا من اتصف بالأوصاف المذكورة المتخالفة لا الفردان • (الحمد لله) على خلقه المميز بين الصالح وغيره (بل أكثرهم لا يعلمون) الحقائق فيضيفون النعم إلى غيره •

(وضرب الله مثلا) أي مثلا آخر : (رجلين أحدهما أبكم) بكماً وخرساً خُلقيا لا ينطق بخير يستفاد منه ولا بشر يستفاد من اعتبار مقابله (لا يقدر على شيىء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو غيره (وَهُوَ كَلٌّ) أي حَملٌ ثقيل وعيال دخيل (على مَوْلاه) أي على من يتولى امره سيدا أو غيره (أينما يوجه) مولاه (لا يأت بخير) ولا يستحصله له (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل) وهو ناطق فصيح بليغ مفيد مُريحٌ (وهو على صراط مستقيم ؟) لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب فرصة سانحة • والمثل مذكور للفرق بين الجامد والنامي ، والجاهل والعالم ، والعاجز والقادر ، والأصنام الجامدة المصنوعة ، والذات الواجب الوجود الذي هو في كل فعال محمود (ولله غيب السماوات والارض) أي ولله العلم بما غاب عن علم من سواه في السماوات والارض والسيطرة عليها (وما أمر الساعة) التي تحدث بدمار هذا العالم وحدوث عالم جديد (إلا كلمح البصر) أي كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، (أو هو أقرب) لان ذلك اللمح الآني ينقسم إلى ما هو أدق منه بمرات ، وقدرته تعالى نافذة في أصغر وقت يمكن

تحقق الحادث فيه (إن الله على كل شيىء قدير) ومن الشيىء تحقق الممكن في أقل وأدق من لمح البصر كما هو معلوم .

(وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوا إلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ ؟ ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللهُ ، إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بُيُوتاً، تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ، وَيَوْمَ إقامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إلى حِينٍ (٨٠) واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً ، وجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فإنْ تَوَلَّوا فَإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها ، وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ)(٨٣)

قوله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومربوط به لفظا ومعنى ، وكلاهما من الأدلة على وجود الباري تعالى وكمال صفاته ووحدته ذاتا ووصفا وفعلا . وقوله (لا تعلمون شيئا) النفي فيه لعموم السلب ، أي يستغرق النفي فيه سائر المعلومات المتغايرة لذات العالم فلا ينافي أن يلازم النفس الناطقة علمها بنفسها ، لأن كلامنا هنا في العلم بالمعلومات المباينة لها ، (وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة) أي وخلق لكم حاسة السمع

والبصر ، وكذلك سائر الحواس ليستعملوها في إحساس ما خلقت له ، وجعل لكم القلب أي قوة الإدراك المودعة فيكم ، فتأخذ من مدركات الحواس وتربط بعضها ببعض وتكتسب الأمور المكتسبة بحسب قوتها وقابليتها . والحاصل إن الله تعالى خلق من النطفة الطفل وهو بريء من المعلومات ، إلاّ ما لزم ذاته ثم أبدَعَ فيه الحواس وجعلها وسيلةً لاكتساب العلوم النظرية ، فالمبدع للذوات والصفات بهذا النمط البديع هو الله الذي يجب أن يُعبَدَ وحدَه ولا يُشرك به أدنى موجودٍ مُفْتَعَلٍ مَصْنوع خالٍ عَن كل كمال وفضيلةٍ ؛ لأن الله تصرف فيكم بذلك التصرف العجيب (لعلكم تشكرُون) نعمة الإبداع وإيداع الصفات وجعلها وسيلة لاكتساب الكمالات لا للكفر به وإنكاره، أو للإشراك به ما لا يفهم شيئا ولا يهتدي إلى خير في الدنيا والدين .

(ألم يَروا) أي أولئك الناس الذين نَسُوا نعمة الله وتركوا توحيده (إلى الطير مسخرات في جو السماء) في الهواء المتباعد من الأرض، وجعل لها جناحين، وأودع فيها قوة تحريكهما المستعجل حتى تقطع المسافات في مدة يسيرة ، وقد تبقى في الجو بدون حركة وانتقال (مايمسكهن) في الجو وما يمنعهن عن النزول إلى الارض مع أن الأثقال مائلة الى المركز (إلا الله ؟) الخالق فيها قوة حافظة لها عن الوقوع والنزول (إن في ذلك لآيات كثيرة) مهمة (لقوم يؤمنون) بالله وبتأثير قدرته ومقارنته مع حكمته في التكوين .

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أي مَقراً تسكنون فيه وتستريحون على حسب عادتكم (و) جَعَل لكم (من جلود الأنعام) من الإبل والبقر وأمثالهما وأدنى منهما (بيوتا) مغايرة لبيوتكم المعهودة في دار المقامة ، وهي بيوت الأمم الرحالة ، أو الذين يسكنون الجزر في البحار المعرضين للمد والجزر الموجبين للانتقال منها الى محل آخر حسب الأوضاع الجارية

فيها (تستخفّونها) أي تجدونها خفيفة الوزن (يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) أي للحمل يوم ارتحالكم وللحط يوم الإقامة (ومن اصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها) والضمائر للأنعام . الصوف للغنم ، والوبر للابل ، والشعر للمعز (أثاثا) أي متاعا للبيت كالفرش وغيرها (ومتاعا) أي شيئا يتمتع بـه ، ويحصل التمتع بوجوه كثيرة منها : واجبة كالستر والوقاية من الحر والبرد الواجبين ، ومنها سنة ، ومنها زينة وجمال ، ومنها ما هـو عرضـة للبيـع والتصدير وسائر وجوه المتاع من النسج ... كل ذلك (إلى حين) معـين عند الله فإن ما في الدنيـا زائـل .

(والله جعلَ لكم مما خلق) أي مـن غير صُنع منكم (ظلالاً) أي أشياء تستظلون بها (من الجبال) والكهوف والأشجار ، وكالغمام في بعض الأوقات من الأيام (وجعل لكم من الجبال أكنانا) أي محلات للتستر مـن الأعداء ونزول البلاء كالأمراض المحوجة إلى الصافي من الهواء (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) وكذا البرد إلا أن الأول أهم ولـذا قـدم بالإختصاص بالذكر (وسرابيل) من الجوشن والدروع (تقيكم بأسكم) أي تحفظكـم عن الجرح أو الموت في يوم حربكم (كذلك يتم نعمته عليكم) أي بهذا النوع من الإتمام للحوائج التي تنفعكم يتم الله تعالى إفاضة نعمه عليكم (لعلكـم تسلمون) وتنقادون ظاهرا وباطناً لله تعالى . وكل هذه النعم المذكورة وأمثالها مخلوقة لله تعالى مباشرة ، أو موادها مخلوقة ، وألهم الله تعالى عباده الساعين في العلم والصناعة تركيبها وتطويرها إلى درجة الإنتفاع والإعتبـار (فإن تولوا) أي أولئك الناس الناسون لنعم الله تعالى ، فلا يضر نسيانهم وتركهم شكرها إلا أنفسهم ولا يصل الضرر إليك (فإنما عليـك البـلاغ المبين) الواضح المفهوم . (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون)

يعني أن الناس المتولين من نعم الله تعالى وشكرها يعرفون نعمة الله ؛ فإنها واضحة جلية ولا ينكرها إلاّ أولو الأذهان الكليلة والطبائع الغبية ، وأكثرهم من الكافرين وأقلهم من المؤمنين الغافلين .

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عنهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ(٨٥) وَإِذا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءهُمْ قالُوا : رَبَّنا هؤلاء شُرَكاؤنا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ : إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ(٨٦) وَأَلْقَوْا إلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ(٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كانُوا يُفْسِدُونَ)(٨٨)

قوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) الآية ... المراد باليوم يوم القيامة أي (و) اذكر (يوم نبعث) ونرسل (من كل أمة) وجماعة من الناس (شهيدا) يشهد لهم بالإيمان والطاعة إن كانوا من المؤمنين وبالكفر والعصيان ان كانوا من الكافرين ، وذلك الشهيد نبيها (ثم لا يؤذن للذين كفروا منهم) بالإعتذار عن كفرهم (ولا هم يُستعتبون) اي لا يطلب منهم أن يزيلوا عَتَبهم ، أي عَتَبَ ربهم وغضبه عليهم . وكأن هذه الجملة تفسير لماسبقها ، فإنهم اذا لم يؤذن لهم حتى يتكلموا لا يعتذرون عن ذنوبهم ولا يدفعون غضب ربهم عن أنفسهم (وإذا رأى الذين ظلموا) بالكفر والمعاصي (العذاب) أي العذاب الذي يستحقونه يوم القيامة (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب لأنه عذاب وارد بحكم صادر

من الله تعالى ، وإذا حكم الله بشيىء فلا مرد لحكمه (ولا هم ينظرون) أي يمهلون . يعني إن العذاب إذا جاء أوانه تحقق ولم يتخلف بأي شيىء .

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) الذين كانوا يزعمونهم شفعاء (قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) أي نعبدهم ونطيعهم (فألقوا إليهم القول : إنكم لكاذبون) أي فأجابهم شركاؤهم وقالوا لهم : إنكم لا شبهة لكاذبون في دعوى أنكم تعبدوننا وتطيعوننا ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وأغراضكم الفاسدة ومطامعكم الدنيئة ، وإلا فإذا جاء الحق وأتاكم كتاب الله وبرهانه مع الرسول فلم كنتم تعاندونهم وتعادونهم ؟ (وألقوا) أي الشركاء (إلى الله يومئذ السلم) والإطاعة (وضل عنهم ماكانوا يفترون) لله سبحانه من الشركاء الجامدين .

(الذين كفروا بالله تعالى وصدوا عن سبيل الله) أي وأضافوا إلى كفرهم فسادا آخر وهو منعهم الناس عن سلوك سبيل الله أي دين الإسلام (زدناهم عذابا) في مقابلة صدهم للناس (فوق العذاب) أي عذاب كفرهم ، لأن كفرهم إفساد لأنفسهم ، وصدّهم إفساد لغيرهم (بما كانوا) يباشرونه من طرق القوة والحيلة وأنواع الدسائس الدنية لابعاد الناس عن إطاعة الله وهذا العمل الشنيع إفساد" ما فوقه إفساد كما قال تعالى : (بما كانوا يفسدون) أي ومازدناه على عذاب كفرهم حصل بسبب إفسادهم لغيرهم وتنفيرهم لهم عن دين رب العالمين .

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هَؤُلاء ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ)(٨٩)

وهذه الآية الكريمة عرض واستعراض مهول ومهيب ليوم القيامة وأحوال الأمم في ذلك اليوم كما يظهر منها . وحاصلها أنه تعالى يقول يا حبيبي اذكر يوم القيامة (يوم نبعث في كل أمة من الأمم شهيداً عليهم) وهو رسولهم المبعوث إليهم فيشهد على المؤمنين بإيمانهم وأعمالهم وعلى الكافرين بكفرهم ومعاصيهم وأحوالهم ، وذلك ليكون أقطع للمعذرة . ومعنى كونه (من أنفسهم) أنه منهم ويشهد على علم (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أي على أمتك ، يعني أنه كما بعثنا رسل الأمم السابقة شهداء عليهم بعثناك شهيدا على أمتك ، فلا تبقى أمة من الامم إلا ويشهد عليها شاهد من أزكى الشهداء وهو رسولها ، فلا يفوتنا عقيدة من العقائد ولا عمل من الاعمال إلا يتحقق بإثبات وبرهان (ونزلنا عليك الكتاب) القويم الهادي إلى الصراط المستقيم (تبيانا لكل شيء) من العقائد والقواعد بحيث ينص على بعض ، ويظهر في بعض ، ويؤيد ويفسر على حسب المقصود في بعض ، وقرر أموراً تدل على المراد في بعض وهي القياس والإستدلال من جانب من هو أهل لذلك، فإن الناس على درجات مختلفة من الإدراك والشعور والنور. أي حالكون الكتاب تبيانا له (وهدىً ورحمةً) له بشرط قبوله بصورة عامة (وبشرى للمسلمين) بصورة خاصة ، فإنهم هم المستبشرون به .

وما أحسنَ هذه الآية الكريمة الجامعة للصفات الموجودة فيه ، وهي أنه يوضح طريق الحق للناس ويبين الأحكام الدينية الإعتقادية والعملية بطريق مسَلَّمٍ عند أهل العقل والعلم والمطالعة ، وذلك البيان بالنص أو بغيره بطريق من الطرق التي اعتادها العلماء الراسخون في معرفة الأمور الخفية بحيث لا تبقى عندهم مسألة من المسائل إلا وعليها دليل من الدلائل حتى يكون المتمسك بهذا الكتاب على بصيرة في سلوكه على الحق إلى أن يلقى ربّ العالمين .

وفي روح المعاني : والمراد من كل شيء على ما ذهب إليه جمع ما يتعلق بأمور الدين ، أي بيانا بليغا لكل شيىء يتعلق بذلك . ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم ــ عليهم السلام ــ . وكذا ما أخبرت به هذه الآية من بعث الشهداء وبعثه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فانتظام الآية بما قبلها ظاهر . والدليل على تقدير الوصف المخصص للشيىء المقام وأن بعث الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ إنما هي لبيان الدين . ولذا أجيب عن السؤال عن الاهلة بما أجيب . وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وكون الكتاب تبيانا لذلك باعتبار أن فيه نصا على البعض ، وإحالة للبعض الآخر على السنة حيث أمر باتباع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقيل فيه (وما ينطق عن الهوى) وحثا على الإجماع في قوله سبحانه (ويتبع غير سبيل المؤمنين) الآية ... فإنها على ما روى عن الشافعي ــ رضي الله عنه ــ وجماعة دليل الإجماع . وقد رضي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأمته باتباع أصحابه حيث قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ» وقد اجتهدوا وقاسوا ووطأوا طرق الإجتهاد، فكانت السنة والقياس والإجماع مستندة إلى بيان الكتاب ، وذهب بعضهم الى ما يقتضيه ظاهر الآية غير قائل بالتخصيص ، فقال : ما من شيىء من أمر الدين والدنيا إلا يمكن استخراجه من القرآن .

وقد بين فيه كل شيىء بيانا بليغا واعتبر في ذلك مراتب الناس في الفهم، فرب شيىء يكون بيانا بليغا لقوم ولا يكون كذلك لآخرين ، بل قد يكون بيانا لواحد ولا يكون بيانا لآخر ، فضلا عن كون البيان بليغا أو غير بليغ ، وليس هذا إلا لتفاوت قوى البصائر ، ونظير ذلك اختلاف مراتب الاحساس لتفاوت قوى الأبصار . وقيل : معنى كونه تبيانا أنه كذلك في نفسه وهو

لا يستدعي وجود مُبَيِّنٍ له فضلا عن تشارك الجميع في تحقق هذا الوصف بالنسبة إليهم بأن يفهموا حال كل شييء منه على أتم وجه • ونظير ذلك الشمس ، فإنها منيرة في حد ذاتها وإن لم يكن هناك مستنير أو ناظر • ويغني عن هذا الإعتبار إعتبار أن المبالغة بحسب الكمية لا الكيفية ، ويؤيد القول بالظاهر أن الشيخ الأكبر قدس سره وغيره قد استخرجوا منه ما لا يحصى من الحوادث الكونية • وقد رأيت جدولا حرفيا منسوبا الى الشيخ كتب عليه أنه يعرف منه أحوال أهل المحشر ، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل الجنة ، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل النار • وكل ذلك ـ على مايدعون ـ مستخرج من الكتاب الكريم • ومثلُ هذا الجفر الجامع المنسوب إلى أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ ، فإنهم قالوا : إنه جامع لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية ، وهو أيضا مستخرج من القرآن العظيم • إنتهى مع ترك غير المقصود منه •

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتاءِ ذِي القُرْبى ، وَيَنهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ماتَفْعَلونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً ، تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، ولكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي مَنْ يشاءُ ، وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣) ولا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، إِنَّما عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٩٥) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وما عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ، ولَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ)(٩٧)

قوله تعالى (**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى**) قال ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ هذه الآية أجمعُ آيةٍ في القرآن للخير والشر ، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون ــ رضي الله عنه ــ ، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين. ولعل إيرادها عقيب قوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) للتنبيه عليه .

والمراد بالعدل التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها ، ويندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة وهي القوة المتوسطة بين الجربزة والغباوة . وفضيلة القوة الشهوية البهيمية وهي العفة المتوسطة بين الفجور والجمود . وفضيلة القوة الغضبية السبعية وهي الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن . ويشمل العدل التوسط في الإعتقاد والأعمال والأكل والشرب واليقظة والمنام ، والعدل في الحكم بين الأنام ، وبين الأولاد في الرعاية والوئام ، وبين الزوجات في المقام والمنام ، وبين

الأصدقاء في الحب والإحترام ، وبين سائر الناس من الرعايا والحكام .. إلى غيرذلك.وعن سفيان بن عيينة أن العدل : إستواء السريرة والعلانية في العمل .

والمراد بالإحسان إحسان الأعمال والعبادة أي الإتيان بها على الوجه اللائق وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه مارواه البخاري من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لما في الواجبات من النقص ويجوز أن يراد بالإحسان الإحسان المتعدي بإلى أي الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم . فقد أخرج ابن النجار في تأريخه قال : مرّ علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه على قوم يتحدثون . فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا : نتذكر المروءة . فقال أوماكفاكم الله ـ عز وجل ـ ذاك في كتابه إذ يقول (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) ؟ فالعدل الانصاف والاحسان التفضل ، فما الذي بقي بعد هذا . وأعلى مراتب الاحسان على هذا الإحسان إلى المسيىء ، وقد أمر به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وروي عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم ـ عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وفسر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ العدل بالتوحيد . وفسر الإحسان بأداء الفرائض . والمراد بإيتاء ذي القربى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر . وهذا داخل في العدل أو الإحسان . وصرح به إهتماما بشأنه .

وقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) أي الإفراط في متابعة القوة الشهوية ، كالزنا مثلا . وفسرها ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ بالزنا . والمنكر : كل ماينكر على مباشره من الإفراط في إظهار القوة الغضبية وفسر بالشرك وبمباشرة ماتوعد عليه بالنار ، وبمخالفة السريرة للعلانية ، وبكل

ذنب لا يوجب الحد في الدنيا ، لكن يوجب العذاب في الآخرة • والبغى : الإستعلاء والإستيلاء على الناس والتجبر عليهم • وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التي هي حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوانية والغضبية• وفي تفسير الآية أمور مهمة إيجابية وسلبية هي الأساس للأحكام الإسلامية • ولكن الذي يظهر من ملاحظة استعمال الكلمات الواردة هنا في الكتاب والسنة والأدب العربي أن المراد بالعدل رعاية الإعتدال والإنصاف في الأحكام الواردة على الناس ، وبالإحسان العفو بالنسبة الى ما يخص الإنسان في ذاته فإنك إذا حكمت في قضية مربوطة بالغير لاحظت العدل ، أو مربوطة بنفسك مما يمكن لك فيه السماح لاحظت العفو والإحسان وصرف النظر عن حقك وبإيتاء ذوي القربى بذل المبرات الى الناس الاقرب فالاقرب • وأن المراد من الفحشاء المنهي عنه ما يتعلق بالشرف والأعراض سواء كان زنا أو مقدماتها • وبالمنكر كل ذنب لم ينشأ من الإستيلاء والسيطرة وبالبغي كل عدوان ناشىء عنهما • وقوله تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) أي يرشدكم وينبهكم بما يأمر به وينهى عنه سبحانه وتعالى أحسن تنبيه ، ابتغاء أن تتعظوا بذلك وتأخذوا طريقكم إلى الله رب العالمين •

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) أي وأدوا واجب بيعة الاسلام اذا بايعتم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن الآية نزلت في بيعة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ • أو المراد به العموم في كل موثق مشروع جار بين شخصين أو طائفتين أو الرعايا وصاحب الأمر في الإسلام حتى يكون الناس في أمان واطمئنان قلب من المقابل في العهود والمعاملات الجارية بينهم ، فإن الأمة هي الأخلاق ، وأعلى صفاتها رعاية الامانة والصدق حضورا وغيابا • وماعدا ذلك يكون كذبا ونفاقا ولا يحصل منهما إلا العداء والشقاق المدمران للعالم• وقوله تعالى : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) نهي عن إبطال نفس

العهود الواقعة بينهم • والمعطوف عليه للوفاء بما تعاهدوا عليه ، والمعطوف لإدامته والبقاء عليه فإن الناس كانوا يعلنون نقض العهد في بعض الاحيان إذا زاد النفع في نقضه ، ولا يستمرون إلى تمام المدة • وقوله تعالى : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وعيد لهم على مخالفة الفقرتين • أي وقد جعلتم الله شاهداً وكفيلا على العهد ورعاية بنوده وإدامته فمخالفة شيىء منها حرام عليكم • وكذلك قوله : (إن الله يعلم ما تفعلون) أي من مخالفة البنود وعدم الإستمرار على العهود •

(ولا تكونوا) في نقضها (كالتي نقضت غزلها) أي مغزولها (من بعد قوة) أي من بعد غزلها وإحكامها (أنكاثا) جمع نِكث بكسر النون ، وهو ما ينكث فتله • والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه أيّاً كان • وقيل المراد امرأة معلومة وهي ريطة بنت سعد بن تيم القرشية ، فإنها كانت خرقاءَ تفعل ذلك في غزلها • وقوله : (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أي لا تكونوا متشبهين بامرأةٍ هذا شأنها متخذي أيمانكم وعهودكم مفسدة بينكم ، فإن من لا يراعي العهود لا يعتبرها كأشياء أساسية واجبة الرعاية ، وإنما يعتبرها كأمور خارجية غير مهمة يعتبرها تارة ويبطلها أخرى ، فيؤل ذلك العهد المنقوض إلى أساس فتنةٍ وفساد ومنشأ أحقاد وحزازات بينهم وقوله تعالى (أن تكونَ أمة هي أرْبى مِن أمة) أي بسبب أن تكون جماعة وهي الامة المعاهدة بالكسر أربى واقوى واكثر عدداً وعددا من الامة الاخرى المعاهد معها ، أي لكثرتكم وقوة المقابل لكم ، أو المراد أمة اخرى غير الذين عاهدتموه بأن تجدوا قوماً آخر أقوى من القوم الذين عاهدتموه فتنقضون عهدكم معهم وتعاهدون ذلك القوم الاقوى وذلك ينشأ من قلة المروءة والشهامة (إنما يبلوكم الله به) أي إنما يمتحنكم الله تعالى بنقض عهدكم ذلك (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أي ما كنتم تخالفون

من أحكام الدين ، أو ما تختلفون فيه في الدين ، فبعضكم يرجح الدوام على العهد وبعضكم يرجح نقضه (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) على ملة واحدة هي الإسلام ، أو أمة واحدة غير متعددة ، لا تحتاج إلى معاهدة بعضهم مع بعض (ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) يختار لدينه من كان أهلا له ، ويترك من ليس أهلا له (ولتسئلن عما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه حسب ميزان الإستحقاق .

وقوله تعالى : (ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم) تصريح بالنهي المستأنف عما نهي عنه ضمن قيود نسبة أخرى. فيقول ناهيا متوعداً مُهدّداً : (ولا تتخذوا أيمانكم) وعهودكم (دخلا بينكم) أي دغلا ومكراً وخديعة (فتزل قدم) لكم عن طريق إطاعة الله تعالى (بعد ثبوتها) عليه بإبرام العهد (وتذوقوا السوء) يوم القيامة (بما صددتم) أي بسبب صدكم وإعراضكم عن سلوك سبيل الله وهو إبرام مبايعة الإسلام (ولكم عذاب عظيم) عند حلول وقت العقاب (ولا تشتروا بعهد الله) أي بدل بيعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ثمنا قليلا) بالنسبة إلى ثواب الآخرة (إنما عند الله) من الثواب (هو خير لكم) من ذلك الثمن القليل (إن كنتم تعلمون) ذلك. والآية نزلت في قوم بمكة أسلموا وزين لهم الشيطان نقض الإسلام لما رأوه من غلبة قريش ، ولكن الله تعالى ثبتهم على الإيمان واستمروا عليه (ماعندكم) أي متاع الدنيا (ينفد) وينقضي (وما عند الله) من الثواب (باق) لا نفادَ له (ولنجزين الذين صبروا) على أذى المشركين واستمروا على الايمان (أجرهم) وثوابهم (بأحسن ما كانوا يعملون) واحسنه الصبر ، فإن جزاءه عند الله ، ولا يعلم بمقداره أحد غيره ، يعني أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى أعمال الصابرين وما آتاهم من الشدة والمحنة ، ويختار أحسنها

عنده ، ويجعل كلها في درجة ذلك الأحسن ويجزي أولئك الصابرين بذلك المستوى العالي عنده فيختار لهم أحسن النعيم •

(من عمل صالحا وهو مؤمن) بالله ورسوله ويعمل ذلك لإطاعة الله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) والمراد بالحياة الطيبة إما الحياة في الدنيا وطيبها مقارنتها لانشراح الصدر واطمئنان القلب وسروره بجزائه يوم لقائه تعالى ، فإن هذه الحياة توجب نسيان المصائب والمعائب والمعاتب ولو كان في أسوأ أهوال الدنيا • وإما الحياة في الآخرة في الجنة ، إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاء • روي عن الحسن أنه ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) والحمد لله رب العالمين •

(فإذا قَرأتَ القُرآن فاسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ، إنَّهُ لَيس لهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وعَلى رَبِّهم يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ والَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشرِكُونَ (١٠٠) وَإذا بَدَّلْنا آيةً مكَانَ آيَةٍ ـ واللهُ أعْلَمُ بما يُنَزِّلُ ـ قالُوا: إنَّما أنْتَ مُفْتَرٍ • بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذينَ آمَنُوا وهُدىً وبُشرى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ولَقَدْ نَعْلَمُ أنَّهُمْ يَقُولُون إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَميٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذابٌ

أَلِيمٌ(١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)(١٠٥)

قوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) جملة مستأنفة وَعود من حكاية ما مضى على الرسل من أذى الكافرين ، وبيان هول البعث والحساب والميزان وشهادة الأنبياء والمرسلين ، وبيان أن الكتاب المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه دواء كل داء وحصانة كل سقم وشقاء ، وأن محتواه الإيجابي أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، والسلبي نهي عن الفحشاء والمنكر والبغي الى التمسك بالقرآن الكريم وأحكامه وأخلاقه ، ويؤديه في تلاوته بأنك إذا قرأت القرآن على الكافرين لدعوتهم الى الدين فاستعذ بالله (من الشيطان الرجيم) كي يبتعد عن الناس الذين تقرأه عليهم ، وإذا أردت تلاوة القرآن عادةً فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أي فاسأله عز وجل أن يعيذك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله كي لا يوسوسك في قراءة القرآن ويشغل قلبك .

وكيفية الإستعاذة عند الجمهور من القراء وغيرهم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتضافر الروايات على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستعيذ كذلك .

(إنه) أي الشيطان (ليس له سلطان) واستيلاء (على الذين آمنوا) بالله وبرسوله (وعلى ربهم يتوكلون) أي يعتمدون عليه تعالى لا على غيره (إنما سلطانه على الذين يتولونه) أي يجعلونه واليا عليهم فيحيونه ويجيبونه ويطيعونه (والذين هم به مشركون) أي وعلى الذين هم بسبب إغواء الشيطان لهم يشركون بالله (وإذا بدلنا آية مكان آية) أي إذا نسخنا آية لفظا ومعنى بآية أخرى حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (قالوا) أي الكفار (إنما أنت) يا محمد (مفتر) أي متقول على الله تعالى تأمر بشيىء ثم

تتندم منه فتنهى عنه (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون شيئا أصلا • أو لا يعلمون أن في النسخ والتبديل مصلحة • (قل نزلـه) أي القـرآن الناسخ (روح القدس) أي جبريل ـ عليه السلام ـ وأطلق ذلك عليه لانه روح له علاقة خاصة بالذات المقدس جل جلاله ، أو روح ذو قدس ونظافـة ونزاهة وبراءة من الأدناس النفسانية (من ربك) أي من أمر ربك أو مـن جانب ربك متلبسا (بالحق) أي الحكمة المطابقة للواقع (ليثبت الذين آمنوا) على الإيمان والأعمال الصالحة (وهدى وبشـرى للمسلمين) أي وليكون ذلك الحكم المنزل هداية وبشارة للمسلمين •

(ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يُعلمه بشر) وعنوا بذلك البشر غلاما لعامر بن الحضرمي وكان قد قرأ التوراة والإنجيل (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) أي لغة ذلك الرجل الذي ينسبون تعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه أعجمي ، أي لغة ركيكة مبهمة لا يستفاد منها المقصود بوجـه واضح (وهذا لسان عربي مبين) وهذا القرآن الذي جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسان عربي ذو بيان وإيضاح وفصاحة في المفردات وبلاغة في المركبات علاوة على ما يحتويه من الأخبار الماضية والمستقبلة ، وعلوم العالم الغيبي ، ومواقف البعث والحشر والنشر وأسرار الآخرة • وفي نقل هـذا القول إشارة إلى أن أولئك الكافرين لا عقل لهم ولا خبرة يميزون بهـا بين الكلام العالي والسافل ، فقولهم ذلك عند منزلتهم السافلة الفاسدة • (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي لا يصدّقون بأنها نازلة من عند الله تعالى (لا يهديهم الله) إلى طريق إدراك الحقائق ، ويبقيهم في الجهالة والضلالـة لجهلهم وغيهم وعَيهم وعتوهم وعنادهم ، بل يجعلهم على طريـق الإشتباه لقلة إنتباههم (ولهم في الآخرة عذاب أليم) على ما نسبوه من الأمور الغير السليمة إلى ذلك النبي الزكي الصالح السليم (إنما يفتري الكـذب) على الله ويتكلم بكلام من عند نفسه أو من انسان آخر من هو فاسد" مائنٍ على

سلوك الفاسدين وهم المفترون (الذين لا يؤمنون بآيات الله) لا النبي الزكي والرسول الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته (وأولئك) المفترون على الله (هم الكاذبون) .

(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ ، إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ ، وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ(١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وأولئِكَ هُمُ الغافِلُونَ(١٠٨) لاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرونَ(١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ، ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِها ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)(١١١)

قوله تعالى : (من كفر بالله مِن بَعد إيمانه) مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله فعليهم غضب ، والجملة مستأنفة لبيان حال من كفر بآيات الله تعالى بعدما آمن بها . وقوله (إلاّ مَن أكرِهَ وَقلبُهُ مُطمئن بالإيمان) إستثناء من الموصول وصلته ، أي فليس عليه ذنب لعذره بالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر ، ويجتمع ذلك التلفظ مع وجود الايمان في القلب ، وخبر المبتدأ مقدر أي فهو معذب معدود من الكافرين (ولكن من شرح بالكفر صدراً) أي إعتقده وطابَ به نفسا (فعليهم غَضَبٌ من الله) وربطَ الغضب بقوله من

الله للتهويل والإشعار بعظمة الغضب (ولهم عذاب عظيم) إذ لا أعظم من جرمه • روي أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الإرتداد ، فأبوا فربطوا سُمية بينَ بعيرين ووجئت بحربة في قُبُلِها ، وقالوا : إنما اَسْلَمتِ للرجال • فقتلوها وقتلوا ياسراً ، وهما أوّل قتيلين في الإسلام وأما عمار فأطاعهم بلسانه وأعطاهم ما أكرَهوه عليه • فقيل : يا رسول الله إن عماراً كَفَرَ • فقال رسول الله : كلاّ إن عماراً مليىءٌ إيماناً مِن قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه • فأتى عمارٌ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يبكي فجعلَ رسولُ الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ يمسح عينيه ، وقال : مالَكَ ؟ إن عادُوا فَعُدْ لَهم بما قلت •

(ذلك) الغضب الوارد عليهم (بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أي اختاروها وقدّموها على رعاية دار الآخرة ، وهو العبادة والطاعة (وَأن الله لا يهدي القوم الكافرين) أي الذين ثبت كفرهم في علم الله تعالى بسوء أفعالهم في الدنيا ومعاندتهم لأوامر رب العالمين (أولئك الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يُصْغُون لقول الحق ولا يُبْصِرون الآيات البينات المرشدة الى اطاعة الرسل (وأولئك هم الغافلون) أي الكاملون في الغفلة (لاجَرَمَ أنهم في الآخرة هم الخاسرون) حيث ضيعوا ما عندهم من رأس مال الأعمار وصرفوها فيما لم يفدهم إلا النار (ثم إن ربك للذين هاجروا) الى دار الإسلام وهم أمثال عمار (من بعد ما فُتنوا) أي عذبوا على الإرتداد (ثم جاهدوا) الكفار (إن ربك من بعدها لغفور) لسيآتهم التي فعلوها قبل ذلك (رحيم) ينعم عليهم مجازاةً لما صنعوا • (يوم) ظرف منصوب برحيم (تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) أي تدافع عنها وتسعى في استخلاصها من العذاب بالإعتذار إلى الله تعالى

(وَتُوَفى كل نفسٍ ما عملت وهم لا يظلمون) بزيادة العذاب على ما يستحقونه •

(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطمئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنهُمْ فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَهُمُ العَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ(١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً واشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(١١٤)

قوله تعالى (وضرب الله مَثلاً قرية) والمعنى جعلها الله تعالى مثلا لأهل مكة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبْطَرَتْهُمُ النعمةُ ففعلوا ما فعلوا فجوزوا بما جُوزُوا•ودخل فيهم أهلُ مكة دخولا أولياً (كانت آمنة) أي ذات أَمْنٍ لا يأتي عليها مايوجب الخوفَ (يأتيها رزقها) أقواتها وما يتمتعون به (رَغداً) واسعا (مِن كل مكان) أي من جميع نواحيها (فكفرت بأنعم الله) وأنكرت أنها من الله بل نسبوها الى قوة سواعدهم وكثرة مساعيهم (فَأذاقَها اللهُ لباسَ الجُوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنعون) في اللباس إستعارة مصرحة حيث شبه ما غشي القومَ مِن أثر الخوف والجوع وضررهما الشامل لهم ، باللباس فاستعير له اسمه إستعارة مصرحة تحقيقية لأن ما غشي القرية أو القوم من أثرهما أمر محقق محسوس كما يحتمل أن يكون فيه إستعارة مكنية بأن يشبه لباس الجوع والخوف بالطعم المرّ البشع بجامع الإستكراه • وقد طوى ذكر المشبه به فتكون هناك إستعارة مكنية ، وقرينة الأولى إضافة اللباس إلى الجوع والخوف ، وأما قرينة المكنية فهي الاذاقة الموهومة المستعارة للإذاقة الحقيقية ادّعاءً

إستعارة أصلية ، ثم يشتق من الإذاقة الفعل المذكور المستعار للفعل المطوي المعبر عنه بقوله أذاقها الله المراد به إذاقة واقعية كاستعارة الأظفار الوهمية لأظفار السبع المحقق ادعاءً في قولهم « أظفار المنية نشبت بفلان » وقوله تعالى بما كانوا يصنعون متعلق بقوله تعالى فأذاقها الله لباس الجوع والخوف أي أن تلك الإذاقة تنشأ عما صنعوه من كفران نعمة الله تعالى ولقد جاءهم رسول منهم أي من عشيرتهم فكذبوه في رسالته من الله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون ومتلبسون بالظلم حين ذاك ، (فكلوا مما رزقكم الله) أيها الناس الباقون من الجماعة الظالمة (حلالاً طيبا) وذروا ما تفترونه مما تحرمونه بهواكم (واشكروا نعمة الله) واعترفوا بأنها من الله المنعم في الحقيقة واحمدوه عليها (إن كنتم اياه تعبدون) أي إن صح ما تزعمونه من أن عبادتكم لأي شيىء عبادة لله رب العالمين .

(إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٥) وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(١١٩)

قوله تعالى : (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله بهِ) تعليل لحل ما أمرهم الله بأكله مما رزقهم يعني لم يحرم عليكم ربكم إلا ماذكر هنا فكلوا مما سواه • ثم الحصر إضافي أي إنما حرم الله تعالى أكلَ هذه الأشياء دون ماحرمتموه أنتم من البحائر والسوائب ونحوها • فلا تنافي الآية الكريمة تحريم أشياء غير ماذكر فيها كذوات الأنياب من السباع وذوات الأظفار من الطيور والحشرات السامة والحيوانات المستقرة ونحوها (فمن اضطر) أي دعته الضرورة إلى تناول شيىء من تلك المحرمات حالكونه (غير باغ) على مضطر آخر (ولاعاد) متجاوز مقدار الضرورة وسد الرمق (فإن الله غفور رحيم) لا يؤاخذه على ذلك • (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ) مفعول به للقول و (هذا حلال" وهذا حرام) بدل منه، وما في قوله تعالى (لما تصف ألسنتكم) موصولة واقعة على البهائم، وعائد الموصول محذوف وبيان الوصف محذوف مستفاد من شهرة توصيفهم لها بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام• يعني ولا تقولوا للبهائم التي تصفها ألسنتكم بوصف من الأوصاف المذكورة الكلامَ الكذبَ المخالف للواقع، وهو قولكم (هذا حلال وهذا حرام) وقوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) اللام فيه للعاقبة والصيرورة ، أي وعاقبة قولكم ذلك الإفتراء على الله تعالى بأن تلك البهائم محرمة (إن الذين يفترون على الله الكذب) ويتعمدون الكذب عليه (لا يفلحون) أي لا يفوزون بمطلوب له شأن ووزن في الآخرة (متاع) أي لأن المنفعة التي قصدوها وراء ذلك متاع (قليل) يتمتعون به في الدنيا (ولهم في الآخرة عذاب أليم • وعلى الذين هادوا) خاصة دون غيرهم (حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أي قبل نزول هذه الآية ، وذلك ما في سورة الأنعام من قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر) الآية (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا عليه بذلك

كما ذكره الباري بقوله (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم ثم إن ربك للذين عملوا السوء) من كفر أو معصية أو افتراء على الله تعالى (بجهالة) أي بسبب جهالة تدعوهم إلى تلك الضلالة (ثم تابوا من بعد ذلك) فآمنوا بعد الكفر وصدّقوا بعدَ الإفتراء وأنابوا إلى الله وتابوا إليه (وأصلحوا) أعمالهم (إن ربك من بعدها) أي من بعد عمل السوء والتوبة (لغفور) لذنوبهم و (رحيم) بهم يقبل توبتهم • فإنه يحب التوابين •

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٠) شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَيهُ ، وَهَدَيهُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(١٢٤)

قوله تعالى : (إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا) إرشاد للرسول النبي الأمي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالثبات على العزم والقوة والتخلق بأخلاق أبيه ابراهيم في نشره التوحيد في العالم بدون مبالاة بمزاعم المشركين ، وأنانياتهم ، والصبر على أذاهم ، وبيان لبطلان مزاعم المشركين من العرب أنهم على دين ابراهيم بأن ابراهيم كان عابدا لله وحده مائلا عن الباطل الى الحق وموحدا مخلصا ولم يكن من المشركين ، فمزاعم أولئك الكفار باطلة عاطلة فاسدة ، وإيذان بأن نسبة اليهود أنفسهم إلى دين ابراهيم ، أو أن ابراهيم كان على دينهم لا أصل لها ولا أساس للتباين بين آداب اليهود وآداب سيدنا إبراهيم فإنه ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن

كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين • والأمة بضم الهمزة الرجل الجامع للخير والإمام ومن هو على الحق ومخالف لسائر الأديان ، وهذه المعاني تطلق على سيدنا إبراهيم بالحقيقة • وجاءت بمعنى الجماعة الكثيرة من الناس ، ويجوز اطلاقها بهذا المعنى عليه أيضا تجوزا لاستجماعه كمالات لا توجد إلا متفرقة في أمة جمة • والقانت : المطيع • والحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق (ولم يك من المشركين) في أمر من أمور دينهم الإعتقادي أو العملي (شاكِراً لأنعُمِهِ) صفة ثالثة لأمة والجار والمجرور متعلق بشاكرا (اجتباه) ربه واختاره لحمل أعباء الرسالة (وهديه إلى صراط مستقيم) سالم من الخلل موصل إلى الله عز وجل (وآتيناه في الدنيا حَسَنَة) وهي صفة الرسالة ودعوة الناس إلى توحيد الله وقد كان أهلها ووفى بحقها (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) لحمل أعباء الرسالة الواصلين إلى الدرجات العالية المناسبة لمقام المرسلين •

(ثم أوحينا إليك) يا رسولي الكريم المولود من نسل إسماعيل بن إبراهيم (أن اتبع ملة ابراهيم) وعقيدته الراسخة الرفيعة الوحيدة وهي توحيد الباري سبحانه (حنيفا وما كان من المشركين) الذين جَعَلوا مع الله إلهاً آخر • وهذا الأصل أمر مشترك بين جميع الأنبياء والمرسلين لقوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) • وهذا الإتباع هو الموافقة في أصل الدين (إنما جعل السبت) يعني إنما فرض تعظيمه والتخلي للعبادة فيه (على الذين اختلفوا فيه) أي على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم فيه حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت وهم اليهود ، وليس السبت من شرائع إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما زعمت اليهود (وان ربك ليحكم بينهم) أي بين المختلفين (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أي

يقضي بينهم بالمجازاة على اختلافهم على نبيهم ومخالفتهم له في ذلك حيث لم يقبلوا منه يوم الجمعة حتى بدله بيوم السبت وفرض عليهم العبادة وحرّم عليهم الصيد فيه مع أنهم خالفوه في ذلك أيضا حتى غضب الله تعالى عليهم وجعلهم من الممقوتين •

(ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، ولاتَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)(١٢٨)

قوله تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة) معناه مادام أنت من الرسل الهداة الى الطريق القويم وعلى عقيدة جدك العظيم ابراهيم فادع الى سبيل ربك أي الاسلام الذي هو سبيل معين للوصول الى رضاه بالحكمة أي بالحجة القاطعة المحكمة المزيلة للشبه عن قلب المدعويين، وهذا إذا كانوا في مستوى فهمها وكانوا من أهل الاستفادة من البراهين القطعية والحجج العقلية (والموعظة الحسنة) وهي الخطابات المُقْنِعَةُ للغير النافعة للناس على مجاري عرفهم وعاداتهم أي بأن تكون مقدمات الدليل مقبولة عندهم (وجادلهم بالتي هي أحسن) أي وجادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة من الرفق واللين، وعدم جرح عاطفة المقابل ، والتنازل له بحسب المقام ، والاستماع لكلامه ، واستعمال المقدمات المشهورة ••• وهذا النوع من طرق الدعوة هو المطلوب منك للوفاء بتبليغ الرسالة ، وليس عليك الهداية وإخراج الناس من الضلالة

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذي أمرك بدعوة الناس اليه (وهو أعلم بالمهتدين) إليه فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أحكم الحاكمين •

(وإن عاقبتهم) أي وإن أردتم معاقبة الناس الذين يعاندون الحق وقاتلوكم وقتلوا منكم (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي مثل ما فعلوا بكم (ولئن صبرتم) عن المعاقبة بالمثل (لهو خير للصابرين) أي فالصبر خير من المعاقبة والإنتصار بها للصابرين الذين يبتغون وجه الله (واصبر) على ما أصابك من جانبهم من أنواع الآلام (وما صبرك) مصحوبا بالشيىء وملابسا به (إلا بالله) فإنه هو المفيض لقوة الصبر على القلوب عند تفاقم الكروب (ولا تحزن) عليهم أي على الكافرين الماكرين (ولا تك في ضيق) صدر (مما يمكرون) فإن نفحة من نفحات القدس تزيل هموما واردة من أعداء الجن والإنس (إن الله مع الذين اتقوا) معية الرأفة وإفاضة الرحمة وشرح الصدر وتقوية الهمة (والذين هم محسنون) في الطاعة ويخلصون لله حتى تحصل لهم وحدة الشهود ولايرون الخير والشر إلا من الله تعالى •

الجزء الخامس عشر

سورة الاسراء ، مكية ، وهي مائة واحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(١)

قوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) كلمة (سبحان) مصدر سبح تسبيحا بمعنى نزه تنزيها ، وذلك الوزن مسموع في المصادر كالغفران ، وقيل إنه اسم مصدر لأن قياس مصدر سبح التسبيح ، وقد يستعمل علما للتسبيح بمعنى التنزيه فيقطع عن الاضافة لأن الاعلام لا تضاف ، ومع أنه موضوع للتنزيه فلا ينافيه إرادة التعجب ، والمقصود : ما أبعد اللهَ الذي له قدرة الإسراء بعبده ليلا عن جميع النقائص فله الكمال المطلق والتصرف المطلق في الممكنات كلها ما خفي منها وما انجلى ، وما سفل منها وما علا ، فلا يكون اصطفاؤه لعبده المخصوص به إلا حكمة وصوابا ، وأسرى وسرى بمعنى واحد وهو سير الليل أو أكثره فليست همزة أسرى للتعدية ، وقيل : الهمزة للتعدية

ومفعول محذوف ، والتقدير : أسرى ملائكته بعبده أي سبحان الذي جعل ملائكته ساريا بعبده . وليلاً منصوب على الظرف ، وفائدة ذكره مع وضوح أن السرى لا يكون إلا في الليل الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء (من المسجد الحرام) بعينه (الى المسجد الاقصى) وهو بيت المقدس ؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، أو لنظافته وبعده عن الأقذار (الذي باركنا حوله) لكونه مهبط الوحي من لدن موسى ـ عليه السلام ـ إلى زمان الرسول ـ عليه السلام ـ ، ومتعبد الأنبياء ومحفوفا بالأنهار والأشجار والبساتين وإنما أسرى بعبده قال تعالى ملتفتا من الغيبة الى التكلم (لنريه من آياتنا) كذهابه في برهة من الليل الواحد مسافة مسيرة شهر تقريبا ، ومشاهدة بيت المقدس ، وتمثل الأنبياء له ـ صلى الله عليه وسلم ـ هناك ، وسائر ما شاهده من ملكوت العالم ... (إنه هو السميع) لأقوال الكافرين و (البصير) لأفعالهم ويعلم أن حبيبه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأذى منهم فجازاه بما ينسيه تلك الأذى وما فوقها أو أنه هو السميع لأقوال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبصير بأفعاله ، ويعلم أنه عبد مستحق للإعلاء والترقية واراءة عجائب الأمور مما يطمئن به وتسكن به نفسه المقدسة ، وتتوجه به إلى الحي القيوم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض .

وهذا الإسراء ، وإن كان فيه وفي وقته وكيفيته أقوال كثيرة ؛ إلا أن الراجح منها أنه كان بالروح والجسد في ليلة الإثنين السابع والعشرين من رجب ، عندما كان الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ عند الكعبة الشريفة لما روي أنه ـ عليه السلام ـ قال : « بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق ... » الحديث الشريف . والظاهر أن المراد بالمسجد الحرام

المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ذاك في الحجر منه . فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بينا أنا في الحجر ... » وفي رواية في الحطيم « بين النائم واليقظان ، إذ أتاني آت فشق مابين هذه الى هذه ، فاستخرج قلبي فغسله ؛ ثم أعيد ، ثم اُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض يقال له : (البراق) فحُمِلْتُ عليه » قال الراوي : وهو البراقُ يضع خطوه عند أقصى طرفه .

وفي رواية أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في بيت عمته فاختة بنت عبدالمطلب المكناة بأم هانىء الصحابية . فقد أخرج النسائي عن ابن عباس وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير من حديثها أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان نائما في بيتها بعد صلاة العشاء فأُسري به ورجع من ليلته وقص القصة عليها . وقال : « مثَلَ لي النبيون فصليتُ بهم » ثم خرج إلى المسجد وأخبر به قريشا ... الحديث وهذا هو الإسراء .

وفي الحديث وسعى رجالٌ إلى أبي بكر وأخبروه بالقصة ، فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : إني اُصدقه على أبعد من ذلك ، أُصدقه خبر السماء غدوةً أو روحةً ! فسمي الصديق .

وكان في القوم من يعرف بيتَ المقدس فاستنعتوه إياه ، فجلي له فطفِق ينظر اليه وينعته لهم ، فقالوا أما النعتُ فقد أصاب فيه . فقالوا : أخبرنا عن عيرنا فهي اهم إلينا ، هل لقيتَ منها شيئا ؟ قال : نعم مررت بعير بني فلان ، وهي بالروحاء ، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه ، وفي رحالهم قدحٌ من ماء ، فعطشتُ فأخذته وشربته ووضعته كما كان . فاسألوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا ؟ قالوا : هذه آية . قال : ومررت بعير بني

فلان ؛ وفلان" وفلان" راكبان قعودا ، فنفرَ بعيرُهُما مني ، فانكسر فاسألوهما عن ذلك • قالوا : هذه آية أخرى • ثم سألوه عن العُدَّة والأحمال والهبات ، فمثلت له العير فأخبرهم عن كل ذلك • وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، وفيها فلان" وفلان" يقدمها جمل" أورق عليه غرارتان مخيطتان ، قالوا : وهذه آية أخرى • فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه ، إذ قال قائل هذه الشمس قد طلعت وقال آخر : هذه العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق فيها فلان" وفلان" كمال قال • فلم يؤمنوا وقالوا : هذا سحر مبين ! قاتلهم الله أنّى يُؤفكون •

وأما السنة التي وقع فيها الإسراء ففيها أقوال منها ما ذكره النووي في الروضة أنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر • ونقل عنه بعض المحققين أنه كان في السنة الثانية عشرة من المبعث • وعن ابن حزم دعوى الاجماع على ذلك •

وأما معراجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففي صحيح البخاري أول كتاب الصلاة ما نصه : عن انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كان أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ يحدث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ ، فَفَرَجَ صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيمانا فأفرغه في صدري ، ثم أطْبَقَه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء الدنيا ، فلما جئت الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح • قال : مَن هذا ؟ قال جبريل • قال : هل معك احد" ؟ قال : نعم مَعِي محمد ـ صلى الله عليه وسلم فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم • فلما فتح عَلَونا السماء الدنيا ، فإذا رَجل" قاعد على يمينه أسْوِدة ، وعلى يساره أسْودة ، إذا نظر قبل

يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح • قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى • حتى عرج بي إلى السماء الثانية ، فقال لخازنها : افتح • فقال له خازنها مثل ما قال الأول • فَفَتَحَ » قال أنس : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم • غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل ــ عليه السلام ــ بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بادريس قال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا إدريس • ثم مررت بموسى فقال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى • ثم مررت بعيسى، فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا قال: هذا عيسى • ثم مررت بإبراهيم • فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح • قلت: من هذا؟ قال: إبراهيم ــ عليه السلام ــ • وكان ابن عباس وأبو حبة الأنصاري يقولان : قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ • ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام • قال أنس ابن مالك : قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاةً فرجعت بذلك حتى مررت على موسى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة • قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تُطيق ذلك • فراجعت ، فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى قلت : وَضَعَ شطرها • فقال : راجعْ ربك فإن أمتك لا تطيق • فراجعت فوَضع شطرها • فرجعت إليه ، فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك •

فراجعته ، فقال : هي خمس ، وهي خمسون لا يبدلُ القول لدي • فرجعت إلى موسى فقال : ارجع الى ربك ، قلت استحييتُ مِنْ ربي • ثم انطلق بي حتى انتهى بي الى سدرة المنتهى وغشيها ألوان ما أدري ما هي • ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حَبائِلُ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك ، إنتهى •

وفي فتح الباري : وقال بعض من اعتنى بالبخاري : الحبائل جمع حبالة ، وحبالة جمع حبل على غير القياس ، والمرادُ أنّ فيها عقودا وقلائد من اللؤلؤ إنتهى •

ثم إن الإسراء والمعراج بالروح والجسد معجزتان من أهم المعجزات وأقصاها في الإدراك ، ومع ذلك ، فمادامتا من الممكنات ، والله تعالى قادر على كل ممكن ، فلا محالة يجب على كل مؤمن الإيمان بهما • أما الإسراء فهو منصوص الكتاب بقوله تعالى (سبحان الذي اسرى بعبده ليلا) فإن العبد اسم للروح والجسد ، والسري بالليل ظاهر في حركته بهما وإلا فلا غرابة في الإسراء بالمنام ولا مجال للتعجب عنه بقول تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ، ولما كانت المعجزات من خوارق العادة فلا فرق بين سري شخص في بعض ليل المسافة البعيدة ولا صعوده من الأرض إلى ما فوق السماوات ، وبين قلب العصا من الخشب حية تسعى ، وجعل نهر النيل يبسا تمر عليه القوافل ، وبين إحياء عيسى للأموات وإبراء الأكمه والأبرص ، وكل من له إيمان بالقرآن الكريم يعلم ذلك كله ، ويعلم ان وصول عرش بلقيس من سبأ الى القدس خارق للعادة في طرفة العين ، ومن لا إيمان له بالقرآن يعلم سرعة حركة المجموعة الشمسية حول الشمس ، وحركة بعض تلك الكواكب على نفسها دورة في كل يوم وليلة • وكل ذلك واقع محسوس بالإرصاد ونسبتها مع جذبها ودفعها ودورانها المستمر الى قوة

لا شعورية خارجة عن أفق الشعور السليم ، فلم تبق إلا نسبتها الى الفاعل القادر المختار ونسبة قدرته الى كل ممكن من الممكنات على حد سواء .

وفي كون الإسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وعروجه منه الى السماء إرشاد الى الاهتمام بمهمتين :

الأولى : أن المسجد الاقصى كان مجمعا للانبياء والمرسلين ومهبطا لوحى رب العالمين ، والتبرك بآثارهم من شعار أهل الذكر والرسالة من رب العالمين .

والثانية : تعلق علم الله سبحانه وتعالى بأن الكفار بالدوام حاقدون على المسلمين وهم بالمرصاد للإستيلاء على تلك البقعة المقدسة وجعلها مركزا لبث سمومهم الى آسيا وأفريقيا الموطنين للمسلمين ، وعلى ذلك أثاروا فتنة الحروب الصليبية هناك ، وبعد إخراجهم منها أعادوا الكرة على المسلمين ، بإرجاع اليهود اليها واسكانهم فيها حتى يتسنى لهم تطبيق ما يريدون من الوقيعة بالمسلمين ، وفي ذلك عظة للامة المسلمة وعبرة وإرشاد لهم لليقظة والانتباه الواسع للدفاع عنها واستعادتها إلى حظيرة الإسلام بأي ثمن كان . ومن أهم أسباب ذلك الوحدة والإعتصام بحبل الله المتين والرجوع الى إرشاد القرآن المبين ، فإن المسلمين قد ذاقوا أمر الأمرين في صيانتها حتى صانوها ، ولم يرجع الأجانب إليها إلا بعد اضعاف قوى المسلمين وتفريق قواهم المتحدة وجعلهم على أصناف شتى . ولا تعود الكرة إلى المسلمين إلا بالتسلح بالإيمان والوحدة والاعتصام بالدين .

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً(٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً)(٣)

قوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب) الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة (سبحان الذي أسرى بعبده) والجامع بينهما أن كلا منهما يدل على مفخرة عظيمة لذات عظيم ؛ فإن اعطاء التوراة لموسى ـ عليه السلام ـ وكلامه تعالى معه بدون واسطة بمنزلة معراج سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه منح موسى التكليم كما دعا عبده محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسرى به وعرج به إلى ما شاء الله من المقام العالي وكلمه وناجاه وفرض عليه وعلى أمته الفرائض ، وجعلها عماد دينه وأساس تقواه • أو اعطينا موسى التوراة (وجعلناه) أي الكتاب أو موسى (هدى لبني إسرائيل) ثم فسر جعله ذلك هدى لهم بقوله : (ألا تتخذوا من دوني وكيلا) أي رباً تفوضون إليه أموركم غيري وقوله : (ذرية من حملنا مع نوح) منصوب على النداء ، أو على الإختصاص • أي يا من مننا عليهم بحملهم في سفينة النجاة مع نوح حتى يسلموا من الغرق ويبقوا لنشر التوحيد في العالم (إنه) أي نوحا عليه السلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر لمولاه على ما أولاه من نعمة الرسالة وإخراج الناس من الجهالة والضلالة إلى الهداية والجلالة • عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال : كان نوح ـ عليه السلام ـ إذا لبس ثوباً ، أو طعم طعاما حمد الله تعالى فسمي عبدا شكورا • وعن عبدالله بن احمد قال شكره ـ عليه السلام ـ أنه كان يسمي اذا اكل ، ويحمد الله تعالى اذا فرغ •

(وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرائِيل في الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولِيهِما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ

الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنْفُسِكُم ، وَإِنْ أَسَأْتُم فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً(٧) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً)(٨)

قوله تعالى: : (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) أي أعلمنا بني إسرائيل في التوراة (لتفسدن في الأرض) جواب قسم محذوف ، وحذف متعلق القضاء للعلم به ، والتقدير وقضينا الى بني اسرائيل بفسادهم وعلوهم وقلنا : والله لتفسدن إلخ ويكون هذا تأكيدا لتعلق القضاء • ويجوز جعله جواب (قضينا) بإجراء القضاء مجرى القسم فيجاب بما يجاب به القسم و (مرتين) منصوب على أنه مصدر لقوله (لتفسدن) من غير لفظه والمراد إفسادين • (ولتعلنّ علواً كبيراً) أي لتستكبرن عن طاعة الله أو لَتَغْلبنّ على الناس بالظلم والعدوان (فإذا جاءَ وعدُ أولِيهُما) أي أولى مرتي الإفساد (بَعَثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسُوا خلالَ الديار) أي تردّدوا وسط ديار بني اسرائيل لطلب الناس ليقتلوهم (وكان وعداً مفعولاً) محتم التحقق في علمنا • وكان ذلك أيام الملك يواقيم الإسرائيلى سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل ميلاد عيسى ــ عليه السلام ــ في الدور الثالث من الأدوار الخمسة لبني اسرائيل ، وكان سببه أنه صار بينه وبين بختنصر البابلي حرب فانتصر على الاسرائيليين ، ولكنه بعد بُرهة من الزمان إستعاد الملك يواقيم قوة وثار على بختنصر وصارت هذه الثورة سبباً لعودة

بختنصر على ديار الإسرائيليين ودخوله (أورشليم) القدس الحالي وتخريبها وقاد أكثر أهلها أسرى (ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم) أي الغلبة والإنتصارَ على الأعداء البابليين (وَأمدَدْناكم بأمْوال وَبَنين) كثيرةً بعدما نُهبت أموالكم وقتل اولادكم (وجعلناكم أكثرَ نَفيراً) والنفير من ينفرُ معَ الرجل من عشيرته وأهل بيته للحرب (إن أحْسنتم) أعمالكم إزاء اللهِ وعباده (أحْسنتم لأنفسكم) أي لنفعها أي إن أحسنتم عادت منفعةُ الإحسان إليكم (وَإن أسأتم فلها) أي فالإساءة تعود لأنفسكم (فإذا جاء وعْدُ) المرّة (الآخِرَة) من مرتي افسادكم (ليسوءوا وجوهكم) أي بَعَثنا عليكم عباداً آخرين ليقهروكم وتظهر آثارُ قهرهم وعتوهم في وجوهكم (وليدخلوا المسجد) بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة) في عهد البابليين (وليتبروا ما عَلَوا تتبيرا) أي وليدمروا ما غَلَبوا عليه تدميرا .

وذلك كان في الدور الرابع من الأدوار الخمسة لبني إسرائيل وفي سنة مائة وخمس وثلاثين بعد الميلاد ، وذلك أنه في سنة اثنتين وأربعين قبل الميلاد استعاد (اَنتيفُون) ابن أريستُوبُولَ الإسرائيلي حرية البلاد واستقلالها، ولكن لم تأتِ سنة (٣٧) قبل الميلاد حتى ساعَدَ الرومانيين الملكُ هيرود الإسرائيلي على تدويخ مملكة يهودا فاستولى عليها وقتل (انتيفُون) و (هيركانَ) الذي هو آخر ولدٍ من ذرية (ماكابيه) وتحت حكم (هيرودانتياس) حكم على عيسى ـ عليه السلام ـ بالإعدام . ولكن الله تعالى عصمه كما يقول تعالى : (وَما قتَلُوهُ وما صَلَبُوه ولكن شُبه لهم) فلما عسف الرومانيون باليهود وسامُوهُم سُوءَ العذاب ثارُوا فاضطرّ الرومانيون لأخذ (أورشليم) سنة سبعين بعدَ الميلاد وأمرَ ملكهم (تيتوسُ) بإحراق مَعبَدهم وذبح مُعْظَم أهلها وبَيْعِ من بقي منهم ، فلم يمض غيرُ قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ، ولكن ثورة أخرى

جَعَلتِ الإمبراطورَ الروماني (ادرْيان) سنة مائة وخمس وثلاثين ميلادية يأمرُ بهدم المدينة من أساسها وذبح خمسمائة الف من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة • ولكن هذا التشريد الهائل لم يزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم ومن هذا التأريخ بدأ الدور الخامس الإسرائيلي إلى أن جاءَ دورُ وعدِ بلفور المشئوم واعطاء اليهود أرض فلسطين وإسكانهم هناك بحماية خاصة وقوة هائلة من الاوربيين كما نراها بعيوننا وإن في ذلك لعبرةً لأولى الأبصار •

وإنما فَسرتُ وَعدَ أولاهما بوعدِ استيلاء بختنصر البابلي على أورشليم وَوَعْد الاخرى باستيلاء (أدريان) الروماني عليها ، مع أنه كان لملك بابل بختنصر قبل ذلك استيلاء على أورشليم وقادَ الملك (يواقيم) و (سَدْياس) إلى أرض بابل أسيريْنِ ، وكان لملك آشور (سالمانازار) قبل بختنصر إستيلاء على مدينة السامِرَة وقادَ أهل مملكة إسرائيل إلى بلاده ، لأن الحركة الهائلة المُخيفة التي وردت على بني إسرائيل في عهد بختنصر وغارته الأخيرة في عهد الملك (ادَرْيان) الروماني لم يكن لها نظير في تأريخهم ، ولذلك نُفَسر الوعدين بما ذكرنا •

وما يتخيل من ظاهر الآية الكريمة أن الداخلين في البلاد الاسرائيلية أخيراً هم أعيان الداخلين فيها أولا ليس بمراد ، وأن الاعداء وان كانوا من غير صنف الاولين فهم اعداء والعدوّ عدو كيفما كان وأينما جاء •

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعدَ البعث الثاني ان تبتم وانزجرتم عن المعاصي (وإن عدتم) للافساد في البلاد على عادتكم السابقة (عُدْنا) لمعاقبتكم على سنتنا • وكثيرٌ من المفسرين قالوا : إن الشرط تحقق في تكذيبهم للنبي العربي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقصدهم قتله فعاد

الله عليهم بقتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير وضرب الجزية على الباقين ، ولكن المحققين يقولون : إن العـود لم يتحقق إلا في تأريخ ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ميلادية عند اعتراف الغربيين بدولة اليهـود وإسـكانها في فلسطين ، لأن العود إلى الدولة والسلطة لـم تتحقق إلا في ذلـك الوقت . لان ظاهر قولـه تعالى (وإن عدتم) العود إلى الدولـة والسلطة الرسمية والبغي على العباد والإفساد في البلاد . والعود بهذا المعنى لا يتحقق إلا بما تقرر لهم من السيادة الرسمية . ويؤيد هذا المعنى قولـه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريـرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتـل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجـر والشجر ، فيقول الحجر او الشجر : يا مسلم يا عبدالله هـذا يهودي خلفي فاقتله ، إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود » . والغرقد شجر معروف له شوك ينبت بأرض بيت المقدس ، وهناك مقتل اليهود . وأول بعض شجر الغرقد ببعض الكفار الموالين لليهود ، أي يكون الكفار على عدائهـم إلا بعضـا مخصوصا منهم ، فهو لا يرغب في قتالهم . ومما يستأنس على هـذا المعنى بقوله تعالى (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي سجنا حاصرا لهم محيطـا بهم فإنه يدل على اقتراب تلك الأيام من أيام آخر الزمان الذي تحقق أهمّ علاماته من قلةِ العلم والإيمان والأمان وسائر أخلاق المؤمنين .

(إنَّ هذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ ، ويُبَشِّرُ المُؤْمِنينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(٩) وأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً(١٠) ويَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالخَيْرِ ، وكَانَ الإِنْسانُ عَجُولاً(١١) وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ ،

فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً)(١٢)

قوله : (إن هذا القرآن يهدي) جملة مستأنفة لبيان نعمة أخرى اُخْرى من نعمة الإسراء والمعراج وهي القرآن المُعجز بألفاظه ومبانيه ، الهادي بأنواره ومعانيه • فيقول : (إن هذا القرآن) الذي آتيناكه (يهدي) الجن والإنس كافة بلا فرق بين عنصر وعنصر إلى الحق أي الطريقة (التي هي أقوم) الطرق الموصلة الى سعادة الدارين (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) بعد الإيمان بالله ورسوله المؤيد بالآيات البينات (أن لهم أجراً كبيرا) لا يدرك مداه الشامل لما ذكرناه (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما) وقوله (وإن الذين) عطف على (أن لهم أجرا كبيرا) والمعنى : أنه يبشر المؤمنين ببشارتين : ثوابهم ، وعقاب أعدائهم • أو عطف على يبشر بإضمار يخبر •

قوله تعالى : (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) بيان لحال الإنسان وضعفه عن مقاومة الشدائد والبلايا كما هو ضعيف عن شكر النعم والعطايا فقال : (ويدع الإنسان) على نفسه بالشر وهو الموت والفناء عند تفاقم البلاء (دعاءه بالخير) أي دعاء كدعائه بالخير وطلب الأولاد والأموال والجاه (وكان الإنسان عجولا) يسارع الى طلب كل ما يخطر بباله • روي أنه ــ عليه السلام ــ دفع أسيرا إلى سَوْدَةَ بنت زمعة أم المؤمنين فترحمت عليه فَأرْخَتْ كِتافه ، فهرب ، فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم ، فقال ــ عليه السلام ــ : « اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له » فنزلت •

وقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) شروع في بيان بعض الأدلة على القدرة القاهرة الباهرة التي كما تدل على وجود الباري ووحدته تدل على أن معجزة الإسراء والمعراج وأمثالهما ليس بأعظم من خلق الشمس والقمر ودوران القمر حول الارض ودوران الارض حول الشمس بطول الأزمان بدون فتور ، حتى يستنتج منهما العقلاء وذوات الأرواح والاحساس أوقات منامها ومقامها وعملها وراحتها فقال : (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي جعلناهما آيتين دالتين على قدرة الباري وحكمته في خلق النهار للعمل والتعب ، والليل للراحة والإستراحة (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) أي فجعلنا الليل مظلما والنهار مضيئا أو جعلنا لهما آيتين هما الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) وهي القمر وجعلناها في نفسها مطموسة لا نور لها إلا ما يستفيد من آية النهار أعني الشمس (وجعلنا آية النهار) وهي الشمس (مبصرة) أي مضيئة أو مبصرة للناس من أبصره اي جعله مُبصراً وذلك (لتبتغوا فضلا من ربكم) وهو كسب العلم والرزق في النهار وكسب الراحة للحواس والأعضاء بمنام الليل (ولتعلموا عدد السنين) التي يتعلق بها غرض الإنسان لمعرفة الحوادث التأريخية وأسبابها ، وجعلها درسا نافعا ودفترا واسعا لاكتساب المعلومات القيمة ومعرفة طريق الحياة والحذر من البينات (و) لتعلموا (الحساب) لأوقات العمل والراحة التي يتعلق بها أعمال البشر في التعليم والتدريب والتهذيب وما يحتاج إليه البشر من استخدام الأجراء والعمال وأوقات العبادات وأداء المناسك وغيرها (وكل شيىء) مما تفتقرون إليه للمعاش والمعاد وطرق تطور العباد ، وإصلاح الأنفس وتعمير البلاد ، ومكافحة أهل الفساد بإعداد العدة وتوفير الزاد (فصلناه) في هذا القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل الهداة إلى السبل (تفصيلا) مناسبا لتطور أهل الزمان .

(وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقيهُ مَنْشُوراً(١٣) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) وَإِذا أَرَدْنا انْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً(١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ؟ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)(١٧)

قوله تعالى (وكل إنسان) منصوب على الإشتغال (ألزمناه طائره) أي عمله الصادر منه بكسبه واختياره • وسمي طائرا بالمجاز كأنه طار إليه من الغيب (في عنقه) أي ثابتة في رقبته وذمته ، هذا في الدنيا (ونخرج له يوم القيامة كتابا) هي صحيفة عمله (يلقيه) الانسان المقيد به (منشورا) غير مطوي أي واضحا غير مخفي : (إقرأ كتابك) أي ويقال له من جانب ملائكة الحساب : اقرأ كتابك واعلم ما فيه (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا • من اهتدى) بهدايته وعمل بما يرضاه ربه (فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل) عن طريق عنايته ولم يهتد بهدايته (فإنما يضل عليها) أي فإنما وبال ضلاله على نفسه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) أي وما كنا معذبين أحدا من العقلاء البالغين حتى نبعث إليه بالذات أو بالواسطة رسولا يهديه إلى الحق ويبين منهج عقيدته وعمله وطموحه وأمله • وهذه الآية صريحة في أن الانسان العائش في الفترة وانقطاع الوحي السماوي واندراس الشريعة السابقة ،

ليس مكلفا في الدنيا ولا معاقبا في الآخرة، وبما أنه ليس هناك واسطة بين الجنة والنار فهم في الجنة لكن على درجة تناسب حالهم ، وكما أن نص الكتاب هذا فأصول أهل العلم تدل دلالة قاطعة على أن الغافل لا يكلف ، وأما إلزامه غرامة ما بتلف فمن باب خطاب الوضع ، ومن هنا يظهر بوضوح ما أفاده المحققون كالغزالي ـ رضي الله عنه ـ أن الناس المتوطنين في الجزر البعيدة عن المعمورة ، وسكان الوديان العميقة السحيقة ، وأهل قمم الجبال الشاهقة ممن لم تصلهم البعثة ليسوا مكلفين ماداموا كذلك. وأما اليوم الذي نرى ما يجري ، ونسمع ما يقال ، ويذاع فيه فلم يبق مجال لأحد من العقلاء أن يعتذر بعدم وصول البعثة إليه . نعم إن الناس الضعاف في العلم والمقدرة الواقعين تحت سيطرة دعاة السوء عذابهم أقل من عذاب المسيطرين عليهم المحرفين لهم عن طريق الحق والصواب .

ولما بين الباري سبحانه أنه جرت سنته على ترتب الحساب والعذاب على البعث وتمرد الناس العابثين اللاهين اللاعبين بأصول الدين عقب الآية السابقة بقوله الكريم (وإذا أردنا أن نهلك قرية) أي نهلك أهلها وندمر ساحة العمارات كأن لم يكن عليها قصر (أمرنا مترفيها) بالطاعة وكف النفس عن الغفلة والغرور والفسق والفجور ، وبشكر الخالق على النعمة والدثور (ففسقوا فيها) وخرجوا عن طاعة باريها وتمردوا وعاندوا الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر (فحق عليها القول) أي كلمة العذاب (فدمرناها تدميرا) بحيث لم يجدوا للدفاع وليا ولا نصيرا .

(وكم أهلكنا من القرون) تميز لكم ، وهي خبرية . أي وأهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية (من بعد نوح ؟) ـ عليه السلام ـ كعاد ، وثمود ، وشعب نمرود ، وأهل مدين المردود ، وفراعنة مصر ذوى الكفر والجحود ، وأصحاب الأخدود النار ذات الوقود ... والقرن مائة سنة على

الراجح • ولم يكن إهلاكها منا إلا لتمردها وطغيانها وبغيها وعدوانها على بني الإنسان (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) محيطا بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وكفى بربك على العقاب قديرا •

(مَنْ كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيها مَذْمُوماً مدحوراً(١٨) وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها ، وَهُوَ مُؤمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً(١٩) كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاء مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً(٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً)(٢٢)

قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) يعني انا أرسلنا الرسل وأوضحنا السبل ، وبينا على لسان المبلغ الصادق أن الله خلق العباد للرشاد ، لا للبغي والعناد والغي والسفه والفساد ، وأن الدنيا دار المتاع المؤقت وأن الآخرة دار الجزاء المؤبد • وبعد ذلك (من كان يريد العاجلة) أي متاع الدنيا الحاضرة عنده (عجلنا له فيها) أي في الدنيا العاجلة (ما نشاء) من المتاع (لمن نريد) أي لمن نريد تعجيله له منهم • وإلا فليس كل ما يريده أهل العاجلة يأخذه فما كل ما يتمنى المرء يدركه (ثم) بعد وفاته وبعثه وحسابه (جعلنا له) مكان ما عجلنا له (جهنم يصلاها مذموما) عند الله (مدحورا) أي مطرودا من رحمته تعالى (ومن أراد الآخرة) أي الدار الآخرة (وسعى لها سعيها) أي السعي اللائق لنيلها (وهو) مع ذلك السعي (مؤمن) بالله ورسوله إيمانا صحيحاً لا يشوبه ما يقدح فيه (فأولئك

كان سعيهم مشكورا) مقبولا مثابا عليه هناك• (كُلاً نمد ، هؤلاء وهؤلاء) أي ونمد كلا من الفريقين هؤلاء المريدين للعاجلة وهؤلاء المريدين للآخرة (من عطاء ربك) أي من معطاه الواسع الذي لا منتهى له (وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا عمن يريده ، بل هو واصل إلى كل من أراده له ربه •

(أنظر) أيها الناظر المتبصر المتفكر (كيف فضلنا بعضهم على بعض) في الدنيا (وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلا) أي أكبر من درجات الدنيا وتفضيلها ، لأن التفاوت فيها بالجنة ودَرَجاتها العالية ومثوبة الله ، وبزيادة على ذلك من اللقاء هناك ، وما النسبة بين من يراه مسرورا ومن يُحْرم منه مقهورا • وفي بعض الآثار أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : إن بَيْن أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها • وقد أرضى الله تعالى الجميعَ فما يغبط أحدٌ أَحَداً • وصح ان الله تعالى اعد لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر • (لا تجعل مع الله إلها آخر) الخطاب مع الرسول والمراد به أمته (فتقعد) أي فتمكث في أسوإ حال (مذموما) عند الله (ومخذولا) حائراً تائها متفكرا •

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا ، فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ، وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ

غَفُوراً(٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ، وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) اِنَّ المُبَذِّرِينَ كانُوا اخْوانَ الشَّيَاطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُل لَهُمْ قَولاً مَيْسُوراً)(٢٨)

قوله تعالى : (وقَضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) من هذه الآية إلى آخر آية الثماني والثلاثين بيان لصفات وأعمال هامة من شعار الإنسان الكامل والعبد الفاضل بحيث إذا حاز عبد تلك الصفات اعتبر متميزا بأحسن الصفات ومتوسما بأعلى السمات ، منها ما يتعلق بالإعتقاد ، ومنها ما يتعلق بغيره ، وهو إما متعلق بأقرب الإنسان إلى الإنسان وأحقهم بالرعاية أعنى الوالدين • أو بمن يليه من الأقارب وغيرهم • ومنها ما هو نهي عن اقتراف الرذائل وما يتعلق بها من الحقوق الثابتة بينه وبين غيره ، ومنها مايتعلق برذائل نفسية شخصية ، ويختمها بما بدأ به أولا • فيقول سبحانه وتعالى : (وقضى ربك) أي وأمر أمراً مقطوعا به بأن لا تعبدوا إلا إياه أي خصصوا عبادتكم به تعالى (وبالوالدين إحسانا) أي وبأن تحسنوا إليهما إحسانا • وقوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف) كلمة إما فيه مركبة من إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد • ولذلك صح إلحاق نون التأكيد بالفعل بعدها • وقوله (عندك) بمعنى في كنفك ورعايتك • وقوله (الكبر) مفعول به و (أحدهما) فاعل يبلغن ، والجملة مع مابعدها بيان لجملة (وبالوالدين إحسانا) باعتبار بعض الصور ويعلم حال سائر الصور بالأولى• وحاصله فإن بلغ أحد الوالدين أو كلاهما حد الكبر وضعف القوى مطلقا ، ولانَتْ قلوبهما بحيث لا تتحمل أي عنفٍ (فلا تَقل لهما) أو لأحدهما

في حال من الأحوال المزعجة لك (أفّ) ولا تتضجر مما يستقذر منهما ، ولا تستثقل من مؤنتهما أو مؤنة أحدهما شيئا (ولا تنهرهما) أي ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ (وقل لهما) بدل التأفيف والنّهر (قولا كريما) محترما لا خشونة ولا سوء أدب فيه .

ولما نهى الله سبحانه وتعالى عن التأفيف والنهر لهما نهيا تحريميا علم أنّ ما فوقهما من الاقوال والافعال الغير المناسبة لهما حرام بالطريق الأولى . وذلك المعنى اما مستفاد من القياس الجليّ ، أو من العرْف ، أو بطريق المجاز . (واخفض لهما) أي للوالدين (جناح الذل) أي تذلل وتواضع لهما ففي الذل إستعارة مكنية حيث شبه الذل بطائر يطير في الهواء وينحط ويتنزل من علو ، وذكر الجناح قرينة لها ، وفيها إستعارة تخييلية . أو في الجناح إستعارة مصرحة حيث شبه العطف ولين القلب بالجناح وإضافته إلى الذل قرينة ، وذكر الخفض ترشيح لمناسبته للمشبه به . وقوله (من الرحمة) أي من فرط رحمتك عليهما . وتنبه حتى لا يظن الوالدان أو أحدهما فيك تعنتا ويرَيا أن خفض الجناح منك نوع من التأثر وتضجر القلب فيزداد الـمهـمّ النفسيّ من ذلك (وقل رب ارحمهما) أي وادع الله سبحانه أن يرحمهما برحمة خالدة (كما ربّياني صغيرا) أي كما ترحما عليّ عندما كنتُ صغيراً لا أدبّر نفسي وأتيا بما احتجتُ إليه ، وترَجيا مع ذلك دوامي وبقائي في الدنيا .

روي أن رجلا قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أبويّ بلغا من الكبر بحيث أنّي ألي منهما ما وَليا مني في الصغر، فهل قضيتهما ؟ قال: « لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد فوتهما » وقوله تعالى (ربكم أعلم بما في نفوسكم) تأديب وتنبيه للأولاد على تصفية النفس من كل ما يخالف الإخلاص فان العمل بدون اخلاص ليس

له نتيجة إلا الإفلاس • فقال ربكم أعلم بما في نفوسكم من قصد البرّ إليهما وفاءً بحقهما وأداء وامتثالاً لأمر الله تعالى أولا (إنْ تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) أي إن تكونوا صالحين وقاصدين للصلاح تكونوا أوّابين رجّاعين إلى الله ، وعند ذلك يغفرُ الله تعالى لكم فإنه كان للأوابين غفورا •

ولما أمر الله تعالى عبده المخلص بإخلاص العبادة له وتخصيصه بالطاعة والتذلل وتوحيده ، ثم أمره بالإحسان إلى الوالدين ، وهما أحق الناس بالرعاية ، أمره بإعطاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم وقال : (وآت ذا القربى) أي صاحب خصلة القرابة من العصبات وذوي الفروض وذوات الأرحام (حقه) من الصلة وحسن المعاشرة في الحضور ، وحفظ الغيب في الغيبة ، والمساعدة بما يمكن عند الكرب • وقال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ : حقهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم (والمسكين وابن السبيل) أي وآتهما حقهما وهو الزكاة إذا كان الأمر للوجوب ، وحقهما من زيادة المساعدة اذا كان الامر للندب ، فإن رعاية المساكين وأبناء السبيل صدقة تطوع (ولا تبذر تبذيرا) أي ولا تصرف المال فيما لا ينبغي فَأعطِهِمْ مقدار الكفاية ،ولا تنفق مالك فيما لا يحتاج إليه ، ولا في المعاصي ولا للسمعة ولا للرياء • (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)أي كانوا أمثالهم في الشرارة (وكان الشيطان لربه كفورا) أي مبالغا في الكفر والتعنت والعناد وبذلك خرج عن طريق الرشاد ولعن إلى أبد الآباد (وإما تُعْرِضَنّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها) أي وإن أعرضت عن المذكورين لفقدان المال وانتظار حصوله في المستقبل (فقل لهم قولا ميسورا) أي فقل لهم في طلب السماح منهم قولا لينا يرتضونه ولا يتأذون به حتى إذا حصل المجال آتيتهم بقدر الحال •

(وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ، وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ ملوما مَحْسُوراً(٢٩) اِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ اِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ اِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَاِيَّاكُمْ ، انَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً(٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا اِنَّهُ كانَ فَاحِشَةً وساءَ سَبِيلاً)(٣٢)

قوله تعالى (ولا تجعل يـدكَ مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ... الآية في الآية الكريمة تمثيلان بليغان لمنع الإنسان الشحيح من الشح والمبذر من التبذير زجراً لهما عن الصفتين الرذيلتين ودعوة لهما الى التوسط بينهما، لأن خير الامور أوسطها. عن ابن عمر ــ رضي‌الله عنهما ــ قال قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الإقتصاد نصف المعيشة » وفي رواية عن انس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » ويستفاد ضمن الآية تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الموجود وحاجة الإنسان إليه وعدم صرفه في قضاء الحوائج بوجود اليد والقوة لصاحبها وربطها بالعنق بحيث لا يقدر على تحريكها ودفع أي أذى من صاحب وجلب أي خير اليه . كما أنه يستفاد تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الكثير وإفاضته على الناس المحتاجين وغير المحتاجين وصرفها المناسب وغير المناسب بإنسان له يدان مبسوطتان ممتدتان يمنة ويسرة بحيث لا تتحركان لمنع الأذى وعمل مفيد له ، فكأن الإنسان ما له يد ، أو له يدان لا تعملان ولا تأتيان بنفع لصاحبهما وقوله تعالى : (فتقعد ملوما محسورا) متفرع عن المتعاطفين أي فتصير لذينك الأمرين ملوما مذموما عند الله وعند عقلاء الناس بالبخل

واللؤم والإسراف وإتلاف المال وسوء التصرف نادما متحسرا ، أو منقطعا عن الناس لا يميل إليك أحد ولا يأتيك من أحد مَدَد" .

وقوله تعالى (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تعليل لقوله السابق (وإما تعرضن عنهم) الآية وللنهيين الواقعين قبلها . يعني إن أعرضت عن الانفاق على الناس أولا وإن بخلت على الناس في صرف المال ، أو بسطْتَ اليدين على الكل ، فإن ذلك لا يؤثر في تغيير ما قسمه الله تعالى بين الناس من المعيشة ، فلا تجعل نفسك عاصية عن إطاعة أوامر قدسك (إنه كان بعباده خبيرا) عالما بسرائرهم بصيرا عالما بظواهرهم ، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم بل يخفى على كل أحد سواه (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أي فقر وقلةٍ في الأرزاق ، فالمراد بالأولاد البنات وبالقتل وَأدهن في الحفرات (نحن نرزقهم وإياكم) أي نحن نرزقهم لا أنتم ونحن نرزقكم أيضا وأنتم آباؤهم لا انتم ترزقون أنفسكم (إن قتلهم كان خِطأً) في حد ذاته لأنه إبادة نفس معصومة بدون موجبات معلومة ، فهذا التعليل كاف في منع الآباء عن قتل الأولاد ، وإنما العلة الأولى لردع النفوس المخطئة المتوهمة عما توهمته من تحمل أعباء النفقات .

(ولا تقربوا الزنا) بمباشرة مقدماته كالنظر بشهوة ، والمسّ ، والغمز ، والخلوة ، والكلام الفاسد لهن ، واستمالة قلوبهن ... فضلا عن مباشرة نفس الإيلاج المحرم (إنه) أي الزنا (كان) في جميع الملل ولم يزل (فاحشة) يستنكرها الطبع السليم (وساء) سبيل الزنا (سبيلا) لقضاء الشهوات الجنسية لأن صاحبها إذا تعوده استمر عليه وذلك موجب لجلب الفتن والمنازعات والويلات وخراب العائلات وعدم استقرار النفوس بمن يصاحبه من الازواج والزوجات ، وطبيعة المرء متحاشية عن قبول تلويث الفراش بالعمل الفاسد ، وحتى الحيوانات والطيور فكيف بالإنسان الشهم

الجسور الغيور ! علاوة على كبر اثمها في الدين • فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ••• » وجاء في روايات « إنه إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان » ولذلك عد من الكبائر وشرع عليه حد الجلد لغير المحصنين ، والرجم بالحجارة لهما ، وكفى بذلك عارا وبوارا •

(وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً(٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُلاً(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ، وَزِنُوا بِالقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥) وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً(٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً(٣٧) كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)(٣٩)

قوله تعالى : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) يعني حرم الله قتلها (إلا بالحق) أي إلا بسبب من الأسباب التي توجب قتلها ، بأن قَتَلَتْ نفسا معصومة فقُتِلت قصاصا ، أو كان رجلا مُحصناً وزنى ، أو امرأة

محصنة وزنت ، أو ارتد عن دين الإسلام ، وفسر الحق بما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيّب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وأما قتل الصائل على الانسان فلاعتباره في حكم القاتل في الجملة ، وقتل تارك الصلاة لاعتباره من المرتدين ، وقتل اللائط لاعتباره زانيا . والتفصيل في المطولات . (ومن قتل مظلوما) أي بغير حق يوجب قتله (فقد جعلنا لوليه) أي لمن يلي أمرهُ وارثا أو سلطانا إذا لم يوجد الولي (سلطانا) أي تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : القصاص ، أو الدية . وقد تتعين الدية كما في قتل الخطأ (فلا يُسرف) أي الولي (في القتل) أي فلا يتجاوز الحد المشروع بأن يقتل اثنين بواحد ، أو يقتل القاتل بطريق يؤذي إيذاء زائدا على العادة كأن قتل شخص بالسيف الحاد فيقتل القاتل بالسكين الكالّ ، أو بأن يأتي بالمثلة كقطع الأنف والأذن وغيرهما (إنه) أي الولي (كان منصورا) من الله حيث أحل له القصاصَ وأخذَ الدية . فلا يجوز أن يجعل نفسه مكسورا بارتكاب ما لا يحل في الدين .

(ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن) أي إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وهي صيانته وتنميته (حتى يبلغ أشدهُ) أي حتى يبلغ أوانَ قوته في العقل وهو وقت البلوغ رشيدا ، وعند ذلك لا يجوز التصرف في ماله إلا بإذنه وظاهر إطلاق الآية الكريمة النهي عن التعرض له قليلا أو كثيرا ، فالمطلق يبقى على إطلاقه ويجب على المسلمين التورع عن إضاعة أموال اليتامى بأي وجه كان . نعم يجوز لإخوة اليتيم إذا كانوا في دار واحدة ولهم أموال مشتركة وزراعات وبهائم التصرف في ذلك المال بحيث

لا يتضرر مال اليتيم ، وذلك بتخويل القاضي عند وجوده أو أهل الخبرة عند فقده أو إهماله لذلك الأمر أحد الإخوةِ في بيع حصته مع ماله إذا كان فيه منفعة حتى يتسنى له إدارة شؤن اليتيم كسوة وتربية وتعليما . (وأوفوا بالعهد) أي بما عاهدتم الله عليه من أحكام الدين إيجابا وسلبا ، وبما عاهدتم عليه غيركم سواء" كان بالأَحلافِ المشروعة أو بالمعاملات والعقود الشرعية أو النذور الصحيحة (إن العهد كان مسؤلا) أي مسؤلا عنه . وفيه إستعارة بالكناية حيث شبه العهد برجل رشيد إلتزم أمرا ، وذكر مسؤلا قرينة (وأوفوا الكيل) أتموه ولا تُخْسِرُوه (إذا كِلْتم) للمشترين (وزِنُوا) المواد الموزونة عادة في المعاملات (بالقسطاس المستقيم) أي بالميزان المعتدل صغيرا كان أو كبيرا (ذلك) المذكور من إيفاء الكيل والوزن بالميزان المعتدل (خير) مما يختاره الناس ، ويعدونه خيرا لأنفسهم في المعاملات لأن المذكور خير تشريعي وما كان مختارا عند الناس خير جعلي (وأحسن تأويلا) أي أحسن عاقبة لما يترتب عليه من الثواب (ولا تقف ما ليس لك به علم) أي ولا تتبع ما ليس لك به علم فيما يطلب فيه العلم من المعتقدات والشهادات ، ولا تشهد بالزور ولا تقذف أحَدا بدون العلم بعمله السيىء ، ولا تقل سمعت من فلان أو رأيت فلانا فيما لم تسمعه ولم تره ، ولا تنسب إلى أحد كفراً أو كبيرة بدون علمك به (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) أي يسأل كل تلك الأجهزة عما نسب إليه ، فيسأل السمع : هل سمعت ؟ والبصر هل رأيت ؟ والفؤاد هل علمت ؟ أو يسأل أصحابها عن العلم بسببها (ولا تمش في الأرض مرحا) أي فخرا وكبرا (إنك لن تخرق الأرض) إذا وطئتها بالقوة (ولن تبلغ الجبال طولا) اذا رفعت قامتك تكبرا (كل ذلك) المذكور في جملة الأوامر والنواهي (كان سيئه) أي السيىء منها (عند ربك) الناهي

عنه (مكروها) غير محبوب وغير مرضي وإن كان مرادا له تعالى إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن • وليس بين الإرادة والكراهة تضاد حتى يمتنع إجتماعهما في محل لأنهما أعم وأخص من وجه مادة اجتماعهما اولئك الناس الآتون بتلك المنهيات ومادة افتراق الارادة عن الكراهة ارادة الباري لإيمان المؤمن فانه مراد غير مكروه ومادة افتراق المكروه عن الارادة كراهة كفر المؤمن فانه مكروه وليس بمراد لانتفائه • (ذلك) المذكور المتقدم في التكاليف (مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أي من الشرائع التي هي مشتملة على الإتقان والخير والمناسبة مع سعادة المكلفين ، وأهمها هو الابعاد عن الاشراك الذي هو شرك الهلاك المؤبد فاذكر ربك (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما) من جهة نفسك اللوامة على ما فعلت من موجبات الندامة (مدحورا) مبعدا من رحمته الواسعة • والخطاب ، وإن كان مع الحبيب ، فإنه يراد به غيره من البعيد والقريب •

(أَفَأَصْفَيكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إنَاثاً ؟! إنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَولاً عَظِيماً(٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إلاَّ نُفُورا(٤١) قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ الِهَةٌ ـ كَما يَقُولُونَ ـ إذاً لاَبْتَغَوْا إلى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً(٤٢) سُبْحانَهُ وَتَعالى عمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً(٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإنْ مِنْ شَيْءٍ الاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ انَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً)(٤٤)

قوله تعالى : (أفأصفيكم ربكم بالبنين) الهمزة للإستفهام الإنكاري ، والخطاب مع المشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله •فيقول : أيها الجهلة

المحتارون في وادي الضلال أفلا تتفكرون في أن خالق العالم ليس ممن يحتاج الى النسل لحفظ نوع الأصل فانه أصل فرد صمد ليس مثله أحد ، ولو فرض فارض بالتقدير إختياره لنسل فكيف اختاركم بأشرف صنف منه وخص نفسه بصنف لا تختارونه لأنفسكم ؟! (واتخذ منَ الملائكة إناثا ؟!) وهذا خلاف ما عليه عقولكم (إنكم لتقولون قولا عظيما) ثقيلا على السماوات والارض قبولـه (ولقد صرّفنا في هذا القرآنِ) كررنا في مواضع منه إنكارَ نسبةِ النسلِ إليه مطلقا ، لأنه الغني المطلق الموصوف بالكمال المطلق (ليذكروا) أي ليتفكروا في الحقائق ويختاروا لأنفسهم الإعتقاد الصحيح اللائق (وما يزيدهم) تصريفنا ذلك (الا نفورا) عن الحق الى الباطل وذلك عادة كل إنسانٍ عار عن العقل جاهل •

وبعد أن بينت لهم إستغناءه تعالى عن الاولاد بين لهم استحالة وجودِ الشريك له تعالى ، فانه الواجب الوجود ، القادر المعبود الذي يفعل ما يريد ولا مجال لوجود الشريك له • و (قل) لهم : (لو كان معه آلهة ـ كما يقولون ـ) أيها المشركون لكان بينهم وبينه مناسبة ومراسلة (وإذا لابتغوا) أي أولئك الآلهة (إلى ذي العرش) المجيد الفعال لما يريد (سبيلاً • سبحانه وتعالى) تنزيهاً له (عما يقولون) من وجود الآلهة أو وجود إله واحد معه (علوّا كبيرا) فليس هو من الموصوف بالإمكان والحدوث حتى يمكن أن تكون فيه شائبة الحاجة ويكون له افتقار إلى الشريك والمعاون في الأمور وذلك معلوم عند ذوي الفطنة والشعور • فهو المتوحد بالكمال والجمال والجلال والمتفرد بالإستيلاء على الكائنات الموجودة كلهن وجزئهن (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن) من الملائكة والجن والإنس (وإنْ مِن شيىء) من الجمادات والنبات والحيوانات (إلا يسبح) له تعالى

متلبساً (بحمده • ولكن لا تفقهون تسبيحهم) إذ ليس تسبيحهم بتقطيع الأصوات أو تركيب الحروف والكلمات ، فإن لكل موجود حدودا ولكل موزون ميزاناً فبقاؤها في الجوّ الواسع ، ودورانها المستمر لإفادة المنافع، ورعاية مقدار الحركات على الوجه اللائق الرائع ، وتغيرها بإرادة الباري في إنزال الثلوج والبرد والأمطار على البراري والبحار لتفجير الينابيع وجريان الأنهار كل ذلك تسبيح وتقديس أفصح من تسبيحات أهل النفوس للملك الديان القدوس • وكيف تفقهون تسبيح ذوات لا فتور لها عنه بالساعات والدقائق والثواني ؟ فتبينَ أنا ما وجدْنا في الإنسان مثلهنّ مُسبحا شكورا ، ولكن الله يسامحُ العِباد (إنه كان حليما غفورا) •

(وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً(٤٧) أُنْظُرْ : كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ ، فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)(٤٨) •

قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن •••) هذه الآية الكريمة تمثيل لهم في عدم استماع الحق بمنْ كانَ وراء حجاب يمنعه عن رُؤية منْ يمرّ وراءَه أو عن سماع كلامه كما أنّ الأكنة كذلك أي (وإذا قرأت القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) لا يُبْصر بالعين المجردة فلا يرونك حتى لا يؤذوك وهذا الحجاب مانع عن رؤيتك فقد روي أنها

نزلت في أبي جهل والنضر وأم جميل وأمثالهم إذ كانوا يؤذونه إذا قرأه فحجب الله أبصارهم عنه فكانوا يمرون ولا يرونه (وجعلنا على قلوبهم أكنة) تكنها وتسترها وتحول دونها عن إدراك معناه أي منعناهم (أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً) أي صمما وثقلا عظيما مانعا عن استماعه ، وكل هذه الجعليات ترتبت منه تعالى على اعتقادات وسخة راسخة في قلوبهم ، وأعمال سيئة أبرزوها في معاندة أبرز رسول هادٍ ناشر لأحكام الإسلام ، وإلا فالباري سبحانه قال (ومن اصدق من الله قيلا ؟) ، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده) أي غير مذكور معه آلهتهم (ولّوا على أدبارهم نفورا) أي نفرة وهربا من استماع التوحيد لله المجيد (نحن أعلم بما يستمعون به) أي بسببه ولأجله (إذ يستمعون إليك ، وإذهم نجوى) أي ونحن أعلم بغرضهم حين هم مستمعون للقرآن عند قراءته ونحن أعلم بحالهم حين هم ذوو نجوى متناجون به (إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) أي رجلا سحر ؛ فزال عقله (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) أي ذكروا لك الأشباه والنظائر فمثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون وليس عندهم من ذلك النوع صنف آخر وإلا كانوا يمثلونك به أيضا ولكن لا تهتمّ بهم فإنما المشركون بهائم بُهْم لا يُهمّهم إلا فروجهم وبطونهم (فضلّوا) عن طريق الحق (فلا يستطيعون سبيلا) إلى طعن واقعي يطعنونك به •

(وَقالُوا : أَئِذا كُنّا عِظاماً وَرُفاتاً أَءِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟(٤٩) قُلْ : كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً(٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ : مَنْ يُعِيدُنا ؟ قُلِ : الَّذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ • فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ،

وَيَقُولُونَ : مَتى هُوَ ؟ قُلْ : عَسى أنْ يَكُونَ قَرِيباً(٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ اِنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً)(٥٢)

قوله تعالى : (وقالوا : أئذا كنا عظاما ورُفاتاً) أي وقال المشركون المنكرون للبعث واستفهموا استفهاما انكاريا : (أئذا كنا عظاما) أي أئذا متنا ولم تبق لحومنا وبقي منا العظام المجردة (ورفاتا) والرفات : ما بَلِيَ فَتَفَتَّتَ . وقيل إنه التراب (أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟) على غضاضة الحي وطراوته مع ما بينها وبين يبوسة الرميم من مباعدة ومباينة تامة (قل) يا حبيبي في جوابهم : (كونوا حجارة أو حديداً أوْ خَلْقاً مما يكبرُ في صدوركم) ويبتعد عن قبول الحياة أيّاً كان فإنكم تحيون وتبعثون (فسيقولون) بعد قولك هذا : (من يعيدنا ؟ قل : الذي فطركم) أي قل يعيدكم الرب القادر الذي خلقكم (أول مرة) وكنتم ترابا باعتبار الأصل ، ثم كنتم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة (فسينغضون إليك رءوسهم) أي فإذا قلت لهم ذلك وكان يحتوي دليلا دقيقا جليلا ، فَبَدَلَ أن يقبلُوا منك الكلامَ السليم سيحركون إليك رءوسهم استهزاء وتعجبا (ويقولون) لاستبعاده : (متى هو ؟) أي في أي زمان يتحقق ذلك العود (قل) لهم : (عسى أن يكون قريبا) فإن كلّ آتٍ قريب . وذلك يتحقق (يوم يدعوكم فتستجيبون) أي يوم يبعثكم فتبعثون استجابة لدعوته متلبسين بحمده على كمال قدرته أو تعلمون أن كل ما وعد به فهو حق (وتقولون) إذ ذاك سبحانك اللهم وبحمدك وتظنون في ذلك اليوم (إن لبثتم) في الدنيا (إلا قليلا) .

(وَقُلْ لِعِبادي : يَقُولُوا الَّتي هي أَحْسَنُ ، اِنَّ الشَّيْطانَ ينزَغُ بينهم ، إنَّ الشيطانَ كانَ لِلإنسانِ عَدُوّاً مُبِيناً(٥٣)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ، إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(٥٤) ورَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وآتَيْنَا داوُدَ زَبُوراً)(٥٥)

قوله تعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي احسَن) أي وقل يا حبيبي لعبادي المؤمنين يقولوا في المحاورات مع أولئك المشركين المستكبرين الكلمة التي هي أحسن الكلمات المناسبة في المخاطبة، وليأتوا باللين منها، ولا يخاشنوهم (إن الشيطان ينزغ بينهم) أي يفسد ويهيج الشرّ بينهم وبين الكافرين • والمداراةُ والملاينة انسَبُ بهم لإصلاح ذات البين من المخاشنة (إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) واضح العداوة • وهذه العداوة قد تكون بافساد نفسه في ذاته ، وقد تكون بإيقاع الفتنة بينه وبين إنسان آخر ، أو أناسي آخرين • (ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم) بالتوفيق للنيات الطيبة والأعمال الحسنة (أو إن يشأ يعذبكم) في الدنيا أو في الآخرة بخلق العزم على ما لا تحسن عاقبته وبمباشرة الأعمال السيئة في نفسه أو مع غيره (وما أرسلناك عليهم وكيلا) اي وما أرسلناك مفوضة إليك أمورهم وإنما أرسلت للتوجيه والتنبيه والإرشاد إلى كسب سعادة المعاش والمعاد (وربك أعلم بمن في السماوات والارض) بنياتهم وأعمالهم وحالهم ومآلهم فيختار منهم من يختاره للرسالة وإخراج الناس من الضلالة إلى الهدى باختيار سلوك طريق الحق ، ومنهم من يختاره لقبول ما وصل إليه من التوجيهات ، ومنهم من كان على غير ذلك (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالمواهب القدسية ، والمراتب النفسية ، والأخلاق العالية الزكية ، أو بالمعجزات

الجسيمة ، أو بعموم الرسالة ، أو بفضائل الأمة (وآتينا داود زبورا) وفيها الأذكار الصباحية والمسائية (وسخرنا الجبال يسبحن معه بالعشي والإشراق) وقد كتبنا فيه من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون وأن القدس يأخذها الأمة المحمدية الصالحون المصلحون باختيار الدين على الدنيا كما ورثها الأصحاب الكرام في سابق الأيام ، وكما ورثها جيش الحق جيش صلاح الدين بعد استيلاء الكفار عليها مدى من الأعوام وسترثها الأمة الإسلامية بالنصر العزيز والفتح المبين بعون الله العلام •

(قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ ، فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ، وَلا تَحْوِيلاً(٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ : أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً(٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً)(٥٨)

قوله تعالى : (قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه) جاء الزعم بتثليث الزاء قريبا من الظن • ويقال : إنه القول المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب حتى قالوا : إن كل ما ورد منه في القرآن الكريم فهو بمعنى القول الكذب ، كما أنه جاء بمعنى القول المحقق • وهذا مورده الكذب البواح ، ومفعولاه محذوفان ، والتقدير قل يا حبيبي للكفار المشركين : (ادعوا) الشركاء (الذين زعمتم) وهم آلهة (من دونه) أي من دون الله • وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في المشركين الذين أشركوا بالله تعالى فعبدوا عيسى وأمه وعزيراً والشمس والقمر والكواكب • هل يجيبونهم في

مايدعونهم له والجواب كلا . فإذا تبين أنهم (لا يملكون كشف الضر عنكم) من المرض والفقر وما ابتليتم به (ولا تحويلا) لذلك الضر عنكم إلى غيركم. ومن لا قدرة له على ذلك لا يستحق أن يعبد لأن العبادة وصحتها مترتبة على اتصاف ذلك المعبود بقدرة الخلق والإبداع والإيجاد (أولئك الذين يدعون) أي أولئك الآلِهة الذين يدعوهم المشركون ويسمونهم آلهة (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي القربة بالطاعة والعبادة والإنقياد (أيهم أقرب) بدل من فاعل يبتغون . يعني إن أي واحد منهم أقرب الى الله تعالى بامتيازه عن غيره بالنبوة والرسالة كعزير وعيسى ـ عليهما السلام ـ ، أو بكرامة حاصلة بالطاعة والإخلاص كسائر أعيان الأمة الذين كانوا من الصالحين فنقشوا صورهم وحولوها الى الاصنام وعبدُوها بعد بالتدريج العادي (ويرجون من الله (رحمته . ويخافون عذابه) فكيف يتصورون أنهم آلهة وكيف يعقل أن لهم ابداعا في الكائنات من الارض أو السماوات وانما يرجون رحمته ، ويخافون عذابه كهيبة عذاب الله في قلوبهم ؟ (إن عذاب ربك كان محذورا) وحقيقا بأن يخاف ويحذر منه أعاذنا الله تعالى منه .

ولما ذكر أن عذاب الله سبحانه وتعالى كان مهيبا مهولا يخاف ، وأن العذاب لا ينزل إلا باستحقاق الإنسان له بالعقائد الفاسدة والأعمال السيئة ، لاسيما الظلم والطغيان والبغي والعدوان ، وأن الامة في آخر أدوار الدنيا تستحق بهما العذاب . قال تعالى (وإن من قرية) أي ما من معمورة في الدنيا (إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) أي مهلكو أهلها إهلاكا عاما (أو معذبوها عذابا شديدا) بابتلائهم بأنواع البلايا المحيرة للعقول ورفع الأمان عنهم (كان ذلك) المذكور من الإهلاك الجماعي أو العذاب الشديد (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوباً .

ثم إن من الناس من ادعى أن الإهلاك والتعذيب المذكورين مختصان بالكفار وبلادهم ، وذلك لكفرهم • ومنهم من قال بعمومهما لجميع البلاد والعباد سواء كانت بلاد الإسلام أو غيرها ، والعباد من المسلمين أو الكافرين• وهذا هو الظاهر لدليلين : الاول دلالة ظاهر الآية الكريمة ، فإنها ليس فيها التخصيص ببلد دون بلد ولا بقوم دون قوم • والثاني : أن الظاهر من الكتاب والسنة أن نزول العذاب ناتج من المعاصي وخروج الناس عن إطاعة الباري • وهذه العلة موجودة في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها• ومعاصي أمة الإسلام لو فرضنا أنها لا تصل الى درجة معاصي الكفار ، لكنها لما كانت مسلمة وعارفة بالآيات والآداب كان الواجب أن تتنزه عنها بالمرة • فالذنوب الصغيرة الناشئة من المسلم كبيرة وكبيرته من أكبر الكبائر•وعلى كل حال فقد رأينا تغييرات هامة وتخريبات عامة في بعض المناطق الإسلامية ، ونسترحم المولى جل شأنه أن يسامحنا ولا يستمر في تعذيبنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيىء إنه رؤوف رحيم •

(وَما مَنَعَنا أَن نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِها الأَوَّلُونَ ، وآتَيْنا ثَمُودَ النّاقة مُبْصِرَةً ، فَظَلَمُوا بِها ، وَما نُرْسِلُ بالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) وإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنّاسِ ، وَما جَعَلْنا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلعُونَةَ فِي القُرآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ ، فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كبيرا)(٦٠)

قوله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون) يعني بالآيات التي اقترحتها قريش على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فقد أخرج أحمد والنسائي والحاكم ، وصححه والطبراني وغيرهم عن ابن

عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : سأل أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا • فقيل له : إن شئت أن تستأنيَ بهم ، وإنْ شئتَ أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لا بل أستأني بهم » فأنزل الله تعالى هذه الآية • والحاصل أنه ما منعنا ان نرسل الآياتِ التي اقترحتها قريش الا أنه كذب بها الأولون المقترحون لنوع تلك الآيات ، فلما آتيناهم تلك الآيات كذبوا بها فأهلكتهم ، وهذه سنتي ولا تبديل لها فإذا أرسلناها كذبت بها قريش ، ولابد أن نهلكهم ولا نريدُ أن نهلكهم وانت فيهم ، أو لا نريدُ أن نهلكهم ونعلم أن من أولادهم من يؤمن بالله ورسوله (وآتينا ثمودَ الناقة) أي التي اقترحتها حالكونها (مبصرة للناس) العقلاء أي جاعلة لهم أهل بصيرة بالحق أي كان من شأنها ذلك (فظلموا بها) أي فكفروا بها ، وعقرها أشقى ثمود (فأهلكناهم ، وما نرسل بالآيات) المقترحة (إلا تخويفا) لمن أرسلناها إليهم • يعني أنه كلما أرسلت آية مقترحة كانت كإنذار للناس المقترحين بهلاكهم عند إنكارهم لها ، ومازال هذه سنتنا في الكائنات ، ولن تجد لسنتنا تبديلا •

وقوله تعالى : (وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس) مناسبته مع ما قبله هي أن القوم لما طالبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمعجزات القاهرة وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه ، وأن يقولوا له : لو كنت رسولا حقا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك كما أتى بها موسى وعيسى وغيره من الأنبياء ، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصرُهُ ويؤيده • فقال : (وإذ قلنا لك انّ ربكَ أحاط بالناس) أي إن قدرته محيطة بالناس فهم في قبضة قدرته • ومادام الأمر كذلك فهم لا يقدرون على

أمر من الأمور إلاّ بقضاء الله وقدره ، فلا تهتم بما يقولون ، فإنا ننصرك وتقويكَ حتى تبلغَ رسالتنا وتظهر ديننا . أو المراد : إن الله تعالى أحاط بالناس المشركين المستولين على مكة وما حولها ، وستفتحها بجيش المؤمنين المجاهدين وتظفر بهم ، ونحن نريد بك وبأتباعك الخير ، وكل ما ظهر منك وكان محلا لاستهزاء الناس وتطويل ألسنتهم عليك وعلى دينك كان مآله خيراً لك ولأمتك (وما جعلنا الرؤيا التي اريناك) عامَ الحديبية أن تدخل أنتَ وأصحابك المسجد الحرام (إلاّ فتنة للناس) حيث عبروها بدخولكم في تلك السنة ولم يعلموا أن المراد دخوله في العام القابل وأن صدهم لكم عن دخوله في تلك السنة وجريان الصلح بينكم صار خيراً للمسلمين . أو ماجعلنا الرؤيا التي رأيتها عام واقعة بدر وأنك بينت مصارع الكفار .. إلا فتنة لهم حيث سخر المشركون منك واستهزأوا مع أن النتيجة كانت لكم والعاقبة للمتقين . (والشجرة الملعونة في القرآن) أي وما جعلنا بحث الشجرة البعيدة عن رحمتنا أي شجرة الزقوم ، وأنها تخرج في أصل الجحيم إلا فتنة للناس حيث استهزأوا وقالوا : كيف تنبت الشجرة في الجحيم وهي مجتمع النار ؟! ولم يعلموا أن الله قادر على ذلك ، وأنه جعلَ من الشجر الأخضر ناراً ، وانه جعلَ طير النعامة بحيث يبتلع الجمر ولا يحترق ، وقطع الحديد المحماة الحمر ولا تضره وجعل السمندل بحيث يتخذ من وبره مناديل إذا توسخت تلقى في النار فتذهب أوساخها وتبقى هي سالمة وتستعمل كالسابق ! وعلى كل حال ومقال فلا تعتمد إلا على الله القادر العليم (ونخوفهم) في الأوقات بآيات جسام من الغلاء والوباء وغير ذلك (فما يزيدهم) التخويفُ (إلاّ طغيانا كبيراً) ونحن لهم بالمرصاد فنجزيهم على طغيانهم وعدوانهم بما تقتضيه الحكمة الإلهية وأنا احكم الحاكمين .

(وَإِذْ قُلْنا لِلمَلائِكَةِ : اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ؟!(٦١) قالَ: أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ؟ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً(٦٢) قالَ اذْهَبْ ، فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ ، وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُروراً(٦٤) اِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وكِيلاً(٦٥) رَبُّكُمُ الَّذي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، اِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً)(٦٦)

قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدُوا لآدم) من سنة الله تعالى في إنزال كتابه الكريم أنه يذكر الناس في كثير من المناسبات بأمره الملائكة بالسجود لخليفته المخلوق من التراب (فسجدوا) له (إلا إبليس أبى واستكبر) فطرد من باب الرحمة لغروره وذلك ليتفكر الإنسان في أصل خلقته ويعلم أن إطاعة خالقه رحمة وأن مخالفته نقمة فقال : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم) تحية وأدبا واحتراما (فسجدوا إلا إبليس) لم يسجد لغروره (قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟) أي خلقته من طين ولم يكتف بالمخالفة وإبائه عن السجود بل (قال : أرأيتك هذا الذي كرَّمت عَلَيَّ ؟) الكافُ حرف خطاب لتأكيد معنى التاء قبله ، ورأيتَ بمعنى علمت ، وهذا مفعوله الاول ، والموصول وصلته صفته ، والمفعول الثاني

محذوف ، والتقدير : لا يستحق التكريم عليّ وقوله (لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنِكَنّ ذريتَه) أي لأستولينّ عليهم إستيلاءً كاملا ، أو لأستأصلنهم وأهلِكنهم جميعا (إلا قليلا منهم) وهم المخلصون (قال) سبحانه وتعالى له (: اذهب) يعني أنت مخول ومؤجل (فمن تبعك منهم) وضل عن طريق الحق (فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفورا) أي مكملا لا يُدَّخَر منه شيىء (واستفزِز من استطعت منهم بصوتك) والمراد بصوته وسوسته التي أعلى وأندى من الصوت في الوصول إلى الأسماع ، ولا يبعد أن يراد به صوتُ دعاته الداعين الى الضلال بالطرق الإحتيالية ووضع الشبكات الإصطيادية (واجلب عليهم بخيلك ورجلك) والباء مزيدة أي اجمع على الناس أتباعك الخيالة والمشاة • وهذا كناية عن استيعاب الأتباع ، أي اجلب لمعونتك وإغواء الناس المفلسين جميع من تقدر عليهم أن تستعملهم في هذه المهمة التي ليس شيىء أهم منها عندك • (وشاركهم في الأموالِ) بكسبها من الجهات المحرمة وانفاقها فيها (والأولاد) بالإستيلاء على أمهاتهن بالعقود المشبوهة ، والإنفاق عليهن من المحرمات والمشبوهات ، حتى إذا ولدنَ فَبإرضاع الأولاد من حليب النساء بدون التقيد بالصلاح والعفة ، ثم بتربيتهم على غير منهج الدين المبين ، حتى اذا بلغوا أوان البلوغ والعمل عملوا ما شاؤا بدون رعاية الدين (وعِدْهم) بالمواعيد الباطلة ، وأملهم بالآمال الفاسِدة ، وقال معترضا بين خطابه والإلتفات الى الغيبة (ومايعدُهم الشيطان إلا غروراً) وهو تحسينُ الخطأ وتمويهه بما يوهم أنه صواب •

ثم قال تعالى مثبتا لقلوب العباد المخلصين (إن عبادي ليس لكَ عليهم سلطان) أي قدرة واستيلاء لإغوائهم (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه • (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر) أي يجريه فيه بالرياح

اللينة أو إلهام العلوم السليمة الهينة (لتبتغوا من فضله إنه كان) ولم يزل (بكم رحيما) والموصول وصلته صفة الرب المجرور بالباء الزائدة للتأكيد .

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّيكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً(٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً)(٦٩)

قوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) تجهيل لعباد الأصنام من حيث انهم يعبدون ما يعلمون أنه لا نفع فيهم ومع ذلك يعبدونهم تجاهلا وعناداً واستمرارا على الحماقة التقليدية بدليل أنه اذا مسكم الضر وخوف الغرق في البحر ضل من تدعون إلا إياه . وذهب عن خواطركم بحيث لا تعتمدون عليهم ولا تلتفتون اليهم لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع ولم تنتفعوا بها قطعا (فلما نجيكم الى البر) وحصل لكم الأمان من الغرق (أعرضتم) عن ذكره تعالى بعد أن كنتم مستغرقين فيه (وكان الانسان كفورا) لنعمته تعالى طبيعة (افأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الذي هو مأمنكم أي ان يغيبه الله تعالى ويذهب به في أعماق الارض وأنتم عليه (أو يرسل عليكم) أي من فوقكم (حاصبا) وهو مطر الحجارة أي مطراً يحصبكم أي يرميكم بالحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك ، أو يصرفه عنكم غيره (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أي في البحر (تارة اخرى) أي مرة غير المرة الاولى (فيرسل عليكم قاصفا من الريح) وهي الريح الشديدة التي تقصف ما تمر به من الشجر

ونحوه (فيغرقكم) الله سبحانه بواسطة ما ينال فلككم وذلك (بما كفرتم) أي بسبب كفركم السابق (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي نصيرا ينصركم وينجيكم من هذا الغرق .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْناهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ، وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً(٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَأُونَ كِتابَهُمْ ، ولا يُظْلَمُونَ فَتيلاً(٧١) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبيلاً(٧٢) وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَليلاً(٧٣) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً(٧٤) إِذاً لأَذَقْناكَ ضِعفَ الْحَياةِ وضِعْفَ المَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً)(٧٥)

قوله تعالى : (ولقد كرَّمْنا بَني آدَمَ) ... هذه الآية الكريمة عرض إجمالي لنعم الله تعالى على الآدميين مما يوجب شكره والاستمرار في طاعته ويقول (ولقد كرمنا بني آدم) أي والله لقد كرمناهم وشرفناهم صورةً وسيرةً . أما صورةً فبالمشي على رجلين ، وبوجود يدين عاليتين قابلتين للبسط والقبض والجذب والدفع ، وبوجهٍ جميل وملامح جذابة ، ورأس محتوٍ على مشاعر مهمة ، وأما سيرةً فبالعقل والعلم والصفات الحسنة والاخلاق العالية ، والتطور والترقي من السيىء الى الحسن ، ومنه الى الأحسن ، وبالتعلم فالتعليم والإسترشاد فالإرشاد ، وتوجيه الجيل للمستقبل

المفضل ، وحفظ مآثر السلف الشرفاء علماً وعملاً وأدباً وحسبا وغير ذلك، بتأريخ يضبط الحوادث النافعة والضارة ، وأسبابها وطرق الإستفادة منها ، وبطهارته في الحياة والممات ، وبصيانة هيكل المقدسين منهم من البلى والآفات ، وبتحمله للقوى النفسية مع التقوى والتوجه الى الحضرة القدسية، ولذلك راعيناهم بإبقاء الأصل والنسل في العسر واليسر (وحملناهم) على أكباد رطبة في (البر) وأعواد يابسة (في البحر) وجعلناهم مستولين على الحيوان الإنسي والوحشي من السبع والطير ، ومقتدرين على تسخير الاجواء والصحارى والبحار ، وجعلناهم شاكرين لأنعم الله وذاكرين في الأسحار (ورزقناهم من الطيبات) من فنون المشتهيات وصنوف المستلذات المستفادة من آثار القدرة أو من الصناعات (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا).

وبعد أن أعلن الله سبحانه وتعالى أنه كرم بني آدم بأمور لا اختيار لهم فيها كحسن الصورة والسيرة وإنشاء العقل فيهم الذي هو ينبوع واصل يتفجر منه فوائد وكمالات لا تحصى بينَ أنه فضلهم وميزهم على كثير ممن خلقه باكتساب صناعات وأمور إختيارية لهم فيها الكسب والإختيار . فالتكريم متعلق بمبادىء لا اختيار لهم فيها ، والتفضيل مربوط بأمور اكتسابية لهم فيها شأن واعتبار . وأما تقييد المفضل عليه بالكثير فوجهه أنه خلقَ حملة العرش على تلك الطاقة العظيمة ، وخلق جبريل على تلك القوة الشديدة ، وخلق الجن بحيث يتمكن من أعمال شاقة في البر والبحر والجوّ خارجة عن طاقة الانسان ألا ترى أن عفريت سليمان قال له : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) ؟ وتلك الطاقات أعلى وأقوى وأوسع من طاقة البشر .

ولا يلزم من امتياز البعض من الملائكة والجن على البشر في تلك الأمور زيادتهما على البشر في القدر والمقام عند الله تعالى ؛ فإن الإمتياز الإكتسابي

دون الامتياز الوهبي ، فقد جعل الله سبحانه في البشر رسلا هادين مهتدين مرشدين حاملين لأعباء الرسالة وأنوار الجلالة ، وخلق لخاتمهم امة هي خير أمة أخرجت للناس رضي عنهم وأحب أن يرضوا عنه ، وخلق فيها أفرادا من العباد تقربوا الى الله مع ابتلائهم بموانع من القوى النفسية الهائلة الى أعلى درجات القرب بحيث لم يصلها غيرهم . وأما الملائكة فلا يمكن منهم الفسوقُ والفجور ، ولا مزية لذات خلقت عاريةً عن الموانع والشهوات أن يُطيع آمرهُ في الإتيان بالأعمال الممتازة من الحسنات . فقول أهل العقائد بتفضيل البشر على الملائكة : خواصهم على خواصهم ، وعوامهم العادلين على عوامهم ثابت محققٌ ولا يعارضه تفضيلهم وتفضيل الجن في بعض الاعمال على البشر . هذا والله الهادي الى الصواب .

ولما بينَ الله سبحانه وتعالى نعمهُ الموهوبة والمكسوبة على عباده من بني آدم ، بين أنهم مع كل تلك النعم المتوفرة انقسموا قسمين بالإجمال ؛ فقسمٌ تبعوا أئمة الهدى والكمال ، وقسم تبعوا أئمة الغيّ والضلال . فقال : (يومَ) أي اذكر يا حبيبي (يومَ ندعوا كل أناس بإمامهم) سواء كان إمامهم إمام هدى ، أو إمام ضلال ، وينادي المنادي يا أمة آدم ، أو نوح، أو ابراهيم ، أو موسى ، أو عيسى ، أو محمد المصطفى ـ صلوات الله عليهم ـ . أو يا أمة عاد ، أو ثمود ، أو فرعون ، أو نمرود . ويا أتباع الأئمة المجتهدين والمرشدين الى طريق الحق واليقين ، ويا أتباع الدّعاة المبتدعة الضالين الخارجين عن الإسلام والدين ، فيدعون للميزان والحساب ، ويسلم الى كل فرد من أفرادهم صحيفة الأحوال ودفتر الاعمال ، مميزين بين السعداء والأشقياء بإعطاء كتاب الاوائل بالأيمان ، وكتاب الأشقياء وراء الظهور بالشمال (فمن أوتي كتابه بيمينه) بشروا واستبشروا ، وجعلهم الله قارئين ، ولو كانوا من الأميين لأن قراءة الإنسان كتاب أعماله بنفسه إعتبار

وعناية (فاولئك يقرأون كتابهم) ويقفون على تفصيله ، ويستبشرون بما فيه ، ويعلمون أنهم أوتوا جزاءً فوق الإستحقاق (ولا يظلمون) أي ولا ينقص من أجورهم (فتيلا) أي قدر فتيل ، وهو القشر الذي في شق النواة .

وبعد أخذ الكتاب بالأيمان وقراءته وتسليمه لأقرانه ليطلعوا عليه زيادة في الإستبشار ، كما قال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه) ، (فيحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا) وَذَكَرَ مقابله بقوله (وَمن كان في هذه) أي في هذه الدنيا التي اغترّ بها (أعمى) لا يبصر طريق النجاة ولا يهتدي الى الحق (فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أي وأما من أوتي كتابه بشماله وحوسب حسابا عسيرا فهو الذي كان في هذه الدنيا أعمى وقد علم حاله ومآله . ونسأل الله الرؤوف الرحيم والعفو الكريم أن يدخلنا في زمرة عباده الصالحين وينجينا من عذابه وعسر حسابه ، إنه هو الجواد الهادي الى الرشاد الراحم بالعباد في الدنيا والدين . وهذه الآيات البينات كافية لمن اكتفى بالإرشاد ، والمرجو منه تعالى شرح الصدور وتيسير الامور والصيانة عن كل مكروه وفساد إنّه أرحم الراحمين .

قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشا أتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا له : إن كنتَ أرسلت الينا فاطردِ الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم ، لنكون نحن أصحابك ! فنزلت أي (وإن) الشأن قد قرب أن يميلوك عن الذي أوحينا اليك من ملازمة المسلمين الفقراء لرقة قلبك وشدة رغبتك في إيمانهم (لتفتري علينا غيره) أي لتتقول علينا غير الذي أوحيناه اليك مما اقترحه عليك بعض من المشركين (وإذا لا تخذوك خليلا) أي لو

فعلت ذلك ليتخذنك صديقا لهم (ولولا أن ثبتناك) على ما أنت عليه من الحق بحفظنا لك (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) أي ولولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم لكن ادركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب أدنى الأدنى من الميل إليهم فضلا عن نفس الميل • (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أي ولو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لأذقناك ضعفا وهوانا في الحياة بعدم النجاح في مهمة الرسالة وضعفا وهوانا في وقت الممات بعدم اكتراث الناس بوفاتك أو بعد الممات بإصابة ما لا يحمد في البرزخ وما وراءه • وقيل : معناها لأذقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة مضاعف ما يعذب به غيرك في الدارين ؛ لأن ذنب الكبير أخطر وعقابه اكثر (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) يدفع العذاب أو يرفعه عنك •

روي عن قتادة أنه لما نزل قوله تعالى : (وإن كادوا) الى هنا قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين » وينبغي للمؤمن اذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها ، وأن يستشعر الخشية وازدياد التصلب في دين الله• ويقول كما قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً(٧٩) وَقُلْ : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ

وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، واجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً(٨٠) وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ ، وَزَهَقَ الباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً(٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً)(٨٢)

قوله تعالى (وَإِن كادوا ليستفزونكَ منَ الارض ليُخرجوك منها) أي أن المشركين كما قرب أن يستميلوك إليهم ولم ينجحوا في مرادهم كادُوا وقربوا أن يزعجوك ويستخفوك بعداوتهم ومحاولاتهم البائسة اليائسة ليخرجوك من الارض أي الارض التي أنت فيها وهي مكة المكرمة الارض التي أنت أحق بها ، لأن فيها بيت العز والكرامة بيت العبادة والطاعة ، وبيت الشرف والسعادة ، وذلك أول بيت وضع للناس ، وأول بيت بني في تلك الديار على التقوى ، وحقه أن يكون مقرا لك لانك كنت مقصودا بدعاء أبيك إبراهيم ، ومفتاحُ بيتِ الكرامة يُسلم الى الكريم . وكان هذا الإستفزاز بما فعلوه من حصره ــ صلى الله عليه وسلم ــ في شعب أبي طالب والتضييق عليه وعلى أقاربه المختصين به وأتباعه ، ووقع ذلك بعد نزول الآية كما في تفسير البحر ، وصار سببا لخروجه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مهاجرا (وإذاً لا يَلبثون خلافك إلا قليلا) أي وإن استفزوك فخرجت منها لا يبقون فيها بعدك إلا زمانا قليلا . وهذا وعيد لهم بإهلاكهم ، وقد كان في بحر عشر سنين .

(سُنَّةَ من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أي سننا سنة من قد أرسلنا وهي أن لا ندع أمةً تستفِز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها تَلبث بعده إلا قليلا . والسنة : سنة الله وإضافتها الى المرسلين للملابسة (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أي ولا تجد لسنتنا تحويلا منا لجريان القضاء بها ، ولا من

غيرنا إذ لا قدرة لهم على تحويلها (اقم الصلاة لدلوك الشمس) أي لزوالها عن خط نصف النهار ، ويدل عليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر (إلى غسق الليل) أي الى وقت تقرر ظلمته ، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة (وقرآن الفجر) أي وأقم صلاة الفجر أي صلاة الصبح . وسميت قرآنا لأنها ركنها ، وخص بها لأن وقتها وقت الجهر وفراغ القلب ونشاط الإنسان والصوت إذ ذاك يخرج صافيا وافيا بنزعات الضمير وما أسره الانسان ، ولان الوقت مبارك وتجتمع فيه ملائكة الليل وملائكة النهار كما قال تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهودا) أي تشهده الملائكة . والآية الكريمة جامعة للصلوات الخمس المفروضة ، فإن زوال الشمس من نصف النهار الى ظلمة الليل يستوعب الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح فهذه الصلوات موجودة ومفروضة في مجموع ذلك الوقت .

وأما تخصيص كل منها بوقتها المحدود فمأخوذ من الإجماع ومن سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقد روى أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أمّنى جبريلُ عند البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس ، وكان الفيىء قدر الشراك ، والعصر حين كان ظله (أي الشيىء) مثله . والمغرب حين أفطر الصائم (أي دخل وقت إفطاره) . والعشاء حين غاب الشفق . والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم . فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله . والعصر حين كان ظله مثليه . والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء الى ثلث الليل . والفجر فأسفر وقال : هذا وقت الانبياء من قبلك . الوقت ما بين هذين الوقتين . وأما الجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما تقديما أو تأخيرا ، وكذلك المغرب والعشاء فإنما أخذ من الحديث الوارد في الموضوع .

والسنة الفعلية وتقريره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأسباب خاصة مذكورة في كتب الفقه في مواضعها المعينة • وأما جمعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الظهر والعصر بدون سبب من الاسباب من الخوف والمرض والسفر والمطر فأجاب الفقهاء عنه بأجوبة • منها أن صورته كانت صورة الجمع ولم تكن جمعا في وقت واحد منهما ، أي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى الظهر في آخر وقته ، وبعد فراغه عنه مباشرةً دخل وقت العصر وصلاه بلا فصل • وعلى الطالب المراجعة لأماكنها في كتب الفقه والحديث •

(ومن الليل فتهجد به) أي وفي بعض أجزاء الليل تجنب النوم واتركه للصلاة خالكونها (نافلة لك) أي فريضة زائدة على الصلوات المفروضة فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك • فالنافلة بمعنى الزائدة على معناها اللغوي • وهذا بناء على أن قيام الليل كان واجبا عليه ، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم خاصة أمر بقيام الليل وكتبت عليه دون أمته • لكن صحح النووي أنه نسخ عنه فرضية التهجد ، ونقله أبو حامد من الشافعية وقال : انه الصحيح • وفي مسلم ما يدل عليه • (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أي مقاما يحمده كل من عرفه ، وهو مطلق يحتمل كل مقام كرامة ، لكن المشهور أنه مقام الشفاعة لما روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي » وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس ، والجمهور على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع الى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال : « زملوني زملوني » فنزلت (يا أيها المدثر قم فأنذر) وعلى أثرها نزلت (يا أيها المزمل) كما سنذكره بالتفصيل إن شاء الله تعالى في تفسير السورتين •

(وقل : رب أدخلني) أي في القبر (مدخل صدق) أي إدخالا مرضيا (وأخرجني) أي منه عند البعث (مخرج صدقٍ) إخراجا مرضيا • وقيل : المراد إدخال مكة ظاهرا عليها بالفتح وإخراجه منها آمِناً من المشركين • وقال محمد بن المنكدر : إدخاله الغار قبل الهجرة وإخراجه منه • وقيل : الإدخال في الصلاة والإخراج منها • وقيل : الإدخال في المأمورات والإخراج من المنهيات • وقيل : الإدخال فيما حمله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أعباء النبوة وأداء الشرع وإخراجه منه مؤديا لما كلّف به من غير تفريط • وقيل : المراد إدخاله في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أي أمر كان وإخراجه منه فيكون عاما في جميع الموارد والمصادر • وقالوا : هذا هو الموافق لظاهر اللفظ والمطابق للمقام • (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) أي حجة تنصرني على من خالفني • وعن الحسن أنه أريد به التسلط على الكافرين • وقيل : أراد به عزا ينصر به الإسلام على غيره سواء كان من الغيب أو الشهادة ، بأهل الجهاد بالسيف أو بالحرف • والحق أن المراد من السلطان كل مايفيده الغلبة على أعداء الله تعالى وظهور دينه ووصفه بقوله نصيرا للمبالغة •

(وقل) مبشرا نفسك وغيرك من الأصحاب بأمر الله تعالى وإذنه (جاء الحق) أي الإسلام والدين الثابت (وزهق الباطل) أي زال واضمحل ولم يبق له كيان في جزيرة العرب وسائر البلاد الإسلامية (إن الباطل كان زهوقا) أي زائلا مضمحلا غير ثابت الآن أو فيما بعد ، أو مطلقا لكون الباطل باطلا في الواقع • أخرج الشيخان وجماعة عن ابن مسعود قال : دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نُصبٍ فجعل يطعنها بعود في يده ، ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) (جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) وفي رواية الطبراني

في الصغير عن ابن عباس أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء ومعه قضيب فجعل يهوي به الى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) حتى مر عليها كلها .

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أي وننزل من القرآن المخصوص بالنبي الذي أرسل رحمة للعالمين ما هو شفاء لمرض الكفر والرذائل النفسية بكافة أصنافها ولمرض الجهل البسيط ، وهو عدم العلم بالمقصود ، والمركب اذا أنصف الجاهل ولم يعاند البديهة ، ولسائر الامراض البدنية من الاعصاب ، والاوجاع ، والاورام ، والحميات ، وغيرها ... لمن شاء الله أن يكون شفاءً له . فإذا كان المعنى هذا فتكون كلمة من للبيان ومقدمة على المبين لرعاية الفواصل أو للاهتمام بالمقدم . أما شفاؤه لمرض الكفر فظاهر لمن نظر الى كثير من الناس الكافرين الذين أسلموا بمحض استماعه وفهم مدلوله المنبىء عن أسرار الغيب وأنوار الحق ، وأما للرذائل فمن جهتين : الاولى جهة كشف أسباب المرض وهي محبة الدنيا والامور العاجلة التي لا قيمة لها ، وأن مردها الى الفناء ، والثانية أن طاعة الله هي التي تنفع وتبقى عند الله تعالى ، وأما للجهل البسيط فيظهر من أن الناس لم يكونوا عالمين بأن الله هو الخالق للسماوات والارض وما بينهما ومن يعيش فيها ، وأن الإنسان والجن مخلوقون للعبادة ونيل السعادة الأبدية الخالدة ؛ فإذا نزل القرآن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغه الى الامة وانتشر بينهم ، وأدركوا معانيه ومقاصده خرجوا من ظلمات الجهل الى أنوار العلم . وأما شفاؤه من مرض الجهل المركب فلأن الإنسان ، كائنا من كان ، إنما يكون معذورا بجهله بالحقائق واغتراره بما يعتقده في نفسه من الدوام أو الخلود أو الإستغناء من غيره ، أو عدم المسؤولية إذا لم يسمع الحقائق ولم يعش في المجتمع المكتسب للفوائد والمترقي من البساطة إلى أفق العلم

والرقي • وأما بعد ذلك كله وبعد فهم القرآن ونشر مبادئه واعتناق الناس لها لا يبقى عذر لأي مكلف أن يبقى على فساد اعتقاد ورسوخ عناده ، واختيار الضلال في شأن مسؤليته ومعاده • وأما شفاؤه لأمراض البدن فقد ثبت من قراءة أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ الفاتحة على اللديغ من الحي الذي مروا عليه وشفائه وتقريره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك • وكل آية تقرأ على أي مريض فلها بركة ودخل في شفائه من مرضه ، ولاسيما الآيات التي فيها مادة الشفاء وهي ست : (ويشف صدور قوم مؤمنين • وشفاء لما في الصدور • فيه شفاء للناس • وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين • واذا مرضت فهو يشفين • قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) قال السبكي : وقد جربت كثيرا • وعن القشيري : أنه مرض له ولد يئس من حياته فرأى الله في منامه فشكا له ذلك ، فقال له اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه ، أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما محيت به ، ففعل فشفاه الله تعالى • والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقي ما يشفى بخاصية روحانية، كما فصله الأندلسي في مفرداته • نعم العلماء اختلفوا في جواز نحو ما صنعه القشيري عن اثر الرؤيا وعرفوها بأن يكتب شيىء من أسماء الله تعالى ، أو من القرآن ثم يغسل بالماء ، ثم يمسح به المريض أو يُسْقاه • فمنع ذلك بعض من التابعين ، وأجازه بعض ، وهو الراجح كما في فتح الباري على صحيح البخاري • والنشرة التي منعها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان مشتملا على ألفاظ لا يعرف معانيها أو على أسماء الأصنام • وأما ما فيه أسماء الله الحسنى أو الآيات القرآنية الكريمة ، ولاسيما ما هي من الآيات الست المذكورة فجائز بلا شبهة • وقال مالك ـ رضي الله عنه ـ : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها • وما بينته من أن القرآن كله شفاء للمرضى على الوجه المذكور هو الحق •

والإمام الرازي عمم شفائيته ، وقد أحسن فقال : هو شفاء للامراض الروحانية ، وهي نوعان : إعتقادات باطلة ، وأخلاق مذمومة . فلاشتماله على الدلائل الحقة الكاشفة عن المذاهب الباطلة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر المبينة لبطلانها يشفى عن النوع الاول من الأمراض . ولاشتماله على تفاصيل الأخلاق المذمومة وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد الى الاخلاق الفاضلة والاعمال المحمودة يشفى عن النوع الآخر . والشفاء إشارة الى التخلية . والرحمة إشارة الى التحلية . ولان الاولى أهم من الثانية قدم الشفاء على الرحمة . هذا وقوله تعالى : (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) نص في أن القرآن كما أنه عسل لأهل الإنصاف كذلك أسل لأهل الظلم والإعتساف ، فإن الدواء إنما ينفع من يشربه لا من يصبه ، والظالمون أنفسهم باستمرار العناد لا يهتدون إلى سبيل الرشاد .

(وَإِذَا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنأى بِجانِبِهِ ، وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَئُوساً(٨٣) قُلْ : كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً(٨٤) وَيَسْئَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧) قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرآنِ لاَيأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)(٨٩)

قوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان) بيان لنقص الإنسان من ناحية الصفات الفاضلة ويحتاج إلى مدد ومعونة من الله تعالى بتخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل • وذلك موقوف على الإسلام والإنقياد للرسول الكريم في ما جاء به من الله تعالى ويقول : (وإذا أنعمنا على الإنسان) أي إنسان كان إلا من تخلى عن الرذيلة وتحلى بالفضيلة ، فأعطيناه الصحة والأمن وسعة ذات اليد (أعرض) عن ذكرنا كأنه مستغن عنا من كافة الجهات (ونأى بجانبه) أي لوى عطفه عن طاعتنا ولم يهتم بها (وإذا مَسَّهُ الشرّ) من مرض أو خوف أو فقر (كان يؤسا) شديد اليأس من رحمتنا ، لأنه لم يحسن معاملته في حال الرخاء حتى يرجو الفرج منا ويطلب الخروج من ذلك الشر ويبقى تائها متأثرا الى ان يفرج الله تعالى عنه ، أو يبقى على ما كان عليه حتى يلقى ربه • فالدواء النافع للانسان اتباع طريق الرسول الهادي الى الحق بالشكر على النعمة والصبر على النقمة وبذلك يصل الى سعادة الدارين •

(قل : كل يعمل على شاكلته) والشاكلة كما في القاموس : الشكل والنية والطريقة والمذهب • وكل من هذه المعاني مناسب للمقام ، لأن كل إنسان يعمل على حسب ما يناسب شكله وطبعه ويمارس أعماله على طريقته المختصة به ، وهي عبارة عن كيفية استعمال عقله وسائر قواه في سبيل أداء واجباته في حياته وترك المحرمات مع رعاية الشريعة اذا كان من المهتدين ، أو بدونها اذا كان من المعتدين ، ويجوز أن يراد بالشكل الوارد في معنى الشاكلة الصورة العلمية للمكلف الموجودة في علم الباري تعالى أزلا وأبدا المشابهة للصورة العينية الخارجية بلا فرق • أي أن كلا من المكلفين يعمل على طبق ما تعلق به العلم الأزلي المربوط بالصورة العلمية ، فإن الله يعلم أن المكلف الذي سيخلقه ويخرجه من العلم الى العين ماذا يعلم وكيف يصرف إرادته واختياره وماذا يكتسب والعمل بهذا الوجه يحقق الكسب والإختيار ، فإن

العلم الأزلي حاك عن المعلوم الخارجي وتابع له ، فصح أن كلا يعمل على شاكلته .

ومنهم من فسر الشاكلة بجوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه ، أي فمن كان جوهر روحه منورا مشرقا ظهرت منه الاعمال الحسنة ، ومن كان جوهر روحه مظلما صدرت منه الاعمال السيئة ، ولكن هذا التفسير ليس بمرضي لأنه على ذلك تكون الاعمال تابعة لذلك الجوهر المخلوق كذلك فلا يبقى مجال" لتصرف صاحب الروح على خلاف مقتضاه ، فإن الماهيات الانسانية متحدة أو مختلفة اذا كانت مطبوعة ومجبولة على الاشراق ، أو على خلاف ذلك تكون الآثار الصادرة من لوازم الماهية كالزوجية للاربعة ، والفردية للثلاثة ، ولازم الذات لا يزول ، فالحق في التفسير غير هذا الاخير والله الهادي الى سواء السبيل (فربكم) أي الذي برأكم (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أي أحسن طريقة وأسلم منهاجا .

(ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : كنت أمشي مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في خرب المدينة وهو متكيء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه . فسألوه فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه فلما نزل الوحي قال « ويسألونك عن الروح » الآية ... وفي السير عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن قريشا بعثت النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم : سلوهم محمدا ، فانهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عندنا فخرجا ، حتى قدما المدينة فسألوهم . فقالوا : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح . فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن

أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فجاؤا وسألوه فبين لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ القضيتين وأَبْهَمَ أمر الروح وهو مبهم في التوراة ، والآية على هذا مكية ، وعلى السابق مدنية • والمقصود بالسؤال الروح الإنساني المتصف بالكمالات العلمية والعملية والقُوَى النفسية على اختلافها وكثير من العلماء قالوا : إنها مباينة للروح الحيواني الذي يوجب الحس والحركة الإرادية ، وقالوا : انه جوهر مجرد عن المادة متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، واستدلوا على ذلك بوجوه :

منها أنها بتعقلها وادراكها للاشياء تكون محلا لما ليس بمادي كالمجردات وللاشياء التي لا تختص بوضع ومقدار كالكليات ، ولما لا يقبل الانقسام كالوجود والوحدة والنقطة وسائر البسائط التي إليها تنتهي المركبات ، وما كان كذلك لا يكون جسما ولا جسمانيا بل يكون مجردا عن المادة •

ومنها : أنها تدرك ذاتها وآلاتها وإدراكاتها ، ولا يلحقها ضعف وكلال بضعف الاعضاء والآلات بل تزداد قوة وكمالا ولا شيىء من القوى الجسمانية كذلك •

ومنها أن القوة العاقلة لو كانت في جسم فإما أن يكفي في تعقله له حضوره عنده فلزم أن لا ينقطع تعقلها عنه ، وإن لم يكف حضوره بل كان الإدراك بحصول الصورة لزم أن لا يحصل لها إدراك له لامتناع تعدد الصور لشيىء واحد ، فلابد أن تكون جوهرا مجردا عن المادة •

ثم إن من العلماء الذين قالوا بتجردها من قال إن النفوس الانسانية متحدة بالنوع والاختلاف بين أفرادها بالاوصاف والعوارض ولا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» لأن اختلاف الأفراد في الاوصاف وصل الى حد كاد أن يلتحق باختلاف في الذات والماهية• ومنهم من يقول إنها ماهية جنسية تحتها أنواع مختلفة تحت كل نوع أفراد

متحدة الماهية متناسبة الاحوال وهذا هو الموافق للحديث الشريف المذكور آنفا ، فإن الذهب والفضة نوعان مختلفان من جنس المعدن • وذكر الإمام أن السؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة ، وليس في قوله تعالى (ويسئلونك عن الروح) ما يدل على وجه منها ، إلا أن الجواب المذكور في الآية لا يليق إلا بوجهين : الاول أن السؤال عن حقيقتها ، والجواب أنها جوهر بسيط مجرد محدث" بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد • والثاني السؤال عن قدمها وحدوثها ، والجواب أنها من أمر الله وفعله فهي حادثة • ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة عدمه فإن أكثر حقائق الأشياء ماهياتها مجهولة ، ولا يلزم من كونها مجهولة نفيها • ويشير اليه قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومبنى هذا أيضا الفرق بين عالم الامر وعالم الخلق وحاصل الجواب على الثاني أنه حادث حصل بفعل الله تعالى وتكوينه وإيجاده ، وجعل قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) إحتجاجا على الحدوث بمعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها ذاك ، فلا تزال في تغير من حال الى حال وهو من أمارات الحدوث هذا •

ثم حاصل المعنى : أن الناس يسألونك عن الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره ، قل : الروح من الإبداعيات الكائنة بأمر ربي بكلمة كن من غير مادة وتركيب منها ، ووجد وحدث بإحداثه وتكوينه ، وماهيتها غير معلومة ولا يلزم من عدم العلم به عدم وجوده (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ولو لزم من عدم العلم عدم الوجود لزم أن لا يكون كثير" من الاشياء المحققة موجودة لعدم علمنا بها •

وهنا بحثان : الاول في حقيقة الإنسان ، والثاني في حدوث الروح مع البدن أو قبله •

أما البحث الاول ففيه عند المحققين قولان : الاول أن الانسان عبارة عن جسم نوراني حي علوي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس سارٍ فيه سَرَيانَ الماءِ في الورد ، والدهن في الزيتون ، والنار في الفحم لا يقبل التحلل والتبدل ، والتفرق مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها مادام صالحا لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة ، ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان • والروح عبارة عن ذلك الجسم واستحسن هذا القول الإمام ، فقال : هو مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت • وقال ابن القيم في كتابه الروح : إنه الصواب ولا يصح غيره • وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة •

الثاني إنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح ، وليس بداخل العالم ولا خارجه لا متصل به ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وهو قول أكثر الالهيين من الفلاسفة • وذهب اليه جماعة عظيمة من المسلمين منهم الشيخ أبو القاسم الراغب الاصفهاني وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي وأكثر أهل المكاشفة والرياضة وجمع كثيرون من غيرهم •

واما البحث الثاني أي حدوث الروح مع البدن أو تقدمها عليه : فذهبت طائفة الى حدوثها قبل حدوث البدن منهم محمد بن نصر المروزي وابن حزم الظاهري ، واستدل لذلك بما في الصحيحين من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « الأرواح جنود" مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر إختلف » قال ابن الجوزي في تبصرته : قال أبو سليمان الخطابي : معنى هذا الحديث الإخبارُ عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد • وزعم ابن حزم أنها في برزخ وهو منقطع العناصر فماذا استعد

جسد" لشيىء منها هبط إليه وأنها تعودُ الى ذلك البرزخ بعد الوفاة • وبعضهم استدل على ذلك بخبر خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفي عامٍ • وتعقبه ابن القيم بأنه لا يصح إسناده وذهب آخرون منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي الى الحدوث بعده • ومن أدلة ذلك كما قال ابن القيم الحديث الصحيح : « إن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح » ووجه الإستدلال : أن الروح لو كان مخلوقا قبل لقيل ثم يُرْسَل إليه الملك بالروح فيدخلهُ فيه • واختار الجمهور هذا القولَ • وبابُ التأويل والاستدلال مفتوح للفريقين • ولكن الذي يطمئن إليه القلب على مايستفاد منظواهر الاخبار، وظاهر قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) القول الاول ، وأن الأرواح خلقت قبل الأجساد بمدة يعلمها الله تعالى وحديث خلق ابن آدم يظهر تأويله على أن الله أمر الملك المخصوص الموكل به بأخذ الروح المختص به وربطه بذلك الجسد على وجه يعلمه الله سبحانه وتعالى ، ولا نكرةَ في ذلك قطعا • ثم التحقيق أن الرو والنفس الانسانية شيىء واحد وتعدد الأسامي للنفس بحسب استعدادها واتصافها بالقوة الخيرة والشريرة ، كما ذكرناه سابقا هذا •

وأما مستقر الارواح بعد مفارقة الابدان ، فالذي دلت عليه الاخبار أن مستقر الأرواح بعد المفارقة مختلف ؛ فمستقر أرواح الأنبياء عليهم السلام في أعلى عليين • وصح أن آخر كلمة تكلم بها ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أللهم الرفيق الأعلى » وهو يؤيد ما ذكر • ومستقر أرواح الشهداء في الجنة ، تردُ من أنهارها ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي الى قناديل معلقة بالعرش • وروي في أرواح أطفال المؤمنين ما هو قريب من ذلك • وروى ابن المبارك عن كعب قال : جنة المأوى جنة فيها طير خضر ، ترعى فيها أرواح

الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا • ولعل هذا في عوام الشهداء ، وما تقدم في خواصهم ، أو لعل هذا في شهداء الآخرة كالغريق والمبطون الى غير ذلك •

وأما مستقر أرواح سائر المؤمنين ، فقيل في الجنة أيضا • وهو نص الإمام الشافعي • وقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مالك مرفوعا « إنما نسمةُ المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى في جسده حين يبعثه » ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وخرجه النسائي عن طريق مالك ، وخرجه ابن ماجه ، ورواه خلق كثير • وروى ابن منده من حديث أم بشر مرفوعا ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين هو مستقر أرواح الشهداء • وقيل : مستقر أرواح الموتى أفنيةُ قبورهم ، وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث • واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا مات أحدكم عرضَ عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى » وبأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين زار الموتى قال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » هذا •

ولكن الحق كما أفاده بعض المحققين الأصفياء أن لا تتقيد أرواح الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بمستقر واحد ، لأنهم طُلَقاءُ في الكون تستقر في العرش وفي الجنة وفي أي مكان شاؤا ، وأن أرواحهم أينما استقرت فلهم علاقة برقية حضورية بمقابرهم ومشاهدهم ، فيخلق الله تعالى فيهم إدراك زوارهم ، وأن من سلم عليهم يعلمون بسلامه بإعلام من الله تعالى • ومستوى أرواحهم فوق مستويات الشهداء والصديقين والصالحين ، وأن أرواح غيرهم أيضا من السعداء أينما استقرت فلهم علاقة حضورية بمقابرهم ، وهذه العلاقة علاقة إستيعابية عامة تشمل كل من زارهم

وأهدى لهم التلاوة ، وثوابَ الاعمال على ما قرره المحققون من أنه يصل مثل ثواب ما قرأ لهم من آيات القرآن ، وثواب الصدقات التي يتصدق بها لهم بإذن الله تعالى ، ويفرحون بتلك الهدايا كما يفرح الأحياءُ من الأحباء بالهدايا والكلمات الترحيبية وما شاكل ذلك • ولا تكن في ضيق صدرٍ مما تلونا عليك فإن رحمة الله وسعت كل شيىء وهي مكتوبة للمتقين • وإن شئت أن تحقق ما قلنا فارجع الى محله من كتب المسانيد لاسيما مسند الامام أحمد ـ رضي الله عنه ـ وكتب الفقه المدونة المعتمدة من المذاهب الاربعة ، وخلاصتها الصافية من الأكدار والاضطرابات وعلى ذلك عقيدة الاكثرية الساحقة من أئمة المسلمين •

وقوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) يعني أن هذا القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين أنزلناه اليك رحمة بك وبأمتك تفضلا واحسانا لا وجوبا وتحتما ، ولئن شئنا والله لنذهبن بالقرآن الذي أوحيناه إليك أي لنمحينه من صدور من هو في صدورهم وسطور من هو في سطورهم ، ونمنع الملك الجليل جبريل من التنزيل ، إذ لا يتنزل الا بأمرنا (ثم لا تجد لك به) أي لهذا القرآن وتنزيله وابقائه عندكم (وكيلا) أي متعهدا وملتزما باسترداده بعد الذهاب بأي وجه من وجوه الاسترداد (إلا رحمة) من ربك تعاونك وتردّ عليك ما ذهب منك ، فإنها تكون وكيلا إعتباريا لك بذلك الأمر الخطير لفضله الشامل وكرمه الكامل ، لاسيما بالنسبة اليك (إن فضله كان) ولم يزل ولن يزال (عليك كبيرا) من كل وجه من وجوه الإصطفاء والتفضيل والتخصيص بالرسالة العامة الخاتمة للنبوة والتنزيل • (قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المنعوت بما سبق له من التوصيف في البيان (لا يأتون بمثله) أو ما يقارب المثل (ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ومعيناً بكل جهةٍ من جهات المعونة

(ولقد صرفنا) كررنا وغيرنا أسلوب التعبير للناس أهل مكة ومن بلغ (في هذا القرآن) المعجز بالبيان والمعاني وبدائع الاستحسان (من كل مثل) أي من كل موضوع مهم مرفوع (فأبي أكثر الناس) وهم الناسون لحق الله تعالى عليهم ورعاية الحق المطابق للواقع (إلا كفورا) وجحودا بأنعم الله تعالى المتوالية عليه من كل جانب •

(وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ ـ كما زَعَمْتَ ـ عَلَيْنا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلا(٩٢) أَو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ : سُبْحانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إلا بَشَراً رَسُولاً ؟(٩٣) وما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الهُدى إلاَّ أنْ قالُوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ؟(٩٤) قُلْ : لَوْ كانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً(٩٥) قُلْ : كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)(٩٦)

قوله تعالى : (وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) تفجر من الباب الاول ، والينبوع مصوغ من نبع الماء كيَعبُوبٍ من عب الماءُ اذا زَخَرَ وكَثُر مَوْجُه ، فالباء زائدة فيهما للمبالغة ، والمراد بالينبوع عين لا ينضب ماؤها • وعن السدي أن الينبوع هو النهر الذي يجري من العين (أو تكون لك جنة) بستان كثير الأشجار (من نخيل وعنب) خصوهما بالذكر لإفادتهما القوت والقوة ، أو لغلبتهما في بعض أنحاء

الجزيرة (فتفجر الأنهار) من باب التفعيل (خلالها) أي وسط تلك الجنة فنصبه على الظرفية (تفجيرا • أو تسقط السماء) وما يرى فيها من المواد (كما زعمت) عند التهديد والوعيد (علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة لفظا ومعنى (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) أي مقابلا لنا نرى كلا منهما • وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ تفسير القبيل بالكفيل ، أي كفيلا بما تدّعيه يريدون شاهدا لك بصحة ما تدعي (أو يكون لك بيت من زخرف) أي ذهب ، أو من مواد ذوات زينة عجيبة (أو ترقى في السماء) أي تصعد في معارجها (ولن نؤمن لرقيك) أي لن نستسلم لها ولا نعترف بها (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) بلغتنا وفيه تصديقك (قل) لهم ردا عليهم وتعجبا من جهلهم بطاقات الرسل : (سبحان ربي !) عن أن يظهر شيىء في ملكه بدون أمره وإرادته (هل كنت إلا بشرا رسولا ؟) كسائر الرسل ليس لهم وظيفة إلاّ تبليغ ما نزل عليهم ، ولا قدرة لهم على الإتيان بشيىء من تلك المقترحات وأمثالها (وما منعَ الناس) الذين اقترحوا مااقترحوا (أن يؤمنوا) بالله ورسوله (إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا) إستثناء من أعم الفواعل أي ما منعهم من الإيمان شيىء إلا قولهم الفاسد في مقام الإستنكار : (أبعثَ الله بشراً رسولا ؟) مستنكرين بعثَ الرسل من البشر الى البشر •

(قل) في مقام تحقيق الحق وإزهاق الباطل وأن إرسال الرسل الى بني نوعهم مملوء من الرحمة والحكمة والنعمة : (لو كان في الارض) بدل البشر (ملائكة يمشون) مشيهم ولا يصعدون إلى السماء (مطمئنين) مقيمين فيها (لنزلنا عليهم) من السماء (ملكاً رسولا) إليهم من نوعهم يُعلمهم ما لا يصِلُ إليه علمهم وإدراكهم • يعني إن تأييد العقل المادي بالعقل الروحي، وإعانة أهل الشهادة بعلوم الغيب وترقية قلوب الضعفاء القلوب بالمعلومات المهمة من سنة الله تعالى في الكون ولا تجدون لسنته تبديلا • (قل) لهم

بعدما ألزمتهم الحجة وبينت لهم ما يوافق الحق والحكمة (كفى بالله شهيدا) بيني وبينكم في تبليغ ما أرسلت به والنصح في أدائه والمداراة معكم بما يمكن مني ، فليس على الرسول عتب بعد النصب (إنه كان) ولم يزل ولن يزال بعباده (خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر الأعمال وبواطن الحال ، وإليه المرجع والمآل •

(وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وبُكْما وَصُمّاً ، مَأْوِيهُمْ جَهَنَّمُ ، كُلَّما خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(٩٧) ذلِكَ جزاؤهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بآياتِنا وَقَالُوا : أَئِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفَاتاً أَئِنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟(٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وجَعَلَ لهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ ؟ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلاَّ كُفُوراً(٩٩) قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإنْسانُ قَتُوراً)(١٠٠)

قوله تعالى : (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء) أي أنصارا (من دونه) أي من دون الله عز وجل (ونحشرهم يوم القيامة) عند قيامهم عن قبورهم (على وجوههم) أي كائنين عليها إما مشياً بأن يزحفوا منكبين عليها ، واما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها كقوله تعالى (يوم يسحبون في النار على وجوههم) (عمياً وبكماً وصمّا ، مأويهم جهنم كلما خبت) أي سكن لهيبها (زدناهم سعيراً ذلك) العذاب الشديد المنتقل إلى الأشد عذابهم المقرر لهم على هذا المنهج الذي لا يتبدل ولا يتخفف (بأنهم) أي بسبب أنهم (كفروا بآياتنا)

البينات النازلة في كلام العليم الخلاق والواضحة بالنظر في أنفسهم أو في الآفاق (وقالوا) في بيان كفرهم : (أإذا كنا عظاما ورفاتا) أي عظاما باليات متفرقات (أإنّا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) مستأنفا لعالم ثان من الزمان •

ثم يقول الباري جل شأنه مستنكراً إستفهامهم الإنكاري (أولم يروا) أي أولئك الكفار المنكرون للبعث والخلق الجديد (أن الله الذي خلق السماوات والارض قادر على أن يخلق مثلهم) من الانس والجن حتى يحشرهم ويحاسبهم فيثيبهم أو يعاقبهم • (وجعل لهم أجلا) أي وجعل لإعادتهم بخلق جديد وقتا معينا محدودا (لا ريب فيه) ولا شبهة في تحققه ووجوده (فأبى الظالمون إلا كفوراً) وإنكاراً لتلك الإعادة •

ثم ظاهر الآية الكريمة أن الكفار أنكروا إعادتهم يوم القيامة على معنى جمع أجزائهم المتفرقة وإفاضة الحياة عليها كما كانت في الدنيا فرد عليهم بطريق برهاني هو أن الله قادر على خلق السماوات والارض ، وكل قادر على ذلك قادر على إعادة الأجزاء المتفرقة فيما عدا من أخبرَ الصادقُ بعدم تفرق الأجزاء له بعد الموت كالأنبياء والرسل الكرام ، ومن لم يعمل خطيئة قط والمؤذنين احتسابا والشهداء في القتال لإعلاء كلمة الله ونحوهم ممن حُرِمَت أجسادهم على الأرض ، وتلك الأجزاء هي الأجزاء الاصلية الحاصلة في أول الفطرة حال نفخ الروح ، وهي عندهم محفوظة من أن تصير أجزاءً لبدنٍ آخرَ فضلا عن أن تصير أجزاءً أصليةً له ، وذكر المثل إما جارٍ على طريقة (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل • أو المراد به المماثلة في التركيب والشكل • وذهب بعض إلى أن الباقي في من عدا من لا يبلى هو عُجبُ الذنب الذي في آخر سلسلة الفقرة الظهرية ، ويعاد عليه أمثالُ ما كان موجوداً في أعدل أوقاته في الحياة ، والمماثلة ظاهرة بين المخلوق الجديد والمخلوق الفاني ، وحقيقة الإنسان هي كما كانت بلا تبدل • ولو نظرنا

الى الأدلة الكثيرة الواردة في أن نشوء أهل السعادة على وجه أحسن وأملح مما كان بحيث يتعجب من حسنه ، وأن نشوء أهل الشقاوة على وجه يكون أفظع وبعيدا عن الحسن والملاحة ، لقلنا أن الله سبحانه يعيد الإنسان على ما كان يريد أن يعيده بجمع أجزائه الاصلية كلها أو بعضها ، وخلق صورة أخرى مثل ما كانت في الدنيا تركيبا ، وإن كانت أحسن نضارة ونظارة وجمالا وملاحة ، أو كانت أبعد صورة من الجمال والحسن والنضارة بحيث تناسب حال الشقاوة ، وذلك يكون موافقا لتلك الأدلة الواردة في الموضوع .

(قل) يا أيها المنكرون للرسالة ونزول القرآن على بشر مثلكم يهدي المكلفين إلى الحق والحاسدون على أولئك الناس الموهوبين الذين أنزل الله عليهم رحمته إنما أنتم تقيسون أحوال الغيب على الشهادة ، وتنظرون إلى ألطاف الباري على عباده نظركم الى بخلكم بالخير والإحسان والإفاضة ، وذلك قياس سقيم عقيم (لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) أي خشية الفقر ونفاد الخزائن ، وأما الباري سبحانه وتعالى لو أعطى كل مكلف في الدنيا مقدار ما لا يدخل في العد والإحصاء فهو قادر على ذلك ولا يخشى إقلالا ونفادا ، ولذلك خص الأنبياء والمرسلين بهبات كثيرة وعطايا وفيرة ، وخص عبده المختار محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببعثه رحمة للعالمين ، وإنزال القرآن عليه وإبقاء دينه إلى يوم الدين . (وكان الإنسان قتورا) أي ممسكا بخيلا ، وأما الباري سبحانه وتعالى فلم يزل ولا يزال ولن يزال كريماً جليلاً .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ، فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً(١٠١) قالَ : لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤلاءِ إِلاَّ رَبُّ

السَّماواتِ وَالأرْضِ بَصائِرَ وَإِني لأظُنُّكَ يا فِرعَونُ مَثْبُوراً(١٠٢) فَأرادَ أنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأرْضِ فَأغْرَقناهُ وَمَن مَعَهُ جَمِيعاً(١٠٣) وقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إسْرائِيلَ : اسْكُنُوا الأرْضَ ، فإذا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً(١٠٤) وبِالْحَقِّ أنْزَلْنَاهُ وبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَما أرسَلناكَ إلاَّ مُبَشِّراً ونَذِيراً)(١٠٥)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أي تسع أدلة واضحات الدلالة على نبوة موسى ــ عليه السلام ــ وصحة ما جاء به من عند الله تعالى • وفي تعيين هذه الآيات التسع أقوال : فمن المفسرين من قال : هي العصا ، ثم الضفادع ، ثم القمل ، ثم موت البهائم ، ثم برد" كنار أنزل مع نارٍ مضطرمة أهلكت ما مرت به من نبات وحيوان ، ثم جراد ، ثم ظلمة" ، ثم موت" عم كبار الآدميين وجميع الحيوانات • وروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنها العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد والقمل، والضفادع ، والدم والتنين ، ونقص من الثمرات • وروي غير ذلك • (فاسئل بني إسرائيل إذ جاءهم) فقلنا له سلهم عن فرعون ليرسلهم معك ، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسال على صيغة الماضي بغير همز وهو لغة قريش • أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم • (فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) أي سُحِرْتَ فتخبط عقلك • (قال) موسى ــ عليه السلام ــ ردا لقول فرعون : (لقد علمت) يا فرعون (ما أنزل هؤلاء) الآيات التسع أو جنسها ولو في البعض وهذا أظهر ، اذ لم تنزل الآيات كلها إذ ذاك (إلا رب السماوات والارض) أي خالقهما القادر على

ما أراد حالكونها (بصائر) تبصرك صدقي (وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) أي مصروفا عن الخير .

(فأراد) فرعون (أن يستفزهم من الأرض) أي يخرج موسى ومن معه من قومه من أرض مصر التي هم فيها (فأغرقناه ومن معه جميعا) أي فعكسنا عليه مكره ، فإنه أراد إهلاك موسى وقومه وبقاء نفسه وأتباعه من الأقباط فأهلكنا فرعون وقومه ونجينا الآخرين (وقلنا) على لسان موسى ـ عليه السلام ـ (من بعده) أي من بعد فرعون (لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) التي أراد فرعون أن يستفزكم منها وهي أرض مصر ، وهذا إن ثبت أنهم دخلوا أرض مصر بعد ذلك أو المراد بالأرض الأرض المقدسة وهي أرض الشام ومعناه حينئذ التمكين من الإستيلاء على الارض المقدسة والبقاء فيها كما تحققت في زمان يوشع ـ عليه السلام ـ . (فإذا جاء وعد الآخرة) أي وعد الحياة الآخرة أي قيام الساعة (جئنا بكم لفيفا) أي مختلطين مع من قابلكم وعاداكم حتى تعلموا ماذا نعمل بهم يوم الحساب والميزان والعذاب (وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل) عاد إلى بيان حال القرآن الكريم بعد بيان أحوال الناس على اختلافها، فقال وبالحق أنزلناه أي أنزلنا القرآن إنزالا متلبسا بالحكمة والصيانة حتى لا يشوبه شيىء مما يخالفه ، وبالحق نزل كذلك (وما أرسلناك إلا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي بالعقاب .

(وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً(١٠٦) قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْلا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّداً(١٠٧) وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبِّنَا ! إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً(١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً(١٠٩) قُلِ : ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ،

أَيّاً مَّا تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وَلا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً)(١١١)

قوله تعالى (وقرآنا فرقناه •••) منصوب على قاعدة الإشتغال ، أي وفرقنا قرآنا فرقنا آياته بين أمر ونهي ، وحِكَمٍ ، وأحكام ، ومواعظ ، وأمثال ، وقصصٍ ، وأخبار مغيبات أتت ••• (لتقرأه على الناس على مكث) أي على تدريج ومهلة ، فإنه أيسر لفهم المعنى وحفظ المبنى ، والإحتواء على أسراره المكنونة ، وأحكامه المقصودة (ونزلناه) في مرات كثيرة (تنزيلا) على حسب الحاجة للجواب عن السؤال ، ولبيان أحكام الحرام والحلال والوعد والوعيد في الامتثال والإحتيال (قل) للذين كفروا : (آمنوا به أو لا تؤمنوا) سواء عندنا (فإن الذين أوتوا العلم من قبله) أي العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة في النزول ، وعرفوا حقيقة الوحي وعلموا بنبوتك ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونزول القرآن عليك (إذا يتلى) القرآن (عليهم يخرون للأذقان) يسقطون عليها بسرعة حالكونهم (سُجَّداً) أي ساجدين لله تعظيما له تعالى ، أو شكرا للوفاء بوعده تعالى بإنزاله عليك •

وفسر الخرور للأذقان بالسقوط على الوجوه ، والسجود ، وإن كان على الجبهة والأنف ، لكنه ذكر الأذقان لإفادة المبالغة في سجودهم وتحاملهم على الوجه والأنف أي أنهم يتحاملون على الجبهة والانف بحيث يلتحق بهما الاذقان وتكون مساوية لهما في وقوع الاعتماد عليها • والآية نزلت في عبدالله بن سلام وأتباعه الذين دخلوا في الاسلام بإخلاص تام • (ويقولون)

في سجودهم : (سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي إنه كان وعده ببعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزول القرآن عليه محققا (ويخرون للأذقان يبكون) فرحة بإنجاز الوعد السعيد المنيد لكل مسعود الموصل إلى أهم مقصود (ويزيدهم) بكاؤهم (خشوعا) فإن البكاء إذا كان عن حرارة القلب يجر إلى مزيد من الخشوع ، أو يزيدهم القرآن الكريم بسماحهم لـه خشوعا لله تعالى .

(قل ادعوا الله ، أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا) أي أيّ واحدٍ من الاسمين تدعو ذاته به (فله الأسماء الحسنى) روي أنه صلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه : ياالله يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين ، فنزلت . وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه : يا ألله هذا الاسم فنزلت . والمراد على الأول التسوية بين اللفظين ، فإنهما يطلقان على ذات واحدة ، وإن اختلف الإعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق . وعلى الثاني أنهما متساويان في حسن الإطلاق والإيصال الى المقصود . والدعاء في الآية بمعنى التسمية ، وهو يتعدى الى مفعولين ، حذف أولهما استغناء عنه ، و (أو) للتخيير ، وأيا اسم شرط وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، و (ما) صلة لتأكيد ما في أي من الإبهام والضمير في قوله (فله) راجع إلى المسمى المستفاد من المقام ، لأن التسمية له لا للاسم ، وكان أصل الكلام : أياما تدعو فهو حَسَن لأن له الأسماء الحسنى أي وكل منها تعبير عن ذات الواحد الواجب الوجود والمغايرة في اعتبار الاوصاف المفهومة منها ، أو أياما تدعو فهو حسن لعدم الفرق بالحقيقة بين اسم الله واسم الرحمن ، فاستعمال كل منهما حسن تساويا في الإستعمال أو تخالفا

فيه بأن تكثر الاول وتقل الثاني ، أي ومادام له الأسماء الحسنى فقل : يا الله أو يا رحمن ، أو يا رحيم ، أو يا ملك ، أو يا قدوس ... وهكذا إلى آخرها . وهي تسعة وتسعون كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » أي من ضبطها وتلفظ بها وذكر الله تعالى بها مؤمنا بمعناها وثبوتها للذات الجليلة دخل الجنة .

واعلم أن تلك الأسماء ، وان كان كلها دالة على ذات الباري تعالى ومتساوية في ذلك ، لكن فيها الاسم الأعظم ، وفي تعيينه أقوال : روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع رجلا يدعو وهو يقول : أللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال ـ عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده لقد سأل الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » وروي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وفاتحة آل عمران : الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ونص حجة الإسلام الغزالي في كتابه المقصد الأسنى على أن لفظ (الله) أعظم الأسماء التسعة ، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ، ولأنه أخص الاسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا ، وسائر الاسماء قد يسمى به غيره عز وجل ، كالقادر والعليم والرحيم وغيرها . واسمه تعالى الرحمن لا يطلق على غيره تعالى ، وهو من هذا الوجه قريب من اسم الله سبحانه ، وإن كان مشتقا من الرحمة قطعا ، ولذا جمع عز وجل بينهما في قوله سبحانه (قل ادعو الله أو ادعو الرحمن) إنتهى .

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا) أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : نزلت ورسول الله مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به . فقال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ولا تجهر بصلاتك) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تُسمِعُهُمُ القرآنَ حتى يأخذوه عنك (وابتغ بين ذلك سبيلا) أي وسطا بين الجهر والمخافتة ، وظاهره أن المراد بالصلاة القراءة التي هي أحد أجزائها مجازا . (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) كما زعمت اليهود والنصاري وبنو مليح ، حيث قالوا : عزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ! (ولم يكن له شريك في الملك) وهذا رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية . ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون ردا على الوثنية . (ولم يكن له ولي من الذل) أي ناصر ومانع له عن الذل لاعتزازه بنفسه ، أو لم يتخذ وليا يواليه لكونه ذليلا يعتز بمناصرتهم ، حيث يستحيل أن يعتريه الذل وهو ذو الجلال والإكرام (وكبره تكبيرا) والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال . روى غير واحد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلم الغلام من بني عبدالمطلب اذا افصح الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات ، وسماها ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية العز كما أخرج أحمد والطبراني عن معاذ ـ رضي الله عنهم ـ ، وأخرج أبو ليلى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : خرجت أنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدي في يده فأتى على رجلٍ رَثّ الهيئة فقال : « أي فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال : السقم والضرّ . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ

: « ألا أُعَلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ ؟ توكلت على الحي الذي لا يموت ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا » الآية فأتى عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد حسنت حالته فقال : «مهيم ؟» فقال لم أزل أقول الكلمات التي علمتني .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرَج ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن إسماعيل ابن أبي فديك ، قال قال رسول الله : « ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل ــ عليه السلام ــ فقال : يا محمد قل : توكلت على الحي الذي لا يموت ، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك" في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا » . واخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لها : « إذا أخذتِ مضجعك فقولي : الحمد لله الكافي ، سبحان الله الأعلى ، حسبي الله وكفى ، ما شاء الله قضى ، سمع الله لمن دعا ، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجا، توكلت على ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم . الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيرا » . ثم قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ما من مؤمن يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره » . وهذه من المأثورات ، ومن قرأها إنتفع بها بإذن الله رب العالمين .

سورة الكهف ، مكية ، وهي مائة وعشر آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد للهِ الَّذي أَنزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتَابَ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً(١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بِأساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ الْمؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْملونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراًحَسَناً(٢) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً(٣) ويُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا : اتَّخذَ اللهُ وَلَداً(٤) ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلمْ ، وَلاَ لآ بائِهمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، اِنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً(٥) فَلَعَلكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ اِنْ لَم يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) اِنَّا جَعَلْنا مَا عَلَى الاَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً)(٨)

قوله تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) أي كل فرد من أفراد الحمد والثناء الوارد من كل فرد من أفراد الحامدين ، أو جنس الحمد وماهيته ، أو الحمد المعين المعهود الذي حمد الله تعالى به ذاته (لله

الذي) أنعم على أفراد المكلفين وغيرهم بأن (أنزل على عبده) المعين المخصوص المضاف إلى ربه إضافة معنوية (الكتاب) الكامل الذي امتاز بأن ينزل لاستيعاب أحكام الدين الإعتقادية والعملية الأصلية والفرعية (ولم يجعل له) أي لذلك الكتاب (عوجا) أي شيئا من العوج والاختلال لفظا بمخالفته لأصول الفصاحة ومعنى بمخالفته لاصول البلاغة وتناقض المعنى أو عدم تناسبه مع واقع حاجة المكلفين المنصفين المتصفين بالإعتدال في القوى الثلاث : الشجاعة ، والعفة ، والحكمة (قيما) على سائر الكتب السماوية شاهدا بصحتها ، أو قيما على مصالح العباد باحتواء حاجات المعاش والمعاد ، وقد أنزله الله تعالى (لينذر) العباد (بأسا شديدا) صادرا (من لدنه) على من خالفه بأن كفر به ، أو آمن ولكنه خالف أحكامه (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) أي ويبشر من جمع بين الإيمان به وإطاعة أحكامه (أن لهم أجرا حسنا) هو نعيم الجنة الخالدة حالكونهم (ماكثين) مقيمين (فيه) أي في ذلك الأجر (أبدا) من دون الإنقطاع والإنتهاء (وينذر) بالأخص الكافرين (الذين قالوا اتخذا الله ولدا) كبني حريث المعتقدين بكون الملائكة بنات الله واليهود القائلين بأن عزيرا ابن الله والنصارى المدعين أن المسيح ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيراً .

(مالهم به) أي باتخاذ الولد (من علم) حتى يكون اعتقادهم ناشئا عن معرفة (ولا لآبائهم) المؤسسين لهذه الإعتقادات الفاسدة حتى يكون تقليدهم لهم في ذلك تقليدا سديدا رشيدا ، وإنما اعتقادهم بذلك سفه على سفه وظلمات بعضها فوق بعض (كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم) أي عظمت مقالتهم تلك في الكفر والضلال إذ فيها نسبة غير معقولة وغير مقبولة ، حيث لا مناسبة بين واجب الوجود الموصوف بالكمال والممكن المعروف بالنقص والاختلال ، حتى يزعم زاعم أن الواجب محتاج إلى هذا الممكن ، وأن

التناسل والحاجة إليه موقوف على قبول المحتاج للفناء واحتياجه الى ما يبقى به نوعه ، والواجب تعالى حي قيوم لم يزل ولا يزال ولن يزال • وصيغة كبر بضم العين ، وكل ما كان على منوالها كظرف ، أو محولاً من وزن فعل بفتح العين أو كسرها تفيد المبالغة وتلحق بباب التعجب • ففاعل (كبرت) هنا ضمير راجع إلى المقالة السابقة (وكلمة) منصوب على التميز ومابعدها صفتها، أي كبرت تلك المقالة كلمةً تخرج من أفواههم•والعبارة في قوة ماأكبرها كلمةً خارجة من أفواههم ، وذلك قول المبرد والأخفش • وأمّا أكثرُ النحاة فعلى إلحاقها بباب نعم وبئس ، وأثبت لها جميع أحكامها • فكبرت هنا بمعنى بئس ، وفاعلها راجع إلى التميز بعده ، وتخرج صفته على جواز الصفة للتميز أو صفة للمخصوص بالذم المحذوف • وقوله تعالى (إن يقولون إلا كذبا) أي ما يقولون في ذلك الموضوع إلا قولاً كذبا ، تصريح بأن الجملة السابقة لإنشاء الذم ولا شيىء أحق بالذم من الإفتراء على الله رب العالمين •

وقوله تعالى (فلعلك باخع نفسك) بيان لواقع حال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تأسفه وتأثره على إصرار المشركين واستمرارهم في الكفر وإنكار ذلك الهادي إلى الصواب وتسليته بما بعدها من بيان فناء الدنيا ورجوع الناس إليه تعالى ويقول له بحسن الخطاب : (فلعلك) يا أيها الرسول الرؤوف الرحيم (باخع نفسك) ومهلكها (على آثارهم) أي من بعدهم على إصرارهم على الكفر وتوليهم عن الإيمان (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي بهذا الكتاب المنزل عليك (أسفا) منصوب على كونه مفعولاً له لقوله (باخع) ويقول له (إنا جعلنا ما على الأرض) من كل ما يبصر بالعين ويدرك بالعلم ويستخرج ويستفاد منه (زينة لها) تتزين به وتمتاز به من سائر الأشياء يتنعم بها الإنسان (لنبلوهم) ونختبرهم بها

(أيهم أحسن عملا • وإنا لجاعلون ما عليها) من تلك الزينة (صعيدا) أي ترابا (جُرُزاً) لا نبات فيه ، فمآلها إلى الفناء وبعد فناء هذه الزينة ومن تنعم بها يرجع الكل الى اللقاء والحساب وينال كل ما يستحقه وما أشقى من تعس بالشقاء ، وما اَسْعَدَ من سعِد بحسن المواجهة واللقاء •

(اَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آيَاتِنا عَجَباً(٩) اِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلى الْكَهْفِ فَقالُوا : رَبَّنا آتِنا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَداً(١٠) فَضَرَبْنَا عَلىآذانِهِمْ فِيالْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً(١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ اَيُّ الحِزبَيْنِ اَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً)(١٢)

قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن الكريم للإنذار والتبشير وجمع المكلفين على الإيمان بالله وحده ، وأن الدنيا وزينتها آيلتان إلى الفناء ، وأن الباقي هو الباقيات الصالحات •• أتى بذكر أصحاب الكهف الذين آمنوا بربّهم وتركوا الدار والديار لعبادة الواحد القهار ، فعاملهم الله تعالى بالكرامة وذكر آثارهم في العصور مرّ الليل والنهار ، وبذكر أصحاب الرقيم الذين ابتلاهم الله تعالى في الغار فنجاهم ببركة أعمالهم الصالحة ، وقال (أم حسبت) والخطاب لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمقصود جميع المكلفين الفاهمين للآيات • وأم منقطعة مقدرة ببل التي هي للإنتقال هنا من غرض لا للإبطال • أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا في بقائهم ونجاتهم وثمرات إخلاصهم عجبا ذات عجب ، لا بل كل آية من آياتنا الكونية في أسرارها واتقانها وحكمتها مما يتعجب منه لكن الناس لا يتعجبون إلا مما يخالف العادة المستمرة وإلا فجميعها آيات من مهمات الآيات (صنع الله الذي اتقن كل شيىء) •

ثم إن من المفسرين من قال : إن أصحاب الكهف والرقيم عبارة عن طائفة واحدة بدليل أنه بعد أن ذكر الله تعالى أصحاب الكهف لم يذكر عن أصحاب الرقيم شيئا ، والمحققون منهم على أن أصحاب الكهف قوم وأصحاب الرقيم جمع آخرون . وقصتهم مروية في الصحيحين وغيرهما فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر ، فأَوَوا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدقُ ، فليدعُ كلٌّ رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال واحدٌ منهم : أللهم إن كنتَ تعلمُ أنه كان لي أجير عمل على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإني عمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً ، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت : إعمد إلى تلك البقر فَسُقْها . فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرُزٍّ، فقلت : إعمَدْ إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرَقِ ، فساقها ! فإن كنتَ تعلم أني فَعلتُ ذلك من خشيتك ففرّج عنا ! فانساخت عنهم الصخرة .

فقال الآخر : أللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، فكنت آتيهما كلَّ ليلة بلبن غنمٍ لي ، فأَبطأتُ عليهما ليلة ، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاعون من الجوع ، فكنت لا أسقيهم حتى يشربَ أبواي فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن ادَعهما فيستكينا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ! فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها فأبَتْ ، إلاّ أن آتيها بمائة دينار ، فَطَلَبتُها حتى قَدرْتُ فَأَتَيتُها بها ، فَدفَعتُها إليها فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت

بين رجليها ، قالت اتق الله تعالى ولا تَفُضّ الخاتم إلا بحقه ! فقمت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك فَفَرج عنا ! ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا » . وروي نحو ذلك عن ابن عباس وانس والنعمان بن بشير ، كلّ يرفعه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

والرقيم على هذا بمعنى محل في الجبل . وقيل : بمعنى الصخرة . وقيل بمعنى الجبل . ويكون ذكر ذلك تلميحا الى قصتهم وإشارة الى أنه تعالى لا يضيع عمل أحدٍ خيراً أو شراء ذلك أصحاب الرقيم كما في الصحاح.

وأما أصحاب الكهف فهم كما في الآية الكريمة فتية" شباب" ، وكانوا من أشراف الروم أرادهم (دقيانوس) على الشرك فأبوا وهربوا خوفاً منه الى الكهف كما قال سبحانه وتعالى (إذ أوى الفتية الى الكهف) واتخذوه مأوى وملجأ لهم . والفِتية جمع قلةٍ لفتىً (فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي رحمة عظيمة بالستر والصيانة عن الملك وأتباعه في الدنيا وبالعفو والمغفرة والدرجة في الآخرة (وهيىء لنا من أمرنا) الذي نحن عليه من مهاجرة الملك وأعوانه الكافرين (رشَدا) أي إصابة ووصولا الى الطريق الموصل الى المطلوب (فضربنا على آذانهم في الكهف) أي فجعلنا على آذانهم سترة وحجابا مانعا من استماع الأصوات وأنَمناهُم براحة وهدوءٍ (سِنين عَدَداً) أي سنوات متعددة أي ذوات عدد كما يأتي في الآية .

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ملكا من الملوك يقال له (دقيانوس) ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها (أفسوس) وقيل : هي (طرسوس) وكان بعد زمن عيسى ـ عليه السلام ـ . فأمر بعبادة الأصنام، فدعا أهلها إلى عبادتها ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله تعالى سرا ، فرفع خبرهم الى الملك وخافوه فَهَرَبوا ليلاً ، ومروا براع مَعَه كلب

فتبعهم «فأووا الى الكهف» فتبعهم الملك إلى فم الغار فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا هذا •

(ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من منامهم (لنعلم أي الحزبين) أي منهم وهم القائلون لبثنا يوماً أو بعض يوم ، والقائلون ربكم أعلم بما لبثتم (أحصى) فعل ماض أي ضبط ، وفاعله ضمير راجع الى أي ، وما في قوله تعالى (لما لبثوا) مصدرية والجار والمجرور حال مقدم عن قوله تعالى (أمدا) وهو مفعول أحصى ماضي افعال • والأمد الزمان المحدود • وقيل : أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد بناء على ما اختاره سيبويه من جواز بناء أفعل التفضيل والتعجب من المزيد بحذف الزوائد ، أي أكثر جمعاً وضبطاً له • وأمداً نصب بفعل دل عليه أحصى لا به لأنه لا ينصب المفعول بـه إلا على قول ضعيف ، ويجوز أن يكون نصبه على كونه تميزا •

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ انهم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً(١٤) هؤلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ؟!(١٥) وَإِذ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً(١٦) وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ

منْ آياتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِداً(١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)(١٨)

قوله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أي نحكي لك خبرهم وما كان منهم بالوجه المطابق للواقع : (إنهم فتية) جمع فتِىٍّ كصبي وصبية (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) بالتثبيت (وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والارض) أي قوينا قلوبهم حين قاموا بين يدي الملك وعارضوه وقالوا ربنا رب السماوات والارض وحده لا شريك له (لن ندعوَ من دُونه إلهاً) لا بالإستقلال ، ولا مع الخالق المعبود الموصوف بالكمال (لقد قلنا إذاً شططا) أي والله إذا دَعونا من دونه إلها قد قلنا قولاً ذا شطط وبعد عن الحق مفرطٍ في التجاوز على حق الربوبية (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) على وجه السفه ومخالفة الحق بدون أي دليل (لولا يأتون عليهم) أي على عبادتهم (بسلطانٍ بينٍ) بدليل واضح يفيد مدعاهم الفاضح ، فإن الإعتقاد بدون دليل يهدي للرشاد فساد ماوراءه فساد (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟) بنسبة الشريك أو الشركاء إليه •

ولما قاموا وقالوا ذلك أمْهلهم الملك مدةً وجيزة لإعادة النظر في أحوالهم ولما خرجوا من عنده تشاوروا فيما بينهم بأنهم إذا بقوا عند الملك والقوم المشركين صاروا من الهالكين وقالوا (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ اللهَ) أي وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم الإشراكية الفاسدة (فأووا الى الكهف) تختفوا عن أعينهم وان احتجتم الى الطعام والشراب أو الى مخرج

من الاعداء (ينشر لكم ربكم من رحمته) من كل الجهات (ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً) ماترتفقون وتنتفعون به بحيث لا تقعون في عسر لا يطاق ، فإن الله وعدَ من هاجر اليه بالسعة في المعيشة ، والبسط في الحال ، والسعادة في المآل .

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم) أي تعدل وتتجاوز عنهم . والفجوة : المتسع والمحل الواسع . وبيان الآية الكريمة : أن الكهف كان بحيث قابل بابه بنات النعش الصغرى التي فيهن كوكب القطب المسمى بالجدي ، وأقرب المشارق الى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه . والشمس اذا كان مدارها مداره طلعت مائلة عنه مقابلة لجانبه الايمن ، وهو الذي يلي المغرب وغربت محاذية لجانبه الايسر ، وهو الذي يلي المشرق فيقع شعاعها على جنبه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ، ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادهم ، وتبلي ثيابهم ، ولعل ميل الباب الى جانب المغرب كأن اكثر ، ولذلك وقع التزاور على كهفهم ، والقرض على أنفسهم . وقال الزجاج : ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله تعالى الشمس بقدرته عن أن تصيبهم على منهاج خرق العادة كرامة لهم واحتج عليه بقوله (ذلك من آيات الله) أي ذلك الوضع الثابت للشمس بالنسبة اليهم من آيات قدرة الله تعالى (من يهد الله) أي الى الإيمان بها (فهو المهتد ، ومن يضلل) ولم يؤمن بها (فلن تجد له وليا مرشدا) يهديه الى الحق ويخلصه من الضلال .

(وتحسبهم) أي أصحاب الكهف (أيقاظا) أي غير نائمين لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر (وهم رقود) أي والحال أنهم رقود أي نائمون حقيقة (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) أي ونقلبهم في حال رقدتهم إلى جهة أيمانهم (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) الكلب هو الحيوان المعروف.

والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسط • (وذراعيه) منصوب على أنه مفعول به وعمل فيه (باسط) مع أنه اسم فاعل بمعنى الماضي لأن المراد هنا حكاية الحال الماضية فكأنه يراد به الحال (والوصيد) موضع الباب ومحل العبور من الكهف • وقوله (لو اطلعت عليهم) أي لو عاينتهم وشاهدتهم ، وأصل الإطلاع الوقوف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة • وقوله (لوليت منهم فرارا) أي لأعرضت بوجهك عنهم فاراً (ولملئت منهم رعبا) أي لملئت منهم خوفا يملأ الصدر • ونصب رعبا على أنه مفعول به ثان ، والمفعول الاول صار نائبا للفاعل بعد تحويل الفعل الى المجهول • وحاصل المعنى أنهم كانوا في الكهف نائمين على شكل خاص ، وكلبهم في معبر الكهف موجود متيقظ للحراسة • وهيئتهم من كثرة الشعور والمنام على وجه قرب بعضهم من بعض في ذلك المحل كانت مخوفة مدهشة ، فكنت لو شاهدتهم فيه أيها المشاهد لأعرضت عنهم دهشة وقلقا ، ولملئت منهم رعبا وخوفا ، وكنت تلوذ بالفرار من المحل •

(وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلوا بَيْنَهُمْ قالَ : قائِلٌ منهم : كَم لبِثْتُمْ ؟ قالوا : لَبِثْنا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ • قالُوا : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا اَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلى المَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ، وَلْيَتَلَطَّفْ ولا يُشعِرَنَّ بِكُمْ اَحَداً(١٩) اِنَّهُم اِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا اِذاً أَبَداً)(٢٠)

قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) أي وكما أنمناهم في الكهف بعثناهم فيه من المنام والغاية المترتبة على البعث أشياء ، منها : أنه

يسأل بعضهم بعضا عن مدة منامهم ولبثهم في الكهف ، ليترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة (قال قائل منهم : كم لبثتم ؟) هنا والسائل كبيرهم مكسلينا. (قالوا) : أي قال بعض منهم في الجواب (لبثنا يوما أو بعض يوم) والمراد أنه لم يتحقق لنا مقدار لبثنا ، أي لا ندري أن مدة ذلك هل هي مقدار مدة يوم أو مقدار مدة بعض يوم منه . والظاهر أن هذا القول المردد فيه كان في أول انتباههم قبل أن تزول عنهم غفلة النوم حتى ينظروا الى الأمارات الدالة على الوقت المحدد (قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم) أي وقال بعض آخر منهم بعد النظر إلى الامارات الدالة على طول مدته من طول الاشعار وتغير وضع المحل القول المذكور ، أي انتم لا تعلمون مدة لبثكم والعلم عند الله تعالى .

وبعد ان ظهر لهم أن المدة غير معلومة وكانوا في حال المنتبه المتأثر بطول الزمان من الجوع ورخاوة الجسد والحاجة الى المعونة (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) المعهودة لنا التي خرجوا منها . ويقال أنها كانت مدينة طرسوس في محافظة الاسكندرونة القريبة من (سورية) . والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة (فلينظر أيها أزكى طعاماً) أي أنظف على أصول الدين ، وأطيب من حيث الطراوة (فليأتكم برزق منه) أي من نوع ذلك الطعام الأزكى (وليتلطف) أي وليبالغ في لطف الكلام ولين الجانب وإعطاء البدل (ولا يشعرن بكم أحدا) أي لا يفعلنّ مايؤدي الى شعور الناس بكم وبأنكم من أهل المدينة ومن المختفين عن الملك (إنهم إن يظهروا عليكم) أي يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأنتم أولئك الناس المخالفون لقوانين ذلك الوقت (يرجموكم ، أو يعيدوكم في ملتهم) أي جعلوا شأنكم دائراً بين أحد أمرين لا ثالث لهما وهو : إما الرجم بالحجارة حتى تموتوا ، او الإعادة وإرجاعكم الى ملتهم التي هي عبادة الاصنام (ولن تفلحوا إذا أبدا) أي إن عدتم الى ملتهم بعد أن خلصتم منها لنْ تفوزوا

بفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة ،لأنكم ، وإن عدتم اليها بالإكراه ، لكنه بعد ذلك تستحسنون ما هُم عليه ، واستحسان الكفر كفر" بواح" مانع عن الفلاح ، أما في الدنيا فلذهاب أعماركم في الكهف وورود الخزي عليكم خزياً تأريخيا يوجب ذكركم بالسوء مادامت الدنيا باقية • وأما في الآخرة فلموتكم على الكفر وابتلائكم بالنار فلا مآل لكم إلا العارُ والنارُ •

(وكذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَموا أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فيها ، إذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالوا : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً ، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أمْرِهِمْ : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً(٢١) سيَقُولُونَ : ثلثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : خَمسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْماً بِالْغَيْبِ ، وَيَقولُونَ : سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كلبُهُمْ • قُلْ رَبِّي : أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ ، فَلا تُمارِ فِيهِمْ إلاَّ مِراءً ظَاهِراً ، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لشَيْىءٍ إنّى فاعِلٌ ذلِكَ غَداً(٢٣) إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ ربِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَداً(٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثلاثَ مِأةٍ سِنِينَ وازْدادُوا تِسْعاً(٢٥) قُلِ : اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالأَرْض ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)(٢٦)

قوله تعالى : (وكذلك أعثرنا عليهم) أي وكما نجيناهم من الملك القاهر وآويناهم الى الكهف وحفظناهم فيه من المؤذيات ، وأنمناهم المدّة الطويلة وبعثناهم لتزداد بصيرتهم وقوة إيمانهم بربهم (أعثرنا عليهم) الناس وأطلعناهم

عليهم (ليعلموا) أي ليعلم أهل المدينة الذين اطلعوا عليهم (أن وعد الله) بالبعث بعد الموت حق (وان الساعة لا ريب فيها) لأن استنكار البعث انما هو استنكار لأمرٍ بعيد حسب العادة • وتلك الأحوالُ الواردة على أولئك الاصحاب الفارين بدينهم من قدرتهم على معارضة الملك ، وخلاصهم منه ، وفرارهم الى الكهف ، وصيانتهم من اتباع الملك وسترهم عنهم ، وصيانتهم في ذلك الكهف ، وإنامتهم تلك المدة الطويلة بلا عروض فساد في أجسادهم ، ولا غلبة السباع والحشرات عليهم ••• كل ذلك أمر بعيد في مجاري العادة ومستنكر الوقوع ، لاسيما إنامتهم تلك المدة وصيانتهم من العوارض • وقوله تعالى (إذ يتنازعون) ظرف لقوله (أعثرنا) أي أعثرنا الناس وأطلعناهم عليهم وكشفنا لهم بعض أحوالهم حين يتنازعون (بينهم أمرهم) أي أمر دينهم ومآل حالهم عند البعث والنشور • فمنهم من يقول المعاد روحاني فقط ولا تعاد الأجساد معها ، فيكون عالم الآخرة كعالم الرؤيا في النوم فبعض الناس في راحة وبعضهم في عذاب وبعضهم يقول : المعاد روحاني وجسماني معاً •

ولما علموا بأحوال أصحاب الكهف وأنهم انتبهوا بعد النوم في المدة الطويلة بلا خَلل وملل علموا أن البعث في الآخرة يكون بالأرواح والاجساد، وأن عالمها عالم" جسماني وروحاني عيني" خارجي" أو يتنازعون بينهم أمر أولئك الفتية الفارين بدينهم الى الجبال والكهوف فهل سترهم الله وحفظهم من ذلك الملك الظالم وماذا جرى عليهم في الكهف هل ماتوا هناك وتفتتوا وتمزقت أجسادهم أو حفظهم الله تعالى بوجه من الوجوه التي أراد أن يلطف معهم بها ؟ فلما أعثرناهم على أحوالهم علموا أن تلك الواقعة كانت واقعية ، وأنهم دخلوا الكهف وكفاهم ربهم بكفايته ووقاهم بوقايته وحفظ أجسادهم في منامهم الطويل ، ثم بعثهم على الصحة الإعتيادية حتى يتبينوا أن وعد

الله بالبعث والنشور والساعة حق لا ريب فيه ، وأن الله على كل شيء قدير أو يتنازعون فيهم بعد الإطلاع على أحوالهم وموتهم ثانية فقالت طائفة نبني عليهم بنيانا يسكنه الناس فيصير المحل قرية عامرة على تلك الذكريات الحسنة . وقال آخرون لا بل تتخذ عليهم مسجدا ليسكن فيه من أراد السكون فيه ويعبد ربه كما قال تعالى (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا) وقوله (ربهم أعلم بهم) جملة معترضة وهي إما قول الله تعالى ردا على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين ، أو من المتنازعين فيهم في زمانهم أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

حكي أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم (دقيانوس) اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك ، وكان نصرانيا موحداً ، فقص عليه القصص . فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم . ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك من شر الجن والإنس ، ثم رجعوا الى مضاجعهم ، فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجدا . وقيل : لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم : حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا ، فدخل فعمى عليهم المدخل ، فبنوا ثم مسجدا على حسب غلبتهم على أمرهم وتنفيذ ما أرادوه من بناء المسجد ، لأن معنى غلبتهم على أمرهم أنهم إذا أرادوا أمرا لم يتعسر عليهم ولم يحل بينهم وبينه أحد" . كما يقال في قوله تعالى : (والله غالب على أمره) .

وقوله تعالى : (سيقولون) مصدراً بسين الاستقبال دليل على أنه قول الخائضين في قصتهم في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اليهود والنصارى ومن له شأن في ذلك الموضوع (ثلاثة رابعهم كلبهم) أي

هم كانوا ثلاثة رجال ويربعهم كلبهم بانضمامه إليهم ، والقائل بهذا من اليهود • وقيل : هو قول رئيس من نصارى نجران وكان يعقوبيا • (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) والقائل بهذا من النصارى أو قول العاقب منهم وكان نسطوريا (رجما بالغيب) منصوب على المصدرية ، أي ويرمون بالخبر رميا بالغيب وهذه الجملة استعارة للتكلم بكلام لم يطلع عليه المتكلم لخفائه وعدم كشفه للحقيقة فيه ، وأصله هو الرمي بالحجارة التي لا تنفذ ولا تصيب غرضا ومرمى لعدم معرفة راميها بالهدف ، أو بكيفية الرمي المصيب وحاصله أن القائلين لم يكن لهم مستند" في قولهم وتعقيب القولين بذلك يدل على أنه لا أصل لهما (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) وهذا قول المسلمين على استناد إخبار الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهم من جبريل ــ عليه السلام ــ ، فيكون هو القول الحق ويزيده قوله تعالى : (قل : ربي أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل) بإسناد العلم الى القيل بعد رفض قول الفرقتين السابقتين بقوله (رجما بالغيب) والله أعلم بحقيقة الحال (فلا تمار فيهم إلا مِراءً ظاهرا) أي ولا تجادل في شأن الفتية وعددهم أولئك الناس الجاهلين بالحقيقة المتكلمين رجما بالغيب إلا جدالا بسيطا بدون اهتمام به ، فإنهم مصرون على مزاعمهم وظنونهم ، والظن لا يغني من الحق شيئا (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد ، فإن فيما علمت من أحوالهم لكفاية •

وقوله (ولا تقولن لشيىء : إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) نهي تأديب من الله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن ترك الاستثناء في مايقول أنه يفعله في المستقبل • أي لا تقل ذلك الكلام الا مقيدا بقولك (إن شاء الله) مثلا لأن تركه كان السبب في تأخر الوحي عنك عندما سألتك قريش بإيعاز اليهود عن الروح ، وأصحاب الكهف وذي القرنين • فقلت ائتوني

غدا فأخبركم وما استثنيتَ ، ولو قلت إن شاء الله لأتاك الوحي مستعجلا • فقوله تعالى (إلا أن يشاء الله) إستثناء من النهي أي انت منهي عن ذلك القول كل وقتٍ الا وقت تقييده بقولك إن شاء الله •

وأما إذا كان استثناء من قوله (فاعل) باعتبار ظرفه أي (إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فإن أردت مقارنة المشيئة لفعله أي إني فاعل ذلك غدا إلا اذا قارنت مشيئة الله لذلك افعل فيكون المعنى باطلا ، إذ كيف لا يفعله إذا اقترنت به مشيئة • وإن أردت معارضة المشيئة له ومنعها عنه ، أي إني فاعل ذلك غدا إلا ان عارضت ومنعت مشيئته تعالى ذلك فالمعنى صحيح لكنه لا مجال للنهي عن التكلم بكلام كذلك •

وقوله تعالى (واذكر ربك إذا نسيت) أي واذكر مشيئة ربك (وقل) إن شاء الله بعد صدور ذلك الكلام عنك إذا نسيت التقييد به معه ، ولو بعد زمان وذلك لرعاية الأدب وملاحظة أن حدوث الحوادث موقوف على مشيئة الله تعالى وارادته لها • وأما بالنسبة الى كونها قيدا معتبرا في العقود والحلول والأقارير والاحلاف فالجمهور على أنه يشترط فيه شيئان : الاول نيته قبل انتهاء الكلام • والثاني اتصاله به عرفا • وما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من جواز تأخيره عنه ، ولو زمانا طويلا ، فالجمهور على خلافه ، إذ لو جاء ذلك لم يتقرر شيىء مما مر الى أن يموت أصحابها لجواز إتيانهم به بعده إلى الممات • وقل (عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتكلم بكلام فيه رجاء لإعلاء شأنه أكثر ولزيادة علمه أوفر بأن يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عسى أن يهدين ربي ويوفقني لشيىء يكون أقرب وأظهر فائدة للأمة المحمدية من نبأ أصحاب الكهف ، فإنه لا يزيد على بيان إخلاص فتيةٍ في دينهم وتوحيد الله سبحانه وفرارهم بدينهم إلى الكهف • والله

سبحانه وتعالى يوحي إليك الشرائع والأحكام والإستعداد للجهاد في نشر الإسلام ، ويزودك بالإطلاع على حوادث كانت أو ستكون في مستقبل الأيام ، فليس مستوى رسالتك العامة الخالدة الوقوف مع الجواب عن عدة أسئلة لا قيمة لها بالنسبة الى ما أنت عليه من المهام •

ثم استأنف الباري لبيان مدة لبثهم أحياء نائمين في الكهف لأنها هي النقطة الوحيدة الخارقة للعادة في القصة فقال (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهذه الآية جملة مستأنفة مبينة للإجمال في قوله تعالى (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) يعني إن مدة الضرب على آذانهم هذه • قالوا ووجه العدول عن العبارة المعتادة وهي ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر وأظهر •• الإشارة إلى أن المدة بحساب السنة الشمسية ثلاثمائة سنة وباعتبار السنة القمرية ثلاثمائة وتسع•

والإعتراض على ذلك بأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمس وستون يوما وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة على مقتضى الرصد الإيلخاني ، والسنة القمرية ثلاثمائة واربعة وخمسون يوما وثمان ساعات وثمان واربعون دقيقة ، فيكون التفاوت بينهما عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة ودقيقة واحدة • وإذا كان هذا تفاوت سنة كان تفاوت مائة سنةٍ ألف يومٍ وسبعة وثمانين يوما وثلاث عشرة ساعة وأربع دقائق ، وهي ثلاث سنين وأربعة وعشرون يوما واحدى عشرة ساعة وست عشرة دقيقة • فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة تسع سنين وثلاثة وسبعين يوما وتسع ساعات وثمانيا وأربعين دقيقة • أي واذا اعتبر هذا سنين شمسية كان تسع سنين إلا اربعة وعشرين يوما وإحدى عشرة ساعة واحدى وعشرين دقيقة •• مدفوع بأن : الخلل في حساب الرصد لا في حساب الصمد • أو أن الكلام مبني على المسامحة بتلك الدقائق والساعات والأيام ، ومثل ذلك جار متعارف بين الأنام • وقال

بعض : بأن التفاوت نشأ من اختلاف قول المتنازعين في أمرهم ، فمنهم من قال : مدة لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة ، ومنهم من قال ثلاثمائة وتسع سنين أي ازدادوا تسعا على قول الأولين .

(قل الله أعلم بما لبثوا) ولذلك أخبر عنهم بقوله (ولبثوا في كهفهم) الآية (له غيب السماوات والارض) أي له العلم بما غاب فيها وخفي من الأعيان والأعراض وحدوثها وبقائها فلا تخفى عليه خافية (أَبصر به وأَسمع) صيغة من صيغتي التعجب ، أي ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله لا يقدرُ أحدٌ أن يُحيط بإحاطة سمعه تعالى بالمسموعات واستيعاب بصره للمبصرات، صورتها الأمر ومعناها الخبر ، والضمير المجرور عائد إلى الله تعالى ، ومحله الرفع على الفاعلية ، والباء مزيدة ، وأصلها أبصر وأسمع من باب الإفعال ، أي كان ذا بصر وسمع ، ثم تحول إلى صورة الأمر بمعنى الإنشاء فأبرز الضمير المستتر لعدم قابلية الصيغة له (ما لهم من دونه من ولي) أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله تعالى ولي يتولى أمورهم (ولا يشرك في حكمه)أي في تنفيذ قضائه أحدا فهو المشرع وهو المنفذ في الكائنات .

ثم لما كان الوافي بجواب سؤال السائلين هو القرآن الكريم الذي أظهر ما في الغيب من القصص وجاء عليه بنص ، وتبين عظمته وأخباره بالمغيبات بحيث اندهشت منه عقول العقلاء .. رغب الله تعالى حبيبه في تلاوته وملازمته والاعتماد على ما فيه بصفة أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقال مخاطبا حبيبه الكريم :

(وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) وَقُلِ : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ، نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)(٣١)

قوله (واتلُ ما أوحي إليك من كتابِ ربك) أي اعتمد على مولاك الذي اصطفاك وأنزل عليك كتابه (واتلُ ما أوحي اليك من كتاب ربك) واحفظه واعمل به وبلغه المكلفين من عباده ، فإن تلاوته عبادة ، والعمل به سعادة ، وتبليغه الى عباده أجر ومثوبة وزيادة (لا مبدل لكلماته) لا أحد يقدر على تبديلها غيره (ولن تجد من دونه) أي من دون الله (ملتحدا) أي ملتجأ تلتجيء اليه للصيانة عن شره ، كما لا مترجى غيره لنيل خيره (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أي واحبس نفسك وثبتها وقررها في المساجد والمعابد وفي السفر والحضر مع المسلمين الذين يدعون ربهم لطلب خيره والهرب عن شره ، ولا يدعون غيره.

أو يعبدون ربهم بالغداة والعشي كناية عن استيعاب الأوقات ، أو عبارة عن طرفي النهار ، ويشمل الدعاء والعبادة فيهما الصلوات المفروضة ، فإنّ صلاة الصبح غدائية والصلوات الاخرى عشائية . ويريدون وجهه حال عن فاعل الجمع المذكور المشكور ، أي حالكونهم يريدون بطاعتهم رضاء ذاته واستجلابَ هِباته والاستنارة بتجلياته (ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم) نهي العين عن التجاوز إلى الغين ، والمراد نهى عينِ الأعيان أعني الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي لا تتجاوز يا حبيبي عنهم الى النظر إلى من لا يهمهم إلاّ شهوات بُطونهم وفروجهم حالكونك (تُريدُ زينة الحياةِ الدنيا ، ولا تطعْ منْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وأمِنَ مكرنا (واتَّبَعَ هواه) وتركَ طريقَ هُداه (وكان أمره فرطا) مصدر سماعي لفرط وهو تجاوز الحد أي وكان أمره تجاوزاً عن أمر الله وإسرافاً في المال والحال وضياعا للحال والمآل .

والآية نزلت في عُيينة بن حصن الفزاري وأتباعه ، أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يُسلم وعنده جماعة من الفقراء ، منهم سلمان ، وعليه شملة صوف قد عرق فيها ، وبيده خوص يشقه وينسجه . فقال عُيينة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما يؤذيك ريح هؤلاء ؟ ونحن سادات مُضرَ وأشرافها إن أسْلمنا تسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاءِ ، فَنحهم عنك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا . وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان في حُنين من المؤلفة قلوبهم فأعطاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها مائة بعير ، وكذا أعطى الأقرع بن حابس وأعطى العباس ابن مرداس أربعين بعيرا . وقيل : نزلت في أصحاب الصُّفَّة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخرجون إلى تجارة ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى ،

فلما نزلت قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن اصبر نفسي معهم ·

(وقل) له ولمن معه (الحق من ربكم) أي من القرآن الحق نازل من ربكم ، أو الأمر الحق ما يكون من جهة الله لا ما يأتي من الهوى واتباع الشهوات النفسية ، ولا تطرد أحداً من عباد الله المسلمين لا فقيراً ولا أميراً لا صغيراً ولا كبيراً (فمن شاء فليؤمن) فإن ايمانه ينفع نفسه (ومن شاء فليكفر) فإن كفره يضر نفسه ولا تبال بأحد الجانبين إلا بقدر ما يخصك في الدين ، إلا أنه قرر الله سبحانه وتعالى جزاء وفاقا للفريقين كما قال (إنا أعتدنا للظالمين) أي هيأنا لهم (نارا أحاط بهم سرادقها) أي دخانها ولهيبها الشبيه للفسطاط أي الخيمة يعني أنهم يعذبون في نار أحاط بها اللهيب والدخان كالخيمة المحيطة بمن فيها (وإن يستغيثوا) من العطش بالزبانية (يغاثوا بماء كالمهل) أي دردي الزيت وخلطه (يشوي الوجوه) من فرط حرارته عند أخذه لشربه وقربه منها (بئس الشراب) المهل (وساءت مرتفقا) أي شيئا يرتفق به ويستراح به هذا جزاء الفريق الثاني ·

وأما جزاء الفريق الاول فهو ما أفاده بقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) خبر إن ، والموصول لعمومه قائم مقام العائد ، أي أجرهم وأجرهم هو المبين بقوله تعالى (أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها) أي يتحلون فيها (من أساور) هي (من ذهب ، ويلبسون ثيابا خضراً) لأن الخضرة تزيل الحزن كالماء والوجه الحسن وعندهم الأنهار الجارية والحور العين التي تجري فيها الصفاء كاللآلي العارية ، وتلك الثياب الخضر (من سندس) الرقيق من الديباج (واستبرق) الغليظ منها في النساج حالكونهم (متكئين فيها على

الأرائك) جمع أريكةٍ بمعنى السرير حتى يسروا بنظرهم الى حورهم متقابلين (نعم الثواب) ثوابهم (وحسنت مرتفقا) مرتفقاتهم •

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً(٣٢) كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ، وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً(٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصاحِبِهِ ــ وَهُوَ يحاوره ــ : أنَا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً(٣٤) وَدخَلَ جَنَّتَهُ ، وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قالَ : ما اظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً(٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً(٣٦) قالَ لَهُ صاحِبُهُ ــ وَهُوَ يُحاوِرُهُ ــ : أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّيكَ رَجُلا ؟!(٣٧) لكِنَّا هُوَ اللهُ ربِّي ، وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً)(٣٨)

قوله تعالى : (واضرب لهم مثلا) أي واذكر للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي حتى يتأكدوا على مثوبتهم الحسنى ، أو للكافرين الذين لا يؤمنون بالله لعلهم يتذكرون ويتعظون فيتوجهون الى الله ويتوبون اليه ، فاذكر لهم للغرض المذكور مثلا وأبدل عن المثل (رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) أي جعلنا النخل محيطة بهما مطبقة بجانبيهما (وجعلنا بينهما زرعاً) أي وجعلنا وسطهما زرعاً لإضافة الأقوات إلىالفواكه (كلتا الجنتين آتت أُكُلَها) ولما كانت كلتا مفردا لفظا ومثنى معنى جاز الإخبار عنه بالمفرد كما هنا • وإرجاع ضمير المثنى اليه فيما بعده• أي

أعطت ثمارها وبلغت مبلغ الإستفادة منها (ولم تظلم منه شيئا) أي ولم تنقص من الثمر شيئا من النقص (وفجرنا خلالهما نهرا) أي وفجرنا فيما بين كلتي الجنتين نهرا ليدوم شربهما ، وتزيد نضارتهما ، وتحلو ثمارهما (وكان له) أي لذلك الأحد (ثمر) من أنواع المال والخيرات (فقال) هذا (لصاحبه) المؤمن (وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) ورجالاً . (ودخل جنته) في هذه الحالة من البطر والإستغناء (وهو ظالم لنفسه) بنسبة ماله إلى نفسه وإهماله لجانب قدسه (قال : ما أظن أن تبيد) أي تفنى (هذه) الجنة والثروة (أبدا) طول حياتي وأعيش عليها متنعما الى أن أموت فأنمحى مثل معز يرعى في المرعى فيموت بلا عود حياة ولا سؤال وجواب ولا حساب وكتاب (وما أظن الساعة) المشهورة وهي عالم المعاد وحساب العباد (قائمة) ثابتة (ولئن رددت إلى) لقاء (ربي) فرضاً جدليا (لأجدن خيراً منها) أي من هذه الجنة (منقلبا) أنقلب وأتحول إليه كما أن لي في هذه الدنيا ما تراه من الجنان الخارجة عن الحسبان .

(قال له صاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) أيضا : عجبا منك وحسرة وأسفاً عليك (أكفرت بالذي خلقك من تراب) في ضمن خلق أبيك الأعلى آدم ـ عليه السلام ـ (ثم من نطفة) مخلوقة في الأصلاب والأرحام ثم أخرجك من بطن أمك حيا حياة مستقرة سليما (ثم سواك رجلا ؟) لا امرأة أو رجلا من الرجال البارزين المعتدلين المتمولين وكان الواجب عليك أن تشكره .

(لكنا هو الله ربي) أصله لكن أنا ، وقرأ به أبي بن كعب . فنقلت حركة همزة أنا الى ما قبلها وحذفت الهمزة ثم الحركة ، ثم أدغمت النون في النون . وأنا مبتدأ أول وهو ضمير الشأن ومبتدأ ثان ، والله مبتدأ ثالث ، وربي خبره ، والجملة خبر ضمير الشأن ، وهي غنية عن الرابط لان الجملة

بعدها تفسيرها والجملة بكمالها خبر أنا ، والرابط للكل ضمير المتكلم المضاف إليه • ويقرأ لكن بفتح النون بلا ألف ، والمعنى ولكنني بريء عن اعتقادك الفاسد ، واعتبر الشأن والواقع أن الله تعالى هو ربي لا غيره (ولا أشرك بربي أحدا) •

(ولَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : ما شاءَ اللهُ ، لا قُوَّةَ إلاّ بِاللهِ ، إِنْ تَرَنِ أنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلداً(٣٩) فعسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ، ويُرْسِلَ عَلَيْها حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أو يُصبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١) وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أَنْفَقَ فِيها ، وهِيَ خَاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ، ويَقُولُ : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً(٤٢) ولَمْ تَكُنْ لَه فِئَةٌ يَنْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، ومَا كانَ مُنْتَصِراً(٤٣) هُنَالِكَ الوَلايَةُ للهِ الحقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وخيْرٌ عُقْباً)(٤٤)

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) حَضٌ للتنديم على ما فرط منه أي لماذا تركت أن تقول (ما شاء الله) أي الامر ما شاءه الله ، أو ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (ولا قوة) على تحصيل أي خير أو تذليل أي شر (إلاّ) : بسبب تأثير (الله) ثم استأنف لمعارضته في بطره ودعوى كبريائه عليه وقال (إن ترنِ أنا أقل منك مالا وولدا • فعسى ربي أن يؤتينِ خيرا من جنتك) في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما (ويرسل عليها) أي على جنتك (حسبانا) مصدر بمعنى المحسوب المقدر من العذاب النازل (من السماء) كحر محرق أو بردٍ ممزق (فتصبح) جنتك (صعيدا)

أي أرضا (زلقا) لا نبات فيها ولا تثبت بها قدم (أو يصبح ماؤها غوراً) أي غائِراً في أعماق الارض (فلن تستطيع له طلبا) أي فلن تستطيع الوصول اليه حتى تطلبه • وقوله تعالى (إن ترنِ) شرط وقوله (فعسى ربي) الى آخره جوابه ، أي ان ترني أفقر منك وأقل مالا وولدا وتطغى عليّ فأنا اتوقعُ من الله على سنته الثابتة لدفع الطّغاة البغاة أن يبدل ما عندي وما عندك فيرزقني لإيماني بهِ جنةً خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك به نعمته بالنقمة والعذاب • وترى إما من أفعال البصر وفاعله مستتر والياءُ مفعوله وأنا تأكيد له ، وأقل حال منه ، أو من أفعال اليقين فأقل مفعول ثان ومالاً وولداً تمييز على الوجهين • وقوله تعالى (وأُحيطَ بثمره) أي وبعد أن جرى ما جرى بينهما من الحوار وافترقا على مابينهما من الشجار أحيطَ بثمر الرجل الطاغي المتكبر الكافر وأهلك أمواله المعهودة من الجنتين وما فيهما • وهو مأخوذ من إحاطة العدو بعدوه أي إستدارته من جميع جوانبه كيلا يفر ويبادَ (فَأَصبحَ يقلب كفيه) أي صار يقلبهما أو مضت عليه ليلة ونزلت على الجنتين مانزل من البلية فأصبح الرجل يقلبهما • ومعنى تقليبها أن يبدي بطن كل منهما ثم يحول يديه حتى يظهر ظهرهما أي فأصبح متندما على ما أنفق فيها أي أنفقه في عرصة جنتيه حتى ظهرت عليها جنتان ، ولذلك أفرد الضمير (وهي خاوية) أي ساقطة (على عروشها) المصنوعة لجمع الثمار ، أو على العروش المصنوعة لبسط أغصان الكروم • أو المراد بالعروش العروق فإن العرش جاء بمعنى قوام الأمر كما في القاموس لأنها أعمدة الأشجار وأغصانها • ويقول متحسراً ومتندماً من حيث لا ينفعه الندم : (يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) قال بعض المفسرين كأنه تذكر موعظة صاحبه المؤمن وعلم أنه أتى به من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يهلك اللهُ بستانه •

واستشكلت الآية بأن ظاهر قول الرجل أنه كان كافرا ملحدا لأنه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة • وأجيب عنه بجوابين :

الأول أنه كان مشركا ، ولما كان المشرك ضعيف العقل ونحيف العقيدة فكلما اضطرب حاله اضطرب مقاله ، وربما ينفي وجود الله ، والعياذ بالله ، فضلا عن الاعتراف بشريكه المزعوم ، وفي نتيجة دمار بستانه رجع الى عقله ووجدانه ، وآمن بربه ورفض الإشراك ولكنه لم يتقبل منه ، لأنه لم يكن عن صفاء ضميره بل من أثر هلاك ملكه وتدميره •

والجواب الثاني : أنه يتبين من الآية الثانية أنه كان لـه اعتراف بالله ولكنه لما طغى وبغى وتكبر على صاحبه واعتمد على نفسه فكأنه جعل نفسه مؤثرا وخالقا لأعماله ، ولذلك قال ولئن رددت إلى ربي لأجدَن خيراً منـه منقلبا ، فاعتبر لهذا مشركا •

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) أي ولم تكـن جماعة مـن الأعوان تقدر على نصره إما بدفع الهلاك قبل وقوعه ، أو برد المهلك بعينـه أو باقامة جنتيه وإعادتهما كما كانتا ، (وما كان) في نفسه (منتصرا) أي ممتنعا عن حدوث ما حدث وطرأ عليه • (هنالك الولايـة لله الحـق) أي هنالك علم وتبين له أن النصرة لله الحق وحده لا يتولاها أحد غيره (هـو) أي الباري تعالى (خير ثوابا وخير عقباً) أي خير من كل ما يتصـور أنـه مثيب نافع ثواباً وعاقبةً لأحبائه• والعقب بضم الاول وسكون الثاني العاقبة •

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً(٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُون زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ،

وَالْباقِياتُ الصالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وخَيْرٌ أَمَلاً(٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرى الأَرْضَ بارِزَةً ، وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً(٤٧) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمونا كَما خَلَقْناكُمْ اَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُم اَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فيهِ ، وَيَقُولونَ : يا وَيْلَتَنا ما لِهذا الْكتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً اِلاَّ أَحْصيها ؟ وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ اَحَداً)(٤٩)

قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) المثل إما بمعنى الشبيه أو الصفة العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل ، أي واذكر لهم ما يشبهها في الزهرة والنضارة وسرعة الزوال • أو اذكر لهم صفتها العجيبة الغريبة • وقوله (كماء أنزلناه) أي هي كماء أنزلناه من السماء (فاختلط به نبات الأرض) أي فنبت به نبات الأرض فاشتبك وخالط بعضه بعضا (فأصبح) أي فصار ذلك النبات الملتف بعد بهجته ونضارته (هشيما) أي يابسا متفتتا (تذروه الرياح) وتفرقه تجيىء به وتذهب به حيث شاءت • وظاهر الآية الشريفة أن المشبه هو شبيه الحياة الدنيا، والمشبه به الماء نفسه، وليس كذلك بل المشبه والمشبه به كلاهما هيئة منتزعة ، الأولى من نمو الإنسان وتصاعده وتطوره من الصبا إلى المراهقة فالبلوغ فالرجولة المعتمدة مع الترقي من الجهل الى العلم على اختلاف مراتبه ، ومن شخصيته الواحدة الى النمو من الزواج وحصول النسل والجاه والمال والحال ثم الوقوف فالذبول فالبؤس والإفتقار والضعف الى المرض فالموت•والثانية من نبت النبات فازدياده في الأقطار والإكثار من الفروع الى حال التكامل ، فإخراج الأوراد أو الثمار ثم

الوقوف عن النمو ، ثم طرو الضعف واليبس والإنكسار الى الانقلاع والتطير بالرياح (وكان الله على كل شيء مقتدرا) وتأثيره في الإبداء والإفناء والإعادة على حد سواء .

ثم استأنف لبيان شأن منشأ افتخار الناس من محسنات الحياة فقال : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وعلى المال تبنى أسباب الجاه والرفعة والمنعة والشأن عند الناس والزواج الموجب للتناسل والبنين والبنات . ولكن الزينة النافعة هي التي توجب سعادة الإنسان سعادة خالدة وهي الحاصلة من الإيمان والأعمال السليمة ، وهي التي تبقى ثمارها ونتائجها لأصحابها كما قال تعالى (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا) أي في الآخرة (وخيرٌ أملاً) حيث ينال بها صاحبها كلَّ خير ينتظره ويؤمله ويبقى له ذلك الخيرُ الى الأبد .

(ويوم نسير الجبال) أي اذكر حال الناس يوم نسير الجبال ، أو أن الباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال ، أي يوم نقلع الجبال من قواعدها في الأرض ونسيرها في الجو ثم نسقطها فتصير كثيباً مهيلا . وظرفيته باعتبار امتداد ما يأتي بعده من أيام الجزاء اللا متناهية من الجنة ونعيمها ولقاء الباري تعالى ورحمته (وترى الأرض بارزة) بعد قلع الجبال مستوية (وحشرناهم) أي الناس الموجودين فوقها المتنعمين بأنواع خيراتها المستعجلة الفانية ، أي جمعناهم في صعيد واحد للحساب (فلم نغادر منهم أحدا) أي لم نترك منهم أحدا (وعُرِضُوا على ربك صفا) أي مُصطفين . روي عن معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ ان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن الله تعالى ينادي يومَ القيامة : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا ، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين . أَحضِروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسئولون مُحاسبون . يا ملائكتي أقيموا عبادي

صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » . وفي الحديث : « يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعي وينفذهم البصر » .وقيل : تقام كل أمة وزمرة صفا (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي ونقول للكافرين المنكرين للبعث منهم : لقد جئتمونا مجردين عن كل ناصر ينصركم وحجة تحتجون بها ، وملجأ تلتجئون إليه ، كما خلقناكم أول مرة (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) وهذا إضراب وانتقال من كلامٍ الى كلام أي بل زعمتم أن لا عود ولا حساب ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب وهذا أوان إدراك ما كنتم تنكرونه .

(ووضع الكتاب فترى المجرمين) كلهم (مشفقين) أي خائفين (مما فيه ، ويقولون) عند اطلاعهم على ما فيه من العقائد الفاسدة والأعمال السيئة : (ياويلتنا ما لِهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ؟) وضبطها بدون إفراط وتفريط فيه (ووجدوا ما عملوا) أي ما اكتسبوه في الدنيا من العقائد والاعمال (حاضرا) مسطورا في الكتاب مفصلا مشروحا زمانه ومكانه وكميته وكيفيته وكل ما اكتنف به من الأدلة والشواهد (ولا يظلم ربك أحدا) بكتابة ما لم يكتسبه أو بكتم ما اكتسبه ، واعتبار الظلم مع أن الله سبحانه وتعالى هو السيد المطلق المتصرف المالك لكل شيىء ولا ينسب اليه الظلم أبدا ، أنه لو فرضنا أنه محاسب لعباده محاسبة اعتيادية من حاكم لغيره لم نجد في كتاب أهل الحساب شيئا غير مكسوب ولا مطلوباً غير مكتوب حتى يقال إنه ظلم فلانا بالزيادة على ما عمل أو إهمال ما فعل ، وكيف لا وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ؟

(وَإِذْ قُلْنا لِلملائِكَةِ : اسْجُدُوا لآدَمَ ، فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ ربِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوليِاءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ

لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠) ما أَشهدتهم خَلْقَ السَّماوات والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً(٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ : نادُوا شُركائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً(٥٢) وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا انَّهُمْ مُواقِعُوها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً(٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكانَ الإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)(٥٤)

قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة) أي واذكر زمان قولنا للملائكة (اسجدوا لآدم) سجود تحية وإكرام (فسجدوا كلهم إلا إبليس) لم يسجد لأنه (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) هذه الجملة نص على أنه كان من الجن وأن سبب فسقه وخروجه عن أمر ربه كونه من الجن وعنصره ساعده في معصية ربه لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون •

وقد تقرر في الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل كقولهم سرق فقطعت يده أي لأجل سرقته وكقولهم سها فسجد أي لأجل سهوه • وأما وجه دخوله في الملائكة فقد قالوا : إن الله أمر الملائكة بقتال الجن فقاتلوهم ووقع في الأسر وبقي فيهم وصار من المتعبدين لكنه بقي فيه بذر الشقاق إلى أن أظهره في ذلك الوقت • وقيل : إنه كان جنيا مجتهدا في العبادة غاية الإجتهاد ، وبسبب دوام طاعته أمره الله أن يدخل في صفوف الملائكة فدخل وصار مقدمهم ومعلمهم وأشدهم اعتصاما بالطاعة ، وكان يعتقد أنه ليس في الأرض والسماء من هو أخلص منه في العبادة ، وبقي على هذه الكبرياء إلى أن جرى عليه ما جرى والعلم عند الله • وما أمرنا بالكشف عن حقيقته

لكن المنصوص أنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، وهذا دليل واضح على أنه لم يكن من عنصر الملائكة ويدل على ذلك أيضا أن له ذرية ، ومعلوم أن الملائكة لا ذرية لهم ولا يحصلون من جهة التناسل بل من جهة الأمر الابداعي .

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) والهمزة للإنكار والتعجيب لأن من خرج عن أمر ربه بعيد عن أن يكرم ويطاع في أوامره لاسيما فيما يكون سببا للابتعاد عن طاعة الله تعالى ، والحال (وهم لكم عدو ؟) أي والحال أنهم لكم عدو فيجتمع فيه وفي ذريته مانعان عن اتخاذهم أولياء . الأول خروجهم عن أمر ربه والثاني عداوتهم لأولاد آدم من جهة أن سبب طرده عن رحمته تعالى امتناعه عن السجود له (بئس للظالمين بدلا !) أي بئس الشيطان من حيث كونه بدلا عن الله عندهم في الولاية والعبادة . ثم بين دناءة رتبتهم وقلة قيمتهم فقال تعالى (ما أشهدتهم) أي إبليس وذريته (خلق السماوات والارض) كناس محترمين وكجمع مكرمين مدعوين للنظر في آثار إدارة ملك وملاحظة معداته المناسبة لسلطنته (ولا خلقَ أنفسهم) أي وما أشهدت بعضا منهم عند خلق بعض منهم على وجه الإعتزاز والإعتبار (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وهذه الفقرة تشم منها رائحة التعليل للجملتين السابقتين يعني أنهم ذوات" شأنهم الإضلال والإخلال والإفساد ، وما كنت متخذا لأمثال أولئك الفاسدين عضداً وعوناً في الخلق . وهذا الكلام إرخاء للعنان ومماشاة مع أهل الكفر والعصيان ، وإلا فأولئك الجمع أي إبليس وذريته أحقر موجود في عالم الوجود ، فكيف يهتم بهم الخالق الواجب الوجود ؟ (ويوم يقول : نادوا شركائي الذين زعمتم) أي واذكر حال الكفار المشركين يوم يقول الله تعالى لهم نادوا شركائي الذين زعمتموهم شركاء لي وشفعاء لكم يوم القيامة (فدعوهم) لإغاثتهم والشفاعة

لهم عن الدخول في النار (فلم يستجيبوا لهم) فلم يغيثوهم (وجعلنا بينهم) أي بين الفريقين من المشركين والشركاء المزعومين (موبقا) أي مهلكا يشتركون فيه وهو عذاب جهنم . وهذا إذا كان الشركاء عبارة عن إبليس وذريته الذين اتخذهم الكفار أولياء من دون الله . وأما إذا كانوا من أهل الخير والطاعة كعزير وعيسى بن مريم المتخذين آلهة وشركاء لله والعياذ بالله فالموبق هو العداوة ، ومعنى الآية الكريمة : وجعلنا بين الفريقين عداوة يعادي بعضهم بعضا . (ورأى المجرمون النار) والرؤية بصرية (فظنوا أنهم مواقعوها) أي وعلموا أنهم مخالطوها وداخلوها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أي مكانا ينصرفون إليه .

(ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس) أي لإرشادهم (من كل مثل) أي كل مثل وأمر مهم يستفيد منه المسترشد ، ومن زائدة فهو كما يقال سيف خطيب يأخذه ولا يستعمله . أو من كل مثل على أن يكون للتبعيض أي ذكرنا لهم في هذا القرآن شيئا من كل باب (وكان الإنسان أكثر شيىء جدلا) أي وكان بحسب جبلته أكثر الحيوانات جدلا ونزاعا ، فذكرت لهم ما يقطع جدال بعض ويقل جدال بعض ولا ينفع بعضا أي بعض ولكننا نذكر ما أردنا أن نذكره إلزاما للحجة عليه .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا(٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا(٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ

ما قَدَّمَتْ يداهُ ؟ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبداً(٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دونِهِ مَوْئِلاً(٥٨) وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنالِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً)(٥٩)

قوله تعالى : (وما منع الناس) استئناف لتوبيخ أولئك المشركين الذين مرت أباطيلهم • فيقول سبحانه وتعالى وما الذي منع أولئك الناس (أن يؤمنوا) بربهم الواحد الأحد ورسوله المبعوث رحمة للعالمين وبالكتاب المنزل عليه لبيان الشرائع والأحكام (إذ جاءهم الهدى من ربهم) أي دليل الهداية ووسيلة الوصول الى أولى المنافع وأجل المكارم وهو القرآن الذي يهدي للتي هي اقوم (ويستغفروا ربهم) بالتوبة عما حدث منهم من العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة (إلا أن تأتيهم سنة الأولين) استثناء من أعم الموانع أي ما منعهم شيىء إلا أن تأتيهم سنة الله تعالى في الأولين بالإهلاك والإبادة أو يأتيهم العذاب (قبلا) بضمتين • أي أنواعا وقرىء بكسر ففتح أي عيانا ومقابلة كما جاءهم يوم بدر (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أي وما نرسلهم مخولين بقلب السماوات والارض وللإتيان بالمقترحات ذات الطول والعرض ، وليست وظيفتهم إلا التبليغ والتبشير والإنذار لأهل الإعتبار وكان حق الناس أن لا ينسوا هذه النعمة العظيمة ويشكروها بالقبول مع أنه يمارس الناس غير الحق(ويجادل الذين كفروا بالباطل) أي بالشيىء الباطل الذي لا حق لهم فيه وذلك لا لغرض سليم بل (ليدحضوا به الحق) ويزيلوه به (واتخذوا آياتي) المبشرات والمنذرات (وما انذروا)

به من العقاب والعذاب (هزوا) أي سخرية واستهزاء • فقد تبين أنهم هم الظالمون وكل ما يأتي عليهم فهو جزاء لظلمهم على أنفسهم بل هم أظلم الناس •

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) المنزلة مع جبريل الامين (فأعرض عنها) فلم يتدبرها ليفهم مغزاها وأنكرها وكفر بها (ونسي ما قدمت يداه) أي نفسه من الكفر والمعاصي • ثم استأنف لبيان سبب ذلك وقال (إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة) جمع كنان بمعنى الغطاء أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحجبهم عن وصول نفحات الحق إليها مانعةٍ لهم مِنْ أن يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) أي وجعلنا في آذانهم ثقلا مانعا عن استماعه (وإن تدعهم الى الهدى) بعد ذلك (فلن يهتدوا إذاً) جزاء وجواب (أبَداً) أي ماداموا في الدنيا مكلفين والسر في ذلك السبب أنهم أبوا وأنكروا وعاندوا وكفروا واستمروا على ذلك وأصروا ومن سنة الله تعالى أن يجزي المتمردين بإبعادهم عن الرحمة أبد الآبدين (وربك الغفور) للناس المذنبين بالذنوب الموجبة للعذاب العاجل بالعفو تارة وبتأجيل العذاب أخرى (ذو الرحمة) على عباده بحكم لا يعلمها إلا هو (لَو يؤاخِذهُم بما كَسَبوا لعجل لهم العذاب) لاقتضاء أعمالهم لذلك (بل لهم موعدٌ) مقرر هو يوم بدر أو يوم آخر (لن يَجدُوا مِن دُونِهِ مَوئلا) أي منجىً منه وليس ذلك سنتنا اليوم بل هي سنتنا الثابتة مر الأعصار والأزمان (وتلك القرى) بلاد عاد وثمود وقوم لوط وبلاد مَنْ قبلهم ومن بعدهم (أهلكناهم) أي أهلكنا العباد وأبَدْنا بلادهم (لما ظلموا) أنفسهم قبل كل أحد بالكفر والامتناع عن استماع الحق ، ثم ظلموا الناس بسفك الدماء ، وهتك الاعراض ، ونهب الأموال ، وسلب الجاه والحال ، وما عذبناهم في تلك الايام باديءَ بدْءٍ ، بل أنذرناهم وأخبرناهم (وجعلنا لمهلكهم مَوْعِدا) ثم بَعدَ مجيء الموعد المؤخر المقرر أتاهم العذابُ المدبر •

(وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتيهُ : لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَو أَمْضِيَ حُقُباً(٦٠) فَلَمّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً(٦١) فَلَمّا جاوَزا قالَ لِفَتيهُ : آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً(٦٢) قالَ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلى الصَّخْرَةِ فَإِنّي نَسِيتُ الحُوتَ وَما أَنسانِيهُ إِلّا الشَّيطانُ أَنْ اذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَباً(٦٣) قالَ : ذلِكَ ما كُنّا نَبْغِ ، فارْتَدّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً(٦٤) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً)(٦٥) •

قوله تعالى : (وإذ قال موسى) هو ابن عمران نبي بني إسرائيل ـ عليه السلام ـ على الصحيح • فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وجماعة من طريق سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : إن (نوفا البكالي) يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل • فقال : كذب عدو الله • ثم ذكر حديثا طويلا فيه الإخبار عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما هو نص في أنه موسى بني إسرائيل• وزعم أهل الكتاب ومن تبعهم أنه ليس موسى المشهور وإنما هو موسى بن ميشا ابن يوسف ابن يعقوب ـ عليهم السلام ـ ، وقيل موسى ابن افرائيم ابن يوسف • ومنشأ إنكارهم شيئان : الأول إنكار أن يتعلم نبيهم ورسولهم وهو من أولي العزم من غيره • والثاني أن موسى بعد خروجه من مصر دخل هو وقومه في التيه وتوفي فيه ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته• والقصة تقتضي خروجه من التيه لأنها لم تكن عندما كان في مصر • وتقتضي القصة غيبته عن قومه أياما ولو وقعت لعلمها كثير من بني إسرائيل الذين

كانوا معه ، ولو علمت لنقلت لتضمنها أمراً غريبا تتوفر الدواعي على نقله ، فحيث لم يكن لم تكن . والجواب أن أخذ الفاضل من المفضول والأعلم من العالم كان ولا يزال يكون وليس بشيء عجيب ، ولاسيما أن ما اختص بمعرفته الخضر ليس على أصول الشريعة الظاهرة ، وإنما هو شيىء ممّا خصه الله تعالى به لحكمته ، وإن كان موسى أفضل منه رتبة وأعلم منه من جهات أخرى . وأن القصة يجوز أنها كانت في مصر بعد إهلاك فرعون وأتباعه الأقباط . وعلى تقدير وقوعها بعد الخروج من مصر يجوز أنها كانت في أيام التيه وكانت له غيبة أياما على وجه خفي على بني إسرائيل أو على وجه كان خارقا للعادة ، أو أنه غاب عنهم وظنوا أنه ذهب الى الميقات لمناجاة ربه على عادته المقدرة المعلومة بينهم . وعلى كل حال فإنكارهم لشيىء وقع بنص ظاهرٍ من الكتاب ليس في محله ولا قيمة له فإنهم ينكرون دين الإسلام من أساسه وينكرون كثيرا من الوقائع المقررة في دين الإسلام فلتكن هذه القصة منها .

وقوله (لفتيه) صلة القول التبليغي ، وفتاه يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف ـ عليه السلام ـ ، وكان ابن أخت موسى وكان يلازمه ويخدمه ويتعلم منه ولذا أضيف إليه . والعرب كانت تقول للخادم (فتى) لأن الخدمة غالبا في زمان الفتوة . وعليه يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي » وقوله (لا أبرح) مقول القول أي لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي بحر فارس والروم ، وهو محل قناة السويس اليوم وملتقى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر (أو أمضي حقبا) أي أسير زماناً طويلاً . والحقب بلغة قريش ثمانون سنة ، وقيل سنة واحدة ، ويجمع على أحقاب كعنق وأعناق . روي أن موسى ـ عليه السلام ـ سأل ربه أي عبادك أحب إليك ؟ قال الذي يذكرني

ولا ينساني قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترد عن ردى . فقال : إن كان في عبادك أعلم مني فادللني عليه . قال : أعلمُ منك الخضر . قال : أين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة . قال : كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك . فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فاخبرني . فذهبا يمشيان .

(فلما بلغا مجمع بينهما) أي مجمع البحرين (نسيا حوتهما) أي نسي موسى ـ عليه السلام ـ أن يطلبه ويعرف حاله ونسي يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر . وهذا قولٌ بأن يوشع شاهد حياته . وفيه خبر صحيح ففي حديث رواه الشيخان وغيرهما « أن الله تعالى قال لموسى : خذ نونا ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح . فأخذ ذلك فجعله في مكتل . فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوتُ قال : ما كلفتَ كثيراً . فبينما هما في ظل صخرة إذ اضطرب الحوتُ حتى دخل البحر وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره » . وفي حديث رواه مسلم وغيره « أن الله تعالى قال له آية ذلك أن تزود حوتاً مالحاً فهو حيث تفقده . ففعل حتى إذا انتهيا الى الصخرة انطلق موسى يطلب ووضع فتاه الحوتَ على الصخرة فاضطرب ودخل البحر . فقال فتاه : اذا جاء نبي الله تعالى حدثته فأنساه الشيطان » وقوله (فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا) أي مسلكا كالسرب وهو النفق . فقد صح من حديث الشيخين والترمذي والنسائي وغيرهم « أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق» والمراد به البناء المقوس كالقنطرة . (فلما جاوزا) أي جاوزا المكان الذي فيه المقصد من مجمع البحرين (قال لفتيه : آتِنا غداءنا لقد لقينا من سفرِنا هذا نصبا) أي آتنا الطعام الذي يؤكل

أول النهار ، والمراد به الحوت على ما ينبيء عنه ظاهر الجواب • لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً واعياءً وافرا • (قال) أي فتاه في جواب موسى ــ عليه السلام ــ (أرأيت إذ أوينا الى الصخرة ؟ فإني نسيت الحوت) كلام فيه تهويل وتعجيب ومعناه : سبحان الله الذي يُنسي الإنسانَ نفسه ويُعميه عما يشاهده فأخبرني ماذا طرأ عليَّ اذْ وَصلنا الى الصخرة واسترحنا ورأيت بعيني ما رأيته من دخوله البحر مع أني نسيتُ أن أذكر قصته لك مع تأكيدك علي (وما انسانيه) بضم الهاء على خلاف العادة لأن ذلك النسيان أيضا كان على خلافها أي وما أغفلني عن بيان حاله إلا الشيطان فانه أشغلني وملأ قلبي ببعض أمور تافهةٍ فتركت بيانه لذلك • وقوله (أنْ اذكره) بدل اشتمال عن الهاء • أي ما أنساني ذكره لك إلا الشيطان (و) حاله أنه (اتخذ سبيله في البحر عجبا) مفعول ثان لقوله اتخذ أي جعل سبيل دخوله وسيره في البحر أمراً متعجبا منه • ويجوز أن يكون حالا أو منصوبا بفعل مضمر أي وأعجب عجبا فيكون الإتخاذ على غير معنى التصيير •

فلما قال له فتاه ما قال جوابا له (قال) موسى ــ عليه السلام ــ : (ذلك) الذي ذكرت لي من أمر الحوت (ما كنا نبغِ) هو الأمر المقصود الذي كنا نطلبه من حيث أن الله جعله علامة على لقاء المطلوب (فارتدا على آثارهما) أي فرجعا على طريقهما الذي جاءا منه (قصصا) أي حالكونهما يقصانه قصصا ، أي يتبعانه اتباعا (فَوجدا عبداً من عبادِنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) قال في أضواء البيان : هذا العبد المذكور في هذه الآية هو الخضر ــ عليه السلام ــ بإجماع العلماء ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك والخضر لقبه ، ولقب به كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه جلس على فروة[1] بيضاء فإذا هي تهتز من

(١) هي قطعة من الارض •

خلفه خضرا فذلك من كلام النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ • وفي المراد بالرحمة في الآية أقوال وفي روح المعاني : والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد اطلقت الرحمة على ذلك في مواضع من القرآن • وهذا قول من يقول بنبوته ــ عليه السلام ــ وفيه أقوال ثلاثة : فالجمهور على أنه ــ عليه السلام نبي وليس برسول ، وقيل هو رسول ، وقيل هو ولي ، وعليه القشيري وجماعة • والمنصور ما عليه الجمهور وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين • قلت: ومن الشواهد المستفادة من الآيات الدالة على رتبته العليا من النبوة أو الرسالة لهجة كلامه في جواب سيدنا موسى ــ عليهما السلام ــ ، فإن من أنصف ولم يأخذه العناد علم أن ذلك النوع من الكلام والإلقاء إلى شخص رسول من أولي العزم كموسى ــ عليه السلام ــ لا يخرج عادة إلا من شخص يعلو على مقابله أو يساويه • أنظر الى قوله تعالى حكاية عن العبد (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟) والى قوله في جوابه : (قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا) •

وأما طول حياته كما هو المشهور بين المسلمين فهو ايضا مجال أقوال ومحل جدال كثير ، ففي تفسير روح المعاني : ذهب جمهور العلماء إلى أنه حي موجود بين أظهرنا ، وذلك متفق عند الصوفية قدست أسرارهم قاله النووي ، ونقل عن الثعلبي المفسر أن الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن أبصار أكثر الرجال • وقال ابن الصلاح : هو حي اليوم عند جماهير العلماء والعامة معهم في ذلك واستدلوا على حياته بأدلة :

منها ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي ــ رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه قال : بينا أنا أطوف بالبيت اذا رجل معلق بأستار الكعبة يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يتبرم

بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك . قلت : يا عبدالله أعد الكلام . قال : اسمعته ؟ قلت : نعم قال : والذي نفس الخضر بيده (وكان هو الخضر) لا يقولهن عبد" دبْرَ الصلاة المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر .

ومنها ما نقله الثعلبي عن ابن عباس قال : قال علي ـ كرم الله وجهه ـ : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع ، فلما وضعته على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لا تغسِلوا محمداً ، فانه طاهر طهر فوقع في قلبي شيىء من ذلك ، وقلت : ويلك من أنت ! فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا أمرنا وهذه سنته ؟ وإذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته : اغسلوا محمدا فإن الهاتف الاول كان إبليس الملعون حَسَدَ محمداً أن يدخل قبره مغسولا . فقلت : جزاك الله خيرا قد أخبرتني بأن ذلك إبليس فمن أنت ؟ قال : أنا الخضر حضرت جنازة محمد ـ صلىالله عليه وسلم ـ .

ومنها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر قال : لما توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت الى الصحابة فقال : إن في الله تعالى عزاء عن كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا وإليه تعالى فارغبوا ، ونظره سبحانه إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر فقال أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ : هذا الخضر ـ عليه السلام ـ .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أن إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما الى مثلها من قابل .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أيضا والعقيلي والدارقطني في الأفراد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « يلتقى الخضر والياس كل عام في موسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هذه الكلمات : ـ بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ـ » .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال : بينما عمر بن الخطاب يصلي على جنازة إذا بهاتف يهتف من خلفه لا تسبقنا بالصلاة يرحمك الله تعالى فانتظره حتى لحق بالصف الاول فكبر عمر وكبر الناس معه ، فقال الهاتف : إن تعذبه فكثيرا عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . فنظر عمر وأصحابه الى الرجل فلما دفن الميت وسوى عليه التراب قال : طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا . فقال عمر : هذا والله الذي حدثنا عنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذا الإستدلال مبني على أنه عني بالمحدث عنه الخضر ـ عليه السلام ـ الى غير ذلك .

وحكايات الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذ منه في سائر الأعصار أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر . نعم أجمع المحدثون القائلون بحياته ـ عليه السلام ـ على أنه ليس له رواية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما صرح به العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ، وهذا خلاف ما عند الصوفية فقد ادعى الشيخ علاءالدين استفادة الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة . وذكر السهروردي في السر المكتوم أن الخضر ـ عليه السلام ـ حدثنا بثلاثمائة حديث سمعه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شفاها .

وفي روح المعاني : قال ابن قتيبة في المعارف أنه ابن ملكان بن فالغ بن عابد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ • ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال ، بيد أن صنيع النووي ـ عليه الرحمة ـ في شرح مسلم يشعر باختيار أنه بليا بن ملكا وهو الذي عليه الجمهور والله تعالى اعلم • والمعروف أن الخضر لقبه كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء •

وفي روح المعاني أيضا : وروى أيضا أنه لما سلم عليه (أي لما رجعا الى الصخرة وقد وجداه هناك) عرفه أنه موسى ، فرفع رأسه فاستوى جالسا ، وقال : ـ وعليك السلام ـ يا نبي بني إسرائيل ؟ فقال موسى وما أدراك بي ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل ؟ فقال : الذي أدراك بي ودلك علي • ثم قال : يا موسى أما يكفيك أن التوراة بيدك ، وأن الوحي يأتيك ؟ قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك •

وذهب جمع الى انه ليس بحي اليوم ، ولهم أدلة استدلوا بها على مماته :

منها أنه قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل وفاته بقليل : « ما من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهي يومئذ حية » • وفي رواية : « لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » •

ومنها أنه لو كان حيا في زمان الرسول لزاره واتبعه وجاهد معه لأن الله أخذ الميثاق من النبيين على ذلك •

ومنها قوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فلو بقي حيا إلى آخر الزمان لكان له الخلود وهو باطل بظاهر الآية إلى غير ذلك من الأدلة وإن كان أقواها ما ذكرناه •

ويجاب عن الدليل الأول بأجوبة ، منها :

أن تلك العبارة الشريفة كناية عن انقراض العصر وفناء جمهرة الناس الذين يعتمد عليهم في تسيير الامور .

الثاني أنه وان جرى على ظاهره من عموم السلب لكنه ما من عام الا وقد خص منه بعض وذلك معلوم عند من تتبع الأدلة العامة ، فليكن مخصوصا بغير الخضر وأمثاله من الشواذ الذين بقوا بعد مائة سنة من تأريخ قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

الثالث : أنه لو بقي على عمومه بلا تخصيص جاز أن يقال إن الخضر لم يدخل في مضمون الحديث الشريف لجواز كونه على البحر لا على ظهر الأرض إذ ذاك .

وعن الدليل الثاني بأن الملازمة الواقعة في دليله ممنوعة ، كيف وسيد التابعين أو يس القرني ـ رضي الله عنه ـ كان موجودا في ذلك الوقت ، ولم ير الرسول ، ولم يزره الى وفاته ثم إنه يجب تخصيص تلك الملازمة بمن لم يكن مشغولا بعمل آخر مشروع لجواز أن يكون الخضر مشغولا بتوفية واجبات مقررة عليه ، واستمر في الوفاء بها فكيف تسعه الزيارة أو الجهاد معه ـ صلى الله عليه وسلم ؟ ولو سلمنا الملازمة فلم لا يقال : إنه زاره مرة أو مرارا ولم يعلم به الصحابة ولم يخبر الرسول عن زيارته لأنه لا يجب عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يخبر الناس بكل ما جرى عنده وبكل من زاره ؟ ألا ترون أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر حذيفة ابن اليمان بوقائع مهمة تقع في المستقبل ولم يخبر بها غيره ولم ينشرها حذيفة أيضا كما لا يخفى على من تتبع شروح البخاري الشريف في كتاب الفتن ؟

وأما الجواب عن الدليل الثالث فهو أن تلك الآية الشريفة تدل على عدم الخلود لأحد ومن ادعى حياته لم يدع خلوده ، وإنما غاية أمره أنه ادعى حياته وطول عمره مدة مديدة بعيدة عن العادة المستمرة • وبعد الشيىء عن العادة لا يدل على استحالته ، فإنا نعتقد أن سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله الى السماء وأسكنه حيث شاء ويبقى الى وقت نزوله في آخر الزمان كما نطق به ما رواه مسلم في صحيحه : « يوشك أن ينزل فيكم بن مريم ••• » الحديث ولا حاجة الى أن نستدل بطول عمر الجن أو أي شخص آخر مدة كثيرة وذلك معروف عند أهل العلم •

وأما الاستدلال على وفاة الخضر بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض » وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم فأين كان الخضر ؟ فاستدلال عليه مقال ، لأن المراد لا تعبد بعد بقوم لهم ظهور في الأعيان ، ونظام في الزمان ، وشهرة بين بني الانسان والا فقد كان على تقدير هلاك العصابة نساء كثيرات وشيوخ كثيرون وأناس مسلمون في غير تلك البقعة ، فكيف يدل على انتفاء المسلم وأهل العبادة في العالم ؟ والحق أنا إذا نظرنا الى اتفاق الطرفين على وجود ذلك العبد وحياته في ذلك الوقت فليس هناك دليل قاطع على موته في وقت خاص إلا استمرار العادة على موت الناس في نحو مائة سنة أو أزيد ، والعادة لا توجب القطع بموته ، بل والاستصحاب دليل على حياته ، ولا سيما الروايات الكثيرة التي تؤيد بعضها بعضا على أنه حي مرزوق موفق للوفاء بالواجبات التي ألقيت عليه ، وأن اجتماع كثير من الصلحاء على أنه حي مما يغلب على الذهن حياته الى وقته المقرر المقدر ، ولا تغتر بمن تأخذه العصبية الخالية عن كل إنصاف والداعية الى الحكم بموته مع أن أدلة الطرفين لا يوجب القطع في الموضوع ، لا بالسلب ولا بالإيجاب ، وليس

شيء منهما من الامور الاعتقادية المهمة المقصودة في الدين فإن كان ميتا فإلى رحمة الله ، وإن كان حيا فهو في أداء ما في ذمته من أوامر الله . ومن آمن بأنه كان حيا ومأمورا بخرق سفينة المساكين العاملين في البحر لمصلحة ما ، وبقتل الصبي المعصوم لحكمة في علم الله ، وبإقامة جدار اليتيمين بلا أجرة ولا بدلٍ يصل إليه في وقت الحاجة الى لقمة طعام أو شربة ماء ، وتيقن أن هذه الامور تحققت في الواقع على رعاية أمر الله علم أن وجود رجل بهذه الصفة من نوادر الزمان والأيام وأن بقاءه زمانا طويلا ليس بأعجب من حدوث هذه الامور في الأذهان والأفهام .

(قالَ لَهُ مُوسى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟(٦٦) قالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً(٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلىمالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً(٦٨) قالَ:سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً(٦٩) قالَ : فإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)(٧٠)

قوله تعالى (قال له موسى) إستئناف لبيان ماجرى بينهما بعد الالتقاء. فيقول قال موسى للخضر ـ عليهما السلام ـ بعد التفاهم والتعارف : (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت) أي هل تأذن وتجيز لي أن أتبعك وأصاحبك في السفر والحضر والمقام والمجلس وأعيش معك عيشة التلميذ مع الأستاذ المعلم له (على) شرط (أن تعلمني) وتبذل تعليمك إياي فيما يمكن ان اتعلمه (مما علمت) من العلوم اللدنية القابلة للتجاوز إلى الغير ، وذلك لأجل (رشدي) وإصابتي لخير صالح لي في ديني ودنياي وفي معاشي ومعادي ؟

فإن قيل كيف يتعلم موسى ـ عليه السلام ـ وهو صاحب التوراة ومن أولي العزم ومن الرسل البارزين على صفحات الايام من رجل غاية أمره أنه نبي لم يرسل أو رسول لم تتبين رسالته ومقامه وأنه أعلم من موسى ؟ قلنا : يختص برحمته من يشاء وفوق كل ذي علم عليم ، وعلوم الله متوفرة لا تحصيها ضابطة ، وما أوتينا من العلم إلا قليلا • ويجوز أن يختص الخضر بعلوم لدنية ممتازة عما أوتي الخضر • وهذا الفارق تجده كثيرا بين المعاصرين من علماء الزمان ، فكم من عالم متفرد بعلم أو علوم ليس منها عند غيره كثيره ولا قليله ؟

(قال) الخضر في جوابه (إنك لن تستطيع معي صبرا) أتى بحرف التأكيد ولن النافية البليغة ونفي الإستطاعة لأن الصبر على المشاق ومعرفة أسرار ما يختلج في قلب الطالب موقوف على طاقة قوية واستطاعة مهمة فإذا انتفت الطاقة انتفى ما يبنى عليها من الصبر ، فنفي الصبر كنفي رفع المتاع من صاحب يد ضعيفة ، ونفي إستطاعته كنفيه ممن لا يد له ، وسر ذلك أن أعمال الخضر كانت مخالفة ومباينة للشريعة السماوية الإعتيادية الجارية بين الأنام وموسى أرسل بتلك الشريعة ، فاستطاعة صبر موسى عليها كاستطاعة من لا يد له على حمل المتاع حيث لا علم له بمباديء هذه الأعمال وأسرارها، ولذلك عقبه بقوله (وكيفَ تصبرُ على ما لم تحطْ به خبرا ؟) إيذانا بأنه يتولى أمورا خارجة عن نظام شريعة موسى ، وصاحبها لا يتمالك الصبر على ما يخالفها •

(قال) موسى : (ستجدني إن شاء الله صابرا) على ماأراه معك بلا اعتراض (ولا أعصى لك أمر) أي شيئا مما تأمرني بعمله • أو إطاعة أمر يصدر منك عليّ في أي شيء أردته • وذكر المشيئة إن كان للتبرك فبها ونعمت ، وإن كان للتعليق فهو من غاية التوفيق حيث يسد باب الكذب

عليه في وعـده بإطاعته له • (قـال) الخضر ــ عليه السلام ــ : (فـإن اتبعتني) يا موسى (فلا تسألني عن شيىء) أي مما تشاهده مـن أعمالي فضلا عن المناقشة معي (حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أبدي لـك بيانا على ما تعلق بـه العيـان •

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينَةِ خَرَقَهـا • قَـالَ : أَخَرَقْتَها لتُغْرِقَ أَهْلَها ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً !(٧١) قالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرا ؟!(٧٢) قال:لا تُؤاخِذْني بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْري عُسْرا(٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَـهُ ، قَـالَ أَقَتَلْتَ نَفسـاً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً !)(٧٤)

قوله تعالى : (فانطلقا) أي الركنان في الموضوع • وهما المعلم والمتعلم ولم يضم إليهما يوشع لأنه بعد لم يرفّع • أخرج البخاري ومسلم وغيرهمـا عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ انهما انطلقا يمشيان على ساحل البحـر فمرت بهما سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهما بغـير نول أي أجرة (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) أي ركبـا في السفينـة المعهودة بين الناس في الإناقة وحسن الصنعة لم يمر في ذلك الوقت سـفينة أحسن منها • ويروى أنها كانت ذاهبة الى (ايلة) فلما دخلاها لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواحها بالقدوم ، فـ (قال) موسى : (اخرقتهـا لتغرق أهلها ؟) أي لغرض أن تغرقهم ولا يصلح ذلك لك حيث إنك من أهل التقـوى ، أو حتـى يغـرق أهلهـا ولـو لـم تـرد ذلـك فإنـه أيضا مصيبة تحدث هناك وعلى كلتا الحالتين (لقد جئت شيئا إمْـرا) أي داهيا منكرا (قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ؟!) وهو تذكير لما

ألقاه إليه أول الأمر (قال : لا تؤاخذني بما نسيت) إعتذار بنسيان الوصية أي لا تؤاخذني بنسياني للوصية التي وصيتها بي فإن أول الناس أول ناسٍ . أو لا تؤاخذني بفعل اعتراض نسيت الوعد بتركه (ولا ترهقني) أي ولا تحملني (من أمري) وهو اتباعك مع السمت والسكوت (عُسْرا) اي صعوبة وهو انجاز الفراق بما لا يطاق (فانطلقا) الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة وانطلقا وهما يمشيان على الساحل ، كما في الصحيح . وفي رواية مرا بقرية (حتى إذا لقيا غلاما) يلعب مع الغلمان واسمه كما روي جيسور وكان أحسنهم (فقتله) وفي طريق القتل روايات أقربها أنه أخذه وضرب رأسه بالجدار فمات . (قال) موسى لما رأى ما رأى منه مستنكرا لعمله : (أقتلت نفسا زكية) أي طاهرة من الذنوب لم يبلغ زمان الكلفة وقوله (بغير نفس) أي بغير قصاص نفس عليها وكان القصاص على الصغار في تلك الشريعة ، وقد نقل البيهقي في كتاب المعرفة : أنه كان في شرعنا ـ أيضا ـ قبل الهجرة ، ثم نسخ . (لقد جئت شيئا نكرا ؟!) أي جدّ منكر .

الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبرا ؟! (٧٥) قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً(٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ، فَأَقَامَهُ ، قَالَ : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ؟(٧٧) قَالَ : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)(٧٨)

(قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ؟!) وزيادة لك في هذه المرة لزيادة المكافحة والمصارحة له بالعجز عن صحبته • (قال : إن سألتك عن شيىء بعدها فلا تُصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) أي بلغت الى الغاية القصوى في الأسباب التي تعذر بسببها في مفارقتي حيث خالفتك مرارا (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) الجمهور على أنها بلدة أنطاكية (استطعما أهلها) وكانوا لئاماً (فأبوا أن يضيفوهما) غاية في اللؤم (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط من قدمه واختلال بنائه • والإرادة مجاز مرسل عن القرب منه (فاقامه) الخضر بيده (قال)

موسى : (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تتقوى به على المعاش لاسيما في هذه البلدة البعيدة عن الكرامة والانتعاش (قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) من تلك الاعمال الصادرة مني الموافقة لدستورنا والمخالفة لما أنت عليه من الشريعة السماوية .

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا(٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا(٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا(٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)(٨٢)

قوله (أما السفينة) شروع في بيان تأويل الأعمال التي باشرها وتسببت في استنكار موسى ـ عليه السلام ـ لها فقال (أما السفينة) أي التي خرقتها (فكانت) ملكا (لمساكين يعملون في البحر) ويتعيشون بما يحصل من أجرة حمل الركاب وأمتعتهم في الذهاب والأياب (فأردتُ أن أعيبها) أي أجعلها ذات عيب بالخرق ، ولم أرد إغراق أهلها كما زعمت لأني كنتُ عالما بأن الملك الظالم يمر عليها قريبا ويتركها لوجود العيب فيها ويصلحها أصحابها قبل دخولها في الأمواج والأماكن التي يحصل منها خطر دخول الماء فيها وغرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة) أي كل سفينة

حسنة غير معيبة وبرؤية العيب فيها خلصت من الغصب • ولما كان العيبُ من الأمور الغير المحمودة نسب إرادته الى نفسه لصيانة جانب قدسه ، وإن كان العيب والكمال كلاهما كمالاً بالنسبة الى انه آثار شخصه، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟) وهذا العمل وإن كان بظاهر الحال مقبوحا فهو بالنسبة الى المآل ممدوح لأن من اغتصّ بالتمر وكان مضطرا في كشف الامر استسهله بشربة من الخمر ، فالفاسد صالح للخلاص من الأفسد ، وهذا عينُ الحق والرشد • (وأما الغلام) الذي قتلته (فكان أبواه) أي أبوه وأمه على سبيل التغليب كالقمرين والعمرين (مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أي فخفنا خوفا شديدا أن يحمل هذا الولد السيىء الاخلاق في كبره أبويه اللذين يسخران لأمره طغياناً عن الحدود ، ومجاوزةً عن شريعة المعبود ، وكفراً بالله الواجب الوجود •

ونسبة الخوف إليه تعالى لمجاورة أهل العرف إذ لا خوف يجري على من هو مسلَّط على كل أمر ، أو معنى الخشية العلم أي فعلمنا أنه على تقدير بقائه في بغيه وارتقائه أن يغشيهما ماذكرناه ، وخلقه مع علمه بحاله من أسرار القدر وإلا فيردُ مثلُ ذلك على خلق الكفار من الجن والبشر (فأردنا أن يبدلهما ربهما) أي ذينك الأبوين (خيراً منه) أي من ذلك الولد الطاغي المنفور عنه (زكوة) أي طهارةً في القلب (وأقرب رحما) أي رحمة وشفقة للأبوين • والتفضيل عائد إلى اعتبار أصل الرحمة ووجودها غريزةً في كل ولد • ونسبةُ الإرادة الى نفسه مع جانب قدسه لأن المأمور المختص يعتبر نفسه من عداد الآمر ، ولما كان المتعلق من المحسنات علقها بها وأسندها إلى فاعلها (وأما الجدار) المشرف على السقوط الذي اقمته (فكان لغلامين يتيمين) مات أبوهما وهما دون البلوغ (في المدينة)

التي أبت من عزّ التضييف (وكان تحته كنز لهما) أي مال مدفون من ذهب أو فضة ، كما أخرجه البخاري في تأريخه • والكنز مصدر بمعنى المكنوز • ولو سقطَ الجدارُ على قاعدته لظهر ذلك الكنز واستولى عليه غيرهما (وكان أبوهما صالحا) مستحقا لأن يتولاه ربّه ويحفظ ما يرتبط به من أموره وضياعه وظاهر الآية هو الأب الذي ولدهما • وروي أنه كان الاب السابع والله واسع الرحمة (فأراد ربك) الذي رباك على نظارة أعدى أعْدائك حيث أراد بك النمو والارتقاء على مدارج الإصطفاء (أن يبلغا) أي اليتيمان (اشدهما) أي سن الرشد والقوة في العقل (ويستخرجا كنزهما) بايديهما مع الصيانة بعد ملاحظة الأوراق الموجودة في صندوق الوالد الصالح (رحمة من ربك) مفعول له لقوله أراد (وما فعلته عن أمري) أي عن رأيي واجتهادي (ذلك) الذي ذكرته لك (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أي لم تستطع وهو من باب الإستفعال مضارع استطاع بهمزة الوصل ، وأصله استطاع ، وقد تحذف التاء تخفيفا ، وحذفها هنا إشارة الى أن وقت صحبتنا ضيق يناسب الحذف والإختصار •

فإن قلت : هب أن سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ قبل ذلك التأويلَ من صاحبه الخضر لأن الله سبحانه وتعالى ذكرَ له أنه عبد من عباده وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، ولكن كيف يمكن لنا أن نقبل الأعمال المخالفة لظاهر الشريعة ، معَ أن الشرائع كلها اتفقت على وجوب صيانة الدين والنفس والعرض والعقل والمال ؟ وأنا اذا قبلنا فتح مثل ذلك الباب على الناس لم يبق احترام للدين وأصوله • وقد صرح القطب الرباني الشيخ عبدالقادر الكيلاني ــ قدس سره ــ بأن جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله ورسوله ولا يعملون إلا بظاهرهما • وقال سيد الطائفة الجنيد نور الله روحه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثرَ الرسول ــ عليه

الصلاة والسلام ـ • وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا العلم لأن عِلمنا مُقيد بالكتاب والسنة • وقد صرح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ـ قدس سره ـ في المكتوبات في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يحل حراما ولا يحرم حلالاً ، ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن • وقال أيضا في المكتوب السادس والثلاثين من المجلّد الاول أيضا : للشريعة ثلاثة أجزاء : علم ، وعمل وإخلاص • فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة ، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى وهو فوقَ جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر) فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ولم يبق مطلب وراء الشريعة ، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الإخلاص ، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك • وقال رحمه الله في المكتوب التاسع والعشرين من المجلد المذكور بعد تحقيق كثير : فتقرر أن طريق الوصول الى درجات القرب الإلهي جل شأنه سواء كان قرب النبوة أو قرب الولاية منحصر في طريق الشريعة التي دعا إليها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم وصارت مأمورا بها في آية (قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعنى) وآية (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) تدل على ذلك أيضا ، وكل طريقٍ سوى هذا الطريق ضلال ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة • إنتهى كلامه •

والذي ينبغي أن يعلم أن كلام العارفين المحققين وان دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة لكنه يدل أيضا على أن في الحقيقة كشوفا وعلوما غيبية ولذا تراهم يقولون : علم الحقيقة هو العلم اللدني وعلم المكاشفة وعلم الموهبة وعلم الاسرار والعلم المكنون وعلم الوراثة إلا

أن هذا لا يدل على المخالفة فإن الكشوف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة فهي بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها • ومع هذا لا تغير تلك الكشوف والعلوم الغيبية حكما شرعيا ولا تقيد مطلقا ، ولا تطلق مقيدا فاحفظ هذا فالحفظ مبارك وحبذا •

قلت في الجواب : إن ما قلتم هو الحق والصواب ولا يفتح لأي إنسان ذلك الباب وكلما وجدنا شيئا مخالفا للكتاب والسنة وإجماع الأمة ولم تشمله أصول الأقيسة الجلية والاستدلال أنكرناه ورددناه على صاحبه، ألا ترى أن سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ لما رأى ما فعله الخضر ــ عليه السلام ــ مخالفا للشريعة التي نزلت عليه أنكره ورده عليه مع أنه كان من المناسب أن يصبر عليه ويسكت لأن الله هو الذي دله عليه وأرشده إليه ولكنه مع ذلك لما غلبته حرارة الشريعة والغيرة على الدين ما صبر بل رد وانكر نعم بعدَ أن بين له الخضر ــ عليه السلام ــ أسباب أعماله وأنه ما فعله عن أمره بل كان بأمر وارد من الله الواحد سكت عليه وفارقه ، فظهر أن لله تعالى سنتين : سنة شرعية ، وسنة عرشية • أما السنة الشرعية فهي في شريعته المنزلة على رسله الكرام من آدم إلى الخاتم ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكلما رأى صاحب الشرع ما خالفه أنكره وحوله الى دار القضاء ليطبق عليه الحكم فالجزاء • وأما السنة العرشية فهي تنفيذ ما أراده بقدرته وله مأمورون على تطبيقها من الملائكة والجن والسباع والحشرات والرياح والسيول والزلازل والطوفان والأمراض والآفات ••• وما يعلم جنود ربك إلا هو • فكما أنه لا مجال لإنكار ما يحكم به في الأرض والسماوات من الكسوف والخسوف وتدمير البلاد بالبركان والزلازل ، وإهلاك العباد بالطوفان والسيول والأمراض الفتاكة والحروب المدمرة وقتل النساء والأطفال والرجال والغلاء والقحط وسائر البلايا الخارجة من الأرض أو

النازلة من السماء ، ولا ينكر عليه إرسال الملائكة بالويل على قوم وارسال عزرائيل لقبض أرواح آباء وأمهات وترك الأطفال في ويلات ، كذلك لا ينكر عليه في إرسال عبد من عباده اخذ بتعليمه وإرشاده لخرق سفينة أو إهلاك واحد من الصغار ، أو إقامة جدار للدار ، مع أن اقامة الجدار إحسان لا ينكر وخرق السفينة من دفع الأفسد بالفاسد وهو الاصل المعتبر غير أن قتل الصغير فيه تعجيب لاهل التفكير . وعلى كل فنحن نؤمن بأن الخضر ـ عليه السلام ـ كان وليا مطيعا لربه في تنفيذ الاحكام أو رسولا برسالة خاصة كما للملائكة ونفذ ما أمر به الملك العلام والشرع أنكر عليه كما جرى لموسى ـ عليه السلام ـ وينكر على غيره ما يخالف ظاهر الإسلام . والله هو الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(وَيَسْئَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ . قُلْ : سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً(٨٣) اِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً(٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً(٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً ، قُلْنَا : يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ، وَإِمَّا اَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً(٨٦) قالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً(٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ اَمْرِنَا يُسْراً)(٨٨)

قوله تعالى (ويسألونك عن ذي القرنين) كان السؤال على وجه الإمتحان والسائلون في المشهور قريش بتلقين اليهود . وقيل : اليهود

أنفسهم . واختلف في شخص ذي القرنين على أقوال أشهرها وأقربها أنه : أسكندر ابن فيليبيس بن مهريم بن هرمس اليوناني . وكان سرير ملكه مقدونيا ، وهي اليوم مقاطعة في اليونان . وهو الذي غلب على (دارا) مَلِكِ الفرس وتزوج ابنته ، وقتل الرجل الفارسي الذي قتل دارا وجاء ليأخذ الجائزة منه وأظهر كرما وشجاعة وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة وثلاثين سنة ، وقد تولى الملك بعد أبيه ، وقد كان تلميذا لأرسطو ، والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه في السياسة ذلك أنه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالا ذوي شجاعة ووجاهة وأبهة وجمال من أبناء الملوك والأمراء فأراد قتلهم فاستشار أستاذه فأرسل إليه أن لا فضل في قتلهم وأن قتل الرؤساء تؤجج النار في قلوب الأمة ولا تخمد ، وأمره أن ينعم عليهم ويعطي كلا منهم ملك أبيه ، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائما ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوبا فمشى على تلك السياسة . وبنى الأسكندرية بمصر وعاش ثلاثا وثلاثين سنة ، واستولى على الغرب والشرق ، ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل إلى بلاده والمشهور أنه مات في العراق ، قيل في قلعة مركز ناحية كولعنبر (خورمال) ، وقيل : في قصبة الاسكندرية غربي بغداد الآن . ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي أسسها . هذا رأي .

وهناك رأي آخر قاله أبو الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بـ (الآثار الباقية من القرون الخالية) أنه من حميرَ واسمه أبو كرب ابن أفريقش ، وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فمنها إلى تونس وغيرها ، فسميت القارة كلها باسم (أفريقيا) هذا ملخص ما قاله العلماء .

وانما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس ، أو لأنه كان على رأسه من شعره ضفيرتان ، أو لأنه كان على تاج رأسه مادتان عاليتان من الجواهر تشبهان القرنين •

(قل) في جواب السائلين عن ذي القرنين (سأتلو عليكم منه ذكراً) أي قرآنا نازلا من الله سبحانه وتعالى • ثم شرع في تلاوة الذكر فقال : (إنا مكنا له في الارض) أي جعلنا له قدرة وقوة من حيث : التدبير والرأي ، وكثرة الجنود والآلات الحربية ، وتنظيم الجيش ، وتوفير المعيشة ، وتقوية المعنويات ، والتدريج في الحركات ••• (وآتيناه من كل شيء) علما وعملا وصنعة ومالا ومعدات وأفرادا وآراء (سببا) أي طريقا يوصله إليه (فاتبع سببا) يوصله إلى مقصوده ، ولم يهمل ما آتيناه من جيشه وجنوده وغير ذلك ، فتحرك نحو اليمين واستولى على البلاد والعباد (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أي منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يقدر أحد على مجاوزته لكونه بحرا محيطا مائجا ليس فيه المعمورة الأرضية القريبة حتى يصل إليها الجيش بسهولة (وَجَدَها تغرب في عينٍ حَمِئة) أي ظن أن الشمس تغرب في مادة ذات حمأة وهي الطين الأسود وذلك لأن البحر كان واسعا لا يرى منتهاه والشمس عند غروبها فيه يتكدر محل غروبها كأنه ماء أسود، أو لأن قرص الشمس منعت عن رؤية ما تغرب فيه فيرى أسود مظلما (ووجد عندها) أي عند تلك العين أي المادة المائية على الساحل (قوما) ألبستهم من جلود السباع وأطعمتهم ما يلفظه البحر من الأسماك (قلنا : ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) والقول مفسر بالإلقاء في القلب بالتفكير السليم أو بالإلهام إن كان صالحا عابدا لله ، أي فهمناه أن القوم قوم فاسدون ، وقد باشروا أمورا يستحقون عليها العذاب لمخالفتهم لما ألقي إليهم من النصائح المشروعة ، فأمرك الان أحد شيئين : إما أن تعذبهم بلا

مهلة لاستحقاقهم السابق الثابت ، وإما أن تتخذ فيهم حسنا أي وجها ذا حسن ؛ وهو دعوتهم الى التوبة عن الإفساد والرجوع الى الحق والرشاد (قال) ذو القرنين بعد أن أفهم ذلك لأولئك القوم (أما من ظلم) نفسه ولم يقبل دعوتي ولم يتوجه الى الحق (فسوف نعذبه) بالقتل (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) أي منكرا فظيعا لائقا بالكافرين (وأما من آمن) بالله (وعمل صالحا) على موجب دعوتي (فله) في الدارين (جزاء الحسنى) أي فله المثوبة الحسنى جزاءً له (وسنقول له) مادام حيا (من أمرنا) أي مما نأمر به (يُسرا) أي سهلا مُيَسَّراً غير شاق عليه • فمن عصى وخالفه نال العقاب أو فرَّ من ذلك المكان ومن أطاعه فاز بالخيرات •

(ثم أَتْبَعَ سَبَباً(٨٩) حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْرا(٩٠) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً(٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً(٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوماً لا يَكادُونَ يَفقَهُونَ قَولاً(٩٣) قالُوا : يا ذَا القَرْنَيْنِ اِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى اَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟(٩٤) قالَ : ما مَكَنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً(٩٥) آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ ، حَتَّى اِذَا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ، قالَ : انْفُخُوا ، حَتّى اِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ : آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرا(٩٦) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَما اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً(٩٧) قال : هذَا رَحْمَةٌ

مِنْ رَبِّي ، فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاءً ، وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً(٩٨) وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً(٩٩) وعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرينَ عَرْضاً(١٠٠) الَّذينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وكانُوا لا يَسْتَطِيعونَ سَمْعاً)(١٠١)

قوله تعالى (ثم أتبع سببا) أي طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا إلى مشرقها (حتى إذا بلغ مطلعَ الشمس) يعني الموضع الذي تطلع منه الشمس أولاً من معمورة الارض بالنسبةِ الى أهل المغرب (وجدَها تطلعُ على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) أي لباسا • يعني أنهم كانوا بعيدين عن التمدن ، وعمل النسيج والحياكة فألبستهم إما من جلود السباع وكانت قليلة نادرة ، أو كانت حرارة من الشمس تأتيهم كالفقراء في أوقات البرد يتدفأون بها من البرودة ، ومعلوم أن ذلك كان في وقت الحاجة الى اللباس من وقت الخريف والشتاء ، أو لم تكن لهم أبنية يسكنون فيها كما قيل وهو في غاية البعد ، لأن تلك البلاد كانت قابلة لحفر السراديب ورفع الابنية بها إلا أهل الجزر البحرية فإنهم ما كانوا يبنون بها لكثرة الأمواج والجزر والمدّ الذي تتسبب في هدم الأبنية •

وجعل العبارة كناية عن فقر حالهم وقلة أموالهم أولى وأنسب لأن نظير العبارة دائر في زماننا أيضا بالنسبة الى بعض الناس ، فيقال : فراشهم الأرض ولحافهم السماء •

(كذلك) أي أمر ذي القرنين في بلوغه أقطار الأرض ذلك (وقد أحطنا بما لديه) من الجنود والمعدات والأرزاق (خبرا) أي علما ولا يعلم به غيرنا لكثرته وخروجه عن الإحصاء المعتاد لغالب العباد •

(ثم أتبع سببا) أي سلك طريقا ثالثا متوجها نحو الشمال (حتى إذا بلغ بين السدين) أي بين الجبلين الآتي أحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب المتقاربين وبينهما فتحة يعبر منها العابرون من الجنوب الى الشمال وبالعكس • وكان وراءهما من الناحية الشمالية الباردة جدا قوم متوحشون كما قال تعالى (وجدَ من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) أي وجد ذو القرنين بوسيلة الإستعلامات العسكرية وراء السدين قوما في غاية الوحشية والغباوة لا يكادون يفقهون قولا يقال لهم لأجل التفاهم ، أو لبعدهم من الناس الآخرين وعدم احتكاكهم بهم ، أو لشرارة طبعهم فإنهم كانوا بحيث يتحاشى الناس عن الوصول إليهم للخوف من صولتهم وقساوتهم وهجماتهم •

(قالوا) أي قال الذين من دونهم ، أي القوم الذين تقرب بلادهم من بلادهم وهم الصينيون الساكنون في القرب من فتحة الجبلين الذين كانوا يتأذون من صولاتهم من وراء الجبلين عليهم : (إن يأجوج ومأجوج) أي إن القوم الذين اشتهروا باسم يأجوج إذا عُرِبَ عنوانهم ، وهم قبيلتان من أولاد يافث ابن نوح ـ عليه السلام ـ ، ويعرفون بالمغول في تعداد أسماء الأمم في الأرض ويسكنون في الشمال الشرقي من قارة آسيا (مفسدون في الأرض) أي في أرضنا بالقتل وأخذ الأموال والارزاق والتعرض للأعراض • قيل : انهم كانوا يخرجون عندما انكشفت الثلوج والحواجز أمامهم إلى البلاد المجاورة الجنوبية فيغيرون عليهم ويقتلونهم ويأخذون مالديهم كالوحوش الضارية الواصلة الى المواشي الضعيفة (فهل نجعل لك خرجا) أي خراجا وجُعْلاً من أموالنا (على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟) •

(قال) ذو القرنين في جوابهم : (ما مكّنّي) بتشديد الكاف وادغام نون اللام في نون الوقاية من باب التفعيل ، وقرىء مكّننّي بالفك (فيه ربي) أي جعلني مكينا قادرا عليه (خير) أي مما تريدون أن تبذلوه لي من الخراج ، فإن صاحب شرف التاج يضع عن الامة الخراج ولا يجعل عليهم ما يوجب الإحراج (فأعينوني بقوة) وعمل يدوي تتقوى به على المقصود (أجعل بينكم وبينهم ردما) أي حاجزا حصينا وحجابا منيعا يسد عنهم طريق الوصول إليكم بسهولة ، فإني آمر الصنّاع يذيبونَ الحديد ويصبونه في القالب كاللبنات وأبني به السدّ فـ (آتوني زبر الحديد) أي قِطَعِ الحديد المصبوبة فأتوه بِهِ بَعد الصنع (حتى إذا ساوى) أي عمالهُ البناؤن (بينَ الصدفين) أي جعلوا ما بين الجبلين مملوء من المواد الحديدية بحيث ساوى السد الجبلين يمنة ويسرة في العلو ، وبعد إكمال هذه العملية وضع المنافخ على المواد الحديدية بالطرق العامية (قال) للعمال : (انفخوا) بالمنافخ في زبر الحديد الموضوعة بين الجبلين (حتى إذا جعله نارا) قال (آتوني) أيها المتولون أمر النحاس قطرا أي نحاسا مذابا (أفرغ عليه قطرا) أي نحاسا مذابا فصار السد جبلا حديديا نافذا في جانبي الجبلين مساويا لهما في الإرتفاع غالبا عليهما في الملاسة والإمتناع من تنفيذ وسائل الصعود والإرتفاع (فما اسطاعوا) أي فما استطاع يأجوج ومأجوج (أن يظهروه) أي يعلوا عليه (وما استطاعوا له نقبا) أي فتح منافذ فيه للصعود عليه أو للخروج منه كالباب الى الناحية الجنوبية مما يلي الصين . فخلصوا من إفسادهم بتوفيق الله ذا القرنين على صنعِ السد في البين .

(قال) ذو القرنين بعد ذلك : (هذا) السد وبناؤه (رحمة) عظيمة (من ربي) أفاضها عليّ لنيل لسانِ الصدق في الآخرين والمثوبة الحسنى يوم الدين ، وعلى الصينيين الساكنين في تلك الأصقاع لحفظهم من شر

المفسدين (فإذا جاء وعد ربي) أي وقت وعده بعبور المفسدين من ذلك الطريق (جعله دكاءً) أي أرضا مستوية (وكان) ولم يزل (وعد ربي حقا) ثابتا واقعا لا محالة •

(وتركنا) أي صيرنا (بعضهم) أي بعضا من قوم يأجوج ومأجوج يومئذ (يموج في بعض) أي يدخل في بعض وراء السد في بلادهم لسدّ طريق الخروج عليهم (ونفخ في الصور) أي وسيأتي ويقرب وقت النفخ في الصور لخراب العالم (فجمعناهم جمعا) أي فنجمعهم عند ذلك جمعا للحساب على ما فعلوا بالأمم المجاورة وعلى ما ارتكبوا من فظائع الأعمال من القتال والهتك والدمار في البلاد والعباد (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أي وأظهرناها لهم بلا خفاء واشتباه (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) أي في حجاب ساتر عن رؤية آياتي التي ينظر إليها فيسترشد بها ويؤخذ بها طريق الايمان والاعمال الصالحة والإخلاص (وكانوا) مع وجود الغطاء على عيونهم (لا يستطيعون سمعا) أي ليس عندهم استطاعة استماع لآياتي البينات •

وإذا ذكرنا الآية التي فيها بحث يأجوج ومأجوج فلا بأس أن ننقل لكم عبارة المفسر طنطاوي الجوهري للإطلاع على بعض المفاهيم • قال في هذا الموضوع : لقد كتب كاتب هندي حوالي سنة ألف وثمانمائة وتسع وتسعين ١٨٩٩ ميلادية في مجلة (الهلال) يسأل علماء مصر والشام : أين يأجوج ومأجوج ؟ وهل هم موجودون ؟ وإذا كانوا موجودين فأين هم ؟ والناس قد اطلعوا على أحوال أكثر الشعوب في الأرض وهل قول الله تعالى يتغير ؟ واذا كان قول الله حقا وصدقا فأين هؤلاء ؟ وقد كرر هذا الموضوع مجلة الهلال ثلاث مرات فلم يجب أحد” • وقد كنت إذ ذاك في أول خدمتي في المدارس المصرية بصفة مدرس ، وكان لي إلمام بهذا الموضوع ولم أكن اطلعت على ما كتبته في اللطيفة الاولى كما ذكرته لك فكتبت ما يأتي

وأرسلته الى مجلة الهلال ، وهذا أول موضوع كتبته ونشر في الجرائد فأحمد الله أنني وفقت أن أسير في تفسير القرآن اليوم سنة ألف وتسعمائة واربع وعشرين (١٩٢٤) وإني أضم هذا الموضوع إليه بعد نشره في الجرائد بأمد طويل فهاكه :

فكتبت المقالة الثامنة التي كتبتها في كتابي نظام العالم والأمم : يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى (قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) وقال في سورة الأنبياء قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون • واقترب الوعد الحق •••) الآية فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحا عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به ، ولنحصره في خمسة مباحث : المبحث الاول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج • المبحث الثاني في إفسادهم في الأرض ، ويستلزم ذكر تأريخهم • المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج ، وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك • المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين • المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق •

المبحث الاول :

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح ، مأخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم • وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم أن أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له (ترك) وهو نفس الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج ، وهم كانوا يشغلون

الجزء الشمالي من آسيا تمتد بلادهم من (التبت والصين) إلى المحيط المنجمد الشمالي وتنتهي غربا بما يلي بلاد التركستان كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الاخلاق) وفي رسائل إخوان الصفا فقد ذكروا أن هؤلاء هم قوم يأجوج ومأجوج .

المبحث الثاني في الكلام على افسادهم في الارض :

وقد ذكر المؤرخون أن هذه الامة كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقبلوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميرا ؟ فهم مفسدون في الأرض بنص القرآن وشهادة التأريخ . فقد ذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى ، وذهبت الى أوربا في قديم العهد فمنهم أمة (السيت) و (السمرياق) و (المسجيت) و (الهون). وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء ؟ وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديما قبل نزول القرآن كما تقدم في بعض الأحاديث أيضا . ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة ، إذ ظهر منهم رجل يسمى (تموجين) لقب نفسه (جنكيزخان) وقال مؤرخو الأفرنج أن معناه بلغة المغول (مَلِكَ العالم)(١) . ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذا أعدّ نفسه فاتحا لكل العالم ، وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة ، فإنه بَعْدَ أنْ جمَعَ أمة التتار تحت حكمه أخضع الصينَ الشمالية أولا . ثم ذهب الى

(١) قلت : بل معناه مثير الحرب ، لان الكلمة مركبة من (جنگك) و (أنگيز) والاولى بمعنى الحرب ، والثانية المثير .

بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها . وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئا ، وسقطت الدولة الخوارزمية بعد حرب دامت عشر سنين . وقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله في التاريخ . فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية فَقَتَلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعاً . ولقد حسبوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع (جنكيز خان) التي لا تحصى عدا أربعة وعشرون قتيلا ، وأحرقوا المدينة ، وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما ، وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب ، وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى في واقعة (مرو) فكانوا مليونا وثلاثمائة وثلاثين الفا ! هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم . راجع دائرة المعارف ، وابن خلدون ، وفاكهة الخلفاء .

وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها فقد اخضعوا بلاد الهند ومات (جنكيز خان) بعد قفوله من غزوها . ولما ملك بعده ابنه (آقطاى) أغار ابن اخيه المدعو (باتو) على الروس سنة سبعمائة واثنتين وعشرين هجرية ودمروا (بولونيا) وبلاد المجر وأحرقوا وخربوا ومات (آقطاى) فقام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه الى دفع الجزية، ثم مات جالوك ، وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاى) و (هولاكو) أن يستمروا في طريق الفتح فاتجه الأول الى بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان

الخليفة إذ ذاك (المستعصم بالله) فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات ، وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهرا ! وهو أمر معلوم مشهور ، وطرحوا كتب العلم في دجلة فجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم ! وهذا الخليفة بعدما أحضر لتسليم ما لديه من الكنوز التي لا تحصى ، وقد ورثها من أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان ، وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد ؛ وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية (جنكيزخان) على آسيا كلها وأوربا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة (كيلاى) بالصين والمغول ، وملك جافاتاى أخو (آقطاى) تركستان ، وملكت ذرية (باطوخان) البلاد التي على شواطىء نهر (فلجاى) (أولكا) وصارت الروسيا تدفع الجزية إليها زمنا طويلا ، وانضمت بلاد الفرس الى (هولاكو) الذي دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول الى بلاد الشام .

المبحث الثالث قال تعالى : (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج)

أي فتحت جهتهم على أحد تفسيرين . ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التأريخ . وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا . وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (اتركوا الترك ماتركوكم ، فإن أول من يَسلب أمتي ملكهم بنو قنطورا) أي الترك ، ومع ملاحظة ماذكرناه في التاريخ لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها إلا هؤلاء . وقد ورد أيضا في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقتهم بخراسان .

فهذه اشارة الى سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم اذ لم يتجاوز الشام الى مصر ولا إلى أفريقيا • وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا البيت المقدس ، ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ، ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الاماكن الثلاثة فما أجلها من معجزة ظاهرة •

ثم إن (جنكيزخان) هو المراد بحديث « يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب ، أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ، يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق ، يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها » وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيزخان المذكور • وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التأريخ قتل رسل (جنكيز خان) والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم ، وأغار على أطراف بلاده • فاغتاظ جنكيزخان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه مانصه : « كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي ؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا اموال الاتقياء او تعادوا من لا عاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم ؟ اتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة ؟ أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم ؟ وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم •• أو ما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم اتركوا الترك ما تركوكم ؟ وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع أنكم ماذقتم طعم شهد أوصى به ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه ؟ ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام ، وتقوم سوق الفتن ، ويظهر من الشر ما بطن،

ويروج بحر البلاء ويموج ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم ، والانتقام من الظالم أمر معلوم ، ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته ، وآثار عدله في بريته ، فإن به الحول والقوة ، ومنه النصرة مرجوة ، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب ... » إنتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان .

وانظر كيف كان صريحا بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان ، وهذا مصداق ما رواه البخاري بسنده عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها يوما فزعا يقول : « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها . قالت زينب ابنة جحش : فقلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال : « نعم إذا كثر الخبث » ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التأريخ في القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخر وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا . ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الأقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم ، ولما صار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم . وهذه من أجل المعجزات !

ثم إنه كان بين مملكة خوارزم وبلاد جنكيزخان مملكة تسمى (أنذار) كأنها حد فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر وابتهجت القلوب بهذا الفتح . وكان إذ ذاك في (نيسابور) عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الارض بدموعهما . فَسُئِلا عن موجب هذا

البكاء والناس فرحون بنصر الله ! فقالا : « وأنتم تعُدون هذا الثلم فتحاً ؟ وتتصورون هذا الفساد صلحا ؟ وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ! ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين ، وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ، ولتعلمن نبأهُ بعدَ حين » فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه ، ونص في فحواه ؛ ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره . وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه ، وظهر التتر وأفنوا المسلمين ، وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فرارا وكذلك أهل اوربا .

المبحث الرابع :

قال تعالى : (وهم من كل حدبٍ ينسلون) الحدب ما ارتفع من الأرض ، وينسلون أي يسرعون في النزول من الأكام والتلال المرتفعة ، وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين ، فإنهم بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا .

المبحث الخامس :

قال تعالى : (واقترب الوعد الحق) أي القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى : (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا) في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة . ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة ، ألا ترى الى قوله تعالى : (إقتربت الساعة وانشق القمر) ؟ وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى . ومع ذلك فقد مضى نيف

وثلاثمائة وألف سنة • فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج (واقترب الوعد الحق) فكلاهما إقتراب ، ورب قائل يقول : أين الإقتراب في الموضوعين ؟ قلنا : معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الإحصاء وما بقي من عمر الأرض قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ، ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بُعدا ويعده الله الباقي الدائم قُرباً • قال تعالى : (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) فآلاف السنين لا تنافي القرب مهما امتدت وطالت بالنسبة الى الزمن كله ، إذ من البديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين • ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل ، وهذا ما عنّ لي ، وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندي في حينه من أمد غير بعيد في مجلة الهلال في آخر القرن التاسع عشر• إنتهى •

ثم كتب بعد صحيفتين • ما نصه : فائدة ومن العجب أن الأخبار التي ترد الآن من الشرق الأقصى تبين أن بلاد الصين منقسمة قسمين : قسم الجنوب ، وقسم الشمال ، فقسم الجنوب اشتهروا بأنهم يحافظون على البلاد ، وقسم الشمال متهمون في وطنيتهم وصدقها • وجاء في الأخبار الآن أن عسكر التتار يحاربون مع أحد الفريقين المتحاربين ، وأن فرقة من فرق جيوشهم تسمى (الجنكيزخانية) فلما قرأت هذا الاسم في أخبار البرق العامة عجبت كل العجب ، وأيقنت أن التتار الذين مزقوا العالم تمزيقا لا يزالون يحافظون على تأريخهم ومجدهم وذكر أسلافهم وعظمائهم بدليل أنهم سموا فرقة باسم (جنكيزخان) الذي شتت شمل المسلمين قديما وشمل أكثر الأمم هو وذريته • وقد جاء في الأخبار اليوم (أي ٧ يونيه سنة ١٩٢٨) أن الوطنيين في الصين دخلوا (بكين) العاصمة أفلا ترى أن العالم الذي

نعيش فيه سينقلب انقلابا تاما ؟ الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة وقد ارتقت . أفلا يقال أنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويحصل في الأرض اضطراب آخر وهلاك لا ندريه مصداقا للآية ؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به (غليوم) ملك الألمان سابقا إذ قال (ويل لأوروبا من الصين وسماه (الخطر الأصفر) أفلا يكون مبدأ الخطر قد ابتدأ هذا اليوم إذ أصبحت الصين مملكة واحدة راقية ؟ الله أعلم بالمستقبل . فإذا صح هذا كان الخروج الاول خروجا جزئيا لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم ، لأن قطب الدين أرسلان كان يجهل هو والعلماء قوة القوم وعظمتهم ، ولذلك قتل رسلهم التي أرسلوها ، فلو كان يعلم قوتهم لأكرم رسلهم . ويكون قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ويل للعرب من شر قد اقترب » الخ راجعا للخروج الأول . أما خروجهم الثاني فهو الذي يقلب الأرض قلبا كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة ، فإذا خرجوا أهلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديما قبل التأريخ ، وكونوا أمما في أوربا ثم خرجوا ثانيا لإبادة ملك العرب . والآن يخرجون لقلب وجه الأرض ويكون قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم » راجع للخروج السابق . أما الثاني فلا ندري ما الله فاعل بالناس والله يعلم وانتم لا تعلمون . فجدير بالأمم الإسلامية أن يفكروا في مستقبلهم فإنهم اليوم بين أوربا الظالمة والشرق الأقصى .

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ؟ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً(١٠٢) قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعاً(١٠٤) أولئِكَ الّذينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً(١٠٥) ذلِكَ جزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتي ورُسُلي هُزُواً(١٠٦) اِنَّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خالدِينَ فِيها لاَ يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً)(١٠٨)

قوله تعالى (أفحسب الذين كفروا) الإستفهام إنكاري ، وحَسَّنَ موقعه وقوعه بعد بيان إحاطة علمه بما يسأل عنه ويجاب من الأمور الغيبية الماضية والإستقبالية • وشمول قدرته لكل ممكن من الممكنات التي تعلقت إرادته بوصول الناس اليها علما وعملا • أي أبعد ثبوت وجود واجب كذلك ظنّ (الذين كفروا) من أهل الكتاب والمشركين إصابتهم ونجاحهم في (أن يتخذوا عبادي) من الملائكة والأنبياء وغيرهم (من دوني أولياءَ) وأنصاراً لهم على مطالبهم السيئة ومآربهم الخبيثة ومع ذلك يتركون ولا يعاقَبون ؟! كلا ثم كلا (إنا اعتدنا) وهيأنا (جهنم للكافرين) المعهودين وأمثالهم (نزُلا) كشيىء يحضرُ ويعد لتمتع الواردين • (قل) يا حبيبي : (هل نبئكم بالأخسرين أعمالاً) منصوب على التمييز ، وجاء به جمعا مع أن الاصل في التمييز الإفراد للدلالة صراحةً على تنوع أعمالهم ، أي ننبئكم بالذين هم أخسر الناس من حيث العمل وجزاؤه (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا) أي ضاع سعيهم ولم ينتج لهم خيراً (و) مع ذلك (هم يَحْسَبُونَ) أي يظنون (أنهم يُحسِنون صُنعاً) أي أنهم يعملون ما يعملون على الوجه اللائق الموافق لنيل السعادة الإنسانية (أولئك الذين كَفَروا بآيات ربهم) أي بالآيات البينات الدالة على وجوده ووحدته وسائر

صفاته (ولقائه) أي البعث والحشر والحساب والميزان ، ونتيجة ذلك من الجزاء هناك (فحبطت أعمالهم) وسَقطت عن درجة الإعتبار بالمعيار لكفرهم بالله الواحد القهار (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أي فلا نهتم بهم ولا نعتبر لأعمالهم قيمة تنفعهم يومَ الحاجةِ إليها (ذلك) أي الأمر والشأن ذلك وهو خفي يفسره قوله (جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) أي مَهزوءٌ بها •

ولما ذكر أحوال الكافرين ومآلهم بين على عادته في كتابه أحوال المقابلين لهم وقال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس) أي الجنات المشتملة على البساتين نزلا (خالدين فيها) أي مقدرين الخلود فيها (لا يبغون) أي لا يطلبون (عنها حولا) مصدر كالصغر والكبر أي لا يطلبون عنها تحولا إذ لا يتصورون أن يحصل لهم شيىء أعز وألذ من ذلك فيطمئنون بها والحمد لله •

(قُلْ : لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً(١٠٩) قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إليَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(١١٠)

قوله تعالى : (قل لو كان البحر مدادا) أمرٌ ناشيءمن فيضان تجليات علمِه وتعلقات قدرته بالممكنات ، يعني قل للناس يا حبيبي (لو كان البحر) وجنس المياه السيالة (مدادا لـ) تحرير كلمات (ربي) أي كلماته الدالة على تعلقات علمه وإرادته وقدرته وتنفيذها لما يريده تعالى (لنفد

البحر) وانتهى ماؤه ويبس مع كثرته وفيضانه ووفرتـه (قبـل أن تنفد) وتنتهي (كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله) أي بمثل ذلـك البحر أو أضعافه (مددا) عونا وزيادة عليه ؛ وذلك لأن البحر وأضعافه من الممكنات متناهية وكلماته تعالى الحاكية عما جرى ويجري اللازمة لذاته تعالى من الأزل إلى الأبد غير متناهية ، فلا تتساوى كلماته وما خلقه من مقدوراته من البحـر أو أضعافه ، قال بعض العلماء على وجه اللطيفة : لا تكفى كل قطـرة منـه لتحرير ما جرى عليها من الاحوال فضلا عن تحرير غيرها •

(قل) يا رسولي بعد بيان شأن الكلمات : (إنمـا أنا بشر مثلكم) ولا أجمع بين البشرية والإحاطة بكلمات الله تعالى وبيان كـل ما تسألونني عنه لولا أن يمن الله عليّ بالبيان ، ولا يلزم من ذلك أن لا أكون رســولا فإنه خصني رحمة وفضلا بالوحي و (يوحى إلى أنهما إلهكم إلـه واحد) لا يتجاوزه إلى جواز الإشراك به تعالى عن ذلك علوا كبيرا • (فمن كـان يرجو لقاء ربـه) لقاء ممتازا بالعز والكرامة ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة فليعمل عملا صالحا مناسبا للقائه حسب وعده (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) لا إشراكا جليا كعبادة الأصنام ولا خفيا كما يكون في عبادة اللئـام ريـاءً وسمعة موجبة للآثام ، فإنه تعالى لا يقبل إلا عبادة المخلصين جعلنا الله منهم برحمته إنـه أرحـم الراحمين •

ومما يجب أن يعلم أن التوحيد الخالص لله تعالى يتم بتوحيده في وجوب الوجود، أي أنه لا واجب سواه وغيره من الممكنات المستوى وجودها وعدمها، وفي الخالقية أي أنه لا خالق سواه ؛ وفي المعبودية أي أنه لا معبود بحق سواه ،

فمن آمن بوحدته تعالى فيها فهو الموحد ، وليس من الإشراك له تعالى مباشرة الأسباب التي قررها الباري تعالى كالاستفادة من الأستاذ المفيد ، والإستمداد من المرشد الرشيد ، وطلب العون من الناس فيما يحتاج فيه إلى التعاون . وأما من جعل الرياء شركا خفيا فمراده إذا كان عمله لغير الله تعالى، كأن يعمل له ويطلب الثواب منه ، وإلا فالمجاهد الذي يعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ونيل الغنيمة معاً فهو مؤمن موحد غير مشرك ، ولكنه ينقص من أجره بقدر نية نيلها فقط فاغتنم ذلك فإنه الحق الحقيق بالقبول .

سورة مريم ، مكية ، وهي ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(كهيعص(١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢) إِذْ نَادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيّاً(٣) قال : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيّاً(٤) وَإِنِّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرَائي ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً(٥) يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، واجْعَلْهُ ربِّ رضِيّاً(٦) يا زَكَرِيّا إنا نُبَشِّرُكَ بغُلامٍ اسمُهُ يحيى لم نجعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً(٧) قالَ رَبِّ أنَّى يَكُونُ لي غُلام” ؟ وَكانَتِ امْرَأَتي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨) قالَ : كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هيِّن” ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٩) قالَ : رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً • قالَ : آيَتُكَ أَلاّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيّاً(١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ : أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتيناهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً(١٢) وحنَاناً مِنْ لَدُنّا وزَكَوةً ، وَكانَ تَقِيّاً(١٣) وَبَرّاً بوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ

جَبَّاراً عَصِيّاً(١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)(١٥)

قوله تعالى (كهيعص) روي في معنى هذه العبارة أقوال منها أنها اسم لله تعالى ، ومنها أنها اسم للقرآن ، ومنها أنها اسم للسورة ، ومنها أن تلك الاحرف للإشارة الى معان متمايزة . وفوض بعض" علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب . وهذا القول هو الذي أعتقده ، فإن القرآن الكريم بيان للناس ، وليس كل كلام منه بيانا لكل إنسان . فالظاهر أن هذه الأحرف التي افتتحت بها السور العديدة رموز بين الله وبين رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان المقصود منها معلوما عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وإعرابها مبني على المقصود منها فإذا كانت اسما للقرآن أو السورة جاز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله (ذكرُ رحمت ربك عبده زكريا) أي هذا القرآن أو هذه السورة مشتملة على ذكر رحمة ربك عبده زكريا . ويحتوي على بيان كرم الباري سبحانه وتعالى وإحسانه إلى عبده زكريا ـ عليه السلام ـ . ففي العبارة إضافات متتالية لاختصاصات متعالية ، أي أن هذه السورة مشتملة على بيان الرحمة الواسعة الفائضة من الخالق العظيم الشأن الذي رباك ورقى بك مدارج العلو ، وأوصلك مقام النبوة والرسالة العامة ، وهو الرب الذي تعرفه بإفاضة هذه النعمة الجليلة عليك رحم الإنسان الذي اتصف برتبة عبوديته له وهو زكريا ـ عليه السلام ـ . فقوله (زكريا) بدل أو عطف بيان للعبد وقوله (إذ نادى) ظرف لرحمة ربك ، أي رحمه إذ ناداه بصفة أنه رباه وأنعم عليه بتربية جَميلة وتَعْلِيَةٍ جَليلَةٍ ، فأوصَلَه من العدم الى الوجود ، ومن الضعف الى القوة والفتوة ، ومن الجهل الى العلم المعتاد بالأمور العامة ، ومنها الى العلم بأسرار الباري في خليقته ، ومنها الى افاضة العلم بشريعته

بأن جعَلَه رسولاً من رسل بني إسرائيل ، وكان نداؤه له (نداء خفيا) مستورا من الناس ومن اسماعهم ، أي أنه كان في معبده الخاص وعند اعتزاله عن الناس لعبادة ربّه ، فناداه بوصف الربوبية و (قال رب إني وهن العظم مني) أي ضعف العظم الذي هو عماد الجسد والهيكل الخاص ضعفا ينذرُ بالموت والفناء (واشتعل الرأس شيباً) تمييز من نسبة الإشتعال الى الرأس ومحول عن الفاعل أي اشتعل شيب الرأس ، ومعناه أن شعر الرأس ابيض كلّه وصفا البياض من الشيب ، فصار كلمعةٍ ذات بريقٍ ولمعانٍ ، وأنا إذ أناديك أُناديك على رغبة في الإجابة وثقة بسعة رحمتك العامة للناس والخاصة بالنسبة إليّ إذ (لم أكن) في سالف الزمان إلى الآن (بدعائك شقيا) أي لم أكن في دعائي إياك خائبا في وقتٍ من الأوقات سواء دعوتُك لدفع آفة من الآفات أو جلب كرم وهبة من الهبات ، (و) دُعائي هذا مقرون بخوف البلاء فـ (إني خفت الموالى) أي الرؤساءَ (من ورائي) ، والمراد بنو أعمامِي المتوجهين إلى الدنيا الذين لا يُراعون قواعد الشريعة فأخاف فوات تراث النبوة والرسالة فينا (وكانت امرأتى عاقرا) أي لا تلد من حين شبابها الى شيبها .

(فَهبْ لي من لدنكَ وليا) أي ولدا من صلبي (يرثني ويرثُ من آل يعقوب) والجملة صفة لقوله وليا وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ . والمراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة والرسالة والقيام بأمر الدين وتوجيه الأمة الى رب العالمين ، على نهج قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . وليس المراد إرث المال والملك لأن آل يعقوب من عهده الى عهد زكريا ـ عليه السلام ـ ما كان يعلم عددهم وأحوالهم إلا الله فلا ينال أيّ واحد منهم من متملكات آل يعقوب إلا قرصة

وهي بالفرصة. فليس في الآية منافاة مع قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ماتركناه صدقة) لأن الحديث الشريف في الملك والمال ، ودعوة زكريا ــ عليه السلام في النبوة والإجلال والدين ، ولما كانت النبوة موهوبة والإرث كالموهوب لأنه ليس تملكا اختياريا ناسبه التعبير عن وصولها إلى النبي بالتوريث وقيل أراد بالأول النبوة وبالثاني الملك والرئاسة. ويؤيد ذلك ماروي أن بني ماثان كانوا رؤوس بني إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا ــ عليه السلام ــ رئيس الأحبار يومئذ ، فأراد أن يرث ولده الحبورة ويرث من بني ماثان ملكهم أيضا ، فتكون الوراثة مختلفة في المتعاطفين . ويؤيد ذلك قوله (واجعله رب رضيا) أي مرضيا عندك قولا وفعلا ، فإن الملوك قلما يرضى عنهم ، فأجابه ربه واستجاب نداء عبده ودعاءه وقال (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وكان القول بواسطة الملك جبريل ــ عليه السلام ــ ، والغلام الولد الذكر ، وفي تعيين اسمه ــ عليه السلام ــ تأكيد له وتشريف له ــ عليه السلام ــ من حيث أنه تعالى وضع له الاسم المشعر ببقائه وحياته حياة مباركة طيبة ، ولذلك قال : (لم نجعل له من قبل سميا) أي شريكا وعديلا له في هذا الاسم ، فلما علم باستجابة ربه له وعلم أن امرأته عجوز وهو كذلك استأنف و (قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً) عقيما (وقد بلغتُ من الكبر عتيا ؟!) حال مؤكدة لاستبعاد حدوث الولد له . والعتي : مصدر بمعنى اليبس والقحول في المفاصل . وأصله عتوو كقعود قلبنا الواو المتطرفة المضموم ما قبلها ياء ، فقلبنا الواو الواقعة قبلها ياء لقاعدة الاجتماع ، وأدغمنا الياء في الياء ، وكسرنا ما قبلها وما يليها للمناسبة واللين في اللسان فصار عِتِيا . أي قد بلغتُ انا من أجل كبر السن يبسا وقحولا ، أو حالة لا سبيلَ إلى إصلاحها .

وإنما قال ـ عليه السلام ـ ذلك مع سبق دعائه وقوة يقينه بقدرة الله تعالى إستعظاما لا إستبعادا لأنه شهد وجود الولادة بدون السبب الاعتيادي وذلك مما لا بأس به ولو من الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ • وقد يقال : إنه سأل بذلك بعد تيقنه بحصول المقصود لإظهار قدرة واجب الوجود بين أهل الإيمان والجحود ليزداد الذين آمنوا إيمانا وليتنبه الجاحدون عسى أن يتوبوا إلى ربهم •

(قال) الله سبحانه (كذلك قال ربك هو علي هين) والمعنى قال الله تعالى كذلكَ قالَ ربكَ ، وقال هو عليّ هين أي سهل" (وقد خلقتكَ من قبلُ ولم تكُ شيئاً) أي وما كنتَ موجوداً بل كنت معدوما • فالخلق وإن كان على سبيل تسلسل الأسباب الإعتيادية لكن خلق كل سبب منها كان مربوطا بإبداع وإيجاد آني ، حتى لو فرضنا أنّ الأسباب اللاحقة مرتبة على وجود الأسباب السابقة التي هي من المعدات للواحق لكن السبب الاول ليس له سبب إلا تعلق إرادة الفاعل المختار والأمر إليه بالاعتبار • (قال : رب اجعل لي آية) أي علامة على علوق الولد ، فإن البشارة كانت مطلقة (قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أي علامته حدوث حالة غير اعتيادية لك وهي عبارة عن عجزك عن التكلم والتعبير مدة ثلاث ليال متساوية ، أو حالكونك سويا في الخلق سليما في البدن يعني أنك تقدر على التكلم مع نفسك • وقراءة أسفار التوراة (وليس فيك عجز عن مرض مع أن الله جعلك بحيث لا تقدر على التكلم مع الناس) وهذه خارقة للعادة (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أي فلما فاجأه ما قدر له ربه من العلامة وعرض عليه تلك الحالة أشار الى قومه أن سبحوا ربكم وأتوا بواجبات عباداتكم بكرة وعشيا بدون انتظار حضوري معكم • والتسبيح جاء بمعنى التصلية أي صلوا صلاتكم

المشروعة في دينكم ، أو المراد سبحوا الله واحمدوه واذكروه بكرة وعشيا • وانما ذكر التسبيح لمناسبة المقام فإنه مقام النعجب من قدرة الباري تعالى في خلق الولد من عجوزين عاجزين يابسين كما يتعجب من انعقاد الثمرات على أغصان شجرة يابسة •

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقلنا للولد لما ولد وتربى وبلغ مجال الفهم والتمييز : يا يحيى خذ الكتاب المستطاب المعهود بينكم وهو التوراة لقراءته وفهمه وحفظه ونشره وترويجه بين الناس بقوة بدون ضعف وفتور ، وبجد بدون توانٍ وكسل وقصور (وآتيناه الحكم) أي العقل المستقيم أو الحكمة في الأمور كلها في ما يتداول بينهم ، أي فهم الأحكام والقضاء بين الناس ، أو الحكم الإلهي بإعطاء النبوة والرسالة على منهج الرسل السابقين من آبائه وأعمامه الكرام حالكونه (صبيا) قيل : إنه كان في السنة السابعة من عمره • ولم ينبأ نبي قبل الأربعين إلا يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ (وحنانا من لدنا) أي وآتيناه من لدنا عطفا ورحمة بالناس لاسيما الضعفاء بالجهل وقلة ذات اليد (وزكاة) أي طهارة في النفس فيكون كالعلة للوصف السابق ، لأن الشفقة تنبت من القلب الطاهر ، أو زكاة وصدقة منه للناس أي آثريناه فأخذ يتصدق على المستحقين • أو برا وإحسانا لوالديه • والكل معروف من أهل المعروف (وكان تقيا) موصوفا بالتقوى بأركانها وهي التقوى عن الكفر والجحود ، والتقوى عن المعاصي ، والتقوى عن الإنهماك في الدنيا (وبرًّا بوالديه) مُحْسِناً إليهما بمعنى الكلمة (ولم يكن جبّارا) متعاليا على الناس (عصيا) أي مخالفاً أمر مولاه أو مستبدا برأيه عاصيا على الناس فيأخذ بآرائهم كلما ظهر له إصابتها • (وسلام) من الله نازل عليه (يومَ ولد) من مس الشيطان (ويوم يموت) من وحشة النفس من مفارقة

الخلان (ويوم يُبْعث حيا) قاصداً لقاء ربه المنان من العذاب وأهوال النيران ، أو من النقصان في الحساب والميزان .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧) قَالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً(١٨) قَالَ : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ؟!(٢٠) قَالَ : كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً(٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً(٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، قَالَتْ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً !(٢٣) فَنَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً(٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ، فَقُولِي : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً)(٢٦)

قوله تعالى (واذكر في الكتاب مريم) كلام مستأنف خوطب به النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمراد بالكتاب القرآن الكريم أو السورة المباركة، إذ هي التي صدرت بقصة زكريا ــ عليه السلام ــ المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها للمناسبة الملحوظة ، أي واذكر للناس النبأ العظيم العجيب المتعلق بمريم ــ رضي الله عنها ــ من حيث ولادة سيدنا عيسى منها

بلا علاقة أب وقوله (إذ انتبذتْ) ظرفٌ للنبأ المقدر المستفاد ، أي واذكرْ نَبأَ مريم إذ انتبذت واعتزلت من أهلها مكاناً شرقيّاً من بيت المَقْدِسِ ، أو انتبذت من دارها مكانا شرقياً لتغتسل من الحيض محتجبةً بحائط أو الستر المقدر كما يفيده قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) أي لأداء حاجتها في أدب واحتجاب (فأرسلنا إليها روحنا) أي روحا من عندنا أي مَلَكا من عندنا تَحْيا بالوَحْيِ الذي معهُ قلوبُ العباد وهو جبريل ـ عليه السلام ـ (فتمثل لها) أي فتصور لها (بشراً سويا) في الخلق كامل الأعضاء حَسَنا وجيهاً نبيهاً ، ولما تمثل لها ورأته انزعجت و (قالت إني أعوذ بالرحمن منك) حيث ظهرتَ فيمظهر لا يناسبُ أهلَ العفة والإيمان فإني امرأة مُحتجبة ومعتزلة في محل مستور عن الأعين لقضاء واجبي بالأدب والكرامة (إِن كنت تقيا) شرطٌ وجوابه مقدر يدل عليه ما تقدمه وهو فابتعد عنيّ . أي إن كنت من أهل التقوى والصيانة فاتركني واذهب من حيث جئتَ .

ولما علِم انزعاجها هدأها و (قال) لتطمينها : (إنما أنا رَسُولُ ربِك) لا المعتدي على أدبك ، واُرسِلْتُ (لأهَبَ لك غلاماً زكيا) أي لأكونَ سببا في اعطاء ولدٍ طاهر من الذنوب أصلا وفصلا . فلما سمعتْ كلامه (قالت) مستنكرة : (أنى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسسني بَشر) بالوجه الحلال (ولم أكُ بَغِيّا ؟!) زانية وما مَسَّني أحَدٌ بالوجه الحرام . قال جبريل ـ عليه السلام ـ (كذلك قال ربك) أي قال ربك قولاً مثل ذلِك الذي قلتُ لكِ من إعطاء ولدٍ لك (هوَ عليّ هين) أي وهو عليّ هينٌ سَهلٌ يسير وقوله (ولنجعله آيةً للناس) تعليل لحكم محذوف أي ونهب لك ذلك الغلامَ لنجعل ذلك الوَهْبَ آيةً وبرهانا للناس المُنْصفين على قدرتنا الباهرة ، ليعتقدوا أنا كما قدرنا على خلق أبي البشر بلا أب ولا

أم نقدر على خلق إنسان من أعيان النوع بلا أب (و) لنجعله (رحمةً مِنا) أي وسيلة انتشار رحمة منا ، وهي الاهتداء بهديه والاسترشاد بإرشاده ، أو رحمة منا للعباد المبتلين بالأمراض والأعراض حيث تجلينا بقدرتنا عليه ، فتبعث الحياة في أجساد مصورة بصورة الطيور بنفخ مبارك منه ، وتحيي الأمواتَ المدفونين في القبور بإيقاظ مِنه وتبرىء الأكمه والأبرص بمساسٍ من راحته (وكان) ذلك (أمْراً مقضيا) لنا أزلاً .

وقوله : (فحملته) فيه إيجاز الحذف أي فاطْمأنّت بكلامهِ ، ونَفخ جبريل في جيبها فدخلت النفخة في جوفها فحملته أي الولدَ الموعودَ وَسِنها إذ ذاك خمس عشرة سنة في أرجح الأقوال ، ومدةُ حملها به تسعة اشهر كما في سائر النساء ، والفاء في قوله تعالى فانتبذت للإتصال العرفي المعتاد وقيل حملته في ساعة النفخ وصور فيها ووضعته في ساعة بعدها حين زالت الشمس من يومها (فانتبذت به) أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملابسة والمصاحبة (مكانا قَصِيّا) أي مكانا بعيداً من أهلها استحياءً منها .

(فأجاءها المخلص إلى جذع النخلة) أي ألجأها وجع البطن المعهود عند الولادة إلى جذع النخلة ، وهي مابين العرق ومتشعب الأغصان من الشجرة ، وذلك لتسند اليها عند الولادة . والتعريف إما للجنس أي جذع أية نخلة للغاية المذكورة ، أو نخلة معهودة هناك لكبرها وسترها لها وصلاحيتها للاستناد أيضا . (قالت) عند ذلك حياء وانفعالا نفسيا منها (ياليتني مِتُّ قبلَ هذا) الوقت العسير (وكنت نَسياً) أي شيئا تافها (مَنْسيّاً) لا يخطر ببال أحد فينسى من حقارته . ومِتّ بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف ، أو مات يميت كجاء يجيىء وقريء بضمها من مات يموت كصان يصون. ونسيا بفتح النون وكسرها الشيىء التافه الذي لا يعتد به ، وشأنه أنه ينسى كخرقة الطمث ، وهما لغتان سيان . وقال بعض :

الأفصح الفتح ، وبعض الكسر • وقال بعض اللغويين بكسر النون اسم لما ينسى وبفتحها مصدر نسي ينسي من الرابع • (فناداها من تحتها) أي فولدت الولد وهو عيسى ــ عليه السلام ــ لدلالة المخاض عليه وناداها من تحت ثيابها (ألا تحزني) أي أن لا تحزني ، وكلمة أن مفسرة للفعل ، أي لا تحزني من هذا الحادث بل افرحي واشكري ربك على نعمة ولادة هذا المولود المسعود (قد جعل ربك تحتك سريا) أي ولدا رفيع الشأن عند الله وعند الناس ، وكون المنادي عيسى ــ عليه السلام ــ معجزة تليق بمقام حزنها لتطمئن •

وروي أن المنادي جبريل (ومن تحتها) أي من جانب مكان أخفض من مكانها بعيدا منها (والسري) جدول الماء والكل محتمل • وأعتقد أن الأول أولى وزاد المنادي في أسباب اطمئنانها وقال : (وهزّي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) أي هزيها وحركيها إلى جانبك ، فإذا هززت بها تساقط عليك رطبا أي تسقط عليك رطبا مجنيا بلا تكدر بغبار لأن فيها مسكة وقواماً • وفي هذا الطلب إعجاز من جهات :

الأولى : أن الطلب من صبي لم يشرب اللبان بعد •

الثانية : أن النفساء المريضة النحيفة اللطيفة غير قادرة على هزّ العود الصلب لتهتز بحيث يسري اهتزازه إلى الأغصان •

الثالثة : أن الوقت لم يكن وقت الثمر كما روي عن بعض •

الرابعة : أنها أثمرت فوراً ووقع الرطب على الارض القريبة منها بدون تأثر بتراب الأرض • وكل ذلك حتى تطمئن نفسا بأنها متبركة قدسا •

(فكلي واشربي) أي كلي من الرطب الحار المعتدل المناسب للنفساء ، واشربي من الماء الزلال (وقري عينا) أي طيبي نفسا وارفضي عنها ما أحزنها فكأنك بالوادي القدسي لا في البيت المعتاد الشخصي . ومعنى الفعل أصلاً وتبردي عيناً ، فإن ماء القلب إذا ثار فرحاً يثور بارداً ، وإذا شرد ووصل إلى العين بردها (فإماترين من البشر أحدا) وتكلم معك حول الموضوع (فقولي) له بالإشارة (إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسيا) أي نذرت له صمتا وسكوتا . وإلا فالصوم حرام في وقت الحيض . ولا يقتضي السكوت أيضا حتى يفيدها ، أللهم إلا أن يكون ذلك جائزا كذلك في تلك الشريعة . وإذا كان قولها ذلك بالكلام فالمعنى نذرت السكوت بعد هذا الكلام . وإنما أفادها ذلك حتى يكون الولد الرضيع هو الذي يتكلم ويدوي صوت المعجزة في كهوف الأدمغة الجوفاء ، فيجفو من جفا ويصفو من صفا .

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً !(٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ؟!(٢٩) قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً(٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً(٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(٣٤) مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا

يقولُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدوهُ هذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ)(٣٦)

قوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله) أي فلما اطمأنت نفسا بجانب قدْسها وأن المولود من مواليد كُنْ فيكون ، جَاءت قومها حاملة له بعزة نفس وقوّة أنسٍ ، راجيةً من ربها العزيز القدير أجراً غير ممنون . فلما رأوها وفي حضنها ولدٌ بدون سابِقة زواج وأفراحٍ وابتهاج ظنوا بها مِن سوء المزاج و (قالوا : يامريمُ لقد جئتِ شيئاً فَرِيّا) أي فعلتِ شيئا فريا أو جئت بشيىءفري"•وفريا معناه عظيماً أو عجيباً، وأصله من فري الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد ، ونصبه على أنه مفعول به . وقيل : مفعول مطلق ، أي جئت مجيئاً عجيباً . وعبر عنه بالشيىء تحقيقا للإستغراب كأن ذلك الشيىء مجهول غير معتاد . (يا أختَ هارُونَ ما كان أبُوكِ امرأَ سوءٍ وما كانَتْ أمكِ بَغيا) هذا النداء مستأنفلتأكيد التوبيخ•والمراد بهارون أخ لها من أبيها ، وكان صالحاً . وقيل : رجُلٌ صالح مشهور في بني إسرائيل . وقيل : المراد هارون أخو موسى ـ عليه السلام ـ ، والمراد بالأخت المشابه والمماثل في التقوى ، أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الصالح المشهور ، أو هارون أخو موسى ، ما كان أبوكِ امرأً صاحبَ سوء في الأعمال والأخلاق ، وما كانت أمكِ بغيا أي زانية . والاصلُ إذا كانَ زكيا فالغالبُ أن الفرع يكون كذلك ، فمِنْ أين لكِ هذا الولدُ ؟

(فأشارت) مريمُ (إليه) أي الى الولد أن كلموه ، فغضبوا عليها و (قالوا : كيف نُكلم من كان في المهد صبيا ؟!) والمراد بالمهد حجر الأم، فَأنطقَ اللهُ عيسى ـ عليه السلام ـ معجزةً قاهرة باهرة إذا كان نبيا منذ الولادة ، أو إرهاصا . و (قال إني عبدالله آتاني الكتاب) أي الكتاب

المختص بي وهو الإنجيل • وقيل : الإنجيل والتوراة (وجعلني نبيا) رفيع الشأن مخبرا من عنده (وجعلني مباركا) صاحبَ بركة وخيرٍ لنفسي بعبوديتي لله وإخلاصي ومحبتي له ولغيري بإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من مائدة الرحمة أين ما كانت في الأرض أو في السماء (وأوصاني بالصلاة) وفاءً بحق العبودية ومعراجا لروحي (والزكاة) وفاء بحق المستحقين وابتهاجا لنفوسهم (ما دمتُ حيّاً ، وبرّاً بوالدتي) أي وجعلني برّاً محسنا بوالدتي بخدمتها في حضرتها والدعاء لها في غيبتها (ولم يجعلني جبارا) متكبرا على غيري (وشقيا) ذا شقاوة وعصيانٍ لربي ولا ذا إتعاب وتعذيبٍ لغيري (والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعَثُ حيّاً) سلامٌ من مس الشيطانِ في أول أمري ، ومن النقص في الإيمان في آخر أمري ، ومن سوء الحساب ونقص الميزان في وقت البعث وأحوال الحشر •

(ذلك) المولود المسعود المبارك وذلك الشخص الموصوف بتلك الصفات الحميدة (عيسى ابن مريمَ) شخصية شريفة مِن والدةٍ عفيفة (قولَ الحق) وأقول هذا قول الحق الحي القيوم (الذي فيه يمترون) أي يشكون ويتنازعونَ • فيقولُ اليهودُ : هو ساحر • ويقول النصارى : هو ابن الله • تعالى اللهُ عن كل ذلك عُلُوّاً كبيرا ! (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ما صح وما استقام في إدراك المدركين وعقل العاقلين بالنسبة إلى واجب الوجود المستغني عن كل موجود (أن يتخذ من ولد) في عالم الإمكان والحدوث والشهود ، فإنّ الواجب الوجود المطلق بريء مما هو يناسب الممكنات المستفيدة للوجود الموقت من إرادة الباري وقدرة ذات الحق (سبحانه) فننزهه تنزيهاً وجيهاً من هذه العلائق الغير المعقولة ، فإنّ الافتقار الى الولد انما للتعاون مع الغير ودوام السلسلة في السير ، والباري

سبحانه غني مطلق في إيجاد كل موجود من كل عونٍ (وإذا قضى أمراً) وأراد وجوده (فإنما يقول له) أي لصورته العلمية (كن) أي كُنْ ذا عين أعيانيٍّ (فيكون) • وقوله تعالى (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه) معطوف على قول عيسى ـ عليه السلام ـ إني عبدالله أي إني عبدالله وإن الله ربي وربكم فاعبدوه • هذا ما صرح به الواحدي وقرره • وكلام مستأنف مبني على حذف الأمر المشتق من القول خطابا لسيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ • أي وقل يا رسولي بعد حكاية قصة عيسى ـ عليه السلام ـ للناس : إن الله ربي وربكم فاعبدوه (هذا) الذي قررناه من وحدانية الله تعالى واستغنائه عن النسل (صراط مستقيم) سَلَكَه الهُداةُ من الأنبياء والمرسلين وكلُّ ذي عقل سليم ، وضلَّ عنه كلُّ ذي قلب سقيم • ونسأله تعالى أن يسلك بنا مسالك الأنبياء والمرسلين ، ويوصلنا إلى لقائه ورضاه يوم الدين •

(فاخْتَلَفَ الأحزابُ مِن بَيْنِهِمْ ، فَوَيلٌ لِلَّذِين كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يأتُونَنَا ، لكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ في ضَلالٍ مُبِينٍ(٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)(٤٠)

قوله تعالى (فاختلف الأحزاب من بينهم) أي فاختلف اليهود والنصارى بينهم في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ ، فقال اليهود : هو ساحرٌ مُرتابٌ • وقال النصارى : بل رسول من الله إلى أولي الألباب • أو فاختلفت فرق النصارى فيما بينهم ، فقالت النسطورية : إنه ابنُ الله ،

واليعقوبية : إنه هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء . وقال الملكانية : هو عبدالله ونبيه (فويل للذين كفروا) من اليهود والنصارى وغيرهم (من مشهد يوم عظيم) أي من شهودهم وحضورهم في يوم عظيم مهول للحساب والجزاء (أَسمعْ بِهِم وأبصرْ) أي أسمع بالذين كفروا . وأبصر بهم صيغة التعجب تفيد أن أسماعهم تدرك كلّ صوتٍ ضعيف رقيق وأبصارَهم تبصر كل شيىء دقيق في ذلك اليوم فيدركون ما حاق بهم من الويلات والعذاب بعدما كانوا في الدنيا صُمّا وعميا لا يسمعون الخطاب من الرسل الكرام ولا يبصرونَ أي شيىء يزجرهم عن سيىء الآداب (يومَ يأتوننا) أي يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) عن طريق الحق المستبين (وأنذرهم) يا رسولي النذير (يوم الحسرة) بعذاب يوم الحسرة الذي يتحسر الناس فيه (إذ قضي الأمر) أي فُرغَ مِن الحساب والميزان وأخذَ كلٌّ من الفريقين طريقه الى النار أو الجنة (وهم في غفلة) عن ذلك (وهم لا يؤمنون) بأنهم يأتيهم ذلك اليوم فينتبهون من النوم (إنا نحن نرث الارض ومن عليها) لا يبقى أحد منهم إلاّ (وإلينا يرجعون) لا إلى غيرنا فنعلم ما يستحقونه ويلقون جزاءهم .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ : يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ، وَلا يُغْنِي عَنْك شَيْئاً ؟(٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً(٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ، إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً(٤٤) ياأَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمنِ ، فَتَكُونَ للشَّيْطانِ وَلِيّاً(٤٥) قالَ : أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتي

يا إبْراهيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْني مَلِيّاً(٤٦) قالَ : سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كان بي حَفِيّاً(٤٧) وَأَعْتَزِلُكُم وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي ، عَسى أَلاّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيّاً(٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إسحقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيّاً(٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)(٥٠)

قوله تعالى (واذكر) عطف على أنذرهم أي على (أذكر) السابق • أي واذكرْ في القرآن أو في هذه السورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ • وقصته العجيبة العظيمة (إنه كان صديقا) ملازما للصدق لم يكذب قط مع أهله وأولاده وعترته وعشيرته في أمور دينه ودنياه و (نبيا) استنبأه الله تعالى حين كانت الديار خالية عن دِثار التوحيد وشعارِ الإسلام ، وغلب الجهلُ والتقليد على الأنام ، وطغَتِ المادة على الهِمام • والصديق من صيغ المبالغة • والنبي من النبوة بمعنى الرفعة ، أو من النبأ بمعنى الخبر لأن النبي رفيع المقام ومخبر عن الملك العلام • ومعنى الكلام أنه كان جامعا بين الصدق الوافي والنبوة وتقديم الصدق للدلالة على أن الله لا يأمر سحاب الكرم أن يُمْطِرَ النبوة على أهل الدناءة من الأمم ، وإنما يأمره بالإمطار على أصحاب الهمم ، والهمة لا تتحقق إلا حيث يكون الصدق والصبر والقوة على تحمل أذى الأمم • واذكر حاله وأدبه (إذ قال لأبيه) وناداه نداء أدب واستحياء : (يا أبت لم تعبُدُ ما لا يسمعُ) شيئا من المسموعات (ولا يبصر) شيئا من المبصرات في ذاته (ولا يغني عنك شيئا) من الأشياء أو شيئا من الإغناء •

وانظر إلى بلاغة قوله تعالى حكاية عن خليله حيث قال (يا أبَتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) ولم يقل له إنك جاهل بحقيقة الشريعة الإلهية وهي لا ترضى إلاّ بالتوحيد ، بل أفاده أنه جاءه من العلم من الله ما لم يأته وَتَرجى منه الإتباع وقال (فاتبعني أهْدِكَ صراطاً سَوِيّاً) أي مستقيما يصل السالك عليه إلى ربه وينالُ منه كلّ خير لديه • ثم بين له أنّ عبادة الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الذي يوسوس في قلب الإنسان أن يبتعد عن إطاعة قدسه ويتقرب من هواه ونفسه ، ويعبد الأحجار والأخشاب التي ليس لها روح ولا فتوح فقال : (يا أبَتِ لا تعبد الشيطان، إنّ الشيطان كان للرحمن عصيا) فهو مستعص على من خَلَقَه ورَزَقه وشملته نعمتهُ ، والمطيع للعاصي عاصٍ ، ثم ترقّى من هذا الطور الى مقام الخوف عليه فقال : (يا أبتِ إني أخافُ أن يمسك عذابٌ من الرحمن) أي عذاب من الله المنان الذي اختص بالرحمانية ، وأعاذنا الله وإياكم من عذابه ، فإنّ الرحمانَ إذا عَذّبَ أوجَع (فتكونَ للشيطان وليّا) أي قرينا في العذاب سَوْطٌ عليه وسَوطٌ عليك، فلا يَبْقى أيّ وسيلةٍ لديك •

وبعد هذه المحاورة اللطيفة استنكر أبوه كلامه وانقلب عليه ولامَهُ و (قال) مستنكرا : (أراغبٌ أنت عن آلهتي) المختصة اي بالرعاية (يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجُمنك) أي والله لئن لم تنته عن هذا النوع من الكلام وتدعونا إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام لأرجمنك بالحجارة ، وهذا الرجم أفظع عذابٍ حيثُ فيه القتل والتحقير والتعذيب والتلطخ بالدماء • (واهجرني مليّا) أي واتركني واحذرني زمانا كثيرا حتى أهدَأ يَسيرا ، ومع ذلك التهديد والوعيد وأمْرِهِ بالتغيب عنه إلى زمان بعيد كالمه وسالمه وقال لأبيه (سلام عليك) ومع الجفاء الذي لديك (سأستغفر لك ربي) أي اترجى وأدعوه تعالى أن يغفر لك بأن يوفقك للإسلام فيجب

ما قبله من الآثام (إنه كان بي حفيا) أي إنّ ربي كان بليغا في البرّ بي وحفيا مغنيا بإكرامي والإحسان إليّ (وأعتزلكم) أي أتباعد عنكَ وعن قومك (و) اعتزل (ماتدعون من دون الله) وأهاجر بديني إلى محل غير محلكم (وأدعو ربي) وأعبُدُه وحده (عسى ألا أكون بدُعاءِ ربي شقيّاً) خائباً ضائع السعْي (فلما اعتزلهم ومايعبدون من دُونِ الله) أي فلما اعتزلهم ومعبودهم وأصرّ على مقصوده وخالف مقصودهم ورَموه في النار وصانه ربّه عن احتراق جسده ، وحفظه بعونه ومدده ، وبَعّدَه نمرودُ من البلاد العراقية ، وهاجرَ الى أرض كنعان من مملكة الأردن أقررناه وأثبتناه وجزيناه وأكرمناه (ووهبنا له إسحق و) من اسحق (يعقوب ، وكُلاّ ً) منهما (جعلنا نبيا • ووهبنا لهم) أي لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والموهوب النبوة والرسالة والاحترام والجلالة والصيانة عن التحقير والملالة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) أي وجعلنا لهم مكانة ومحبة في قلوب الناس حتى يذكروهم جيلا بعد جيل بلسان ناطق بمدحهم والثناء عليهم بوجه صدق موافق للواقع حالكونه عليا في المقال ينطق بما يرضى به ذو الجلال •

(وَاذكُرْ فِي الكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً ، وَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً(٥١) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيّاً(٥٢) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رحْمَتِنَا أَخَاهُ هارونَ نَبِيّاً (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الكِتَاب إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً(٥٤) وَكانَ يَأمرُ أَهْلَهُ بالصلاةِ وكانَ عِنْدَ ربِّهِ مَرْضِيّاً(٥٥) وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً(٥٦) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً(٥٧) أولئكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدمَ ، وممَّنْ حَمَلْنا

مَعَ نُوحٍ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)(٥٨)

قوله تعالى (واذكر في الكتاب موسى) قدم على بيان حال إسماعيل لربطه بسيدنا يعقوب عليهم السلام أي واذكر في القرآن أو في هذه السورة أحوال موسى ابن عمران من ذرية يعقوب (إنه كان مخلصا) لله في أخذ رسالاته وتبليغها وتحمل الأذى عليها (وكان رسولا نبيا) أي أكرمه الله بالرسالة بعد أن أكرمه بالنبوة يستفاد من الآية الكريمة أن النبوة والرسالة وإن كانتا موهوبتين ولكن الله سبحانه له في إفاضتهما على عباده رعاية التدرج على الوجه المناسب لحكمته أي وكان رسولا حالكونه نبيا فالذوق السليم يستفيد أن نبوته تقدمت على الرسالة فإن النبوة صفة صفاء شخص قدسي والرسالة تزيد على ذلك بتخويل تربية من عداه من الجن والإنس ولكنه قدم في الربط الرسالة على النبوة رعاية للفواصل •

وأخذ يذكر مبدأ أحواله والشروع في استكماله ويقول (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أي من الجانب الأيمن من جبل الطور عندما توجه موسى إلى الجبل ، فإن الجهة ماعدا العلو والسفل إعتبارية فالمتوجه إلى القبلة في بلادنا يقع الشمال في يمينه والجنوب في يساره (وقربناه نجيا) أي وقربناه من المحل الذي كالمناه فيه حالكونه مناجيا معنا كرامة (ووهبنا له) أي لموسى (من رحمتنا) أي وهبا ناشئا من رحمتنا (أخاه هارون) عطف بيان (نبيا) معه يعاضده ويشدّ أزره إجابة لطلبه ذلك بقوله (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي) • (واذكر في الكتاب إسماعيل) بن ابراهيم لأنه الجانب الأيمن الأكبر سنا ومقدما على إسحاق

ولادة وينبوعا لعين رسالة محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي العدناني القيداري الإسماعيلي فهو رئيس برأسه ورأس سلسلة ممتازة من قدسه (إنه كان صادق الوعد) بالصبر على الذبح في قضية الرؤيا المشهورة ، وبما وعد به الناس ، فقد روي : أنه وعد رجلا أن يقيم له بمكان فغاب عنه حولا فلما جاءه قال له : أما برحت من مكانك ؟ فقال : لا والله ماكنت لأخلف موعدي . وثباته هناك كان على الوجه المعتاد من دوامه في تلك المنطقة وليس المراد الوقوف على محل معين بما لا يوافق الواقع . (وكان رسولا) إلى الساكنين في أم القرى وما حولها على شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وصحفه المنزلة من الله العلام ، إذ لا يشترط في الرسول أن تكون له شريعة مستقلة كما حقق في محله . وكان مع جمعه للصدق الذي هو من مهمات الأخلاق الحسنة وللنبوة والرسالة حائزا للجد والسعي فيه (وكان يأمر أهله قبل) الناس (بالصلاة) وملازمتها في أوقاتها (والزكاة) للمستحقين ، ويجمع بذلك بين تصفية النفس بصلته مع ربه وتطهيرها من حب المادة باعطائها لمن فرضت له (وكان عند ربه مرضيا) لاستقامته في طاعته وعبادته وتبليغ رسالته ومرضيا أصله مرضوو بواوين لأنه من الرضوان فقلبت الواو الأخيرة ياء فصار مرضوى فقلبت واوه ياء على الأصل المقرر ، وأدغمت الاولى في الثانية وكسر ما قبلها للمناسبة .

(واذكر في الكتاب إدريس) هو نبي قبل نوح بألف سنة.وهو أول من نظر في النجوم والحساب، وأول من خط بالقلم وخاط الثياب،وكانوا قبل يلبسون الجلود ، وأول مرسل بعد شيث ، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة ، كما أرسل على شيث خمسين ، وعلى آدم عشرة ، ، وعلى إبراهيم عشرة ، وبها كملت الصحف المائة ، وبعدها الكتب الأربعة : التوراة التي احتوت أحكام الشرع المعمول به في بني اسرائيل ، وزبور داود كان إرشادا ومواعظ

وأذكاراً ، وإنجيل عيسى ، والقرآن المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . (إنه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكاناً عَلِيّا) وهو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى . وفسره كثير من الناس بالسماء لكن الروايات تختلف في تعيين تلك السماء أهي الرابعة أو السادسة أو السابعة ؟ وفي رواية عن الحسن أنه الجنة ، ولا شيء أعلى منها سوى العرش .

وعن النابغة الجعدي أنه لما أنشد رسولَ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعر الذي آخره :

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وسناؤنا   وإنا لنرجُو فوق ذلك مظهرا

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ له : « إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » قال : إلى الجنة يا رسول الله . قال : « أجَلْ إن شاء الله تعالى » وأكثر القائلين برفعه حساً قائلون بأنه حي حيث رفع (أولئك) المذكورون في السورة الكريمة (الذين أنعم الله عليهم) بنعمه الدينية والدنيوية (من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح) أي ومن ذرية من حملنا مع نوح، وهم من عدا إدريس لسبقه عنه (ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل) أي ومن ذرية إسرائيل ، وهو يعقوب ـ عليه السلام ـ ، وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ـ عليهم السلام ـ وكانوا (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكِيّاً) أي ساجدين لله وباكين من خشيتِهِ . وسجدا بضم السين وفتح الجيم المشددة جمع ساجد، وبكياً أصله بُكُوي صار إياه بالإعلال . وهو جَمْعُ باكٍ كشهود وشاهدٍ .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩) إلاَّ مَنْ تابَ وآمَنَ

وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(٦٠) جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاّ سَلاماً ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيّاً(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيّاً(٦٣) وَما نَتَنَزَّلُ إِلاّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ ، وَماكانَ ربُّكَ نَسِيّاً(٦٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فاعْبُدْهُ، وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ؟)(٦٥)

قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف) الخلف بسكون العين الأولاد سواء الجمع فيه والآحاد ، وبالفتح البدل ولداً كان أو غيره • والمشهور أنه بالسكون : العقب السيىء ، وبالفتح : ضده • أي فجاء بعدهم عقب سُوءٍ (أضاعوا الصلاة) أي تركوها ، أو أقاموها مع إخلال بشروطها وأركانها ، أو ما كانوا يصلونها بالجماعة (واتبعوا الشهوات) أي توغلوا في ما اقتضاه هواهُمْ من المعاصي عَلَى اختلافِ أنواعِها (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غيّا) وهو نَهْرٌ في أسفل جهنم فيه من المستقذرات ما لاعينٌ رأت ولا أذن سمِعت • وقيل : الغيّ الضلال • والمراد أنهم لا يجدون في القيامة طريق الجنة (إلا من تابَ وآمنَ وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظْلَمُونَ شيئا) أي لا ينقصون من جزائهم شيئا من الجزاء • أو لا ينقصون شيئا من النقص وشيئا على الأول مفعول به ، وعلى الثاني مفعول مطلق • وقوله (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها اشتمال الكل على الجزء ، على أنها عَلَم لإحدى الجنات الثمان (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) أي متلبسة بالغيب عنهم • أي وعدهم عندما

كانوا في الدنيا وكانت غائبة عنهم (إنه) أي الشأن (كان وعدُه مأتيّـاً) لمن وعد له بها ، فإن الواعد هو الله ووعده حق لا خلف فيه .

(لا يسمعون فيها لغوا) أي فضولَ الكلام ، وهو ما لا طائل تحته (إلا سلاما) الظاهر أن الإستثناء منقطع لأن السلام من غير صنف اللغو . ويجوز أن يكون استثناء متصلا على اعتبار تأكيد المدح بما يشبه الذم . أي إلا لغواً على تقدير كون السلام لغوا ، وليس كذلك . أو على أن المراد بالسلام الدعاء . وما دام أهلُ الجنة في غِنى من هذا الدعاء كان داخلاً في اللغو (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً) والمراد بهذه الجملة استمرار نعيمهم إذ لا وجود لليل والنهار في الجنة ، وإنما هناك حالة واحدة من النور والضياء كما في وقت الأسحار في الدنيا . (تلك الجنة التي نُورث من عبادنا من كان تقيا) تلك إشارة إلى جنات عدن السابقة ، فإن كانت عبارة عن قسم ممتاز من الجنان الثمانية فالمراد بمن كان تقيا المتصفون بالتقوى الكامل أي التقوى عن الكفر وعن الكبائر من المعاصي وعن الإنهماك في الدنيا ، وإن كانت عبارة عن جنات يقيمُ فيها أهل الجنة من أي قسم من الثمانية فالمراد به من كان تقيا عن الكفر بالمعنى المقابل للإيمان ، أي من آمن بالله ورسوله ، ولو كانت له المعاصي لكنها إما توجب العذاب الموقت قبل الدخول في الجنة، أو يشملها العفو فيدخل فيمنزله المخصوص به منها.

وقوله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك) حكاية لقول جبريل ـ عليه السلام ـ ، فقد روي أنه احتبس عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أياما حين سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، فلما نزل قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم احتبستَ عني حتى ضاق صدري واشتقتُ إليك ؟ فقال : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أي يعود الى الله الزمان الذي بين أيدينا من المستقبل وما خلفنا من الماضي

وما بين ذلك المذكور من زمان الحال . أي فلا تتنزل في زمان دون زمان إلا بأمره سبحانه وتعالى ومشيئته (وما كان ربك نَسيّاً) اي ناسيا أحدَ أنبيائه ورسله فضلاً عنك وأنت المبعوث رحمةً للعالمين ، ولكن الحكمة اقتضت ذلك وكيف يكون ربك نسيا وهو (رب السماوات والارض وما بينهما) ؟ من الموجودات ولو بمقدار الذرة ، وكل ذلك مرتبط به وبعلمه وإرادته وقدرته حدوثا وبقاء (فاعْبُدْهُ) مُخلصا له (واصطبر لعبادته) فإنه هو الذي يستحق أن يعبد ويسجد له ويصبر على مشاق تكاليفه وليس أحد شريكا له في الذات والصفات والأفعال والأسماء المختصة (هل تعلم له سميا ؟) أي عديلا في الاسم ؟ كلاّ .

(وَيَقُولُ الْإِنسانُ : أَئِذا مامِتُّ لَسَوْفَ اُخْرَجُ حَيّاً ؟(٦٦) اَوَ لا يَذْكُرُ الإنْسانُ أنّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَم يَكُ شَيْئاً(٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّم جِثِيّاً(٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ اَيُّهُم أشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّاً(٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيّاً(٧٠) وَاِنْ مِنْكُمْ اِلاّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّك حَتْماً مَقْضِيّاً(٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَنَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً)(٧٢)

قوله تعالى (وَيَقُولُ الإنسان :أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ؟!) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنها نزلت في العاص بن وائل . وعن عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل : في أبي جهل وقيل في ابي بن خلف .. أي ويقول أحد أولئك مستنكرا للبعث (أءذا مامِت) وتمزقت وصرت رفاتا

(لسوف أخرج) من مقر أجزائي (حيا) ذا حياة مستقرة مع الحس والشعور والعقل ؟! فيرد الباري على كفره الجاري ويقول (أو لا يذكر الإنسان) المستنكر (أنا خلقناه) وأخرجناه من العدم إلى الوجود (من قبل) أي من قبل الحالة التي هو فيها (ولم يك شيئا) فحيث خلقناه في حالته السابقة المنافية للوجود والشهود فلأن نبعثه بإعادة ما عدم منه وقد كان متصفا بالوجود في وقت ، على ما اختاره بعض أهل السنة ، أو بجميع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض ، على ما اختاره بعض آخر منهم أيضا •• أولى وأظهر • فما له لا يذكر تلك الحالة فيقع فيما يقع فيه من النكير ؟!

وبعد نقل ذلك الاستنكار من أهل الاستكبار يقسم الباري بالاختيار بذاته المقدسة وهو رب المخاطب المختار ويقول : (فوربك لنحشرنهم) أي لنجمعن أولئك القائلين بما قالوا (والشياطين) أي قرناءهم من الإنس والجن الذين كانوا يغرونهم (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) حالكونهم باركين على الركب ، وهو جمع جاث وأصله جثوو فأعل مثل إعلال عتوو (ثمّ لننزعن من كل شيعةٍ) أي جماعة منهم تشايعت وتظاهرت وتعاونت على الباطل (أيّهم أشد على الرحمن عتيا) أي عُتوّا ونُبُوّاً وارتفاعا عن الطاعة (ثم لنحنُ أعلَمُ بالذين هم أولى بها صِليا) أي ثم لنحن أعلم بالمراتب المُرتبة للكافرين الذين هم أولى وأحق بجهنم دخولا ، فندخلهم فيها الأول فالأول •

ثم التفت الباري تعالى وخاطب الناس عموماً وقال : (وَإن منكم) أي وما منكم من أحد (إلاّ وارِدُها) أي داخل جهنم كما ذهب إليه جمع كثيرٌ من سلف المفسرين وأهل السنة ويؤيد بما رواه أبو سمية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماعاً منه قال قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« لا يبقى برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا » وذكر الرازي في تفسيره لهذا الدخول فوائد فراجعه (كان) ذلك الدخول لكل فرد من الناس (على ربك حتما مقضيا) أمرا واجبا منه تعالى بمقتضى إرادته وحكمته فالواجب بمعنى الثابت لا بمعنى المرفوض منه أو عليه ، إذ لا إيجاب منه ولا وجوب عليه كما حقق في موضعه (ثم ننجي الذين اتقوا) ربهم وابتعدوا عن الكفر بالله وبرسله وكتبه (ونذر الظالمين فيها جِثيا) أي ونترك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بربهم في جهنم جاثين على الركب ذائقين عذابهم •

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً(٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ؟(٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ ، وَإِمَّا السَّاعَةَ ، فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً(٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً)(٧٦)

قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا) هذه الآية إلى آخرها حكاية لما قاله المشركون عند سماع الآيات البينات الناعية عليهم بسوء أعمالهم ومآلهم • أي وإذا تتلى عليهم الآيات الواضحات الموضحات للحقائق (قال الذين كفروا للذين آمنوا) مستفهمين عنهم (أي الفريقين) منا ومنكم (خير مقاما) أي مكانا ومنزلا (واحسن نديا) أي مكاناً ومجتمعا وهم في

غباوة وجهالة وضلالة وقساوة ، ولا يدرون بما جرى على الأمم الطاغية العاتية (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أي من أهل قرن (هم أحسن أثاثا ورئيا) من هؤلاء المشركين في زمانك ؟ فـ (قل) لهم في جواب مقالهم ذلك : (من كان في الضلالة فليمدُدْ لهُ الرحمن مداً) بطول العمر وهناء العيش (حتى إذا رأوا مايوعدون إما العذابَ وإما الساعة) أي إما العذاب في الدنيا (وإما) حلول (الساعة) التي هي مآلهم الأخير للعذاب الوفير (فسيعلمون) إذا جاء وقت الإستبصار لهم (من هو شر مكانا) منهم ومن المؤمنين (وَمَنْ هُوَ أضعفُ جُنداً) أي فئةً وأنصارا .

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) في الدنيا إلى طريق السعادة . وهذه الجملة معطوفة على الشرطية الواقعة مقولا للقول أي وقل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا فيها ، وقل : يزيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى لإغاظة أولئك الذين كانوا في الضلالة (والباقيات الصالحات) المختصة بأهل الهدى (خير عند ربك ثوابا وخيرٌ مَرَدّاً) ومرجعا وعاقبة وهي العاقبة الخالدة .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ : لأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَدا ؟!(٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ؟ اَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحمنِ عَهْدا ؟(٧٨) كَلاّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ ، وَنَمدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً(٨٠) واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً(٨١) كَلاّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ،وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً(٨٢) اَلَمْ تَرَ أَنّا أَرْسَلْنا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُم أزّاً؟(٨٣) فَلا تعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً(٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ اِلى

الرَّحْمنِ وَفْداً(٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً(٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً)(٨٧)

قوله تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا) أي بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث .

أخرج البخاري ومسلم والطبراني وابنُ حبان وغيرهم عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً قيّنا ، وكان لي على العاص بن الوائل دين ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تموت ثم تُبْعَثَ . قال : فإني إذا مِت ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمَّ مال" وولد فأعطيكَ ! فأنزل الله تعالى (أفرأيت) ... الآية والهمزة للتعجب من حال أولئك الكافرين أي أنَظرتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقها أن يؤمِنَ بها كلّ من اطلع عليها (وقال) مستهزئا بها مصدرا كلامه باليمين الفاجرة قائلا : والله (لأوتين) في الآخرة (مالاً وولدا) وكيف تجاسر على هذه اليمين الفاجرة (أطلع) عَلَى (الغيب) الذي استأثر الله تعالى بعلمه (أم اتخذ عِندَ الرحمن عهداً ؟) أي أم أعطاهُ الله تعالى عهداً وموثقا وقال له إن ذلك كائِن" لا محالة (كلا) زجر" عن التكلم بالكلام السابق المؤكد باليمين (سنكتب مايقول) أي سنظهِرُ مايَقُولهُ (ونمد له مِن العذاب مدا) بدلَ ما يدّعيه مِنْ قبلِ نفْسه وهواه من إيتاء المال والولد ، أي نطول له من العذاب ما يَستحقه (ونرِثهُ ما يقول) أي نَسْلُبُ منه ذلك ونأخذه أخذ الوارث التركة من مورثِهِ . (ويأتينا يَومَ القيامة فرداً) ليس معه ماله ولا ولدهُ الذان كانا معه في الدنيا .

(واتخذوا مِنْ دون الله الهة) أي وليس كذبهم مختصا بما سبق وليس القائل بالكلمات الفاسدة شخصا واحدا بل هم كثيرون لهم أكاذيب (واتخذو من دون الله آلهة) مزعومة (ليكونوا) أي تلك الآلهة (لهم عزّاً) وعوناً (كلاّ) ردع عن ذلك الاتخاذ وعن إفادته شيئا فإنهم (سيكفرون بعبادتهم) يوم القيامة أي يُنْطِق الله تلكَ الأحجار والأشجار بإنكار مافعَلوا واستنكار عبادته ويشهد من كان له نطق بذلك (ويكونون عليهم ضدا) أي بدل أن يكونوا عزاً وعونا لهم يكونون من أسباب الهُونِ والحقارة والذل لهم ، وإذا لم تعلم أسباب ذلك الغرور والأكاذيب الصادرة منهم فاعلم أنها إلقاء الشياطين •

(أَلم ترَ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) وجَعَلناهُم قُرناء لهم مُسيطرين على قلوبهم (تؤزهم أزّاً) أي تغريهم إغراءً على الأكاذيب والأباطيل وتُهيجهم على المعاصي وهم يستمرون عليها ، لذلك (فلا تعجل عليهم) أن يهلكوا من قريب فإنهم لا يفرون من قدرة الله (إنما نعد لهم) الأيام والأنفاس (عدّا) محدوداً ، وهذه كناية عن اقتراب أجلهم فإن من كان محتضرا لم يبقَ له إلا أنفاسٌ قليلة قابلة للعد لقلتها حتى إذا هلكوا جاءَ وقتُ مجازاتهم (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) أي ركبانا بعز وكرامة وراحة (ونسوقُ المجرمينَ الى جهنم) حالكونهم (ورْدا) أي عطاشا والورد مصدر ورد أي صار إلى الماء • وهنا بمعنى الوصف المفرد الواقع في معنى الجمع أي واردين (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) الضمير يرجع الى العباد المستفاد من ذكر المتقين والمجرمين أي لا يملك أحد منهم الشفاعة لأي واحد من العصاة المجرمين إلاّ من تحلى بفضائل وكمالاتٍ نفسية حاصلةٍ له من عبادة ربه بإخلاص واستأهل لأن يشفع لهم ، وقد أذن له الرحمن بالشفاعة لهم كالأنبياء والمرسلين

والصالحين من العباد لاسيما سيدهم صاحب المقام المحمود ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه فاتح أبواب الشفاعة لهم كما صرح به الصحاح. ونسأل الله أن يجعلنا من المستحقين لها بفضله ورحمته إنه قريب مجيب.

(وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدّاً (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً (٩٦) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ! هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)(٩٨)

قوله تعالى (وقالوا) أي المجرمون من العباد المذكورين بقرينة المقول: (اتخذ الرحمن ولدا) وهم اليهود القائلون بأن عزيرا ابن الله ، والنصارى القائلون بأن عيسى ابن الله ، والمشركون الزاعمون أن الملائكة بنات الله. فرد الله عليهم على وجه الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقال (لقد جئتم) أيها القائلون بما لا يوافق (شيئا إدّاً) أي بشيء منكر لا يقادر قدره والأد بالفتح مصدر أَدَّ يَئِدُّ أدّاً أي جاء بشيء منكر وبالكسر اسم للأمر الفاسد المنكر العجيب (تكاد السماوات يتفطرن منه) جملة مستأنفة لبيان عظم شأن ما افتروه يعني يقرب أن تتفطر السماوات من هيبة ذلك الإفتراء

(وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا) أي تسقط الجبال على قواعدها سُقُوطاً (أنْ دعوا للرحمن ولدا) أي لأن دعوا للرحمن ولدا (إِنْ كلّ من في السماوات والأرض) أي ما كل من في السماوات من الملائكة والجن والإنس (إلا آتي الرحمن عبدا) أي إلا آتيه بصفة العبودية وفي حالِ كونه عبداً مملوكا له تعالى (لقد أحصاهم وعدّهم عدا) أي والله لَقَد ضَبَطَهم وأحاط بهم وعدهم شخصا شخصا (وكُلهم آتيه يومَ القيامة فرداً) منفرداً من كل من يعاونه •

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ ودّاً) أي مَوَدّةً في القلوب لإيمانهم وأعمالهم الصالحة • فقد أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببتُ فلانا فأحبوه ، فينادي في السماء ، ثم تنزل له المحبة في الأرض • فذاك قولُ الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) » ••• الآية (فإنما يسّرناه بلسانِك) أي فإنما يسرنا القرآن الكريم وجعلناه على لغتكَ العربية الفصيحة (لتبشر بهِ المتقين) بامتثال الأوامر والنواهي (وتنذر به قوماً لدا) وهو جمع ألدّ أي قوما شديد الخصومة مع الله ورسوله • (قوله تعالى : وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وعيد للمشركين وسائر الكافرين الذين آذوا الرسول ــ عليه السلام ــ بالإهلاك أسوة بالكفار السابقين ، كما أن فيه وعدا وتبشيرا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالنجاح والبقاء واللقاء (هل تحس منهم من أحد) أي هل لك إحساس بواحد منهم (أو تسمع لهم ركزا) ؟ أي صوتا خفيا • وأصل التركيب للخفاء والغيبوبة • والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا ترى منهم أحدا ولا تسمع منهم صوتاً خفيا فضلا عن صوت عال • والمعنى محوناهم وأسماءهم وأما أسماء الانبياء فباقية إلى الأبد •

سورة طه ، مكية ، وهي مائة وخمس وثلاثلان آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(طـه(١) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرآن لِتَشْقى(٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى(٣) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّماواتِ العُلى(٤) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى(٥) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما في الأَرْضِ ، وَما بَيْنَهُما ، وما تَحْتَ الثَّرى(٦) وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى(٧) أللهُ لا إلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى)(٨)

قوله تعالى : (طه) من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة • وفي معناها أقوال مرَّت نظائرها في باقي الفواتح • واعتقد أنها من الرموز الواقعة بين الله وبين حبيبه • وقوله (ما أنزلنا عليكَ القرآن لتشقى) معناه ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتهلِكَ نَفْسَكَ بمكابدة الشدائد والأذى الواردة عليكَ من مجابهتهم ومخاطبتهم ، ولا لإيصالهم إلى مايراد فإن ذلك من أفعال الخالق • وقوله : (إلا تذكرة لمن يخشى) إستثناء منقطع يعني لكن أنزلنا عليك القرآن إرشادا وتذكيرا لمن يخشى، أي لمن في قلبه رقة وخشية إذا سمع التذكير تذكر ، وإذا صادف الوعظ والإرشاد تأثر • وقوله (تنزيلا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي نُزل تنزيلا • أو حال" من القرآن على تأويله باسم المفعول ، أي حالكون القرآن منزلا (مِمَّن خلق الأرض

والسماوات العلى) أي ومبدأ هذا التنزيل من الله الواجب الوجود الـذي خلق الأرض التي ترونها بهذه المناظر العجيبة وتعلمونها محتوية على المعادن النفيسة. وخلق السماوات السبع العُلى، وعلى جمع عالية أو مصدر بمعنى العلو، والمضاف محذوف أي ذوات العلو، ومن كان قادرا على خلق هذه المواد بتلك الصفات إذا نزل كلاما لإرشاد الأنام على حبيبه الهمام لابد أن يبلغه إلـى غاية المرام منه ويوفق رسوله الذي نزله عليه لتبليغه ونشر الإسلام .

وقوله (الرحمن) مرفوع على المدح أي هو الرحمن يريـد من إنزال القرآن عليك أن يرحمك ويرحم الناس المتقبلين له . وقوله (على العرش استوى) خبر بعد خبر للمبتدأ المقدر وهذه الجملة الجميلة المهمة المهيبـة بدلالتها على استيلاء الرحمن على العرش وما تحته وأمثالها من قوله (بـل يداه مبسوطتان) و (وهو معكم أينما كنتم) وغيرهما فيها للمفسرين رأيان :

أحدهما : أنها مجازات مستعملة في العرف في معانيها المقصودة مـن استيلاء الباري ووجود قدرة البسط والقبض له ، وإحاطـة علمه بسـائر المعلومات إلى غير ذلك فإن الله تكلم بها مع الناس العقـلاء ولهـم عـرف معـروف في المـراد بهـا .

والثاني أنها باقية على معانيها الحقيقية ، والإيمان بها واجب لكـن تفويض المراد إلى خالق العباد وتجريدها عن لوازمهـا الموجبـة للجسمية والتمكن في المكان وغيرهما ، بدليل الآيات المحكمات والأخبار الناطقة بأنه تعالى لا يحويه زمان ولا مكان وليس له أجزاء واحتياج إليها ، وإلا فكـل عاقل يؤمن بأن العرش وما سواه حادث فهل كان الله تعالى قبل خلق العرش في مكان آخر ثم تحول عنه إلى العرش ؟ وإذا هُوَ في السماء فأين كان قبل خلق السماء ؟ ثم هو في سماءٍ أي قطرٍ من الأقطار ؟ تعالى عن ذلك علوا

كبيرا ، ليس كمثله شيىء ، ولم يكن له كفواً أحَد" ، وهو غني عن العالم والعالمين • فالحق أنها مجازات لمرادات مخصوصة للقرائن العقلية المحيطة بالموضوع ، وإذا لم تحمل عليها فلابد أن يؤمن بها مع تنزيه الباري عن كل ما يناسب الممكنات الخاصة ويؤيد ذلك الآيات" التالية لها من قوله تعالى (لهُ ما فِي السماواتِ ومَا في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى ، ألله لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنى) •

فإن الآية الأولى دليل على ان جميع محتويات السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات الكائنة فيه التي لا يعلمها إلا الله • • مختصة بالله تعالى، ومن آثار قدرته وتجليات تكوينه ، وكلها كقطرة في بحر علومه الا متناهية • وذكر ما تحت الثرى لخفائه على العيونِ الناظرة • والمراد به ما تحت الطبقة الأخيرة من طبقات الأرض يريد أن ما اختفى على الورى يَجْلُو عَلَى الله ولَوْ تحت الثرى •

والآية الثانية تدل على أن علمه تعالى محيط بكل شيىء بعد بيان إحاطة قدرته به وأن الجهر بالقول والإسرار به متساويان عنده فلا يزيده الجهر به علماً ولا الإسرارُ به يقتضى كتماً • كما يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلا يخفى عليه ما يحدث وراء الحجب والستور •

والآية الثالثة تدل على أن المنزلَ للقرآن الخالق للاكوان ذات" واحد معلم" باسم الجلالة (ألله) أي هو الله ، ولا إله إلاّ هو أي لا معبود بحق سواه فإن ما سواه هو الذي سواه ، ولولا هو ما كان له ذاته ولا ماتهواه ، وان له الاسماء الحسنى التي هي أحسن الأسامي لدلالتها على تنزيه المسمى بها من كل نقصان يتصوره الإنسان • وتلك الأسامي ، وإن كانت متعددة

في التعبير المعقول وتحرير المدلول ، لكنها كلها ما عدا اسم الذات تدل على صفات تليق بوحدة الذات وعلى وحدته يتحقق الفرق بين الواجب والممكن الوجـود

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل على شيء من الحسن واجد

وكل من هذه الآيات تعبير عن وجوب وجوده وحياته وعلمه وإرادته وقدرته وكلامه وسمعه وبصره ، وأنه ليس من نوع الأعيان ولا مما يحتويه الذكر والبيان فسبحانه من إله ينطق كل موجود بأنه واجب الوجود وأن ما سواه مخلوق وبه جاء إلى عالم الشهود وكل من أفـراد تلـك الموجودات مسخر لنوع من المقصود وخادم حسب إرادة الملك المعبود ، فلا اله غيره ولا معبود سواه ومن أراد الفوز بالسعادة في دنياه وأخراه فليلزم إيمانه به وكماله ثم يلتـزم تقـواه .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ؟!(٩) إِذْ رَأَى نَاراً ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ، أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ، فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى :(١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)(١٦)

قوله تعالى : (وهل أتيك حديث موسى) جملة مسوقة لبيان أنباء موسى وإرساله إلى أطغى طاغ وأعصى عاص في عصره • وكان يخاف منه خوفا شديداً ، ومع ذلك فقد أطاع وذهب إليه وبلغه ما أمره به ربه ، وأنت من أولئك الرسل وعليك التأسي بهم في تحمل ما ينالك من أذى الكفار المتمردين • والإستفهام للتقرير وقيل لا إستفهام حقيقة • وهل بمعنى قد • وقيل : الإستفهام إنكاري ، ومعناه : إنه لم يأتك إلى الآن نبأ موسى بهذا التفصيل المذكور هنا ، والحديث بمعنى الخبر ، ويصدق على القليل والكثير، ويجمع على أحاديث بغير القياس •وقال الفراء : نرى أن واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعا للحديث • وقال الراغب : الحديث كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظة أو منام ، ويكون مصدرا بمعنى التكلم ، وعليه يتعلق به الظرف أي (إذ رأى نارا) في وقت احاجته إليها ، (فقال لأهلِهِ : امْكثوا) أي أقيموا مكانكم (إني آنَستُ ناراً) أي أبصرتها إبصارا بيناً لا شبهة فيه (لعلي آتيكم مِنها) أي أجيئكم من النار (بقبس) أي بشعلة مقتبسة تكون على رأس عود ونحوه ، فقبس بمعنى مقبوس وهو المراد بالشهاب القبس وبالجذوة في آية أخرى ، (أو أجد على النار هُدًى) أي هاديا يدلني على الطريق • رُوي أن موسى ــ عليه السلام ــ استأذنَ شعيباً في الخروج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه ، وقد طالت مدةُ جنايته بمصر ورجا خفاء أمره ، فأذِن له وكان ــ عليه السلام ــ رجلاً غيوراً ، فخرج بأهله ولم يصحب رفقة لئلا ترى أمرأته ، وكانت على أتان ، وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت ، ومعهُ غنم له ، وأخَذَ ــ عليه السلام ــ على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام ، فلما وافى وادِيَ طُوى وهو بالجانب الغربي من الطور ولدت زوجته له ولدا في ليلة مظلمة شاتئة مثلجة ، وكانت ليلة الجمعة ، وقد ضل الطريق وتفرقت

ماشيته ولا ماء عنده ، وقدح فصلد زنده ، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور ، فقال لأهله ما قال . (فلما أتاها) أي أتى النار التي آنسها وكانت كما قال ابن عباس في شجرة عناب خضرة يانعة حتى وقف منها قريبا ينظر إليها وبينما هو كذلك إذ (نودي : يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك) أي أزلهما من رجليك (إنك بالواد المقدس طوى) تعليل لموجب الخلع المأمور به وبيان لسبب الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها . وروي أنه ـ عليه السلام ـ حين أمر خلعهما وألقاهما وراء الوادي . وطوى علم لذلك الوادي ، ومن نونه صرفه باعتبار المكان ، ومن لم ينونه جعله غير منصرف للعلمية والتأنيث باعتبار البقعة .

(وأنا اخترتك) أي اصطفيتك من الناس أو من قومك للنبوة والرسالة (فاستمع لما يوحى) ويقال لك (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) وحدي (وأقم الصلاة لذكري) أي لتذكرني بإقامتها وقوله (إن الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أي إن الساعة كائنة لا محالة (أكاد أخفيها) ولا أقول آتية" في ذلك الوقت المعين بالذات حتى يبقى قدر الإيمان بالغيب وإتيانها المحقق (لتجزى كل نفس بما تسعى) فيه فمن عبدني وأقام الصلاة لذكري إستحق الجزاء بالخير في جنتي ، ومن خالف ذلك خولف في حقه على حسب مخالفته وابتعاده عن رحمتي (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) قيل الضميران راجعان للصلاة ، وقيل : ضمير عنها راجع الى الصلاة ، وضمير بها إلى الساعة أي فلا يمنعك عن العبادة وإقامة الصلاة من لا يؤمن بالساعة وحلول يوم الجزاء (واتبع هواه) أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فتهلك ، فإن الغفلة عن الساعة وما فيها من الجزاء مقتض للشقاء والهلاك الأبدي أعاذنا الله عنه .

(وما تِلْكَ بِيَمينِكَ يا مُوسى ؟(١٧) قالَ : هِيَ عَصايَ ، أَتَوَكَّؤُ عَلَيْها وَأَهُشُّ بها عَلى غَنَمي ، ولِيَ فيها مآرِبُ أُخْرى ...(١٨) قالَ : أَلْقِها يا مُوسى(١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى(٢٠) قالَ : خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعيدُها سيرَتَها الأُولى(٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أخْرى(٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الْكُبْرى(٢٣) اِذْهَبْ اِلى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ طَغى(٢٤) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري(٢٥) وَيَسِّرْلي أَمْري(٢٦) واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي(٢٨) واجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أَهْلي(٢٩) هرونَ أَخي(٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْري(٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْري(٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثيراً(٣٣) ونَذْكُرَكَ كَثيراً(٣٤) إنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصيراً)(٣٥)

قوله تعالى : (وما تِلك بيمينك ياموسى ؟) شروعٌ في بيانِ ما كافه به من الأمور المتعلقة بخلعة النبوة والرسالة ، وتقريرٌ له بأن ما عنده لا يزيد على كونه عصاً من الخشب ، وأن ما يراه منه بعدُ فإنما هو من خوارق العادة التي يخلقها خالق الكائنات والنواميس المعتادة وغير المعتادة فيها حتى يطمئن قلبا في تبليغ رسالته .اي وما حقيقة تلك العصا التي أخذتها بيمينك؟ وما آثارها ومنافعها ؟ (قال : هي عصاي) أي حقيقتها خشب من الأخشاب المعلومة ، وأما منافعها وعوارضها فهي أني (أتوكؤ) أي أعتمد (عليها) وأتحاملُ في المشي والتخطي الممتاز على الحفراتِ والأنهار (وأهُشّ بها على غنمي) أي أخبِطُ بها أوراق الأشجارِ وأضربها لتسقط على غنمي فتأكلها (ولي فيها مآرِبُ أخرى) أي حاجات أخرى جمع مأرب بمعنى

الحاجة ، وعومل في وصفه معاملة المفرد فقال أخرى كبشرى ، ولم يقل أُخرَ جمع أخرى ، وذلك في غير الفواصل وفيها أجودُ وأحسن .

وقد روى الإمام أحمد في تعيين هذه المآرب : إنه كان لها شعبتان ومحجن" تحتهما ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا أراد كسره لو"اه بالشعبتين ، وكان إذا وقع في البرية حيث لا ظل له ركزها ثم عرض بالزندين الزند الأعلى والزند الاسفل على شعبتيها وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان يرتفع ، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها ، وكان يقاتِل بها السِّباع عن غَنَمِهِ ، وكان إذا شاء ـ عليه السلام ـ ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنائنَهُ ومخلاته وثوبه وزاداً كان معه .

ولما ذكر له تعالى ما علمه منها قال تعالى له : (ألْقِها يا موسى) لترى مِن شأنها ما ترى (فألقيها فإذا هِيَ حيّة تَسْعى) تمشي وتنتقل بسرعة فخاف منها موسى (فقال) تعالى له (خذها ولا تخفْ) منها (سنُعيدها سيرتها الأولى) حتى يكون عودها إليها معجزة أخرى مضافة الى الأولى وخوف الرسل على الطبيعة الأنسية والغريزة النفسية وعدمه على العلم بالهيبة القدسية ، فإنها إذا وَرَدت على النفس منعت الخوفَ ، ولا تخاف إلا من جانب القدس وقوله تعالى (واضمم يدكَ إلى جناحِك تخرج بيضاء من غير سُوء آية أخرى) والجناح : اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد . وهذه الفقرة إضافة معجزة أُخرى إلى ما علمه سابقا توثيقا له وتطمينا وتأمينا لنفسه من جانب قدسه . أي واضمم يدك إلى إبطك أو الى جانبك تخرج بيضاء منيرة مُشرقة كأنها مشعلة مصباح ترى بها ما أمامكَ وذلك حاصل من غير سوء اعتراها من برص أو علّة أخرى حالكون هذه الظاهرة آيةً أخرى من الآيات التي أُوتيتها (لِنُريكَ مِن آياتنا الكبرى) أي آتيناكها لنريك بعض آياتنا التي هي كبريات الآياتِ لأن خلقَ الحياة في غصن

يابسٍ مِن نَباتٍ ثم عوده إلى حالة اليبس والممات وإشعال مادة ليس فيها الضوء ذاتا ولا ربط" بما فيه ذلك معجزة أيةُ معجزة !

ولما اعْدَدتُ لك هذهِ المُعداتِ (فاذهب إلى فرعونَ) ملك الأقباط (إِنه طغى) أي جاوز الحد في التكبر والطغيان ، فإن الإنسان يمكن أن يدعي ما يصلُ إليه من العقل والعلم والإمارة والأفكار ، ولكن لا يمكن أن يصل إلى الربوبية وقهر السماوات والأرض وما فيها • ثم إن الإنسان العاقل المعتدل هو الذي يعيش مع العقل بالأمان ويعامل به مع بني الإنسان كما يحب أن يعامل به في دنياه وهو المعبر عنه بأهل الوجدان ، وإذا وصلَ إلى درجة التغابي عن تعذيب الناس وقتل الأبرياءِ وهتك الأعراض ونهب الأموال فقد ذهب إلى جانب اليبس والشقاء وجحد إنسانيته وكرامته الإجتماعية ، وسنة الله تعالى جرت على أن إنساناً كذلك لا يفوته القضاء المبرم الذي يأتيه ليلا أو نهارا سرّاً أو جهارا ، كما أن سنة الله جرت بإسماعِهِ المواعظ الزواجر لعله يرجع إلى الاعتدال •

ولما علم موسى ـ عليه السلام ـ بأمره تعالى وأنه مأمور بالقيام بهذا الأمر الخطير الذي يحتاج في القيام به إلى حلم وصبر وقابلية تامة دعا ربه وقال : (ربِّ اشرح لي صدري) أي وسعه بحيث يسع ما يرد عليه من الأذى والكلام المؤلم من فرعون وأتباعه (ويسر لي أمري) وسهل هذا الأمر الخطير الذي لا يقدم عليه إلا أصحاب الهمم والعزائم المتينة المؤيدة منك • وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة منه تعالى كما وهبه لموسى وأسكن قلبه بحيث لم يضطرب بمواجهة فرعون ومجابهته (واحلل عقدة من لساني) روى أنه كان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره • وذلك أنّ فرعون حمله يوماً فأخذَ خِصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر فتطير منه ، فدعا بالسياف • فقالت آسيةُ بِنتُ مزاحِم امرأته ، وكانت تُحِبّ موسى ـ عليه السلام ـ ، :

إنما هو صبيّ لا يفرق بين الياقوت والجمر فأحضروا لديه وأراد أن يمد يده الى الياقوت لحسنه ، فحول جبرئيل ـ عليه السلام ـ يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانه • وفي ذلك إرهاص" له ـ عليه السلام حيث لم تُحرق النار يدَه ، وحكمة" حيث أن يده كانت آلة لإهانة فرعون بجر لحيته •

وقوله (يفقهوا قولي) جواب للطلب وباجابته يحصل مزيد من الإطمئنان له في قبول دعواته في مهماته ، ومقصوده أن تزول تلك العُقدة المانعة من سلاسة أقواله ليفهم الناس كلامه في بيان مرامه ، وقد أجابه ربه بالإستجابة كما سيظهر (واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري) أي واجعله لي معاونا في تحمل أعباءِ الرسالة وتبليغها • والوزير من الوزر بمعنى الحمل الثقيل ، أي مساعدا يحمل معي بعض أعبائي العسيرة • وقوله (هرون) عطف بيان إذا لم يشترط التوافق في التعريف والتنكير ، وإلا فبدل منه • وقوله (أخي) عطف بيان لهارون لدفع توهم إرادة شخص آخر مسمى بذلك الاسم • وقوله (اشدد به أزري) أي اشدد به قوتي ، بيان لحاجته إلى المعونة في الأمر وقوله (وأشركه في أمري) رجاء لإعطائه شرف الرسالة • وقوله تعالى (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيراً) غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة • وقوله (إنك كنت بنا بصيرا) أي عالما بأحوالنا وبأن ما دعوتك به من مصالحنا غاية" في إظهار عجزه وضعفه عن أداء ما كلف به بدونِ عون منه ومزيد رعاية وعناية إلهية ، وهو كذلك •

(قالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسى(٣٦) وَلَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى :(٣٧) اِذْ أَوْحَيْنا اِلى أُمِّكَ ما يُوحى(٣٨): أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التّابُوتِ ، فَاقْذِفيهِ فِي اليَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ

الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وعدوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْني(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسى(٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)(٤١)

قوله تعالى : (قال : قد أوتيت سُؤلكَ يا موسى) إعلانٌ لاستجابة طلباتِ موسى ـ عليه السلام ورغباتهِ والسؤل بمعنى المسئول كالخبز بمعنى المخبوز ، أي قد أعطيت كل ما طَلبته مني من : شرح الصدر ، وتيسر الأمر ، وإمدادك بأخيك هارون ـ عليه السلام ـ في حمل أعباء الرسالة ، وإشراكه لك في ذلك الأمر (ولقد مننا عليك مرةً أخرى) في وقتٍ غير هذا الوقت ، يعني أن إجابة طلبك هنا كانت منة منا عليك كما كانت لنا منة أخرى من غير طلب وهي ما تحققت (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى) أي أَلهمنا اُمك بأمر مهم جدا عندما خافت عليك من زبانية فرعون • وتفسير الإيحاء : (أنِ اقذِفيه في التابوت) أي ضعي ولدك موسى في صندوق (فاقذِفيه في اليمّ) أي ألقيه في نهر نيل (فليلقه اليمّ بالساحل) أي بالشاطىء وهو الجانب الخالي من الماء (يأخذهُ عدو لي وعدوٌ له) جواب للأمر بالإلقاء ، وتكرير العدو للمبالغة في عداوته • وفي سوق صيغة الأمر للبحر وهو غير فاهم بناء على تشبيهه بعاقل فاهِم مطيع للأوامر ، ففي اليم إستعارة بالكناية وتوجيه الأمر إليه تخييل وفيه إشارة إلى أن اليم سيطيعني في إنجائك وإغراق عدوك ، وقوله تعالى : (وألقيت

عليك محبة مني) معطوف على قوله أوحيت إلى أمك فتكون واقعة في حيز بيان المنة المراد بها الجنس •

روي أن أمه ـ عليه السلام ـ حين أُوحي إليها ما أُوحي جَعَلته في تابوتٍ ، من خشب ، وسدت خروقه ، وفرشت فيه نِطعاً ، وقيرته ، وألقته في اليم ، فبينما فرعون في موضع يشرف على النيل وامرأته معه إذ رأى التابوت عند الساحل • فأمر به ففتح ، فإذا صبيٌ أصبحُ الناسِ وجهاً ، فأحبّه هو وامرأته حبّا شديداً ، وكان بحيث إذا رآه أيّ إنسانٍ أحبّهُ •

وقوله (ولتصنع على عيني) متعلق بقوله (ألقيتُ) على أنه عطفٌ على مقدر أي ليتعطف عليك ولتصنعَ عَلى عيني • أي وليِفعل بك الصنيعة والإحسانَ في رعايتي ومراقبتي لك وقوله (إذ تمشى أُختكَ) ظرف لتصنع أي تمشى أختك إلى بيتِ فرعون (فتقول) لأهله : (هلْ أدلّكم على من يَكفُلُه ؟) أي يضمه إلى نفسه ويخدمه بالإرضاع والحضانة والملاحظة • فلبى أهلُ فرعون كلامها (فرجعناك الى أمك كَي تقر عينُها) بلقائِك (ولا تحزنَ) من فراقك، وما يأتى عليك من العوارض (وقتلت نفساً) هي نفس القبطي المتكاونِ معَ الإسرائيلي المستغيث بموسى واسمه قانون (فنجيناك من الغم) الناشيء من قتله اي مخافة الله وعقابه على القتل ، ومخافة آل فرعون من قتله في قصاصه • ونجاته من الأول بالمغفرة حين قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي • ومن الثاني بالمهاجرة من مِصرَ إلى مدْين (وفتناك فتونا) أي ابتليناك ابتلاء لأن فتوناً مصدر كجلوس (فلبثتَ سِنين في أهل مدين) بيان لنجاته باعتبار المهاجرة ، أي فهاجرتَ من مصر إلى مدين وبقيتَ هناك على الهناء في أهل مدين ، وتزوجت (ثم) ألقيت الى قلبك حبّ لقاءِ الأهل فـ (جئت) إلى المكان

الذي قررته (على قدر) وتقدير أي في الوقت الذي عينته لك (يا موسى واصْطنعتكَ لنفسي) أي وإنما عاملتك بهذه المعاملة الجميلة والوجوه المناسبة لأني خَلقتكَ لِتكونَ من خواصي وأحبائي شبهه فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه لنفسه •

(اِذْهَبْ اَنْتَ وَأخوكَ بِآياتي ، وَلا تَنِيَا في ذِكْرِي(٤٢) إذهَبا إلى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ طَغى(٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشى(٤٤) قَالا: رَبَّنا إنَّنَا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى(٤٥) قالَ : لا تَخافا إنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى(٤٦) فَأْتِياهُ فَقُولا : اِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَني إسْرائيلَ ولاتُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى(٤٧) إنَّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنا أَنَّ الْعذَابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلّى)(٤٨)

قوله تعالى : (اِذهب أنتَ وأخوك بآياتي) إستئناف سيق لبيان المقصود من الإصطناع لنفسه جل جلاله ، يعني ما دام الأمر كذلك فاذهب أنت يا موسى وأخوك هارون مع آياتي البيّنات ومعجزاتي القاهرات الباهرات من : العصا ، واليد البيضاء ، وإجابة باقي المطالب ••• او مع سائر الآيات التي ستحتاجون إليها في ترويج أمركم وغلبتكم على المقصود (وَلا تَنِيا في ذكري) أي ولا تفترا ولا تهنا في ذكري ونشر توحيدي وتمجيدي ودعوة الناس الى شريعتي • وجمع هارون مع موسى ـ عليهما السلام ـ في الخطاب مع غيبته للتغليب باعتبار أن نبوته ورسالته لما كانتا باقتراح سيدنا موسى فكأنه حاضر معه أبدا (إذهبا الى فرعون انه طغى) ومن سنتنا أنه كلما طغى جبار في الأرض وتجاوز الحدّ أن نكسرَ شهرته

ونقطع نصرته ونبيدَ أسرته ، لاختصاصنا بالكبرياء والتزامنا معونة الضعفاء، لكنه رجل جبار عنيد لا يقبلُ دماغُه سماعَ الكلام الشديد (فقُولا لَــهُ قولاً ليناً) مناسبا ولا تعنفاه في قولكما وارفقا بِهِ في الدعاء حتى تكــونَ الحجة لكما في انتقامنا منه و (لعله يتذكر) ويتأمــل في حالــه ومستقبله فيذعِنَ للحق ويُؤمِــنَ (أو يخشــى) أن يكــون كمـا تصـفانه لــه فيتوجه أيضا إلى الإيمان فإنه ينشأ من العقل والتفكر والتذكر ، أو مــن خوف العقاب من الرب المتعالي المصيطر • وهكذا شأن العباد المدعويين إلى الإيمان إما يستعملون العقل والتذكر حتى يتبصروا ، أو يخافون من الابتلاء فينقادون • وبعد ذلك يتدرجون بالمهلة حتى يصير الإيمان المشوب بالخوف إيمانا واقعيا متسرباً إلى القلب والمشاعر •

وقوله تعالى : (قالا : ربنا إننا نخافُ أن يفرطَ علينا أو أن يطغى) بإسناد القول إليهما يفيد أنه أوحى الى هارون وهو بمصر أن يتلقى أخــاه موسى ــ عليهما السلام ــ فجاء إليه • وقيل سمع بإقباله فأتى إليه • وعلى كل حال فقالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ويعجل بإصدار الأمر بعقوبتنا ، ولا يصبر إلى إتمام كلامنا معه في الدعوة ، أو أن يطغــى في مقام قدســك ويتجاوز بالقول بما لا يناسب ذات الحق أو أن يطغى ويأمر بإبادة جميــع الإسرائيليين الموجودين في مصر • (قال : لا تخافا) من ذلك (إنني معكما) بالحفظ والصيانة عما يضركم أو يضر أهلكم (أســمع) كــلامَ الطرفين (وأرى) كليهما (فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك) الذي خلقــك ، أرسلنا إليك للتفاهم معك في الإيمان بربوبيته والإذعان لحكمه بالعدل والإحسان ، فإن كنت تقبل ذلك (فأرسل معنا بني إسرائيل) وأطلقهم مــن الأســر والسجن حتى يعودوا الى أرض الشام ، (ولا تعذبهم) بإبقائهم على ما كانوا عليه من الأسر والحبس والتحقير والتسخير للأعمال ، (قــد جئنــاك بآيةٍ)

عظيمة (مِن ربك) شاهِدةٍ على رسالتنا (والسلام) من العذاب والردى (على من اتبع) الحق والهدى بتصديق ما ألقي إليه من الرسل فإذا أَطعتَ سلِمتَ مِن كل عذاب فـ (إنا قد أوحي إلينـا أن العذاب على من كذب) بآياته البينات (وتولى) عن قبولهـا •

(قالَ : فمَنْ ربكُما يا موسى(٤٩) قالَ : رَبُّنَا الَّذي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى(٥٠) قالَ : فَما بالُ القُرُونِ الأُولى ؟(٥١) قالَ : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي في كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسى(٥٢) الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَى(٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنعامَكُم إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِأُولِي النُّهى(٥٤) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى(٥٥) وَلَقَدْ أَرَيناهُ آياتِنا كُلَّها فكذَّبَ وَأَبى)(٥٦)

قوله تعالى : (قال : فمن ربكما يا موسى ؟) معناه قال فرعون بعد سماع كلامهما متكبرا عن إسناد الرب إليه : فإذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبراني من ربكما الذي أرسلكما سائلا عن شخصيته وصفته المميزة له ؟ فـ (قال) موسى ــ عليه السلام ــ (ربنا الذي أعْطى كل شيىء خلقه) والخلق مصدر بمعنى الإيجاد والإبداع أي أعْطى كُلَّ فرد يسمى شيئا من الموجودات خلقه وإبداعه وإخراجه من العدم إلى الوجود ، أي ربنا الله الذي هو الموجِدُ لكلّ موجود ، أو هو بمعنى المخلوق وإضافته الى الشيىء للملابسة والإختصاص • أي أعْطى كلّ فرد من أفراد الموجودات من الأعيان وأجزائها وأعراضها الوصف المخلوق الذي يناسبه

بحسب ما خُلِق له ويَتَطَلَّبُهُ لسانُ استعداده فأعطى الإنسانَ من حيث هو إنسان تصويره وتقويمه ، ورفعَ رأسه إلى السماء وجعل رجليه الى الأرض ، ويديه الى الجانبين وخلق أجزاءه من : الرأس ، والوجه ، والسمع ، والبصر واللسان ، والحلق ، والحلقوم ، والصدر ، وما فيه ، وما دونه ، ماينا‌سبه ويوافقه • أي خلقَ المخلوقات على أحكم وجه وأتقنه على ما أراده الباري من تخصيصه بحصةٍ زائدة عالية أو سافلة أو مناسبة (ثم هدى) وأرشد ذلك الموجود إذا كان من ذوي العقل المتفكر أو الحواس الى معرفة ربه أو العلم بحاجياته وما يتطلبه ، أو هداه إذا كان عاقلا إلى الإستدلال على وجود خالقه أو على وسائل تطوره •

وأما سؤاله عنه بكلمة ما كما في سورة الشعراء فكان بعد السؤال الاول لأنه لما وصفه بتلك الاوصاف المختصة المفيدة لهويته الذهنية طلب ماهيته ، أو كان بينهما لقاءات فمرة يسأل عن هذا وأخرى عن ذلك (قال) فإذا كان ربكما موصوفا بما قلت ، وهو يستدعي أن يعبده الإنسان جيلا بعد جيل (فما بال القرون الاولى ؟) التي عصت وتكبرت ولم تهتم بعبادته وإطاعته (قال) موسى (علمها عند ربي) وهي من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى الذي ثبتَ وتحقق معلومه (في كتاب) بمعنى الصفة الذاتية الكاشفة للمعلومات أزلا وأبدا أو بمعنى اللوح المحفوظ المحتوي على كل ملحوظ و (لا يضِلّ ربي) ولا يخطىء أي شيىء في مكانه فيعلمه علمايقينا (ولا ينسى) ذلك المعلوم ، فمعلومه معلومه أزلا وأبدا (الذي جعل لكم الارض مهدا) تستقرون فيه (وسلك لكم فيها) أي وجعل لكم فيها سبلا أي طرقا تعبرون عليها لكسب المعايش والمصالح من كافة الوجوه (وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) جمع شتيت أي متفرقة (كلوا وارعوا أنعامكم) أي قائلا لكم على لسان رسوله كلوا مما

تجدونه أي تحصلون عليها ، وارعوا أنعامكم الإبل والبقر والغنم منها (إن في ذلك) التصرف والخلق والإبداع ومتعلقاتها (لآيات) بينات وبراهين ساطعات (لأولى النهى) أي لأصحاب العقول على وجوب وجود ذلك الرب الذي سألتنا عنه . والنُّهى بضم النون المشددة وفتح الهاء جمع نهيةٍ بمعنى العقل لأنه ينهى عما لا خير فيه (منها خلقناكم) أي قائلا : منها خلقناكم في ضمن خلق أبيكم آدمَ (وفيها نعيدكم) بالإماتة وتفريق الأجزاء (ومنها نخرجكم تارةً أخرى) بجمع أجزائكم وتأليفها على الهيئة التي نُريدها (ولقد أريناهُ آياتِنا) الموجبة للإنتباه والرجوع الى الحق مدة بقاء موسى بينهم قبل أمرنا بخروجه ببني إسرائيل كلها وهي الآيات التسع المختصة بموسى (فكذّب) فرعون موسى من فرط عناده (وأبى) الإيمانَ والطاعة لقوة عتوّه .

(قالَ : أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ؟(٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فاجْعَلْ بَيْنَنا وبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً(٥٨) قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاسُ ضُحىً(٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى(٦٠) قالَ لَهُمْ مُوسى : وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى(٦١) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى(٦٢) قالُوا : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما ، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً ،

وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى(٦٤) قالوا : ياموسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى(٦٥) قالَ:بَلْ أَلْقُوا، فإِذا حبالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى(٦٦) فَأَوجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى(٦٧) قُلْنا :لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلى(٦٨) وأَلْق ما فِي يَمينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ،إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ، قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى)(٧٠)

قوله تعالى : (قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟!) إستئناف لكيفية مخاصمته لموسى ومعاندته معه فقال له مستنكرا (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) وديارنا بسحرك المُدْهِش لعقول الناس ، وتحل محلنا في الإستيلاء عليها (ياموسى ؟!) فإنا نعلم أن لا وسيلة لك إلى ذلك إلا سحرك ، وأن عندنا سحرة ماهرين في ذلك الفن (وَلَنأتينك بسحرٍ مثله) فإن كنتَ صاحبَ صدق في المقابلة والمعارضة (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي وعداً (لا نُخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى) أي في مكان للإجتماع متساوين في الوصول إليه • (قال) موسى ــ عليه السلام ــ : (موعدُكم) أي اعِدُكم بالإجتماع معكم ومع سحرتكم وزمانُ وعدكم (يومُ الزينة) الرسمية المقررة في كل سنة يتزينون فيه ويزيبون أسواقهم (وان يحشرَ الناس ضحىً) عطف على الزينة أي ويومُ حَشْرِ الناس واجتماعهم في وقت الضحى وارتفاع الشمس الى ربع النهار ، وعند ذلك يمكن اجتماع الناس على اختلاف أصنافهم وأفرادهم في المحل المعهود •

(فتولى فرعون) أي انصرفَ عن المجلس ، أو تولى الأمر بنفسه مهتمّاً به (فجمع كيده) أي أصحاب كيده مِن السحرة وما يحتاجون إليه (ثم أَتى) في الموعد المقرر ، وكذلك أتى موسى ـ عليه السلام ـ . واجتمع السحرةُ والمتفرجون على الواقعة (قال لهم موسى) على ما هو شأن الأنبياء والمرسلين والناصحين المخلصين للسحرة : (وَيلكم لا تفتروا عَلى اللهِ كذبا) بأن تقولوا لمايظهر على يَدَيَّ مِن المعجزات أنها سحر ، أو لما يظهرُ منكم أنه مما يعارَضُ به آياتُ اللهِ المخلوقةُ لتأييد رُسُله (فيُسْحِتكم) أَي فيستأصِلَكم (بعذاب) هائِلٍ مُبيدٍ (وَقَدْ خاب من افْتَرى) على الله تعالى أي انسانٍ كانَ (فَتنازَعوا) أي السحرة (أمرهم) أي في أمرهم الذي أريد منهم (بينهم) في كيفية المعارضة وتجاذبوا أطراف الكلام وتشاوروا (وأسروا النجوى) وبالغوا في إخفاءِ الكلام حتى لا تتسرب أسرارهم إلى موسى أو أخبار تنازعهم وتخاذلهم إلى فرعونَ (وقالوا) بطريق الإسرار (ان هذان لساحران) وإن مخففة من المثقلة وهذان مبتدأ واللام لام الفرق وساحران خبر (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) أي أرض مصر بالغلبة والإستيلاء عليها (بسحرهما) الذي يدهشُ عقولَ الناس (ويذهبا بِطريقتكم المُثْلى) مؤنث الأمثل، أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب في معيشة الدنيا وإدارة أهلها وحفظ البلاد والعباد من الأعداء . (فاجمعُوا كيدكم) الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر مبنياً على عمل السحر لغاية مادية وهي إخراجكم من أرضكم واستيلاؤهم عليكم (فأجمعوا كيدكم) وأهله واجعلوه مُجْمَعاً عليه بحيثُ لا يتخلف عنه منكم أحَدٌ (ثم أتوا صفاً) مصطفين فإن ذلك أخوفُ للناظرين (وقد أفلح اليوم من استعلى) من طلب العلو وسعى له ، أو من قد علا وغلبَ على استعمال المزيد بمعنى المجرد .

ولما أن تم الشور وعزموا على مباشرة الأمر (قالوا : يا موسى اما ان تلقي) جهازَ عملك أولاً (وإما أن نكونَ) نحن(أوَّلَ مَن ألقى) قال موسى ـ عليه السلام ـ غير مكترثٍ بما يعملون : (بل ألقوا) أولا كلَّ ما تلقونه (فألقوا) أجهزتهم السحرية (فإذا حبالُهم وعصيُّهم) الملقاةُ في الميدان (يُخيَّلُ إليه) أي إلى موسى تخييلا ناشئا (من سحرهم أنها) حيايا (تسعى) والسر أنهم موهوا تلك المواد بالزئبق فلمّا ضربتها الشمسُ تدفأت وتحركت واهتزت في عين موسى وخيل إليه أنها حيات تسعى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) أي فأخفى موسى خوفا منها فأوحينا إليه (قلنا : لا تخَفْ) مما توهمت (إنكَ أنتَ الأعلى) في ذلك العصر على سحرة مصر فإنهم على باطل وأنت على الحق ، وإذا جاء الحق زهق الباطل وكان زهوقا (وألق ما في يمينكَ) أي وألق عصاك التي تهتم بها كأنه نقد" في يمينك (تلقف ما صنعوا) أي تبتلع ما صنعوه (إنما صنعوا كيدُ ساحرٍ ، ولا يُفلحُ الساحر حيث أتى) أي حيث كانَ وأينَ أقبل •

توهم بعضُ الناس من قوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) أن السحر ليس بشيىء ، ولا يفيد شيئا واقعيا • ولكن ذلك توهم باطل ؛ لأن لا شيئيته إما من حيث العمل وإما من حيث الغاية ، وكلاهما موجود واقعي لأن الأسباب كيفما كانت فهي أمور واقعية كحبال السحرة وعصيهم ، وتمويهها بالزئبق وغيرها مما فعلوا ، والناتج كان تخييلا لموسى ـ عليه السلام ـ وإلقاءً في خياله أنها تضره حتى خاف منها، ولذلك نهاه ربه بقوله (لا تخف) فالسحر علوم وأعمال تنتج نتائج كما قال تعالى (ويتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه) غيرَ أن هذا العمل عمل مذموم شرعا لابتنائه على

تعلم مقدمات مذمومة ومزاولة أشياء غير مشروعة ، فهي حيل" ودسائس وأمور مستنكرة تُباشر للوصول إلى غايات فاسدة غير مشروعة ، ولذلك نهت عنه الشريعة السمحة فهو في بعض الصور كاغتيال إنسان بريء بأعمال منكرة بذيئة وفي بعض الصور تنتج أقبح منه أو ما هو أدون كخدْعٍ في أخذ شيء بسيط منه • ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا أخذتم الساحرِ فاقتلوه » وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) المقصود الفلاح والظفر في مقابلة الحق كسحر السحرة في مقابل موسى ـ عليه السلام ـ ، أو الفلاح في الآخرة فإن ثوابها لمن آمن بالله وعمل صالحا واستقام عليه •

ولما أمرَ اللهُ تعالى موسى بإلقاء ما في يمينه ألقاه ولَقَفَ جميعَ ما ألقاه السحرة وعلموا أن مابيد موسى معجزة ربانية لا عمل" مفتعل" من الساحر ، فأخذتهم هيبة" رحمانية قدسية غلبت على ما عندهم من الكبرياء النفسية (فالْقي السحرة سجداً) والملقي هُو الله بهيبته الخارقة للطاقات ، والسجود سجود إيمان بعظمته في المعجزة الخارقة للنواميس الطبيعية و (قالوا : آمنا برب هرون وموسى) ودخلوا في سلك عباد الله المؤمنين به وبرسله وبما أتى إلى البشر من سُبُلِهِ •

ولما علم فرعون بما جرى ضاقت عليه السماء والأرض إلى ماتحت الثرى حيث غلب صاحبُ الحق على باطله وطالب الآجلِ على عاجله ، ولاسيما أن السحرة سخروا به ولم يستأذنوه صورةً ، وهذا الأمر يخدش كيانه وينبش بنيانه فقال :

(قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إنَّهُ لَكَبيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

مِنْ خِلافٍ ، وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى !(٧١) قالوا : لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ وَالَّذي فَطَرَنا ، فَاقْضِ ماأَنْتَ قاضٍ ، إِنَّما تَقْضي هذهِ الحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى(٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فيها وَلا يَحْيى(٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ العُلى(٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فيها ، وذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى)(٧٦)

قوله تعالى : (قال آمَنتُم لَه قبلَ أن آذَنَ لكم ؟) أي قال فرعون للسحرة مهدداً لهم ومتوعداً إياهم : آمنتم لموسى قبل ان تطلبوا الإجازة مني وآذَنَ لكم في هذا الأمر الخطير ؟ وهذا إخبار على سبيل الإستنكار • وقد قرأ الأكثر أآمنتم على الإستفهام الإنكاري (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهو منكم وأنتم منه ، وتبين أنكم قد تآمرتم عليّ ، فإذا كان الأمر كذلك (لأُقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلافٍ) أي اليد اليمنى والرجل اليسرى ، ثم اليد اليسرى والرجل اليمنى (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوعها تصليبا مشددا لا تنقطع أعضاؤكم عنها ومستمرا حتى تتمزقوا عليها (ولتعلمنّ) أي والله لتعلمن عند ذلك (أيُّنا) أي أنا أو موسى (أشدّ عذابا وابقى) سيطرة وعتاباً • يريد أن موسى خوفكم على مخالفتكم بالتعذيب ولذا كنتم أطعتموه ، وأنا أهددكم بالتصليب وسيظهر لكم تفاوت تعذيب كل من الجانبين لكم •

(قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) قالوا مجيبين لفرعون على تهديده ووعيده غير مكترثين به : لن نؤثرك ولن نختارك بالإيمان والإنقياد على ما جاءنا من الله رب العباد من البينات الواضحات أي المعجزات التي تقهر الألباب وتذعن النفس من هيبتها لرب الأرباب (والذي فطرنا) أي ولن نؤثرك على الإله الذي خلقنا من العدم الى الوجود (فاقض ما أنت قاض) أي فاحكم في حقنا بما أنت حاكم به (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) أي إنما تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب ، ومالنا رغبة في البقاء فيها ولا رهبة من عذابها (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التي اقترفناها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الآخرة (وما أكرهتنا عليه من السحر) أي وليغفر لنا ما اكرهتنا عليه من السحر في مقابل من أرسله الله بالحق لإرشاد الخلق (والله خير) في حد ذاته (وأبقى) ذاتا وأدوم جزاء ثوابا أو عقابا (إنه من يأت ربه مجرما) بان مات على الكفر والمعاصي (فإن له جهنم لا يموت فيها) فينتهى عذابه (ولا يحيى) حياة طيبة هنيئة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به عز وجل وبرسوله (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أي المنازل الرفيعة (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى) أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي •

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إلى مُوسى أنْ أَسْرِ بِعِبادي فاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى(٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجنودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ(٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى(٧٩) يا بَني إسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوى(٨٠)

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مارَزَقْناكُمْ، وَلاتَطْغَوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى(٨١) وَاِنِّي لغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى)(٨٢)

قوله تعالى : (ولقد أوحينا إلى موسى) بيانٌ لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه والمرادُ أنه لما ظهر أمر موسى وغلب معنويا على فرعون وقومه واستمر زمانا على ذلك ، وأراد أن يبطش فرعون به وبأتباعه (أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) أي ببني اسرائيل الذين اختصوا بعنوان عبوديتي صابرين على ما ابتلوا به من فرعون حتى لا يضربهم فرعون ولا يدمرهم واذهب بهم إلى أن تصل الى البحر واذا وصلت (فاضرب لهم طريقا في البحر) بعصاك ، والأصل اضرب البحر ليصير لهم طريقا (يبسا) أي يابسا لا ماء فيه (لا تخاف دَرَكاً) أي لا تخاف أن يدرككم فرعون وجنوده من خلفكم (ولا تخشى) أن يغرقكم البحر من أمامكم •

ولما أوحي اليه ذلك سرى بهم ليلا ولما اطلع الناس على ذلك (اتبعهم فرعون بجنوده) أي تبعهم ومعه جنوده ، وقيل اتبع متعد الى اثنين هنا كما في قوله تعالى(فأتبعنا بعضهم بعضا) • والمفعول الثاني جُنوده ، والباء سيفُ خطيبٍ أي اتبعهم فرعون جنوده (فغشيهم من اليم ما غشيهم) وفي الآية الكريمة إيجاز حذف أي فنجا موسى ـ عليه السلام ـ وقومه ، ثم اقتحم فرعونُ وجنوده اليم تعقيباً لهم ، فغشيهم من اليم ما غشيهم بحيث لا يعرف مقداره ولا يوصف عيارُه (وأضل فرعون قومه) حيث سلك بهم مسلك الكفر والضلال وذهب بهم إلى هذا البحر فغرقهم مع نفسه (وما هدى) أحدا منهم الى طريق الرشاد لا في الدنيا ولا في الآخرة •

والمراد بذلك انتهكم بفرعون في عقيدته الباطلة وأعماله السافلة حيث تسبب في إهلاك نفسه وإهلاك من معه .

ثم بعد إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم قال تعالى : (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وأتباعه حيث يسومونكم سوء العذاب يذبحونَ أبناءكم ويستحيون نساءكم (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) بالنصب صفة للجانب ، ليصعد موسى عليه السلام ويأخذ أحكام ربه تعالى (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) الترنجبين والسماني حيث كنتم في التيه (ولا تطغوا فيه) وقلنا لكم على لسان موسى لا تطغوا في مارزقناكم بالإخلال بشكره أو بغصب حصة الناس وضمها إلى حصتكم (فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أي سقط من علو الإيمان والشكر والإنصاف إلى درك الكفر وكفران النعمة والإعتساف (وإني لغفار لمن تاب) من الشرك وسائر المعاصي (وآمن) بما يجب الإيمان به (وعمل صالحا) مستقيما عند الشرع الشريف (ثم اهتدى) أي لزم الهداية والإستقامة عليه . والاهتداء الثبات على الهدى .

وَما أعْجَلكَ عَن قَومِكَ يا مُوسى ؟(٨٣) قالَ : هُمْ أُولاءِ عَلى أثري ، وَعَجِلْتُ إليْكَ رَبِّ لِتَرْضى(٨٤) قالَ : فإنّا قَدْ فَتَنّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَضَلَّهُمُ السّامِرِيُّ(٨٥) فَرَجَعَ مُوسى إلى قومهِ غَضْبانَ أَسِفاً ، قَالَ : يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وعداً حَسَناً ؟ أفَطالَ عليكُمُ العهدُ ؟ أم أردتُمْ أن يَحِلَّ عليكمْ غضبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدي ؟!(٨٦) قالُوا : ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا ، ولكِنّا حُمِّلْنَا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ ، فَقَذَفْناها

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ(٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ ، فَقَالُوا : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ(٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ولا يَمْلِكُ لَهم ضَرّاً ولا نَفْعاً ؟(٨٩) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هرونُ مِنْ قَبْلُ : يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي(٩٠) قالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى)(٩١)

قوله تعالى : (وما أعجلك عن قومك يا مُوسى ؟) بيانٌ لِما جَرى بينه وبين الله تعالى من الكلام عند ابتداء موافاة الميقات بموجب المواعدة المذكورة يعني أن الله قرر له أن يأتي إليه في الميقات مع النقباء السبعين • والمراد من التعجيل تقدمه عليهم • أي ايّ شيىء عجل بك عن قومك فتقدمتَ عليهم ؟ (قال : هُم أولاءِ على أثري وعجلتُ إليكَ ربِّ لترضى) قال ــ عليه السلام ــ : يا رب إن قومي أولاء الناس الموجودون المباشرون للمجيء معي وإنما تقدمت عليهم وعجلت في الوصول إلى الميقات لترضى أعمالي وسرعة امتثالي في الوصول إلى ساعة الجلال ، واعتقدت أن تأخرهم عني بخطى قليلة لا يقدح في أمري بل هو الغاية في إطاعة الله • فسؤال الرب سبحانه وتعالى عن سبب العجلة وتقدمه عليهم في الوصول إلى الطور، والجواب بأنه الإستعجال في الوصول اليك وتحصيل الرضا منك ، واني أطعت أمرك في المجيىء معهم إليك ، وإنما أخطأت في عدم اعتبار حضورهم معي في زمان واحد ، ولم أعلم أن حضورهم معي شرط في الامتثال (قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامري) أي قد أوقعنا قومك في فتنة من بعد مجيئك الى ميقاتنا •

وفتنتهم أنه أضلهم السامري الصائغ الزائغ في الدين ؛ ذلك أنه قال لهم بعد أن غاب موسى ـ عليه السلام ـ عشرين ليلة : أنه قد كملت الأربعون ، فجعل العشرين ليلة مع أيامها أربعين ليلة وليس من موسى عين ولا أثر وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم. فجمعوه وسلموه إليه فأذابه وصبهُ في قالب العجل ، فطلَع عجلاً جسداً له خوار . والمراد بقومك هنا الذين خلفهم مع هارون . ولما سمع موسى ما أفاده ربه استرجع وتأثر ، ولكنه ماذا يفعل بعد أن وقعت الواقعة ؟ فبقي على الطور واستوفى الأربعين ؛ ذا القعدة وعشر ذى الحجة ، وأخذ التوراة .

(فرجع موسى إلى قومه) بعد ذلك (غضبان) على الذين أحدثوا هذا الحادث المهم (أسفا) على دين الله وضياعه في قومه بعد كل ما تحمله من الأذى لاستخلاصهم (قال : يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) لا سبيل لكم الى انكاره وهو إعطاء التوراة وتشريع النظام في الحياة ؟ (أَفطالَ عليكم العهدُ) أي أفطال عليكم زمانُ إنجاز ما وعد به ؟ (أم أردتم أن يحل عليكم غضبٌ) شديد لا يعلم مداه (من ربكم فأخلفتم موعدي ؟ قالوا) أي القوم المستخلفون الواقع فيهم ما وقع لموسى : (ما أخلفنا موعدك) بالثبات على الدين وإيثاره على غيره (بملكنا) أي باختيارنا واستيلائنا على شئوننا (ولكنا حُملنا أوزاراً) أي أحمالا ثقيلة (من زينة القوم) الأقباط وهو ما استعرناه منهم من الحلي لرسم الزينة في العيد الرسمي ، فأتانا السامري وأضلّنا بكلامه وشوش علينا حساب غيابك ، وجعل عدم رجوعه من أثر شؤم تلك المواد المستعارة (فقذفناها) إليه وصنع لنا أسوءَ صنيعة (فكذلك) أي فمثل ذلك القذف الذي قذفناه إليه (ألْقى السامري) ما وصل إليه منا وما كان عنده ، فألقاها في النار وصبها في قالب العجل (فأخرج لهم عجلا) حالكونه (جَسَداً) أي جثة ذا لحم ودم أو جسداً

مصبوباً من ذهب لا رُوح فيه (له خوار) إعتيادي لأنه خلق الله فيه الروح أو خوار اصطناعي بجعل منافذ فيه مصنوعة على أوضاع خاصة تدخل فيها الرياح والنفخات القوية في أوقات خاصة (فقالوا) أي السامري ومن معه وتبعه في دجله : (هـذا إلهكـم وإلهُ موسى فنسي) أي فغفل عنه وتركه وذهب يطلبه في الطور • فأنكر عليهم الباري تعالى بقولـه (أَفلا يرون ألا يرجعْ إليهم قولا ؟) أي لا يرجع إليهم كلاما ولا يرد إليهم جوابا لا بنفسه مع مختار القوم ولا من المختار إلى القوم (ولا يملك لهـم ضرا ولا نفعا) أي لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب اليهم نفعا •

(ولقد قال لهم هرون من قبل) أي من قبل رجوع موسى إليهـم : (يا قوم إنما فتنتم به) أي ما حصلتم على شيىء إلا أن فتنتم بـه ، فـإن الحصر المستفاد من إنما قد يكون بالنسبة الى الفعـل بالقياس الى مقابلـه لا بالقيد المذكور بالقياس الى قيد آخر كأن يراد إنما فتنتم به لا بغيره (وإن ربكم الرحمن) المنان بالرحمة والفياض بالنعمة الثابت بالقدرة (فاتبعونـي وأطيعوا أمري) لكم بالثبات على ما ترككم عليه موسى (قالوا) لهـارون ردا عليه (لَنْ نبرحَ) عليه أي على العجل وعبادته (عاكفين) أي مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) ويرشدنا الى ما هو خير لنا •

(قالَ : يا هارُون ما مَنَعَـكَ إِذْ رأيْتَهُمْ ضَـلُّوا(٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي(٩٣) قالَ : يا ابنَ أُمَّ لا تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسي ، إنّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَني إسرائيلَ وَلَـم تَرْقُـبْ قولـي(٩٤) قالَ : فَمـا خَطْبُـكَ يا سامِرِيُّ ؟(٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها ، وَكذلِـكَ سَوَّلَتْ لِـي

تَفْسي(٩٦) قَالَ : فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ، لَنُحرِّقَنَّهُ ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً(٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً(٩٨) كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيامَةِ وزراً(١٠٠) خالِدِينَ فيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ حِمْلاً(١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً(١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً)(١٠٤)

قوله تعالى : (قال : يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضاوا أن لا تتبعن ؟) أي ما المانع لك إذ رأيت القوم ضلوا سبيلَ الحق بعبادة العجل ولم ينظروا الى فساد عملهم ذلك أن تتبعن ؟ وكلمة لا تستعمل عادة كسيفِ الخطيبِ في خطبة العبادة أي ما منعك عن اتباعي في التمسك الشديد بالنظام ومنع القوم عن الفساد (أفعصيت أمري ؟) لك بحسن سياستهم ورعاية شئونهم (قال : يا ابن أم لا تأخذ باحيتي ولا برأسي) أي ولا بشعرِ رأسي ولا تَلُمْني على حالي (إني خَشيتُ أن تقول فرّقْتَ بين بني إسرائيل) أي إني ما تعاركْتُ ولا تحاملتُ عليهم فوق المعتاد ، لأني خشيت من أن تقول لي في نهاية المطاف فرقتَ بين بني إسرائيل ، وجعلتهم فرقتين متقابلتين، فرقة مطيعة وفرقة عاصية ، (ولم ترقب) ولم تُراعِ قولي في حُسن إدارتهم والعناية بهم •

ولما اعتذر هارون من سكوته وعدم النزاع الزائد معهم وعلم أن أساس الفتنة كان من السامري ، وكان رجلا من عباد البقر وقع في مصر ودخلَ في بني إسرائيل ، وامتزج معهم (قال : فما خطبك يا سامري ؟) أي ما هو الداعي المهم الذي ساقك ودعاك الى أن تبتدع هذه الفتنة العظيمة من عبادة العجل ؟ ولم ذلك ؟ (قال) السامري مجيبا له : (بصرت بما لم يبصروا به) أي تفطنت لما لم يتفطنوا له واطلعت على ما لم يطلع الناس عليه وهو أني رأيت يوم خروجنا من مصر رجلا راكبا على فرس وكنت أنظر الى حوافره كلما وضعها على محل من الأرض ورفعها إخضر وحصل فيه نبات ؛ فعلمت أن في ذلك سر الحياة (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي من أثر حافر فرس الرسول (فنبذتها) على الحلي المذاب الذي سبكته في قالب العجل حتى دخلت فيه الحياة (وكذلك سولت لي نفسي) أي زينته وحسنته إليّ (قال) موسى عليه السلام (فاذهب) أي من بين الناس (فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس) أي أن لك في الحياة نصيبا من المرض الساري الى المجاور بحيث تقول للناس : لا مساس بيني وبينكم ولا جوار حتى لا تبتلوا بما ابتليت به ، وذلك أنه ابتلى بحمى شديدة يصيح من وجعها ، وإذا اقترب منه أحد أصيب بها ، فتحامى الناس وتحاموه حتى مات (وإن لك موعداً) في الآخرة (لن تخلفه) أي لن يخلفك الله ذلك الوعد بل لينجزه ألبتة إضافة الى عقوبتك في الدنيا (وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا) أي إلى العجل الذي صرت مقيما على عبادته مع من معك (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) أي لنذرينه (في اليم نسفا) فأنجز ما هدد به ، وأحرق العجل حتى صار رمادا ، ثم أذرى ونثرَ رماده في النيل إذراء بليغا بحيث لم تبق منه مادة وأثر .

(إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيىء علما) تمييز محول عن الفاعل أي وسع وشمل علمه كل شيىء مهما كان (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) خطاب" مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق الوعد المنجز أي مثل ذلك البيان الصادق الصريح السالم نقص عليك من أنباء ما سبق من الوقائع والحوادث التي لها علاقة بالتشريع والتوحيد (وقد آتيناكَ من لدُنّا ذِكراً) كتابا يذكر ويتلى بمر الأيام محتوياً على القصص المفيدة لأهل الاعتبار والاستبصار ، من أقبل عليه أخذَ أجرا و (من أعرض عنه) أي لم يؤمن به (فإنه يحمل يـوم القيامة وزرا) أي حملا ثقيلا مـن العقوبة (وساء) لهم (يوم القيامة) ذلك (حملا • يوم ينفخ في الصور) بدل منه باعتبار أنه مبدأه ، والمراد به الجسم المصور الذي ينفخ فيه الملك المأمور به مرتين : مرة لخراب العالم ونسف الجبال وإعدام الحياة ، ومرة أخرى بعدها بمدة أربعين سنة كما روي ذلك للبعث وإعادة الحياة والحشر في العرصات (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) في العيون أو في الأبدان ، إذ تزرق الأبدان من مكابدة الشدائد (يتخافتون بينهم) أي يتكلمون بخفض الصوت والإخفاء لشدة هول المطلع قائلين : (إن لبثتم إلا عشراً) من الليالي ، يقللون مدة مكثهم في الدنيا لزوال الإدراك التام ، أو لهول ما عندهم من الآثام ، أو لقلتها بالنسبة الى ما يرى من طول تلك الأزمان والأيام (نحن أعلم بما يقولون) وحقيقة ما يتكلمون عنه (إذ يقول أمثلهم طريقة) وأفضلهم تقريرا وبيانا (إن لبثتم إلا يوما) واحدا ، والمراد إلا زمنا قليلا جدا •

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ ، فَقُلْ : يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً(١٠٥) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً(١٠٦) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ

لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَولاً(١٠٩) يَعْلَمُ مابَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً(١١٢) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عربيّا وصَرَّفْنا فيهِ مِنَ الوَعيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً(١١٣) فتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقّ ولا تَعْجلْ بالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ ربِّ زِدْني عِلْماً)(١١٤)

قوله تعالى : (ويسئلونك عن الجبال) السائلونَ منكرو البعث من قريش ؛ وقيل : جماعة من ثقيف ، وقيل : أناسٌ مِن المؤمنين ، أي إنهم يسألونك عن أحوالها في اليوم الموعود ، (فقل) في جوابهم (ينسفها ربي نسفاً) يجعلها سبحانه وتعالى كالرمل ثم يرسلُ عليها الرياحَ فتفرقها في الجوّ ؛ فإنْ إحداث الجبال وإعلاءها ونصبها في أماكنها ، وقلعها وتمزيقها وتفريقها الى أجزاء ترابية ناعمة تنشرها الرياح في الجوّ كلّ ذلك من الأمور الممكنة السهلة على صاحب القوة القاهِرَة التي لا تبقي ولا تذر (فيذرها قاعاً صفصفاً) أي فيجعل الجبال المتمزقة إذا وقعت على سطح الارض (قاعا) سهلا مستويا مع الأرض ، أو أنه إذا مزقها ونشرها في الجو والتحقت بالهواء بقي محلّها قاعاً مستوياً من الأرض (لا ترى فيها) أي في مقار الجبال (عوجاً ولا أمْتا) العوجُ عبارة عن عدم استقامة تدرك بالبصيرة لا بالبصر ، والأمت نُتوٌ وارتفاع يُدْرك بالعين (وخَشَعَت الأصواتُ للرحمن) أي خَفِيت لتجلي الحق بالهيبة والرهبة على أهل

الموقف (فلا تسمع) من المصوتين (إلا همساً) أي صوتا خافتا يشبه النجوى (يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعة إلا من أذِنَ له الرحمن) أي إلاّ من شافع أذن له الرحمن في الشفاعة (ورضي له قولا) أي رضي قوله للمشفوع له • أو لا تنفع الشفاعة أحداً من المذنبين إلا مذنبا أذن الرحمن في الشفاعة له ورضي قولَ الشافعِ لأجلهِ (يَعلمُ ما بينَ أيديهم وما خلفهُم ولا يحيطون به علما) أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى فعلماً تمييز محول عن الفاعل ؛ وقيل المراد لا يحيط علمهم بذاته وصفاته (وَعَنَتِ الوجُوهُ للحيَ القيومِ) أي ذلت وخضعت وانقادت خضوع العبد الذليل والأسير العاجز لذاته الحي بالذات والقيوم القائم بذاته المقيم للأرض والسماوات (وقد خاب) أي خسِرَ هنالك (من حملَ) على ذمته (ظُلْماً) سواء كان على نفسه بالإشراك بربه ، أو على غيره بالتعدي على دينه أو نفسه أو أهله أو ماله أو عقله وأحواله • وكل ما ضر بالغير وصدر منه فهو ظلم منه عليه إلا ما كان فى وجه مشروع •

(ومن يعمل من الصالحات) مقابل لقوله تعالى وعنتِ الوجوه للحي القيوم ، أي ومن يعمل من الأعمال ما يعد من الصالحات وهي ما يترتب عليه ثواب (وهو مؤمن) بما يجب الإيمان به من الله ورسوله وما جاء به من عند الله (فلا يخاف ظلما) من أحد عليه ، أما من غير الله تعالى فلأنه لا مجال فيه لأحد هناك وليس المقام مقام الاستعلاء والتعدي ، وأما من الله تعالى فلأنه لا يُنسَبُ اليه ظلم ولا يعمل إلا ما يستحقه العبد بمقتضى وعده ، وذلك معنى قول المفسرين للظلم بمنع ثواب المستحق بموجبِ الوعد بأن لا يثاب ويُحبط عمله (ولا هضما) وكسراً له بمنع بعضٍ من ثوابه • وروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما : فلا يخاف ان يظلم فيزداد في سيئاته ، ولا أن يهضم حقه فينقص من حسناته •

وقوله تعالى : (وكذلك أنزلناه) عطف على قوله (وكذلك نقص) أي ومثل إنزال الآيات البينات في شأن الساعة والبعث والحشر ومخاوف الناس (أنزلناه) أي القرآن حالكونه (قرآنا عربيا) أي بلغتهم ولهجتهم مفهوما واضحا (وصرفنا فيه من الوعيد) أي غيرنا وجوه الوعيد من الوعيد على الكفر الى الوعيد على ما دونه من المعاصي والسيئات (لعلهم يتقون) أي الكفر والمعاصي (أو يحدث لهم ذِكراً) أي عظة واعتباراً مؤديا الى التقوى (فتعالى الله الملك الحق) أي فتبارك وتعالى الواجبُ الوجودِ المصيطرُ على العالم أن يكون في إنزاله للكتاب وإرساله للرسول شيىء غير محتوٍ على الحكم والمصالح ، ذلك لأنه الملك الحق الثابت ذاته بذاته ، وذاتٌ شأنهُ ذلك لا يصدر منه إلا ما فيه الحكم والمصالح بالنسبة الى برياته .

(ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يقضى إليكَ وحيه) أي وإذ تنبهت على عظمة ذاته وحكم آياته وحسن تصرفه في برياته فاعلم أن الوحي المنزل عليك صدر بوجه حق متقنٍ حتى تسمعه وتفهمه وتعيه وتبلغه للمكلفين ، وذلك مقدر من الله ومقرر ، فلا تعجل بقراءة كلمات القرآن من قبل أن يقضى ويتم من جانب جبريل الأمين وحيه إليك ، تمهل وتريث حتى تأتيك الجملة بتمامها فتقرأها وراء قراءته ، وهذه الآية مثل قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) لأنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ألقى اليه جبريل ـ عليه السلام ـ القرآن يتبعه عند التلفظ بكل حرف وكل كلمه مخافة أن يصعد الملك من حيث نزل ويفوت عليه حفظ الكلمات من الآيات الكريمة ، فنبّه على ذلك وأمر بالتريث والتمهل ، (وقل) في نفسك عند نزول القرآن ، أو بلسانك في سائر الأزمان (رب زدني علما) بألفاظ القرآن ومبانيه ، وفهماً بمعاني القرآن ومغانيه[1] . أو زدني علما بما ينفعني

(١) مغاني : جمع مغنى بمعنى المنزل والمراد الهدف .

علمه في عالم الوجود الى وقت الحضور ولقائك في اليوم الموعود ، فإن لله سبحانه كلمات ومعلومات وكل ذلك مما يمكن أن يلقى الى رسله في البريات ، وفوق كل ذي علم عليم .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً(١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى(١١٦) فَقُلْنَا : يا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى(١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُ فِيهَا وَلا تَضْحَى(١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ؟(١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)(١٢٢)

قوله تعالى (واقد عهدنا إلى آدم من قبلُ) لما نبه الله سبحانه وتعالى حبيبه على التمهل والتؤدة في أخذ القرآن من جبريل ـ عليه السلام ـ وأن العزم والقوة على الضبط في الأمور متصورة في كل حال ذكره بما جرى من أبي البشر وأن الإنسان بطبيعته مستعجل قليل الصبر والعزم فينبغي لمن يأتى بعده أن يجعل ذلك الوضع الذي جرى عليه درسا ثابتا لرعاية أموره ، فقال : (وَلَقد عهِدْنا إلى آدم) أي وصيناه وقررنا له بعض الأمور المهمة من قبل الحادثة من جملتها عدم قربان الشجرة (فنسي) وصيتي وعهدي (ولم نجد له عزما) أي تصميما وثباتا قويا على حفظ ما وصي به فوقع في مخالفة

ما نهيته عنهفجرى ما جرى ووقع ما وقع • وبيان ما عهدنا إليه يندرج فيما يلي (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود التشريف والإجلال والاحترام (فسجدوا إلا إبليس أبى) عن السجود إستكباراً وإستنكاراً لسجود الفاضل بزعمه للمفضول (فقلنا : يا آدمُ إن هذا) الذي رأيته أبيا عما أمرته به وهو إبليس (عدو لك) لانك كنتَ سببا لما أتى عليه (ولزوجك) لأنها من متعلقاتك النافعة لك في الحياة ومعين العدو عدو كعينه (فلا يخرجنكما من الجنة) بحيله ودسائسه (فتشقى) وتتعب بمتاعب الدنيا ، فإنك إذا بقيت في الجنة بقيت مسعوداً متنعما (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) لأن غذاءك بما تتغذى به من الثمار ، ولباسك ما تتستر به من اللباس الساتر كالدراري أحسن أنواع الستار (وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى) أي لا تصيبك شمس فتتدفأ بها ولا يصيبك الظمأ والعطش •

قال الشهاب : الآية فيها سرّ بديع من أسرار المعاني ، وهو الوصل الخفي وسماه الاتصاف (قطع النظير عن النظير) وهو أنه كان الظاهر أن يقال : لا تجوع فيها ولا تظمأ ، ولا تعرى ولا تضحى • ووجه أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها ، وهي أن الجوع خلو الباطن والعرى خلو الظاهر ، فكأنه قيل : لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما ، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس المورث حرارة الظاهر ، فكأنه قيل : لا تؤلمك حرارة الباطن والظاهر • إنتهى باختصار •

(فوسوس إليه الشيطان) أي فأنهى الشيطان وسوسته إليه (قال : يا آدمُ هل أدلكَ على شجرة الخلد) من اضافة السبب أي على شجرة يكون الأكل من ثمرتها سببا لخلود آكلها • وقوله (وملك لا يبلى) أي ومملوك لا يفنى يعني تلك الشجرة • أو المراد رئاسة على الحياة والمتاع بحيث لا يفنى أمدها • وسيدنا آدم خلق بشراً مركباً من الصفات والغرائز

الإنسانية ، وكان قابلا لنسيان عهد ربه فنسيه ، فأكل منها وأكلتْ زوجته حواء معه كما قال تعالى (فأكلا) أي هو وزوجته (منها) أي من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) أي عوراتهما فإنهما قبل الأكل كانا مستورين بغلاف نوريٍّ كالصدف ، ولم يكن لهما حاجة إلى الأكل والهضم والدفع ، فلما أكلا احتاجا ، فكشف اللهُ عنهما اللباس وظهرت عوراتهما لخروج الخارج (وطفقا يخصِفان عليهما من ورقِ الجنة) أي فشرعا يلزقان ورق الجنة بعوراتهما حتى لا تتبين (وعَصى آدمُ ربهُ) بأكل الشجرة (فَغَوى) أي ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود لان كل آكل فانٍ زائلٌ ، أو عن المطلوب الذي يليق بالقصد وهو البقاء في الجنة الى اللقاء ، وهذه الحادثة كانت قبل الإنباء وحدوثها ، وإن كان عن نسيان ، لكن النسيان لا يخلو عن النقصان لاسيما بالنسبة إلى من خاطبه ربه بالإحسان .

ولما جرى عليه ما جرى ألهمَهُ اللهُ الإلتجاء والإنابة اليه والتوبة فالتجأ وأناب وتاب . (ثم) قبل الرب سبحانه وتعالى دُعاءه و (اجتباه) واختاره واصطفاه للنبوة والرسالة حَسَبَ علمه (فتاب عليه) أي رجع إليه بالرحمة (وهدى) أي إلى الثبات على التوبة والى النبوة والرسالة والى الأبوة للأنبياء والمرسلين .

(قالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإمَّا يَأتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإنَّ لَه مَعِيشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى(١٢٤) قالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ؟(١٢٥) قالَ : كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها ، وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى(١٢٦) وَكَذلِكَ نَجْزِي

مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)(١٢٩)

قوله تعالى : (قال : اهبطا منها جميعا) إستئناف لبيان ما صدر منه تعالى في حق آدم وحواء لما تاب عليه واجتباه فيقول : (قال اهبطا منها جميعا) أي إنزلا من الجنة إلى الأرض الواقعة في محل أسفل من العرش بدرجات لا تحصى • والخطاب له ولحواء واسكنوا فيها على ما هو المعتاد ، وكلوا واشربوا من رزقها وتناسلوا فيها ليكثر منكما البشر بما في علم الله حالكونكما معهم في كل جيل (بعضكم لبعض عدو) بسبب التجاذب والتدافع بينكم فيما يجري لأن كل إنسان حائز للقوة النطقية والشهوية والغضبية ، وكل يريد مستحباته ويكره مستنكراته (فإما يأتينكم مني هدى) أي كتاب وشريعة منزلة (فمن اتبع هداي) وضع الظاهر موضع الضمير للإهتمام (فلا يضل) في الدنيا (ولا يشقى) في الآخرة (ومن أعرض عن ذكري) أي كفر به وأنكره (فإن له معيشة ضنكا) والضنك الضيق ، أي فإن له في الدنيا معيشة وحياة ضيقة شديدة بانحباس الصدر وقلة الصبر ومعاناة كل أمر عسير ، فإن المؤمن شاكر على النعم وصابر على النقم ، ومع ذلك ، فهو وسيع الصدر بما ينتظره من الأجر ، وأما الكافر فهو حريص وطموع في السراء للزيادة وبعيد عن الشكر والطاعة والعبادة وبائس وجزوع في الضراء وتضيق عليه الدنيا مع وسعتها ويائس عن الجزاء في الآخرة إذ لا يؤمن بها حتى ينال خيرها (ونحشره) أي من أعرض عنه (يوم القيامة

أعمى) في البصر أو في البصيرة ويؤيد الأول قوله تعالى في سورة الإسراء (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمْياً وبكما وصما) وقوله تعالى (قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟) أي في الدنيا (قال) الله تعالى في جوابه : (كذلك أتتك آياتُنا فَنَسيتَها) أي تركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلا (وكذلك اليومَ تُنْسى) أي تترك في العمى والعذاب جزاء على الحساب (وكذلك) أي ومثل ذلك الجزاء (نجزي من أسرف) بالإنهماك ولم يُؤمن بآيات ربه (ولعذابُ الآخرة أشدّ وأبقى) أي أشد من عذاب الدنيا على الإطلاق وأكثر بقاء منه •

وقوله تعالى (أفلم يهد لهم) إستئناف لبيان التذكير والتفكير في أحوال الأمم الطاغية الباغية السابقة ، فإن كل عاقل عالم يعلم بمطالعته أو بمجاورته أحوال من مضى وعصى وما جاء عليه من ربه جزاء له في الدنيا • أي أفلم يهد لهم ولم يبين لهم طريق الهداية ما يستفاد من مضمون قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) أي من أهل القرون الخالية كقوم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن اطلعوا عليه حالكونهم (يمشون في مساكنهم ؟) ويتقلبون في ديارهم مشاهدين لآثار عماراتهم البالية التي كانت قوية مستحكمة عالية (إن في ذلك لآيات لأولى النهي) أي لأولي العقول الناهية عن مباشرة أعمال تشبه أعمال أولئك الأمم العاصية • ومضمون الآية المذكورة كثرةُ المُهْلَكين والمعذبين من الأمم الظالمة التي حقها أن يعتبر بها العقلاء •

ثم استأنف الباري تعالى لبيان حكمة عدم نزول العذاب على الكفار الموجودين في عصره ــ عليه السلام ــ بقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي تقدير تأخير العذاب عنهم (لكان) العقاب الذي يستحقونه (لزاما) أي لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة وقوله (وأجل

مسمى) عطف على (كلمة) أي ولولا كلمة سبقت في تقدير التأخير وأجل مسمى معين لتقرير المصير لجرى عليهم ما يليق بهم •

(فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُروبِها ، ومن آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (١٣٠) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَياةِ الدُّنْيا ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبْقى(١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْها ، لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعاقِبَةُ لِلتَّقْوى)(١٣٢)

قوله تعالى : (فاصبر على ما يقولون) أي فإذا علمت أن جزاء الاعمال لابد منه ، وأن تأخيره بحسب التقدير •• فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر وسوء الأدب مع الله تعالى وعلى ما يفعلون ويقولون لك ولأتباعك ، ولا تضطرب فإن كلا من الناس ذاهب الى يوم جزائه ، (وسبح بحمد ربك) وصل وأنت متلبس بحمده تعالى ربك الذي أوصلك الى ما وصلته (قبل طلوع الشمس) أي صلاة الفجر (وقبل غروبها) أي صلاة الظهر والعصر (ومن آناء الليل) أي وبعض أوقات الليل وساعاته والمراد صلاة المغرب والعشاء • وآناء أفعال جمع أنى بكسر الهمزة وفتحها مقصورا جمع على أفعال فصار أآناي ، قلبت الهمزة الثانية ألفا والياء بعد الألف همزة ، فصار آناء • (واطراف النهار) أي الصبح والمغرب وكررهما لمزيد الإعتناء بهما •

ومن المفسرين من قال : إن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة • أما دلالتها على الصلوات فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين ، فأوقات الصلوات

الواجبة دخلت فيهما • بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل من سنة الوتر والتهجد في الليل وسنة الإشراق والضحى في النهار • وهذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة وأما اذا حملناه على التنزيه والإجلال فالمعنى إشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات علاوة على فعل الصلوات الواجبةوالمندوبة لتكونمنعداد الذاكرين لله ذكرا كثيراً ولا تكون من الغافلين • وقوله (لعلك ترضى) مربوط بقوله (وسبح بحمد ربك) أي وسبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب •

(ولا تمدنّ عينيكَ الى ما متعنا به أزواجاً منهم) أي الى الزخارف والمغريات التي متعنا بها أصنافا منهم من الأولاد ، والأموال ، والمنازل ، والملابس ، والمطاعم ، وغيرها من الرتب ••• (زَهْرةَ الحياة الدنيا) بدلٌ من محل به أو منصوب بما يستفاد من متعنا ، أي وجعلناه زهرة الحياة الدنيا • وقوله : (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا أي متعناهم بها لنختبرهم فيه (ورزق ربك) أي ما ادخر لك في الدنيا من الخدمات الإسلامية ونشر الحق في ربوع العالم وفي الآخرة من اللقاء والرضاء والخلود في النعماء (خير) مما متعنا به هؤلاء (وأبقى) فإنه خالد أبدَ الآبدين (وأمُرْأهْلك) أي من معك في بيتك أو من تبعك في دينك (بالصلاة وَاصطبر عليها) أي استمر واستقم واثبت عليها في العسر واليسر ، وَأدّها حقّ الأداء بخشوع ، وإذا مر ببالك أن الاشتغال بها ربما يضرّ بأمر المعاش فلا تبال بهذا الهاجس (نحن نرزُقكَ) وما أعطيناه لا مانع له (والعاقبة) الحميدة في الدنيا والآخرة (لـ) أهل (التقوى) لأن من اتقى ما يخالف أحكام مولاه راعاه بالحق وتولاه وهو يتولى الصالحين •

(وَقالُوا : لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ! أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الأولى ؟(١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا : رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى(١٣٤) قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى !)(١٣٥)

قوله تعالى : (وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض الأقاويل الفارغة التي تعودوها • أي هلا يأتينا بآية أي معجزة أو بجملة منزلة واضحة من ربه تدل على صدقه في دعوى الرسالة (او لم تأتهم بينه ما في الصحف الأولى ؟) رد من جانب الباري سبحانه وتكذيب لهم بأنه أتتهم آيات القرآن الكريم التي هي أم الآيات السماوية وأس المعجزات ، وتحتوي على ما كانت في الصحف الأولى ، فإنكار إتيانه بما اقترحوه ذنب جديد وكذب عظيم اقترفوه • وقوله تعالى : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) إستئناف لتقرير كونِ القرآنِ آية بينةً حاويةً للمعجزة والحكم الالهي مع أنهم ينكرون ويقترحون الآية البينة ، وهم ، وإن كانوا ومايزالون منكرين ، لكنا أتينا بما تقرر من سنتنا وهو الإنذار قبلَ الإهلاك ، وإرسال الرسل لقطع معذرة الكل لأنا لو أهلكناهم بعذاب مستأصل من قبلِ إنزال القرآن (لَقالوا : لولا أرسلتَ إلينا رسولا) مع آيات (فنتبع آياتك) التي أرسلت (من قبلِ أن نذِلّ) بالعذاب (ونخزى) بدخول النار • (قل) يا حبيبي (كلٌ) من الجانبين أنا وأنتم (متربصٌ) لمآل الأمر إلى أن يأتي وقتهُ (فتربصوا) له (فستعلمون من أصحاب الصراط السوي) أي المستوي ومن أصحاب الصراط المنحرف ، وستعلمون من ضَلّ من الجانبين (ومن اهتدى) منهما •

الجزء السابع عشر

سورة الانبياء ، مكية ، وهي مائة واثنتا عشرة آية
نزلت بعد سورة ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ ، وَهُمْ يَلعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم ؟ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟(٣) قال رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّماءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (٤) بَلْ قالُوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَيهُ ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كما أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكناها أَفَهُمْ يؤمِنُون ؟!)(٦)

قوله تعالى : (إقترب للناس حسابُهم) المراد بالناس فيه المشركون بدلالة ما بعده من الآيات عليه • وآثر الحساب على الساعة لأن غفلتهم منها لغفلتهم منه وخوفهم منها على الغرض لخوفهم منه ، والإقترابُ محقق لأن الرسول إحدى آيات الساعة ، ولأن كل آت قريب ويقترب آناً بعد آن (وهم في غفلة) أي في غفلة عظيمة وجهالة

تامة منه ، لأنهم لا يؤمنون بمن يأتي به ويزعمون أن لا كتاب ولا حساب (معرضون) عن الآيات البينات والمعجزات الدالة على أن يكون لهم سؤال وجواب . ومن صفات أولئك الناس الناسين لحقوق الله أنه (ما يأتيهم من ذِكر) نازل (من ربهم محدثٍ) جديد نزوله (إلا استمعوه و) الحال أن (هم يلعبُون) ويستهزؤن به (لاهيةً قلوبهم) غافلة عن أنه ذكرٌ نازل لإرشاد الناس الى الحق وزجرهم عن الباطل من الشرك وغيره من المعاصي (وَأَسروا النجوى الذين ظلموا) أي الذين ظلموا أسروا النجوى أو الذين بدل من ضمير الفاعل أو ورد على أن الواو حرف للجمع لا ضمير له قائلين (هل هذا) الرجل المدعى للرسالة (إلا بشر مثلكم) في الصورة والهيكل بما يدهش عقولكم (أَفتأتون السحر) وتعملون بمدلوله (وأنتم تبصرون) صاحبه على مثالكم .

وكل هذه العبارات شاهِدَةٌ على أن الناس انغمروا في الغفلة والجهالة بحيث لم يعترفوا بشيىء من الفضائل والكمالات العلمية والعملية المكسوبة والموهوبة ، وذلك حمق وسفاهة ليس فوقها شيىء . ولما قالوا ذلك دافع الله سبحانه وتعالى عن رسوله وحكى من جهة قدسه ما قاله ــ عليه الصلاة والسلام ــ في مجابهتهم من أنه (قال) أي الرسول (رَبّي يعلم القول في السماء والأرض) أي أن الله تعالى يعلم كل قول ناشيء من أي قائل في السماء والارض ويعلم سركم وجهركم (وهو السميع) لما يقال سرا كما يقال جهراً (العليم) بجميع المعلومات الخفية والجلية ، وسيعاقبكم في وقته . (بَلْ قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراه بلْ هو شاعر) ولما كان القدح في القرآن الكريم قدحاً فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ نقول : إنهم أضربوا عن كون الرسول ساحرا يأتي بعمل متقن وعبارات رقيقة تسيطر على الألباب إلى أنه يغمى عليه وتأتيه صور فاسدة مخلوطة من الزين والشين ،

وبعد انتباهه وخلاصه عنه يلقيه الى الناس ، أي بل هو مثل نائم بالليل تأتيه رُؤىً مخلوطة من المتقابلات المستحيل جمعها •

ولما كانت هذه الدرجة تقدح الكلام لا المتكلم لأن النائم والمغمى عليه ليس عليهما وزر انتقلوا الى أنه كاذب مفترٍ على الله ويتعمد صنع عبارات تدل على أمور أرضية وسماوية وطبيعية وغيبية ويلقيها إلى الناس لخدعهم والغلبة على عقولهم • ولما كان المفتري قد يكون على صورة معقولة واقعية وهم لا يعترفون بأن كلامه معقول واقعي قالوا إنه شاعر ينظم الكلام بحسب المقام، ولا يهمه أن يكون صحيحا مطابقا للأعيان أو فاسدا يروق في البيان ، وقالوا بل هو شاعر ، وإذا كان صادقا في دعوى الرسالة وكلامه كلاما منزلا من الله تعالى فليأتنا بآية كما أرسل بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، أو موسى من العصا واليد البيضاء وغيرهما • ولكنهم عموا عن إبصار الأعيان وغفلوا عن إدراك الحقائق فإنهم يعلمون أن السحر فن من الفنون يحصل بالتعلم بمزاولة أعمال دقيقة عن إتقان وأخذٍ عن أستاذ ماهر ولم يروه ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتغيب عن مكة لتعلم ذلك العلم ، ولم يكن في مكة من يعلم ذلك ويعلمه الناس وينشره فلم يكن ساحرا ولا كلامه سحرا ، كما علموا أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ قد يجلس بين الناس ويأتيه الوحي بدون عروض النوم وإرخاء الأعصاب، وعندما يتلوه على الناس فإذا هو كلام يبين حقائق ماضيةً معلومٌ اجمالها لأهل التواريخ ، أو حقائق كونية أرضية أو سماوية يعجز عن فهمها الناس ماعدا العلماء الراسخين ، وقد يأتي بأشياء تقع في المستقبل حسب ما ذكره ، وقد يذكر ما يتعلق بجزاء الأعمال في عالم الغيب عالم الآخرة التي يؤمن بوجوده كل عاقل منصف يحسب للأعمال الحسنة والسيئة حسابها ، ووجود جزائها ، فإذا ليس هو براء يرى الطيفَ المخلوط ، ولا مغمى عليه تأتيه أشياء غير مضبوطة ، وإذا

أمعنوا النظر في القرآن الكريم علموا أن مهمات مافيه هي الدعوة إلى القول بوجود خالق الأرض والسماوات ووحدته وجزاء الأعمال والى صلة الأرحام وصيانة النفوس والأموال والعقول والاحترام وكل ذلك مما يعترف به العاقل الذي لم يكذب ولم يفتر على الواقع .

ويبقى القول بمجيء البعث والنشور وعالم الآخرة وهذا هو الذي جاء به عيسى وموسى وسائر الأنبياء والمرسلين ، فإذا كانت الشبهة من أهل الكتاب فهم مؤمنون به ، وإن كانت من المشركين فليعلموا أنهم قائلون بواجب الوجود،غير أنهم يدعون وجود الشريك له .وعلى كل تقدير فالقول بوجود الواجب تعالى يوافق ويؤيد وجود عالم الآخرة ويحقق الجزاء فتبين أن ما أتى به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق وليس كلاما مُفترى . وأما دعوى أنه شاعر وكلامه شعر فليعلم المتنبه أنه كلام ساقط لأن الشعر موضوع على تفاعيل وموازين خاصة مباينة لعبارات القرآن الكريم ، وأن الأشعار تُصاغ وتحسن بالأكاذيب والمُفْتعلات والامور اللاغية التابعة للأهواء وكيف ذلك مع قوله تعالى (وخشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همسا ؟) .

وأما اقتراحهم أن يأتي بآية كما أتى بها الأولون فهو اقتراح جاهل أو متجاهل ، وذلك : لأن المنصف يعلم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءبأعجبَ مما أتى به الأولون لأن ما أتى به الأولون كان على نسبته الى الله وخلقه وإيجاده ، ولم يكن لهم عمل فيه ، وأي صنعٍ لموسى في قلب العصا حيةً وتحويل الحية الى العصا ، وأي عمل كان لعيسى في إحياء الموتى لولا إعادة الله الروح إليهم ؟ وأما أعمال الرسول وأخلاقه الخارقة من صدقه في السراء والضراء وصبره على البلواء وشكره على النعماء ودوامه في الجهاد ومجاهدة النفس وطاعة القدس وحلمه وحكمه وحكمته وشجاعته

وسخائه ••• كل ذلك اشياء تنبع من القوة الإنسانية وتعتبر من آثاره ، وهي من أفضل ما يُنسب الى شخص يدعي الرسالة من الله • ثم معجزة الإسراء والمعراج والقرآن الكريم الحاكي عن الغيب والشهادة المتحدي لجميع الفصحاء والبلغاء الى المعارضة مع عجز الكل عنها وماتواتر عنه من سائر الخوارق ••• كلها معجزات خارقة ومواهب بارقة • واليهود والنصارى يؤمنون بزعمهم بأنبياء بني اسرائيل ورسالتهم ولم يكن لغير موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ تلك المعجزات ، فيلزم من قولهم إذا كانوا هم القائلين به أن لا يكونوا رسلا ، والمشركون يعترفون برسالة إسماعيل وإبراهيم ولم يتواتر منهم إحياء الأموات ، وأمثال عصا موسى ويده البيضاء • والحق الحقيق بالتصديق أن الرسالة اختيار وهبي من الله الكريم لعبد من عباده متصف بكمال العقل السليم والخلق المستقيم بعثه الله لإرشاد الأنام الى الاعتراف بالخالق ودينه ويوم الجزاء ، وليست المعجزة شرطا أساسيا للرسالة فضلا عن نوع خاص منها ، فاقتراح ما اقترحوه من العناد وقوله (ما آمَنَتْ قبلهم مِنْ قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ؟) أي ما آمَنَتْ قبلهم من أهل قرية أهلكناها باقتراح الآياتِ لما جاءتهم أفهم يؤمنون لو جئت بها وهم أعصى منهم وأشقى • وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بها للترحم عليهم إذ لو جئتهم بها ما آمنوا واستوجبوا عذابَ الإستئصال •

(وَما أَرْسَلنا قَبْلَكَ إلاّ رِجالاً نُوحي إلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٧) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ ، وَما كانُوا خَالِدِينَ(٨) ثم صَدَقْناهُمُ الوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا

المُسْرِفِينَ(٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وأَنْشَأْنَا بَعْدَها قَوْماً آخَرِين ؟(١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بأْسَنا إذَا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ(١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ(١٣) قالُوا : يا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِين(١٤) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْوِيهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِين)(١٥)

قوله تعالى : (وما ارسلنا قبلكَ إلا رِجالاً) جوابٌ لما زعموه مِن أنّ الرسُول لابُد أن يكون ملكاً ، أو إذا كان بشراً وجبَ أن يرسلَ معَ آياتٍ كُبرى ملموسة محسوسةٍ كما أرسل بها الأولون ٠ وحاصلهُ أن دعواهم ذلك يعارضها مجيء الرسل الأولين من البشر وقد كان بعض منهم له المعجزات وبعضهم لا فيقول تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والمواعظ على حسب مناسبة ظروف الرسالة (فاسئلوا أهل الذكر) والعلم بإرسال الرسل (إن كنتم لا تعلمون) أنتم في حد ذاتكم (وما جعلناهم) أي الرسل (جسداً لا يأكلون الطعام) يعني وما جعلناهم جسداً مستغنيا عن الغذاء وقد كانوا يعتادون النوم والإنتباه، والمرض والشفاء ، والبلاء والجفاء، وسائر مايرِدُ على امثالهم (وماكانوا خالدين) في الدنيا أبداً ودواما ، أو ماكثين مدة كثيرة تتجاوز العادات المستمرة في الدنيا ٠

(ثم صدقناهم الوعدَ فأَنجيناهُم ومن نَشاءُ وأهلكنا المُسرفين) يعني ولما بلغ الرسل ما أمروا به عارضهم الكافرون وآذوهم فوعدْناهم بالنصر المبين وإهلاك أعدائهم (وصدقناهم الوعد) ونصرناهم عليهم

(فأنجيناهم) أي الرسلَ (ومنْ نشاء من المؤمنين) بهم (وأهلكنا المسرفين) أي الكافرين المتجاوزين عن الحدود • ثم قال سبحانه وتعالى توبيخاً للكافرين المعرضين عن القرآن (لقد أنزلنا إليكم كتابا) مُوجها للعقلاء إلى الخير في الدارين وموجباً للسعادة الأبدية و (فيه ذكركم) أي ذكركم في التأريخ العالمي بأن ذلك الكتاب منزل بلسانكم ومنزل على نبي منكم تتشرفون بشرفه (أفلا تعقلون) ما في ذلك الكتاب من الفوائد العامة وإعلاء قدركم خاصة (وكم قصمنا من قرية) فيه بيان لإهلاك المسرفين • والقصم الكسرُ بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية • يعني وكم كسرنا ومحوْنا (من قرية) معمورة مغمورة بالرجال والأبطال (كانت) تلك القرية أي أصحابها (ظالمة) بسبب كفرهم بآيات الله ومعاداة الرسل ومعاندة المؤمنين (وأنشأنا بعدها) أي بعد إهلاكها وتدميرها بمن فيها (قوماً آخرين ؟) لن يكونوا منهم أو لم يكونوا على دأبهم (فلما أحسوا) أي أهل القرية الظالمة (بأسنا) وعقابنا (اذا هُمْ منها يركضون) فكم من الاوبئة نزلت عليهم فركض الناس الى الأطراف خوفاً من الإتلاف ؟ وكم من جيوش للأعداء وَرَدت عليهم ففروا وانهزموا الى البلاد ؟ وكم من القحط والغلاء أو الغارة الشعواء ، او السيول الجارفة سالت بهم وفر الباقون الى أماكن قاصية لتحصيل المعيشة والأرزاق ؟ (لا تركضوا) أي فقال لهم الله تعالى بلسان الرسل أو قال لهم الملك كهاتف غيبي أو قال لسانُ حال البلاد المعمورة سابقا لا تركضوا من المحل (وارجعوا الى ما أترفتم فيه) من النعم واللذائذ الموجبة للبطر (و) إلى (مساكنكم) وقصوركم المُشيدة (لعلكم تسئلون) عما جرى عليكم ونزل بأنفسكم وأموالكم فتجيبوا السائلين عن علم وتقولوا كل ماجرى علينا كان من نتائج اعمالنا كما قال تعالى •

(قالوا) جوابا لسؤال الحال بالحال أو قالوا قبل ذلك لما يئسوا من الخلاص (ياويلنا إنا كنا ظالمين • فما زالت تلك دعواهم) أي تلك الجملة (حتى جعلناهم حصيداً خامدين) أي جعلناهم بمنزلة النبات المحصود والنار الخامدة في منع القيام والدوام •

(وَما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِين(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ(١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لايَفْتُرُونَ(٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ؟(٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)(٢٣)

قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) إستئناف" للإرشاد وتنبيه لعقلاء العباد على أن هذه الكائنات المرتبة من الأرض الى السماوات ، وما فيهما من النيرات والأمور العجيبة النفيسة من المعادن والحيوانات والنبات ، مع هذه الحركات المتوازنة المتنسقة لا يتغير حال أيّة منطقة منها على ما خلق فيها من الفصول والمواسم ••• أمور وحقائق ثابتة ولها آثار عجيبة ، ولا يليق أن يقال إنها العوبة غافل لاه لاعب • فإذا تحقق عند أهل البصيرة قوله تعالى (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما

لاعبين) لأن اللّعب هو الفعل الذي لا يقصد به مقصد" صحيح ، وحاشاه أن يُخلق ذلك كذلك • وفي الوقت عينه إشارة الى الإستدلال على وجود ذاته الواجب بآثاره النافعة الجامعة للنظام يستدل بها المقرون بالحكم والمصالح ، فإن مطلق الأثر يدل على المؤثر ، والأثر البديع على الوجه المتقن المُحكم الذي يُعجِبُ الناظرين من أهل الأبصار والبصائر يَدل على مؤثر عظيم جبار قادر مقتدر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، كما أنه إشارة إلى الاستدلال بهذا العالم البديع على أن إرسال الرسل حقّ يطلبُ مراعاته فإن هذا العالم الواسع بما فيه من الموجودات وبالأخص الإنسان المدني بالطبع المتطور الجاذِب الدافع لا يعيش بدون النظام ، والنظام إذا كان صنعيا فكل قوم يصنعونه على ما ينفعهم ولا ينظرون الى منافع غيرهم ، فلزم أن يكون النظام إلهيّاً جامعا يصلحُ به أمور الناس كلهم وعلى ذلك أرسل الله تعالى الرسل الى العالم بشيرا ونذيرا وأنزل عليهم الكتاب الجامع لسعادتهم في معاشهم ومعادِهم ، فيجب على كل عاقل الإنقياد له ، والسعيد من التزمه وجعله منهجا له لينال السعادة ، والشقي من أنكره وجعل نفسه بحيث تعمل على ما تهواه ، ولو كان أخس عادة •

ثم قال (لو أردنا أن نتخذ لَهواً لاتخذناه من لدُنا إن كنا فاعلين) أي لو كان الباري مريداً لاتخاذِ لهوٍ لاتخذه في عالم الغيب بحيث يخصه وما اتخذ صورة عيانية لكم تتفرجون عليه وتقضون به شهواتكم ، أو لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا لأن الملك المسيطر يختص بما يريده لنفسه ، لكن التالي باطل لأن اتخاذ اللهو بمعنى الأمر الذي لا يكون له عاقبة حميدة ممتنع ، فكذا المقدم وهو إرادة اتخاذ اللهو ، فإذاً ليس في العالم وأجزائه إلاّ الأعيان والأعراض المقرونة بالحكم الراسخة • ومنها بعث الرسل وإرشادُ الناس إلى السبلِ وتقرير المصير بالثوابِ والعقاب للكل •

فليس في عالم الإمكان للهو مِن مكانٍ (بل نقذف بالحق) وهو إرادة التشريع وطلب الطاعة والمعرفة من المكلفين (على الباطل) وهو عمل اللهو واللعب الفارغ عن الخير فيه (فيدمغه) أي فيمحق ذلك الحقّ وهو خلق الكائنات لإطاعة رب الأرض والسماوات ، الباطلَ الذي لم يكن فيه حكمة فيما مضى ولا فيما هو آتٍ (فإذا هُو زاهِقٌ) يعني ولما دمغ الحقّ الباطلَ فاجأنا العلم بأن الباطل ذاهبٌ عاطِل . ومن هذا البيان يظهر أن مصير الكفر الى الفناء ومصير الكافرين الى الدمار (ولكم الويل) يا قريشُ (مما تصفون) الله به من اتخاذ الشريك أو الولد ، أو اتخاذ اللهو واللعب إلى الأبد .

ولا يفتقر الباري إليكم ولا إلى غيركم ولا إلى السماوات والارض ومن فيهما (وله من في السماوات والارض) أي مسخر منقاد يعمل فيهم ما يشاءُ (ومن عِنده) من الملائكة (لا يستكبرُون عن عبادته) أي لا يتعظمون عنها (ولا يستحسِرون) أي ولا يتعبون من عبادته . (يسبحونَ الليلَ والنهار) أي في الأوقات كلها (لا يفترون) أي لا يأتيهم الفتور عنها .

وقوله تعالى (أم اتخذوا آلهةً من الأرض هُم يُنشرون) حكاية لأشد جناياتهم أعني اتخاذ آلِهة غير الله يعني أبَلْ اتخذوا من آلهة من أجزاء الارض من الحجارة والمعادن والجص هم ينشرون ، حالكونهم هُمُ الذين يبعثون الموتى في يوم القيامة للميزان والحساب وتعيين الثواب والعقاب ؟ وهذا القيد هو الذي يدور عليه التشنيع والتجهيل فإن المواد الجامدة الهامدة لاحسَّ لها ولا شعُور حتى تكونَ لها قدرة ويتوهم منها أنها تبعث الموتى ، ويقول لرد ذلك : (لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا) أي لو كان فيهما آلهة بصفة الكمال المقتضية لوجوب الوجود والخالقية المقتضية للمعبودية لفسدتا ، أي لم تتكون الأرض والسماوات

من أساس لأنّ هذه الآثار لا يمكن إبداعها وإحداثها من العدم إلا بذات واجب الوجود غير قابل للعجز والمنع ولو كان آلهة موصوفة بتلك الصفات وجب أن يكون من شأنها منع الغير عن آثار غير محبوبة عنده فيلزم جواز منع هذا لذاك وذاك لهذا وإمكان المنع لأي إله يوجب أن لا يكون واجب الوجود فلم يكن شيىء منهما إلهاً واجب الوجود فلم يحدث العالم ولم تتكون السماوات والأرض لكن التالي باطل لتكونهما مشاهدة وعيانا فالمقدم وهو تعدد الآلهة بتلك الصفة باطِل" ، وهذا هو حقيقة معنى الآية الكريمة فتكون دليلا قطعيا على امتناع تعدد الآلهة الموصوفة بوجوب الوجود .

وأما حملُ الآية الكريمة على معنى أنه لو كان فيهما آلهة لعارضَ كلٌّ الآخر وتنازعا باقتضاء هذا لحركةِ الشيىء المعهودِ والآخر لسكونه حتى تُمنعَ الملازمة بسندِ جواز توافقهما على شيىء معين ويحتاجَ إلى إثبات الملازمة ببنائها على الغالب من التعارض بين المشركين فليس بشيىء يعتمد عليه في امثال هذا المقام المهم . نعم يجوز اعتباره على أن يكون دليلا خطابيا لا غيرُ .

ولما ثبتت نظافة ساحة التوحيد عن توسخها باعتبار الشريك قال تعالى : (فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون) أي أنزه غاية التنزيه الذاتَ الموجودَ المعلم باسم الجلالة (الله) المنعوت بربوبيته للعرش المحيط بعالم الإمكان عما يزعمون من إسناد الشريك إليه . وفي نعته برب العرش إشارة إلى استدلال آخر على وحدته بأن الله رب العرش الذي لا يصلُ العقلاءُ الى وصفه كمال الوصف ، فكيف يمكن أن يكون له شريك في ربوبيته لذلك ؟ ولما انفرد الخالق المعبود بوحدة الذات ووحدة ذاته تقتضي امتيازه بصفات لا يمكن أن توجد في غيره تبين أنه الكامل المطلق ، وسبحان

الله الكامل المطلق أن يعمل شيئا فاسدا خارجا عن الحكمة ولذلك (لا يسئلُ عما يفعلُ) على وجه النقد والاعتراض لأن أعماله مصونة عن العيب ولا يسأل عن سر خلقه لشيء وحكمته لأن آثار الذات الأزلي الأبدي لا تتناهى ولا تسعُ علم أي عالمٍ أسرار خلقه وخليقته ولا يستوعبها ، وإنما يظهر بعض الحكم على بعض عباده إذا شاء (وهُم يسئلون) أي ومن عداه من المكلفين يسألون عن لمية أعمالهم الإكتسابية وكيفيتها ، لأنهم ناقصون ذاتاً بالإمكان والحدوث ، وصفةً بثبوتها لذلك الموصوف ، وعملاً لمقارنته للقصد المؤف . فإن أعمالهم ناشئة عن قدرة تابعة لإرادةٍ ترجح جانباً على جانب لأغراض نفسية وعوارض شخصية وتلك لا تخلو عن العيوب قطعا .

(اَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُم هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٤) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ اِلاّ نُوحي إِلَيْهِ اَنَّه لا اِلهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥) وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ ! بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ(٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِاَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتضى وهمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مشفِقُونَ(٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ اِنّي اِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجزي الظّالِمينَ(٢٩)

قوله تعالى : (أمِ اتخذوا من دونه آلهةً) إضرابٌ وانتقالٌ من بيان بطلان كون ما اتخذوه آلهةً الى الاستدلال على ذلك ببيان خلوها عن

خصائص الألوهية ، وهي ظهور آثارها الثابتة الدالة على ألوهيتها فيقول لحبيبه ـ عليه السلام ـ : (قل) لهؤلاء المتخذين من دون الله آلهة (هاتوا برهانكم) على ما تدعونه من اتخاذ الآلهة (هذا ذِكْرُ مَنْ معي وذكر من قبلي) أي هذا الذي تلوته عليكم من أدلة توحيده تعالى واتصافه بالكمال المطلق ذكر ودليل لمن معي من أمتي ، وذكر ودليل لمن قبلي من أمم الرسل السابقين ، فأتوا أيضا بدليل سليم يدل على اتخاذ الشركاء (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) إضراب عن طلب الدليل منهم على دعواهم الى أنه لا ينبغي أن يتكلم معهم لأن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يميزونه عن الباطل ، وأقلهم مغمور بينهم وأذل ، ولا مجال له حتى يظهر في ميدان سماع الحوار (فهم معرضون) مستمرون على الإعراض عن الحق وسماع أدلة التوحيد .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول) الى بني إسرائيل أو غيرهم (إلا نوحي إليه) أي الى ذلك الرسول (أنه لا إله الا أنا فاعبدوني) وخصوني بالعبادة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) استئناف لبيان نوع آخر من خرافاتهم وهو أن لله الرحمن الرحيم ولداً فقالت بَطْن مِن خزاعة : الملائكة بنات الله ، واليهودُ :عزيرُ ابن الله ، والنصارى المسيحُ ابن الله ... (سبحانه) وتعالى عن اتخاذه للولد بأي وجهٍ لا من الملائكة ولا من الرسل ولا من غيرهم ، لأن التناسل فرع الاحتياج الى حفظ النوع وهو تعالى أزلي وأبدي وحي بذاته وقيوم لخليقته من أرضه وسماواته وغيرهما (بل عباد مكرمون) أي مُكرمُون عند الله باختيار الملائكة للعبادة والطاعة المستمرة وعزير والمسيح بالإصطفاء والرسالة لتبليغ أوامره الى عباده (لا يسبقونه بالقول) أي لا يتقدمون على الله بكلام ، وهذه كناية عن أنهم لا يقولون

شيئا حتى يقوله تعالى (وهم بأمره) تعالى (يعملون) لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون •

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ويراقبهم في كافة سرهم وجهرهم ولا يجول في خاطر أي واحدٍ منهم الا ما يرضى به تعالى (ولا يشفعون) يوم القيامة (إلا لمن ارتضى) من المؤمنين الذين يستحقون الشفاعة لغفران الذنوب أو الإخراج من العذاب ، أو لرفع الدرجات ، وشفاعتهم ممنوعة عن الكافرين (وهم من خشيته مشفقون) أي وهم بسبب مخافتهم المستمرة من هيبة الله وعظمته مرتعدون خائفون غاية الخوف ومضطربون غاية الإضطراب (ومن يقل منهم) أي من الملائكة وغيرهم إني إله من دونه تعالى (فذلك نجزيه جهنم) كسائر المجرمين (كذلك نجزي الظالمين) بإسناد ما لا يليق بهم الى انفسهم •

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٣٣)

قوله تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتْقاً ففتقناهما ؟) يعني لم لا يستدل الكفار الملحدون حسب ما يسمعونه من كتب الحكماء السابقين والاحقين بسيطرتنا على العالم على وحدتنا وكمالنا الذاتية

والوصفية والفعلية؟ ألم يعلموا بأنفسهم أو بحسب الإستفادة من الغير أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة في بدء الخليقة ففتقناهما وميزنا بعضهما عن بعض وجعلنا بعضها أرضا واقعة في جو خاص ومحل معين وجعلنا بعضها سماءً أعلى منها • أو ألم يعلموا أن السماوات كانت واحدة فجعلناها سبع سماوات طباقا ؟ والارض كانت قطعة واحدة فقسمناها الى سبعة أقسام من الارض القشرية والترابية وغيرها • أو ألم يعلموا أن السماوات والارض كانتا في ذاتيهما ملتحمتين يابستين لا يحصل منهما شيىء ففتقناهما وجعلنا السماء ممطرة والارض منبتة أي رتبنا أمورهما ، وجعلنا طبقات السماوات الأثيرية بعضها فوق بعض وميزنا الأرض الى مواد معدنية وغيرها والى جبال شاهقة وأراضٍ نافعةٍ واسعة وعيون نابعة وأنهار جارية (وجعلنا) أي وخلقنا (من الماء كل شيىء حي) أي كل جسم نام حساس متحرك بالإرادة كثيفة الخلقة • أو خلقنا من الماء كل نام يزيد في الأقطار فيشمل النباتات ولا يشمل الملائكة والجن مطلقا لأنها ليست مركبات مادية كثيفة • ويقرب من هذه الآية الشريفة قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء) ووجه كون الماءِ مبدأ ومادة للحيوان أو الدواب أنه أعظمُ مواده وكثرة إحتياجه إليه فإن الحي لا يعيش بدون رطوبة في بدنه ودمٍ في عروقه • وقال جماعة المراد بالماء النطفة سواء دخلت في الرحم كما في الحيوان الوَلُودِ أو في البيض كما في الحيوانات البائضة (أَفلا يؤمِنون ؟) بذلك المالك الحي القادر العليم الذي خلقَ الكائِناتِ من الارض والسماوات ورتبها بما يفيدُ البريات •

(وجعلنا) أي وخلقنا (في الأرض رواسي) جمع راسية بمعنى ثابتة أي جبالا ثوابت مغروزة في الارض لفوائد جليلة منها حفظ الارض (أن تميد بهم) أي تميل وتضطرب بهم في حركاتها اليومية والسنوية لأن الكرة

المتحركة اذا لم تتعادل أجزاؤها لم تتناسق حركتها فلها اقتضاءٌ سرعة من الجانب الخفيف وبطء من الجانب الثقيل • ولما تعادلت بغرز الجبال فيها على وجه مُنسق كما قرره الباري تعالى اعتدلت حركتها (وجعلنا فيها) أي في الأرض (فجاجا) جمع فج وهو شقة يكتنفها جبلانِ • وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فجّ • وقال بعضهم : هُو مطلق المعبر الواسع سواء" كان بين جَبَلين أم لا ، وقوله (سُبُلا) جمع سبيل بدل من الفجاج لأنها موسعة للسابلة (لعلهم يهتدون) الى الاستدلال بهذه الآثار على وحدة القادر المختار ، أو لعلهم يهتدون بالسبل الى السير الى مقاصدهم •

(وجعلنا السماءَ سَقفاً) للأرض وأهلها (محفوظاً) عن البِلى والتغير والإنفطارِ والسقوط الى المركز حتى يأتي زمانُ انفطارِها ، أو محفوظا عن النفوذ فيها والخروج عنها الا بسلطان منا ، أو عن الشياطين واستراق السمع • وهذا مقيد بعصر الرسالة الخاتمة (وهم عن آياتها) الدالة على عظمة رافِعها وحافظها ، أو عن كشف آياتها المودعة فيها كالكواكب والقمر والشمس (معرضون) ذاهلون غافلون لا يستدلون بها، أو معرضون عن السعي في كشفها باقتناء العلوم الفلكية (وهو الذي خلقَ الليل والنهار والشمس والقمر) أي وهو الذي خلق ستار الظلمة على نصف الكرة بمجيىء وقت غروب الشمس إلى طلوعها ، وخلق أنوار النهار على سطحها بطلوعها الى وقت الغروب وخلقَ الشمس لإفادة الأنوار في سطح الارض حتى تحصل الظلمة في السطح المقابل والقمر لخلق الأضواء إذا جاء الستارُ وقت الميل (كل) منهما (في فلك) ومدار خاصٍ (يسبحون) يستمرون في السباحة •

ففلك القمر ومداره قريب من الارض حتى يقال اليوم إنه من توابع كرة الارض • وفلك الشمس في مدار أعلى بما لا يعلمه إلا الله والسّباحة تشعر بأن السماء أثير صافٍ قابل للخرق والذهاب والإياب والطلوع

والغروب . وما اشتهر من امتناع الخرق والإلتئام كلمات" لاكتها العقول المُبتلاةُ بالأوهام ، وصيغة الجمع ملاحظة" للكل وعلامة الجمع لتنزيلهما في هذا العمل العجيب منزلة العقلاء . ثم الظاهر من الآية الكريمة هو أن كُلاً من الشمس والقمر يجري في فلكه ويتحرك في ملكه وهذا بالنسبة الى القمر مسلم معلوم وأما بالنسبة الى الشمس فقد قيل انه مجاز من نسبة صفة المراقب المجاور الىمجاوره يعني أن الارض هيالتي تتحرك ولكن الواقف عليها يعتقد أن الشمس هي المتحركة ، وإلا فالشمس ثابتة في محلها كمركز لحركات دوائر المجموعة الشمسية وهي باقية في الوضع . نعم إنه قد اشتهر في العصر الأخير أن الشمس تتحرك بمجموعتها في فضاء العالم الواسع الى ما شاء الله تعالى ، وذلك عائد الى علم العليم الخبير ، وعليه اعتقادي فإن الخالق هو العالم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) .

(وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفإنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ ؟(٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ، وَنَبلُوكُمْ بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإلَيْنا تُرْجَعُونَ(٣٥) وإذا رَآكَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً أَهذا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمن هُمْ كافِرُونَ(٣٦) خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي ، فلا تستعجلون(٣٧) وَيَقُولُونَ : مَتى هذا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وجُوهِهِمُ النّارَ ، وَلا عَنْ ظُهورِهِمْ ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ(٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ

بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)(٤١)

قوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) نزلَ لما قال الكفار نتربص به ريبَ المنونِ ، أي أنه بَعْدَ مدة يموت ودينه يفوت ونخلص من بث فكرة التوحيد • فقال سبحانه وتعالى : وما جعلنا لبشرٍ من قبلك كائناً من كانَ الخلود والدوامَ والبقاء مادامت الدنيا باقية ، بل لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب" فكما أنك تموت فهم يموتون فاسألهم أفهم الخالدون دونك ؟ كلاّ لا خلود لأحمد ولا لمحمود ولا لشقي ولا مسعود • وبموتِ الشخص اذا كان سائرا على الحق وناشرا للحق لا يموت دينه وديدَنه • وهكذا كان الزمان وكذلك يكون فلا ينفع أهلَ الضلال موتُ أهل الهدى وهم بعدهم أو قبلهم يموتون (كل نفسٍ ذائقة الموْتِ) المر على مذاق الطبع الحيواني (ونبلوكم بالشر والخير) أي بالمكروه والمحبوب هل يشكرون على الثاني ويصبرون على الاول ؟ (فتنة) أي إبتلاء ، فهو مصدر مؤكد لما قبله (وإلينا ترْجعون) لا الى غيرنا ونحن نعلم بأحوالهم عند الإبتلاء وعلينا الجزاء وإلينا المصير •

(وإذا رآك الذين كفروا) أي المشركون (إن يتخذونك إلاّ هزوا) أي محل هزء أي مهزوء به قائلا على وجه التهكم : (أهذا الذي يذكر الهتكم ؟) بسوء ويرفض عبادتهم (وهُم بذكر الرحمن) الذي شملت رحمته كل شيء (هُم كافرون) فانظر إلى سوء شعورهم يهزأون بالنور ويعززون الخشب الموزور ! وقوله (خلق الإنسان من عجل) نزل لبيان استعمال الكفار المستحقرين لمواعيد الرسول بالعقاب والعذاب والمستعجلين له على أساس إنكارهم له فقال خلق الأنسان أي هذا النوع بأسره من عجل أي من طبيعة غالب صفاته الغريزية الاستعجال لما يهواه ، وبما أنه غالب" فيه فكأنه

خلق منه ، وإن كان العرض محتاجا للجوهر ولا ينشأ الجوهر منه (سأريكم آياتي) أي سأجعلكم ممن يرون بأمّ العيون صنوف عذابي من القتل والفتك والهتك والحقارة والخسارة في الدنيا والعذاب والعقاب في الآخرة (فلا تستعجلون) •

(ويقولون) أي أولئك المستعجلون : (متى هذا الوعد) أي متى وقت وقوع الساعة الموعود بها (إن كنتم) أيها الرسول وأتباعه (صادقين ؟) في مجيئه وحلوله فأجابهم الله تعالى بما يتحقق فيه مما يدهش العقول وقال (لو يعلم الذين كفروا) أي شدة عذابهم و حدة النار عليهم (حين) يقعون فيها و (لا يكفّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم) عند إحاطتها بجوانبهم (ولا هم ينصرون) من غيرهم حتى تبعد عنهم لعلموا شيئا هو أشد الأشياء عليهم هؤلا (بل تأتيهم) أي الساعة (بغتة) أي فجأةً مفعول مطلق لتأتيهم على غير لفظه ، أو مصدر في موضع الحال أي مباغتة لهم فتبهتهم ، أي فتجعلهم في بهت ودهش وتحير (فلا يستطيعون ردها) أي رد الساعة التي فاجأتهم (ولا هم ينظرون) أي يمهلون ليستريحوا أقلّ وقتٍ وزمان • (ولَقد استهزىءَ برسلٍ من قبلك) من آبائِك وأعمامِك شرفاء كُرماءَ عند الله فصبروا على أذى الإستهتار واستهزاء الكافرين بهم فنجوا من كل مكروه ونالوا عند الله كل محبوب ، ووصلوا الى كل مطلوب مرغوب (فحاق بالذين سخروا منهم) أي من أولئك الرسل (ما كانوا به يستهزؤن) من وجوه الحقارة والنذالة والبذاءة التي استعملوها مع أولئك الرُّسُل المكرمين •

(قُلْ : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمنِ ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ(٤٢) امْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِم وَلا هُمْ

مِنّا يُصْحَبُونَ(٤٣) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وآباءَهُمْ حَتّى طالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، أَفَلا يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ؟ أَفَهُمُ الْغالِبُونَ ؟(٤٤) قل : إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إذا ما يُنْذَرُونَ(٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالمِينَ !(٤٦) ونَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها ، وكَفَى بِنا حاسِبِينَ)(٤٧)

قوله تعالى : (قُلْ مَن يكلؤكم بالليل والنهار منَ الرحمن ؟) أمرٌ من الله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم أن يقولَ لهؤلاء المستهزئين : كيفَ تتجاسرون على الله وهو الحافظ لجميع العالم ؟ وإلا فقولوا لي (مَنْ يكلؤكم) أي من الذي يحفظكم (بالليل والنهار) الطرفين لكل نائبة وحادثة (من الرحمن) أي بأسه الشديد بالنار أو الحديد ، أو من كلّ بلاء جديد • ولا شك أنّ المجيب المؤمن يقولُ : أللهُ هُو الحافظ للمخلوق من باسٍ يأتي من الخالق ، وإذا كانت من لابتداءِ الظهور وجب أن يُجابَ بأن الحافظ للإنسان هو ملائكة الرحمن ، فقد قال تعالى : (لـه مُعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) • (بل هم عن ذكر ربهم مُعْرضونَ) أي أعرض عن سؤالهم عمن يحفظهم من بأس الله ، فإنهم أناس مُعرضون عن ذكر ربهم ، ولا يجيبون بما فيه إسناد العمل إليه أبداً •

(أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟) إعراض عن وصفهم بالإعراض عن الله تعالى إلى بيان اعتمادهم على غيره تعالى من آلهة مفتعلة مصنوعة من أحجار وأخشاب ، ويعتقدون أن مولاهم وناصرهم آلهة تمنعهم عن كل

ضارّ من دوننا ، أي من غيره تعالى ولا يسندون ذلك العمل إلى الله قطعاً • ولكنهم أخطأوا في ذلك فإنهم (لا يستطيعون نصر أنفسهم) إذا أراد شخص أن يكسرهم ، (ولا هم منا يصحبون) أي ولا هم يصحبون ويؤيدون بناصرٍ ينصرهم ويدافع عنهم (بل متعنا هؤلاء وآباءَهُم حتى طالَ عليهم العمرُ) إضرابٌ عن إلقاء النوع السابق من الكلام إلى وعيدهم بأنهم يستحقون أشد العذاب لأنا متعنا هؤلاء وآباءهم بالملذات والمشتهيات في سنين طويلة حتى طال عليهم العمر وبقوا منطبعين بما هم فيه ويعلمون أن العاقبة لهم ومن عداهم كزبدٍ ما له أمد •

(أفلا يرونَ أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟) فنحولها الى ديار المسلمين بعدَ أن كانت من ديار الكافرين ، وجعلنا المسلمين غالبين عليهم بحيث لم تبق لهم شأفة وشوكة (أفهُم الغالبون ؟) على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين بعد مشاهدتهم ذلك • وقيل في معنى الآية : أفلا يرون أنا نقتدر على كل تصرف في الأرض والسماوات ونأتي الأرض ننقص من مادتها الترابية ونقشرُها من كلِ جانب كما ننقص من كرة سائر الكواكب الى القمر والشمس كذلك • فما دام أنّ لنا قدرةً كذلك وأردنا أن نأتي بدين الإسلام فلا شك في تحقق ما أردنا من إعزازه وإعزازِ الرسول المبعوث به أفهم الغالبون على ذلك الرسول الجليل بعد كل ذلك ؟ كلاّ ثم كلاّ •

(قل : إنما أنذركم بالوحي) أي أنذركم من جانبه تعالى على الوحي الصادق بما تستعجلون به من الساعة وعذابها وليس الإتيان به من شأني (ولا يسمعُ الصمّ الدعاء اذا ما ينذرون) ولكن لا يسمع الناس المبتلون بآفة في السمع دعوة الرسول لهم الى الحق إذا هم ينذرون ، أي إذا أتاهم بالإنذار والمراد لا يسمعون كلامه سماع إجابة ، ومعَ ذلك فهم أناس ضِعاف

لا يقاومون أية مصيبة تأتيهم (ولئن مستهم نفحة" من عذاب ربك) أي والله إن أصابهم شيىء قليل من آثار عذاب الله الوارد عليهم (ليقولن) متحسرين متأسفين متندمين عما كانوا عليه : (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أنفسنا بإبائنا عن سماع كلام الله وكلام رسوله الأمين (ونضعُ الموازين القسط) أي ونضع الموازين العادلة التي توزنُ بها صحائف الاعمال (ليوم القيامة) أي فيه فلا تظلم نفس أية نفس كانت شيئا من الظلم أياً كان (وإن كان) الوزن (مثقال حبةٍ من خردل) أي مقدار حبة كائنة من نبات خردل وهي في غاية الصغر (اتينا بها) أي جئنا بها للحساب حتى لا تضيعَ (وكفى بنا حاسبين) للدقائق في الأعمال ، فإنه لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقَانَ وضِياءً وَذِكْرى لِلمتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشفِقُون(٤٩) وَهَذا ذِكْر" مُبارَك" أَنْزَلْناهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ منكِرُونَ ؟(٥٠) وَلَقَدْ آتَيْنا إبْراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عالِمِين(٥١) اِذْ قالَ لأَبِيهِ وقَومِهِ : ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتي أَنْتُم لَها عاكِفُونَ ؟(٥٢) قالُوا : وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ(٥٣) قال : لَقَدْ كُنْتُم أَنْتُم وَآباؤكُم في ضَلالٍ مُبِينٍ(٥٤) قالُوا : أَجِئْتَنا بِالحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبينَ ؟(٥٥) قالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ الَّذي فَطَرَهُنَّ ، وأَنا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(٥٦) وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(٥٧) فجَعَلَهُمْ جُذاذاً ، اِلاَّ كَبيراً لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)(٥٨)

قوله تعالى : (ولقد اتينا موسى وهارون الفرقان) تفصيل لما أجمل في قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) أي والله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستفاد منه للخروج من ظلمات الجهل والضلال (وذكراً للمتقين) أي الذين يريدون تقوى اللهِ وطاعته (الذين يخشونَ ربَّهُمْ بالغيب) أي يخافون ربهم والحال أنه غائب عنهم لقوة الإيمان ، أو يخشون ربهم في وقت الغيب عن الناس فلا يباشرون الذنوب والآثام (وهم من) لقاء (الساعة) وهولها وما يلقونه بعدها من الحشر والحساب والميزان والنار (مُشفِقُون) خائفون بالاستمرار . (وهذا) القرآن الكريم (ذكرٌ) يتذكر به من تذكر (مبارك) كثير البركة والخير من نفحات رحمة المتكلم به ، فإن الكلام صفته (أنزلناه إليك لتنذرَ بهِ امُ القُرى ومن حولها) الى نهاية أقطارِ الكرة (أَفأنتم لهُ منكرون ؟) أي منكرون أنه أُنزل من الله على رسوله ، أو أنه منزل ولكن ليس فيه خير وبركة . كلاّ فإنه يعلم ما فيه من البركة كلّ من في قلبه حركة ، فقد سمعناه وأثار في القلوب نور الرحمن ، وأنار القلوب بنور الإذعان والإيمان ، ووجدْنا مِن قراءته علينا في بعض الأحيان فَوْحاتٍ تُعطر الصدور بالروح والريحان .

(ولقد آتينا إبراهيم رشده) أي الرشد المناسب له لمقاومته أعظم عاتٍ متكبر في الزمان (من قبلُ) أي قبل موسى وهارون (إذ قال لأبيه وقومه) على سبيل النصح والإرشاد وإرخاء العنان : (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟) أي ما حقيقتها ؟ أهي هياكل موجودة في ذاتها ؟ أم تماثيل ركبتموها من أجزاء متباينة ؟ فهل تستحق أن تعبدَ ؟ او ما وجهُ عبادتكم لهذه التماثيل التي أنتم لأجل عبادتها عاكفون ومقيمون وملازمون لأداء شعار العبادة ؟ (قالوا : وجدنا آباءَنا لها عابدين) أي ما ندري

حقيقتها بالذات ، ولكن وجدنا آباءنا عابدين لها ونحن ملازمون لعبادتها تقليداً لهم ، أو لا وجه مكشوفا عندنا إلا تقليد آبائنا ، ونزعم أنهم مصيبون • (قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم) الأئمة في تلك العبادة (في ضلال مبين) واضحٍ بديهي لا يحتاج الى الدليل لأن العبادة للجمادات ضلال لا ضلال فوقه (قالوا) عندما سمعوا كلامه تعجبا من تضليله ـ عليه السلام ـ لهم ولآبائهم : (أَجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟) أي أجئتنا بكلام ناشيء من الجد والقصدِ أم انه من اللاعبين الهازلين ؟ فلم يريدوا بالحق ما هو المطابق للواقع ؛ لأن حقية عبادة الأصنام لم يقبل الترديد عندهم ولو فرضا ، بل أرادوا أن هذا الكلام الباطل الذي جئتَ به تكلمت به عمدا وجِدا أم لهواً ولعبا (قال : بل ربكم ربّ السماوات والارض الذي فطرهنّ وأَنا على ذلكم من الشاهدين) أي اعرضوا عن هذه الترديدات والإعتبارات اللاغية فانى أتيتكم بكلام حق ناشيء عن علم وعمد وقصد وبيان لنوع الانسان منكم ومن غيركم و (ربكم ربّ السماواتِ والأرض الذي فطرهنّ) وخلقهن بما فيهن وعليهن وما بينهن من العدم وأخرجهن الى الوجود (وأنا على ذلكم) الكلامِ الحق (من الشاهدين) في الدنيا والآخرة • ولم يكتف بذلك بل هددهم مؤكدا بالقسم، وقال : (وتالله لأكيدن أصنامكم) أي لأحاولن وأسعين في كسر أصنامكم بما يمكن لي من الإستطاعة بعد ان تولوا وتستدبروا عن عبادتها الى مراسم عيدكم الرسمي مدبرين عنها ، فلما انفض الجمع وولوا الى عيدهم أتى إبراهيم ـ عليه السلام ـ الى الاصنام فجعلهم جذاذا أي قطعاً متفرقة (إلا كبيراً لهم) أي للأصنام (لعلهم إليه يرجعون) أي لعل القوم العابدين لها يرجعون الى ذلك عند المناقشة معه ـ عليه السلام ـ •

(قالُوا : مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا ؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظّالِمينَ (٥٩) قالُوا : سَمِعْنا فَتىً يَذْكُرُهُمْ ، يُقالُ لَهُ : إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا : فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ ؟! (٦٢) قالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ ، فَقالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ ؛ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟!)(٦٧)

قوله تعالى : (قالوا : من فعل هذا بآلهتنا) أي قالوا حين رجعوا من عيدهم ، وزاروا معبدهم ، ورأو ما رأوا مِن كسر الأصنام غير كبيرهم (من فعل هذا) العمل المخزي (بآلهتنا) ولما لم يسمعوا الجواب قالوا : (إنه) أي المباشر لهذا العمل العظيم (لمن الظالمين) المعدودين من جملة الظلمة على أنفسهم بالتعريض لها لأشد العقوبات المحتملة في الدنيا ، ولما فتشوا عن المباشر هنا وهناك وجدوا أُناسا (قالوا : سمعنا فتى) أي شابا (يذكرهم) أي الآلهة بسوء ويعيبهم (يُقالُ له إبراهيمُ • قالوا) أي عِلْيَةُ القَوم الذين سألوا أول مرة عن المباشر : (فأتوا به) أيها الناس السامعون لذلك الفتى الذي يذكرهم (على أعينِ الناس لعلهم يشهدون) أي لعل السامعين لكلامه يشهدون بفعله كما شهدوا بسماعهم لكلامه ، أو يجدوا أناسا آخرين علموا بعمله فيشهدوا عليه ، فذهبوا وفتشوا عنه حتى وجدوه ، وأتوا بهِ الى الجماعة (فقالوا) أي المستنطقون منهم : (أأنتَ

فعلت هذا) العمل المُخزي (بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قالَ : بل فَعله كبيرهم) أي كبير الأصنام (هذا) الباقي على حاله (فاسألوهم) أي الأصنام المكسورين وقوله (إن كانوا ينطقون) أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا ببيان الفاعل المباشر للعمل شرط" وقوله السابق (فعله كبيرهم) جزاء مقدم • وقوله فاسألوهم جملة معترضة حتى لا يرد لزوم الكذب عليه ــ عليه السلام ــ إن كان كلامه مبنيا على الحقيقة • وأما اذا كان مبنيا على التجوز لأن كبيرهم هو الذي تسبب في استنكاره ــ عليه السلام ــ لعبادتهم فإنهم كانوا يعظمونه تعظيما بليغا ، فلا يكون هناك كذب" ولا حاجة الى تأويل الآية الشريفة أي القول بربط (بل فعله كبيرهم) بقوله إن كانوا ينطقون • فإن كبيرهم كان سببا لإغاظة إبراهيم ــ عليه السلام ــ حتى فعل بهم ما فعل ، وأسند الفعل الى السبب نحو هزم الأمير الجند وذلك شائع ذائع •

(فرجعوا) أي علية القوم (الى أنفسهم) وشاوروا عقولهم وعلموا أن قول إبراهيم حق (فقالوا) أي بعضهم لبعض : (إنكم أنتم الظالمون) بعبادة من لا يضر ولا ينفع ، أو بالمناقشة مع من تعلمون ان كلامه حق ، لا إبراهيم في اعتراضه عليكم • (ثم نكسُوا على رُؤُسِهِم) أي قلبوا من جانب النفس الأمارة ، والشياطين المكارة والتقاليد الباطلة الجبارة ، و (قال) بعضهم له ــ عليه السلام (لقد علمت) يا إبراهيم بلا شبهة (ما هؤلاءِ ينطقون) وأن عبادتنا لهم ليست ناشئة من نطقهم ، وبيانهم بل لاحترامٍ وتقديس تقليدي لأعيانِهِم فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ (قال إبراهيمُ) هب أنهم لا ينطقون ، وأن عبادتكم لهم ليس على أساس النطق والبيان ، لكن ألا تشعرون بأن العبادة لا تليق إلا بذات كامل الصفات يتصرف في الكائنات ومعلوم أن أصنامكم ليسوا كذلك (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم

شيئاً ولا يضركم ؟) إذ ليس لهم أيّ قدرةٍ وتصرف في عالم الوجود ، (أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ! أفلا تعقلون ؟!) قبح صنعكم ذلك .

(قالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً ، وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ ، وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣) وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ، فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ)(٧٧)

قوله تعالى : (قالوا حرقوه وانصروا آلِهتكم ان كنتم فاعلين) معناه : إنه لما عجزوا عن معارضته ــ عليه السلام ــ بالكلام لجأوا الى طريق العناد والتعذيب والإيلام ، فإن ذلك دأب المستكبرين و (قالوا) لأتباعهم المطيعين : (حرقوه) حتى لا يبقى منه أثر ويذهب رماده أدراج الرياح (وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) أي إن كنتم فاعلين شيئا ما فحرقوه وانصروا آلِهتكم، أو إن كنتم فاعلين ما به تنتصرون فحرقوه فجمعوا الوقود

وأشعلوا فيه النار ورموا إبراهيم فيها ولكن منعناها من الإضرار به وإحراقه و (قلنا : يانار كوني برداً وسلاماً) أي ذات بردٍ وسلامة (على) جسد (إبراهيم) أي تحولي من صفتك اللازمة الى غيرها، أو ابقي كما كنت ولكن لا تضري إبراهيم ولا تحرقيه • والأول مبني على جواز إنفكاك لازم الذات عنها ، والثاني مبني على امتناعه وجواز خلق المعارض في المقابل حتى لا يتأثر (وأرادوا به كيداً) أي أراد عبادُ الأصنام كيدا بإبراهيم بأن يحتالوا عليه ويمحوه (فجعلناهم الأخسرين) أي أخسر من كل خاسر حيث خسروا المصاريف والمتاعب التي ارتكبوها لإحراقه ولم تفدهم شيئا وعادت كأن لم تكن ، وخسروا السمعة حيث اشتهر في العالم أن إبراهيم غلبهم من بكرة أبيهم ، وخسروا دينهم لأن بقاء إبراهيم صار حجة قاطعة على أن دين إبراهيم حق وأن التصرف بيد مالك الملك وملك الملوك ، وأن ديدنهم عاطل باطل ما فيه طائل ، وخسروا الإهتداء بهذا الرسول الرشيد لأن كلامه كان موجبا للإنتباه فصار عندهم مزيداً للاشتباه ووقعوا في ما وقعوا فيه ، واستحقوا عذاب جهنم وذلك مثوى الظالمين •

(ونجيناه) أي إبراهيم (ولوطا) وهو ابن أخيه (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) يريد أنه بعدَ أن أنجيناه من النار هيأنا له وسيلة التهجير حتى لا يبقى مُلاماً معاتبا بين قومه المشركين ونجيناه من مجاورتهم ، ونجينا لوطا معه لأنه من آلهِ إلى الارض أي الشام التي باركنا فيها للعاملين ، خلقنا البركة المادية والمعنوية فيها لأهل العالم ، أما البركة المادية فبكثرة المياه والأراضي الزراعية ، وطيب المناخ ، ووقوعها في محل مناسب للتجارة وصيد الأسماك وغيرها • وأما البركة المعنوية فبجعلها مركزا للعبادة والتوحيد وبناء أولى القبلتين فيها ، وجعلها منتهى للإسراءِ ومبدأ للمعراج •

وروي أنه ـ عليه السلام ـ خرج من العراق ومعه لوط وسارةُ بنتُ عمه هاران الأكبر ، فنزل أرض حران فمكث بها ما شاء الله تعالى ثم انتقل مسافراً الى مصر ، ثم رجع منها الى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب ، وسكن هناك . ولما زار مصر وهبه ملكها جارية اسمها هاجر وأتى بها معه (ووهبنا له إسحق) من زوجته سارة (ويعقوب نافلة) أي زائدة على الولد وهو ابن إسحق (وكلا) من الأربعة المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم للعمل الصالح في الدين والدنيا فرضي الله والناس المنصفون عنهم (وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا) أي وجعلناهم أئمة للناس الطالبين للهدى ويهدون الناس إلى الإيمان بالله ورسله وشرائعه بأمرنا ووحينا (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) من الأعمال النافعة لهم وللناس لإتمام الكمال الإنساني بإضافة العمل إلى العلم (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) لأهلها بحسب ما شرعناه إذ ذاك (وكانوا لنا) لا لغيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم إلا امتثال أمرنا .

(ولوطا) منصوب بمضمر يفسره قوله (آتيناه) أي وآتينا لوطا (حكما) أي نبوة ورسالة وهي وسيلة الحكم في الأمة بالشريعة أو الفصل بين الخصوم في القضاء (وعلما) بما ينبغي علمه للأنبياء (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) أي الاعمال الخبيثة من اللواطة والمكيدة على الأبرياء والإستهتار بأهل المروة والحياء (إنهم كانوا قوم سوء) أي قوما ملابسين للعمل السيىء (وفاسقين) خارجين عن إطاعة الله ورسوله (وأدخلناه) أي لوطا (في رحمتنا) أي في أهل رحمتنا أي جعلناهم مرحومين (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى .

(ونوحا) أي واذكر نوحا أي نبأه وإرساله الى قومه وتبليغ رسالته لهم وتمردهم عليه حتى تعب من أعمالهم والتجأ الى الله في رد كيدهم كما قال تعالى (إذ نادى) أي دعا الله تعالى (من قبل) أي من قبل هؤلاء الرسل الذين ذكرناهم آنفاً (فاستجبنا له) دعاءه بأن أمرنا السماء بالإمطار والأرض بالإنفجار ، فحدث الطوفان في الكرة فأغرقنا الكافرين (ونجيناه وأهله من) ذلك (الكرب العظيم) العام في الارض لذوات الأرواح ممن سكن فيها (ونصرناه) أي ومنعناه (من) أذى (القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي حفظناه من شرهم بإبادتهم وإبقائه مع أتباعه المؤمنين (إنهم كانوا قوم سوء) أي أصحاب سوء وفساد في العقائد والاعمال (فأغرقناهم) أي بالطوفان (أجمعين) على حسب سنتنا في الجبارين .

(وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ ، إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ(٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ(٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ؟(٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ(٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وذِكْرى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)
وإسْماعيلَ وإدْرِيسَ وذا الكِفْلِ ••• كُلٌّ مِنَ الصّابِرِينَ (٨٥)
وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ)(٨٦)

(وداود وسليمان) عطف على (نوحا) أي واذكر داود وسليمان ابنه، وداود كان من نسل يهوذا ابن يعقوب ــ عليهما السلام ــ ، جمع اللهُ له بين النبوة والملك • ونقل النووي عن أهل التأريخ أنه عاش مائة سنةٍ ومدة ملكه منها أربعون ، وكان له إثنا عشر ابنا ، وسليمان أحدهم ، وكان يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه لوفور عقله وعلمه ، ويتعلق بذلك العامل المقدر قوله (إذ يحكمان في الحرث) والمراد به الزرع ، وقال الخفاجي : لعله بمعنى الكرم مجازا على التشبيه ، أي يحكمان في غرامة ما تلف منه (إذ نفشت فيه غنم القوم) أي رعتْ فيه ليلا بلا راعٍ فأفسدته (وكنا لحكمهم شاهدين) أي حاضرين علماً •

روي أنه دخل على داود ــ عليه السلام ــ رجلان فقال أحدهما : إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلا فأفسدته، فقضى له بالغنم فخرجا ، فمرا على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال : كيف قضى بينكما أبي ؟ فأخبراه • فقال : غير هذا أرفق بالجانبين ، فسمعه داود ــ عليه السلام ــ فدعاه فقال له : أخبرني بالذي هو أرفق • فقال : أرى أن تدفع الغنم الىصاحب الحرث لينتفع بدرها ونسلها وصوفها ، والحرث الى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يترادا • فقال : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك ، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة • وللناس أقوال في أن الحكمين كانا باجتهاد ، أو نص ، أو أحدهما بالإجتهاد والآخر بالنص ؟ والظاهر أنهما لم يكونا عن النص إذ لم يكن سليمان إذ

ذاك نبيا ، ولا حكمُ داود بالنص وحكم سليمان بالإجتهاد لأن الإجتهاد لا يرد النص ، فبقي أنهما كانا بالإجتهاد ، ولكن لما علم داود أن حكم سليمان أوفق رجع من قوله الاول ، واختار ما ذهب اليه سليمان • وقد يكون للمجتهد قولان أو أقوال في مسألة حسب ما يبدو له من الأدلة ، وذلك ما أفاده قوله تعالى : (ففهمناها سليمان) أي ففهمنا الحكومة السالمة إياه (وكلا) من داود وسليمان (آتيناه حكما) أي قضاء في فصل الخصومات (وعلما) بما يبني عليه الحكم والقضاء ، ولكن فوق كل ذي علم عليم ، وعلم سليمان في هذه القضية كان أوفق ، ولا يلزم من ذلك خطأ داود لأن حكمه كان مما يعيد لصاحب الزرع حقه أيضا ، ولكن كان حكم سليمان أرفقَ لبقاء الأصول لأصحابها ووصول صاحب الحق الى مثله •

ثم أخذ في بعض اختصاصات سيدنا داود ـ عليه السلام ـ فقال : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) إذا سبح هو بلسان القال كما سبح الحصى في كف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسمعه بعض أصحابه الكرام ، وكان داود ـ عليه السلام وحده يسمعه على ما قاله يحي بن سلام وقيل يسمعه كل أحد (والطير) معطوف على الجبال أي وسخرنا الطير يسبحن معه • وفي الآثار تصريح بأنها كانت تسبح معه ـ عليه السلام ـ كالجبال (وكنا فاعلين) تذييل لما قبله أي وشأننا أن نفعل أمثال ذلك فإنا قادرون على ما أردناه ، وهذه من الإختصاصات المعنوية • وأما من جهة الماديات فقد أفاده بقوله (وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم) أي صنع درعٍ تلبسونها في الحرب (لتحْصنكم من بأسكم) أي لتصونكم من الجراحات الناشئة من ضرب أعدائكم (فهل أنتم شاكرون ؟) ربكم الذي أنعم على داود بما يعود نفعه لكم •

(ولِسُليْمانَ الريح) أي وسخرنا لسليمان الريح (عاصفة) أي حالكونها هابّةً بشدة (تجري بأمره) على وفق إرادته من مستقره بإصطخر في شيراز الى الارض التي باركنا فيها أي الى الشام رواحاً أي بعد أن جرت به من الشام الى إصطخر بكرة كانت تعود به إليها عشية • وقيل : المراد بالأرض التي باركنا فيها ما أراد النزول فيها ، فكل ما حلّ فيها فهي مبروكة لأنها تكون منزلا لرسول من الرسل •

وفي القصة روايات كثيرة ، وأوثقها أنه صنع له ـ عليه السلام ـ بساط بقدر ما يحتاجه من الأهل والخدم والخواص والحرّاس ، فإذا أراد السفر إلى مكان ساروا إليه ويقعد كل في محله الخاص فتأتى الريح وترفعه وتصعد به إلى مستواه المناسب لسفره ، وكانت قوتها في الحركة بالغدوة مسافة شهر بالأقدام ، وبالرواح كذلك • والله على كل شيىء قدير •

(وكنا بكل شيىء عالمين) فما شرفناه بتلك المعجزة العجيبة إلا لما فيها من الحكمة البالغة (ومن الشياطين) أي وسخرنا له من الشياطين (منْ يغوصون له) أي يدخلون تحت ماء البحر لاستخراج ما يجدونه من الدراري اللامعة المحبوبة لسليمان ـ عليه السلام ـ (ويعملون) أي أولئك الشياطين (له عملا) كثيرا (دون ذلك) الغوص في البحار من صنع الأبنية والحصون والقلاع والمحاريب والتماثيل الجائزة في شرعه • (وكنا لهم حافظين) عن الخروج عن طاعته أو المؤامرة عليه أو حافظين لهم عن عروض موانع تمنعهم عن الوفاء بالأعمال التي وُسدت إليهم •

(وأيوب) أي واذكر أيوبَ ـ عليه السلام ـ وهَبَ الله له أموالاً وأولاداً كثيرين ، فابتلاه الله تعالى بفناء أولاده بهدم بيت عليهم وبإصابته بمرضٍ مدةَ سبعِ سنين وسبعة أشهر كما قالوا وبضياع أمواله • ولما وقع

عليه ما وقع من البلاء استمر ما شاء الله فلما كاد أن يخرج عن طاقته دعا الله تعالى لكشفه عنه كما قال تعالى (إذ نادى ربه أني مسني الضر) وهو بالفتح عام في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهزال وملال • (وأنت أرحم الراحمين) أي أعظم وأوفى رحمةً من كلٍّ من يتصف بالرحمة الواسعة (فاستجبنا له) دُعاءه ورفعنا عنهُ بلاءه (فكشفنا ما به) أي ببدنه (من ضرٍّ) •

ويروى أنه دعا ربه لكشف ما به في السجود فقيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك (أركض برِجلك) فركض فنبعتْ من تحته عينُ ماء ، فاغتسل منها ، فلم يبق في ظاهِرِ بدنه دابة إلاّ سقطتْ ولا جراحةٌ إلا برئت، ثم ركض مرة أخرى فنبعت عينٌ اخرى ، فشرب منها فلم يبق في جوفه داءٌ إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابُه وجماله • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال : سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله تعالى (وآتيناهُ أهله ومثلهم معهم) فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ردّ الله تعالى امرأته اليه وزاد في شبابها حتى ولدت له ستا وعشرين ذكراً » وقال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية : إن الله تعالى أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه ، وأوتي مثلهم في الدنيا • والظاهر أن المثل من صلبه ـ عليه السلام ـ أيضا • وقيل كانوا نوافِلَ • واخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « بينما أيوب ـ عليه السلام ـ يغتسل عرياناً خرَّ عليه جَرادٌ من ذهب ، فجعل أيوب ـ عليه السلام ـ يحثي في ثوبه ، فناداه ربه سبحانه : يا أيوب ألم أكن أَغنيتكَ عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك لكن لا غنى بي عن بركتك » وعاش ـ عليه السلام بعد الخلاص من البلاء على ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ سبعين سنة •

وقوله تعالى : (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أي آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب ــ عليه السلام ــ وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب (واسماعيل وادريس وذا الكفل) أي واذكرهم • وظاهر الآية أن ذا الكفل كان من الأنبياء وهو الذي ذهب إليه الأكثر • واختلف في اسمه فقيل : بشر، وهو ابن أيوب ــ عليه السلام ــ بعثه الله تعالى نبيا بعد أبيه ، وأمره سبحانه بالدعوة الى توحيده وكان مقيماً بالشام مدة عمره ، ومات وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة وأوصى الى ابنه عبدان ، ثم بعث الله تعالى شعيبا • وزعمت اليهود أنه حزقيل وجاءته النبوة وهو في وسط سبي بختنصر على نهر خريار (كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين) أي أدخلناهم في مقام النبوة وكانوا كاملين في الصلاح •

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُمَاتِ : أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧) فَاسْتَجَبْنا لَهُ ونجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ، وَكَذلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ : رَبِّ لا تَذَرْني فَرداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ(٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحيى ، وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيْراتِ ، وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً ، وكانُوا لَنا خَاشِعِينَ(٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فرجها فَنَفَخْنا فيها مِنْ رُوحِنا ، وَجَعَلْناهَا وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ)(٩١)

قوله تعالى : (وذا النون إذ ذَهَبَ مُغاضِباً) أي واذكر صاحبَ الحوتِ يونس ــ عليه السلام ــ ابن متّي وهو اسم أبيه على ما في صحيح البخاري وغيره وصححه ابن حجر • قال : ولم أقف على شيء من الأخبار

على اتصال نسبه . واختلف المفسرون في أن وقوعه في بطن الحوت كان قبل اشتغاله بأداء رسالته من الله أو بعده . أما القول الأول فهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، فقال : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك (وهو ملك آشوري من نينوى) وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا ، وبقي منهم سبطان ونصف فأوحى الله تعالى إلى شعيا النبي ـ عليه السلام ـ : أن اذهب الى حزقيل ملك بني اسرائيل وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا الى ملك آشور لإعادة بني اسرائيل إلى وطنهم، وكان اذ ذاك خمسة من أنبياء بني إسرائيل موجودين ، فاختار حزقيل يونس ابن متي لهذه المهمة ، فدعاه وقال له : اذهب الى (نينوى) فإنك قوي أمين، وانصح ملكها واطلب منه الإيمان بالله ، وأن يرسل معك بني إسرائيل فقال له يونس : هل أمرك الله بإرسالي خاصة ؟ قال : لا . ولكني أراك قويا أمينا ، فأبى ذلك وخرج من عنده غضبان وتوجه الى بحر الروم ناويا الخروج من البلاد ، فركب سفينة وذهب زمانا فانكفأت السفينة وكاد أن يغرق جميع من فيها فاقترعوا لإخراج الرجل العاصي على أساس تقاليدهم وظنهم أنه لا تأتي على السفينة وقفة وانقلاب الا من وجود انسان عاص فخرجت القرعة على يونس عليه السلام وقال : إني أنا العاصي وألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت ولكن الله منعه عن إتلافه فسبح في بطنه بالتسبيح المشهور « لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » فأمر الله الحوت فألقاه على الساحل فخرج بضعف في البدن ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وبقي في ظلها زمانا ، ثم أوحى الله اليه : أن اذهب الى نينوى وأمر ملكها بالإيمان ، وأن يرسل معك الاسباط من بني اسرائيل ، فذهب اليهم وآمنوا كما هو مذكور في الآية الشريفة .

وأما القول الثاني فهو أن قصة الحوت كانت بعد دعوته أهل نينوى وتبليغ رسالة الله • وخلاصته : أنه مكث فيهم مدة فلم يؤمنوا ، فأنذرهم بعذاب الله في موعد خاص إن لم يؤمنوا ، ثم تركهم وبعد غيابه عنهم تابوا إلى الله ، فرفع عنهم العذاب الموعود ، فلما جاء الموعد ولم ينزل العذاب ترك يونس البلد استحياء منهم حيث وجد وعده غير واقع حتى ركب في سفينة على دجلة ، فصارت السفينة في توقف ودورة ، فاقترع أهل السفينة ـ كما قلنا ـ فخرجت قرعته فألقوه في البحر ، فالتقمه الحوت ، وسبح في بطنه ، ثم ألقاه الحوت إلى الساحل وبعد خلاصه من المصيبة وضعف الحال علم أن أهل نينوى تابوا ويبحثون عنه ليجدوه ، فذهب إليهم وآمنوا بـه • والله أعلـم •

فقوله تعالى (إذ ذهب مغاضبا) على الاول معناه مغاضبا على حزقيل ملك الإسرائيليين إذ ذاك في تخصيصه بالإرسال إلى نينوى • وعلى الثاني معناه مغاضبا على أهل نينوى في تمردهم عليه • وقوله (فظن أن لن نقدر عليه) أي فظن أن لن نقضي عليه بابتلائه بمصيبته ، لأنه على القول الأول لم يكن أمر الملك بذهابه الى نينوى إلا برأيه وحسبانه أن يونس رجل قوي أمين ، وعلى القول الثاني كانغضبه على أهل نينوى لتمردهم على الله وإبائهم عن قبول رسالته وأوامره • فظن أن غضبه ذلك ينفعه ولا يوقعه في العـذاب •

وقوله (فنادى في الظلمات) أي ظلمة بطن الحوت، وظلمة أعماق البحر، وظلمة الليل • (أن لا إله إلا أنت) أي نادى بأنه لا إله إلا أنت على أنّ أن مخففة من المثقلة ، أو نادى أي لا إله إلا انت على أنها مفسرة (سبحانك) أي أنزهك تنزيها لائقا بعظمة ذاتك وتعاليك من أن يعجزك شيىء (إني كنت من الظالمين) أي من الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للمصائب • (فاستجبنا

له) أي لدعائه (ونجيناه من الغم) الذي أصابه حين التقام الحوت له (وكذلك ننجي المؤمنين) أي ومثل ذلك الإنجاء الواقع عند قلة الصبر وضيق الصدر وعسر الأمر وظن أن لا خلاص من الهلاك إلا بقدرة الله تعالى ننجي المؤمنين الذين قاموا بمقتضيات الإيمان ودعوا الله مخلصين وطلبوا منه الأمان .

(وزكريا) أي واذكر زكريا ودعاءه وقبول دعائه (إذ نادى ربه) و (قال رب لا تذرني فردا) وحيدا بلا ولد يرثني (وأنت خير الوارثين) أي وأنت خير حي يبقى بعد الميت (فاستجبنا له) دعاءه (ووهبنا له) ولدا وسميناه (يحيى وأصلحنا له زوجه) العقيم تلد على كبر السن (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) بيان لسبب تفضله عليه باستجابة دعائه بأنهم كانوا يتسابقون الى كل خير على مناسبة الايام والليالي ، ويرغبون في الأعمال الحسنة لقوة ايمانهم بالله (ويدعوننا رغباً ورهباً) وكانوا اذا دَعوْنا دَعوْنا جامعين بين الرغبة في الإجابة والرهبة عن الإجابة (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين ومتضرعين . وكل قوم شأنهم الإنابة فشأن الله لدعائهم الاجابة .

(والتي أحصنت فرجها) واذكر شأن المرأة المباركة التي منعت عورتها عن الرعونات ولم تتزوج على عادة النساء الواصلات (فنفخنا فيها من روحنا) أي فأوصلنا نفخة من جانب الملك المقدس عندنا اليها فولدت ابناً ما أحسنه (وجعلناها وابنها آية) عظيمة تأريخية نادرة عجيبة (للعالمين) من عقلاء الإنس والجن ، فإن من تدبر حالة الأم التي ولدت بلا مساس بشر، والابن الذي أنطقه الله بالرسالة، وهو طفل، علم أن الله قادر على كل ممكن من الممكنات وهو المصيط على الأرض والسماوات وسائر الموجودات . فتعالى الله رب العالمين .

(اِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَأَنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَاِنّا لَهُ كاتِبونَ (٩٤) وحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُم لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا : يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ، بَلْ كُنّا ظالِمِينَ)(٩٧)

قوله تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) خطاب للناس عامة ، والاشارة الى ملة التوحيد والاسلام • أي ان دين التوحيد دينكم دينا واحدا وأمة حال" لكونها في معنى معتقداً ، والعامل فيها اسم الاشارة (وأنا ربكم) جميعا لا إله غيري (فاعبدون) خاصة والإتيان بالامر بالعبادة بعد تقرير أنه ربهم إشارة الى أن الموجب للعبادة هو الخالقية ، فالخالق هو المعبود والمعبود هو الخالق (وتقطعوا أمرهم بينهم) أي جعلوا أمر دينهم بينهم قطعا مختلفة متفرقة فمنهم من بقي على التوحيد ، ومنهم من أشرك به غيره ، أو تفرقوا في أمر دينهم بينهم (كلٌّ إلينا راجعون) كل منهما راجع إلينا للجزاء ثوابا وعقابا (فمن يعمل من الصالحات) أي بعضا منها (وهو مؤمن) بما يجب الإيمان به (فلا كفران لسعيه) أي لا نكران من جانبنا لسعيه في العقيدة السليمة والأعمال المستقيمة (وإنا لهُ) أي لسعيه في أي باب (كاتبون) فلا تخفى علينا خافية (وحرام على قرية أهلكناها) ودمرناها بسبب كفر أهلها (أنهم الينا لا يرجعون) أي عدم رجوعهم إلينا للجزاء لأن البعث والحشر والحساب وأخذ الجزاء حق مقرر لا محيد عنه • ويجوز أن

تكون كلمة لا صلة . أي حرام على أهل قرية قدرنا إهلاكها وأهلها أنهم يرجعون للتوبة والإنابة ، لأنا لما علمنا بأحوالهم السيئة وأخلاقهم الرذيلة وعقائدهم السفيلة أزلا علما ناشئاً من نقل صور عقائدهم وأعمالهم ، فلا مجال لتبدل هذا العلم ولا مجال لرجوعهم الى التوبة والإنابة . وتلك القرى الظالمة تبقى كذلك وأهلها مستمرون على الكفر والعناد والأعمال السيئة يوما فيوما .

(حتى إذا فتحت يأجوجُ ومأجوج) أي فتحت أبوابُ الخروج إلى البلاد للإفساد عليهما (وهم من كل حَدَب) ومرتفع من الأرض (يَنسلون) يسرعون . (واقترب الوعد الحق) بقيام الساعة وقوله (فإذا هي شاخصة أبصار الذين ظلموا) جواب الشرط ، وإذا للمفاجأة ، وهي تسد مسد الفاء الجزائية ، أي فإذا هي شاخصة أبصار الكافرين قائلين : (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا) الذي فاجأنا ودهمنا من الساعة وأهوالها (بل كنا ظالمين) لأنفسنا حيث أهملنا الحواس لإبصار الحقائق واستماع المواعظ ، والعقول للنظر في الكائنات الدالة على وجود الخالق وثبوت الرسالة .

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ(٩٨) لَوْ كانَ هؤلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فيها خالِدُونَ(٩٩) لَهُمْ فِيها زَفيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ(١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ(١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسيسَها ، وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدونَ(١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقّيهُمُ المَلائِكَةُ : هذا يَوْمُكُمُ الَّذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِجِلِّ لِلْكُتُبِ ،

كَما بَدَأنا أوّل خَلْقٍ نُعيدُه وَعْداً عَلَيْنا ، إنّا كُنّا فاعِلينَ)(١٠٤)

قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لمشركي مكة وبيان لعاقبة أمرهم ، وكلمة ما في (وما تعبدون) عبارة عن الاصنام التي عبدوها • يقول الباري سبحانه وتعالى : إنكم يا كفار مكة وأصنامكم اللاتي تعبدونها من دون الله (حصب جهنم) والحصب ما يرمى به وتهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وهي صغار الحجارة ، فهو خاص وضعا وعام إستعمالا • وقرىء حطب جهنم بالطاء المشالة، ونقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تفسير الحصب بالحطب• وقال : إنه الحطب بالزنجية • وفسر بالوقود لأنه المراد • وعلى ماذكرناه لا يشمل ما تعبدون للعقلاء المعبودين كالملائكة وعزير والمسيح وعلى تعميم الخطاب واستعمال ما للفريقين يخص بغير العقلاء • ويكون قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) بيانا للتخصيص تأخر عن الخطاب وقوله (أنتم لها واردون) استئناف نحوي مؤكد لما قبله ، أو بدل من الحصب لأن إبدال الجملة من المفرد شائع ثم استدل الباري تعالى على بطلان عبادتهم لها وعدم كون مايعبدونه آلهة بقوله الكريم : (لو كان هؤلاء آلهة) كما يزعمون (ما وَرَدوها) أي جهنم لكن التالي باطل لقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ولقوله (وكل فيها خالدون) على اعتبار التخصيص (لهم فيها زفير) أي للمتنفسين منهم فيها زفير وهو صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف (وهم فيها لا يسمعون) أي يصيرون صمّاً لا يسمعون الأصوات ، أي ولا يسمع بعضهم صوت بعض لشدة الهول أو كثرة تداخل الأصوات •

(إن الذين سبقت لهم مِنا الحُسنى) أي الخصلة الحسنة وهي التوفيق للطاعة (أولئك عنها) أي عن جهنم مُبعدون ، لأنهم في الجنة وشتان بينهما وبين النار (لا يسمعون حسيسها) أي حسيس النار وهو صوتها الذي يحس به من حركتها أو حسيس الداخلين فيها . ووجه اعتبار الحسيس الإشارة الى أنه لا يبقى لهم الصوت الجهوري (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أي أنهم دائمون ثابتون على التنعم (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وفسر بإطباق جهنم على أهلها وغلقها عليهم . وقيل المراد بها النفخة الثانية الحادثة لقيام الناس من القبور (وتتلقيهم الملائكة) أي تستقبلهم بالإكرام قائلين لهم : (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) في الدنيا وتبشرون به فيها . وقوله تعالى : (يوم نطوي السماء) منصوب بأذكر، وقيل : ظرف لقوله لا يحزنهم الفزع أي اذكر حال المكلفين يوم نطوي السماء ونلفها (كطي السجل للكتب) كطي مأمور الأوراق المكتوبة لها . معناه أنه يسهل على ملائكتنا المأمورين طي السماوات كطومار كما يسهل على مأمور الاوراق طيها (كما بدأنا أول خلق نعيده) أي نعيد الخلق كما بدأناه في السهولة (وعدا علينا) أي وعدنا وعدا ثابتا علينا أي الوفاء بالموعود في ذلك الوعد (إنا كنا فاعلين) أي إنا لا شك نفعل تلك الاعادة فلا تشكوا فيها .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ : أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ في هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ : إِنَّمَا يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟(١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ : آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ،

وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ ؟(١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ(١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ(١١١) قال : رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ)(١١٢)

قوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون) كثرت أقوال المفسرين في معنى هذه الآية • فقيل : إن المراد بالزبور زبور داود ، أو كتب الانبياء ، وبالذكر التوراة أو اللوح المحفوظ• وبالأرض الأرض المقدسة أو الشام كلها، أو أرض الدنيا أو الجنة• وبقوله (عبادي الصالحون) المؤمنون من أي أمة كانوا • أو من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وأظهرُ الإحتمالات أن المراد بالزبور الزبور المنزل على داود، وبالذكر التوراة، وبالأرض أرض الجنة، وبالعباد الصالحين جميع المؤمنين من أتباع كل رسول من الرسل • وذلك لأن الآيات السابقة في بيان اختصاص المؤمنين بالجنة وخلودهم في ما اشتهت أنفسهم والكافرين بالنار• ويدل على إرادة أرض الجنة قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) ويظهر أيضا أن يكون المراد من الارض الارض الموعودة الشاملة للقدس وبيت المقدس وسائر بلاد فلسطين • وبالعباد الصالحين أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ومعنى الآية على الأول أن الله سبحانه وتعالى أوحى الى داود أن أرض الجنة يرثها العباد الصالحون من أية أمة كانت على الحق • وعلى الثاني أنه أوحى إليه أن الارض المقدسة يرثها العباد الصالحون من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقد تحقق ذلك في عهد الخليفة الثاني حيث وقعت تلك الارض تحت سيطرة المسلمين • ويتحقق أيضا في المستقبل بانتزاعها من أيدي اليهود المستولين عليها بإمداد من الأجانب ورجوعها الى الصالحين من أمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء (وإن عدتم عدنا) أي وإن عدتم للإفساد في الأرض عدنا الى الانتقام منكم• وقد تحقق الشرط ولا شك في تحقق الجزاء بعده • ولا يجوز أن يراد بالارض الارض الموعودة وبالعباد الصالحين اليهود ، لأن اليهود الصالحين استولوا في زمن يوشع وفي زمان داود فلم يبق مجال لوعدهم بها لأن الامر كان منجزا إذ ذاك واليهود بعد زمان الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخلوا في عداد الكافرين ولم يبق مجال لتوصيفهم بالصالحين •

(إن في هذا) أي فيما ذكرناه في هذه السورة من الأخبار والمواعظ البليغة وغيرها (لبلاغا) أي كفاية أو سبب بلوغ المقصود وهو سعادة الدارين (لقوم عابدين) أي مستمرين على العبادة • روي أنهم الذين يصلون الصلوات الخمس بالجماعة (وما أرسلناك) بما تلوناه عليك من الأحكام (إلا رحمة للعالمين) استثناء من أعم العلل • أي وما أرسلناك لعلة من العلل إلا لنرحم العالمين بإرسالك ونعرضهم للرحمة فإن منها تعليم العقلاء طريق سعادة الدارين عقيدةً وعملا وتنويرهم لإدراك الخير والوصول الى حسْن المعاش والمعاد • ومنْ تعامى عن ذلك وأعرض فإنه سدّ بنفسه أبواب الخير والرحمة على نفسه • ومثله كمثل عاطش يعْطى الماءَ ويرده ، أوجائع يؤتى الطعام فينفر منه •

(قل) يا حبيبي (إنما يوحى إليّ) في شأن وحدة الإله وتعدده (أنما إلهكم إله واحد) لا يتجاوز الوحدة الى غيرها ، وحاصله ما يوحى إلينا في ذلك الباب إلا قصره على الوحدة ، وان كان يوحى الينا في غير ذلك الباب

أمور وأحكام كثيرة • (فهل أنتم مسلمون ؟) أي منقادون لما يوحى الينا من التوحيد (فإن تولوا) أي أعرضوا عن الإنقياد لذلك (فقل) لهم (آذنتكم على سواءٍ) أي أعلمتكم ما يوحى إليَّ على سواء بينكم وبين غيركم ، ولم أرجح أحداً منكم على غيره من المكلفين (وإن أدري أقريب أم بعيد" ما توعدون) أي ولا أدري أن ما توعدون من العذاب والعقاب قريب أو بعيد ، ولا تظنوا أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أقوالكم وأعمالكم (إنه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ما تكتمون) منه كما يعلم بأعمالكم سواء" ما تجهرون به أو تسرون (وإن أدري لعله فتنة لكم) أي وما أدري بالتأخير الذي جرى في نزول الإنتقام منكم لعله (فتنة لكم) وابتلاء وامتحان أو إستدراج لكم (ومتاع) لكم (إلى حين) الى وقت محدود عنده تعالى • وبعد إبلاغ ذلك اليهم (قال) ـ صلى الله عليه وسلم ـ داعيا عليهم (رب احكم بالحق) أي رب اقضِ بالعدل حتى يتميز الأهل من غير الأهل ثم قالَ (وربنا الرحمن) البالغ في الرحمة ومنها تأجيل العذاب والعقاب (والمستعان) أي المطلوب منه العون لنا (على ما تصِفون) وتذكرونه من أنّ الغلبة لكم ، ونطلب منه أن يجعلنا غالبين عليكم لتعلو كلمة الحق والدين •

سورة الحج مدنية ، وهي ثمان وسبعون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرى النَّاسَ سُكَارى ، وَما هُم بسُكارى وَلَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ(٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ(٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّه فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذابِ السَّعِيرِ)(٤)

قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه جميع المكلفين الموجودين عند النزول، وغيرهم من الموجودين الغير المكلفين الذين سيوجدون إلى يوم القيامة بطريق التغليب . فالتقوى عما لا يرضى به الله تعالى مأمور به . وقوله (إن زلزلة الساعة شييء عظيم) تعليل لموجب الأمر بذكر حادثة هائلة ، فإن ملاحظة ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأهوال يوجب مزيد التدرع بدرع التقوى . وزلزلة الساعة زلزلة تحدث من النفخة الاولى عند إرادة الباري تعالى إماتة ذوات الأنفس. وروي عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ان زلزلتها زلزلة عند قيامها وبعث الأموات من القبور .

وقوله تعالى (يوم ترونها) منصوب بإضمار اذكر • ثم إن قوله تعالى (تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها) إن كان مبنيا على الفرض والتقدير أي لو كنتم ترونها عيانا علمتم أنه تذهل كل مرضعة عما أرضعت • فذاك جائز على الإطلاق أي سواء كانت زلزلة الساعة من النفخة الاولى أو من الثانية • وإن كان مبنيا على الواقع وجب أن يراد من زلزلة الساعة الزلزلة الاولى التي هي مقدمة لخراب الأرض وما عليها من الجبال • فإن الناس اذ ذاك موجودون والنساء المرضعات والحوامل والحوائل موجودات ، ويتحقق ما أخبر به الصادق (وترى الناس سكارى) أي يراهم كلّ واحدٍ في صورة السكارى (وما هم بسكارى) في حقيقة الحال (ولكن عذاب الله شديد) أي إن شدة الهول في ذلك اليوم تجعلهم كما ترى •

وقوله تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) أي يجادل في وحدة الله وإنزال الكتاب على الرسول ، وإحياء الموتى ، ووجود الحساب والميزان بغير علم موهوب أو مكتسب من الأساتذة بالطُّرُقِ المعتادة (ويتبع كلّ شيطانٍ مريد) أي متجرد للفساد والإفساد • من قولهم شجرة مرداء لا ورَق لها • والشيطان يشمل شياطين الإنس والجن • والآية نزلت في النضر بن الحرث • وقيل : في أبي جهل • وقيل : في أُبي بن خلف • ولا مانع من نزولها في الكل (كُتِبَ عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) وفي الآية وجوه من التراكيب ، وأظهرها : أن كُتب فعل مجهول وما بعده نائب فاعله بتأويله بالمصدر • وضمير أنه للشأن، وباقي الضمائر لمن وهي اما شرطية والفاء داخلة على جملة الجزاء ، وإما موصولة والفعل بعده صلة ، ووجود الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط •

وعلى التقديرين فالجملة مبتدأ وخبر ، وجملة ويهديه إلى عذاب السعير معطوف على الخبر .

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ ما نَشَاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّه يُحْيِ الْمَوْتى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) وَأَنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)(٧)

قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث) إقامة للحجة على البعث بإظهار آثار قدرته وحكمته في خلق الإنسان . فيقول يا أيها الناس إن كنتم في أقل ريب وشك وشبهة من البعث ، أي من قدرتنا على إحياء الموتى وبعثهم من القبور ، فانظروا وتفكروا تفكراً مقرونا بدقة في آثار قدرتنا في خلقنا لأشرف الموجودات العالمية وهو الإنسان (فإنا خلقناكم) يا بني الإنسان باعتبار أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ (من تراب ثم) خلقناكم عند إرادة البث والتناسل (من نطفة) أي من ماء صافٍ ممزوج من ماء الوالدين باق في رحم الوالدة أربعين يوما (ثم من علقة) أي قطعة

من الدم المتكون من ماءِ المنى (ثم من مُضغة) أي قطعة من اللحم متكونة من ذلك الدم (مخلقة) أي مصورة باعتبار آخر أحوالها (وغير مخلقة) أي غير مصورة باعتبار أول أحوالها (لنبين لكم) متعلق بقوله خلقنا ، أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم ما لا تحصره العبارة من الدقائق التي من جملتها أمر البعث ، فإن من أمعنَ النظر فيها جزم بأن الأثر الذي هو ممكن من الممكنات لا يترجح وجوده على عدمه بدون مرجحٍ يُرَجح ذلك الجانب على هذا ، وهو الفاعل المختار ، وأن الفاعل لا يمكن أن يكون مجردا من الشعور والإختيار ، لأن هذه الأشكال الغريبة والصور العجيبة تدل دلالة قاطعة على أنها أثر فاعل كامل قادر على التصرف في ما يخلقه ، فإن هذا المخلوق الفائق الممتاز بالصفات العالية لا يحصل من فاعل بلا شعور ، فتبين أن الفاعل حي قادر مختار ، فإذا ثبت هذا ثبت أن البعث بعد الإماتة سهل يسير .

(ونقر في الأرحام) بعد ذلك (ما نشاء) أن نقره فيها (إلى أجل مسمى) ووقت معين هو وقت الوضع . وأدناه ستة أشهر غير لحظتي العُلوق والوضع ، أقصاه أربع سنين عند الشافعي ، وسنتان عند أبي حنيفة ــ رضي الله عنهما ــ .

وهذه الفقرات من هذه الآية الكريمة ينبوع ما رواه عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ . قال : حدثنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وهو الصادق المصدوق ، « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ، ثم يكونُ علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملكُ فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . فوالله الذي لا إله إلا هو ! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعمل

بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » رواه البخاري ومسلم .

ومن الناس من يقع في الإشتباه من هذا الحديث الشريف زاعماً أن الكتاب الذي يسبق عليه كتاب ناشيء من قهر الباري وسلب الإختيار عنه ، وحاشاه من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لو جعل الأعمال تحت القهر والسيطرة فلماذا أرسل الرسل وهدى المكلفين إلى الصراط المستقيم وبين لهم طريق الهدى والضلال ؟ بل إن ذلك الكتاب ناشيء من علمه الأزلي بأنه تعالى يخلق ذلك الإنسان ويخلق فيه العلم والقدرة والإرادة وإمكانية التصرف والتوجه إلى ما يريده سلبا وإيجابا ، وأن ذلك الإنسان صاحب شعور كامل واختيار تام وبحسب اختياره أحد الجانبين يتوجه اليه خيرا كان أو شرا ، والله تعالى يخلقه له . فمن الإنسان من تكون توجهاته مطلقا الى الخير وهم المعصومون . ومنهم من تكون توجهاته مطلقا الى الشر وهم الكافرون الخاسرون، ومنهم من تكون توجهاته أولا الى الخير ثم تتحول إلى الشر فيدخل النار ، ومنهم من تكون توجهاته أولا الى الشر ثم تتحول الى الخير فيدخل الجنة . وهو في كل ذلك صاحب شعور وإرادة واختيار. وعلى علمه بهذه الأحوال أيضا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه» يعني أن السعيد من علم الله تعالى سعادته في بطن أمه لأنه علم أنه يتوجه الى الخير ويموت عليه ، وأن الشقي من علم الله شقاءه في بطن أمه ، لأنه علم أنه يتوجه الى الشر ويموت عليه . فكل ذلك مبني على أعمال الإنسان نفسه المعلومة للباري تعالى أزلا قبل خلقه وعند خلقه وهو في بطن أمه وبعد ذلك عندما يخرج الى الأعمال .

وإذا كان الأمر كذلك اندفع توهم من قال أنه مادام كنت سعيدا في بطن أمي فلا أعمل أي عمل صالح لأنه تقررت سعادتي وأنا في بطن أمي ، أو مادام كنت شقيا في بطن أمي فلا تنفعني الأعمال الصالحة ، وذلك لأن علمه تعالى متوجه الى أعمال الإنسان في أيام حياته يعلم أنه يعمل الخيرات أو يعلم أنه يعمل غيرها ، وهذا التوهم مثل توهم من يقول : مادام الله علم أن عمري مائة سنة فلا آكل ولا أشرب شيئا وأبقى لقضاء تلك المدة بلا زاد ولا ماء وذلك لأن الله علم ببقائه مائة سنة حسب علمه بأنه يأكل ويشرب ما يناسبه حسب العادة ويداوي مرضه ويدفع مهلكاته إذا عرض شيىء منها والحاصل أن علمه تعالى مربوط بجميع أعمال الإنسان ومكتسباته وعليه يتقرر امره في العاقبة . وكذلك يسقط توهم من يقول : إن البلاء الوارد مادام جرى به القضاء فكيف تدفعه الصدقة أو الدعاء وذلك لأنه تعالى علم أنه كلما أنزل عليه بلاء ألهمه دعاءً أو صدقة تكون حافظة له عن مضرة ذلك البلاء ، وإلا لزم سدّ باب الدعاء من أي داع لجلب أي خير أو دفع أي شر مع أن الدعاء مخ العبادة ، ورغب فيه الباري سبحانه ورسوله ـ عليه السلام ـ ، فعلم من هذا التفصيل أن ما جرى به علمه تعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن علمه جارٍ بذلك حسب انكشاف أعمال المكلفين عنده .

وإن قال قائل : فإذا كان علم الله لا يتغير ولا يتبدل فما معنى ما اشتهر في بعض الأدعية من قول الداعي (إن كنت كتبتني شقيا أو مطرودا أو مقترا عليّ في الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وطردي واقتار رزقي ؟) فالجواب أن ذلك مبني على كتابته في اللوح المحفوظ القابل للتغيير والتبديل ، كما قال تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وعليه قوله تعالى : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ويجوز أن

يكون دعاء ذلك الداعي شرطا ومعلقاً عليه لتحقق ذلك المطلوب المرغوب فيه فاحفظ ما ألقيته إليك فإنه مأخوذ من تحقيقات العلماء المحققين .

(ثم نخرجكم) أي من الأرحام حالكونكم (طفلا) ضعيفا نحيفا تحتاجون في كل وقت وساعة الى رعاية ورقابة من جهة الغذاء والملبس والمسكن وغيرها حتى تتقوى أعضاؤكم (ثم لتبلغوا أشدكم) أي كمالكم في القوة بدنا وعقلا وعلما ، وهو ما بين ثماني عشرة سنة الى ثلاثين . وأشد مفرد جاء على وزن الجمع كآنك ولا ثالث لهما . أو جمعٌ لا واحد له من لفظه ، أو مفرده شدة بالكسر وهو جمع على خلاف القياس ، لأن فعلةً بالكسر لا تجمع على أفْعل (ومنكم من يتوفى) أي قبل بلوغ الأشدّ (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أي أردإه وأدناه مثل زمن الطفولة (لكيلا يعلم من بعد علم) كثير أخذه كسبا أو وهبا (شيئا) أي شيئا يعتنى به، وإلا فلزوم علم الإنسان بنفسه من ضرورياته التي لا تنفك عنه . وهذه التطورات الواردة على الإنسان حجة قاطعة للإنسان على وجود خالقه القدير واتصافه بالكمال وعلى بعث الموتى في وقته لمحاسبته على عمله وأخذه لمصيره أي مصير .

ثم جاء بحجة أخرى عليه وقال (وترى الارض هامدة) أي ميتة يابسة لا تنبت (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) أي تحولت ونفشت أجزاؤها الداخلية (وربت) وَعَلَتْ وانتفخت (وأنبتت) النبات (من كل زوج بهيج) أي كل صنفٍ حَسنٍ وهذه الأحوال العارضة على الارض اليابسة حجة أخرى على بعث الموتى إذا أراده تعالى (ذلك) الامر المذكور المقرر من تكوين الإنسان وتدرجه في مدارج الشخصية واهتزاز الارض اليابسة وإنباتها النبات (بأن الله هو الحق) الثابت بالذات والوجود الواجب ووجود الغير مستفاد من إرادته ومربوط بدوام تعلقها (وأنه يحي الموتى) أي شأنه

وعادته ذلك (وأنه على كل شيىء) من الممكنات (قدير) سلبا وإيجابا ونفيا وإثباتا (وأن الساعة) المعروفة لتميز أهل المعروف من أهل المنكر (آتية) في وقتها المقرر (لا ريب فيها) ولا يليق بأن يرتاب فيها العاقل (وأن الله يبعث من في القبور) يوم البعث والنشور •

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ(٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ(٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ(١٠) ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ، ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ(١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ(١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ(١٣) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ)(١٤)

قوله تعالى (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) نزلت هذه الآية الكريمة فيما نزلت فيه الآية السابقة ، فالتكرار مبالغة في الذم ، أي ومن الناس من يجادل ويتكلم بغير حق فينكر وجود الباري تعالى أو وحدته أو سائر ما شرعه الله تعالى حسب ما تسمح به نفسه وهواه بغير علم ذاتي فطري من البديهيات ولا هدى يهتدى به إلى

الحق بطريق الإستدلال ، ولا استمداد من كتاب نزل من السماء ينير القلب ويرشده إلى الصراط المستقيم لأن حق المتكلم أن يتكلم عن علم ، وعلمه إما من البديهيات الحاصلة بدون نظر أو من النظريات الحاصلة بالاستدلال أو من تعليم المرشد الأرشد الذي يرشد العالم الى الصراط المستقيم وهو الوحي والكتاب المنزل من الله تعالى فإذا لم يكن له سند من هذه الوجوه فسكوته في تلك المواضع واجب • وقوله (ثاني عطفه) حال من ضمير يجادل أي حالكونه يلوي جانبه ويتولى ويستدبر كلٌّ من أرشده الى الخير وذلك (ليضل عن سبيل الله) أو يجادل ليضل عن سبيل الله من لا قوة له على رد كلامه (له في الدنيا خزي) وهوان وحقارة لما يلقاه كالقتل يوم بدر أو كالفشل في مهمته بين الناس (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أي عذاب النار البالغة في الإحراق ويقال له في وقت إحراقه (ذلك) العذاب (بما قدمت يداك) أي بسبب ما اكتسبته من الكفر والمعاصي (و) الحق (أن الله ليس بظلام للعبيد) إذا جازى المسيئين بالتعذيب جزاء وفاقا •

وقوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) استئناف لبيان أحوال الناس المذبذبين الغير الثابتين على الإيمان فيؤمنون إذا جاءهم الخير ويكفرون إذا جاءهم غير ذلك فقال (ومن الناس من يعبد الله على حرف) أي على طرف وجانب من الأحوال والعوارض الواردة (فإن أصابه خير) أي عافية وثروة وأولاد وجاه وما شاكل ذلك (اطمأن به) وثبت قلبه على إيمانه (وإن أصابته فتنة) أي ما يفتتن به الإنسان من البلايا والمحن النفسية أو غيرها (انقلب على وجهه) أي أكب على وجهه غير راءٍ يمينه وشماله وأمامه وخلفه (خسر الدنيا) لافتتانه فيها وإصابته المحنة (و) خسر (الآخرة) معها لعدم ثباته على الإيمان (ذلك) الخسران الذي أصابه (هو الخسران المبين) الواضح أنه خسران بدون شبهة وريب • ومع أنه خسر الخسران

المبين (يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) من الأصنام المفتعلة و (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الطريق فإن الضال القريب من الطريق يسهل وصوله اليه بسببٍ ما ، وأما الضال المبتعد عن معبر الناس فقلما يهتدي الى الطريق المعتاد (يدعو لمنْ ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) يدعو بمعنى يزعم أو يقول ، واللام واقعة في الجملة الواقعة مقولا له وهي لام الابتداء و (مَن) مبتدأ و (ضره أقرب من نفعه) مبتدأ وخبر ، والجملة صلة من ، وقوله تعالى (لبئس المولى ولبئس العشير) جواب قسم مقدر واللام فيه جواب القسم وجملة القسم وجوابه خبر من ، أي يقول الكافر برفع صوته لمنْ ضره أقرب تحققاً من نفعه والله لبئس المولى الذي يتخذ ناصرا ولبئس الذي يعاشر من أمثاله • وإنما كان ضره أقرب من نفعه لأن من يعبده يتضرر فِعلاً باشتغاله بالعكوف حوله وتهيئة لوازم عبادته رسماً ، وأما النفع فلا تحقق له قطعا •

ولما ذكر أحوال الكافرين المصرين المستمرين على الكفر ، والناس المذبذبين المترددين بين الكفر والإيمان بين كمال حسن أحوال المؤمنين الثابتين على الإيمان فقال تعالى : (إن الله يدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) وهو تعالى يحقق ذلك بلا شبهة (إن الله يفعل ما يريد) وفي هذه الجملة تقرير وتعليل لما قبله •

(مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيدُهُ ما يَغيظُ ؟(١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ ، وَأَنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يُريدُ)(١٦)

قوله تعالى : (من كانَ يظنّ أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) الضمير في ينصره الله عائد الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المستفاد من المقام (فليمدد بسبب الى السماء) أي فليمدد حبلاً الى سقف بيته (ثم ليقطع) أي ثم ليختنق من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه (فلينظر هل يُذهِبنّ كيدُه ما يغيظ) أي فليتفكر الآن قبل مباشرته لذلك العمل هل يذهبن عمله ذلك سبب غيظه وهو نصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • والحاصل أن الله قد قدر وقرر نصرة دينه ونصرة رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم في دعوته ومهمته وهذا شيىء مقرر لابد منه • فمن لا يرضى بذلك فليختنق بحبل في بيته وليتفكر قبل الحادثة : هل يُذهبُ اختناقه بحبل معونة الرسول ونصره ؟ واذا أجبنا الإستفهام قلنا : كلا ولا يفيده ذلك العمل شيئا أبدا •

(وكذلك أنزلناه آيات بينات) أي ومثل ذلك الإنزال المشتمل على الحكم والمصالح أنزلنا القرآن الكريم حالكونه آيات واضحات الدلالة على المقصود (وأن الله يهدي من يريد) أي وأمره أن الله يهدي من يريد هدايته •

(إنّ الّذِين آمَنُوا، والّذِين هَادُوا ، والصّابِئينَ ، والنّصارى والمَجُوسَ ، والّذِينَ أشْرَكُوا ، إنّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، إنّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّماواتِ ومَنْ في الأرْضِ ، والشّمْسُ والقَمرُ والنّجومُ والْجِبالُ والشّجَرُ والدّوابّ وكثيرٌ مِنَ النّاسِ ، وكثيرٌ حقّ عَلَيهِ العَذابُ ؟ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إنّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ)(١٨)

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) الصابئون : قوم كانوا يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرأون الزبور • وفي القاموس : هم قوم يزعمون أنهم على دين نوح ـ عليه السلام ـ وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار • وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني : إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وكان يقال لمقابليهم الحنفاء أي الإبراهيميون • وكانوا يقولون : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ، ومعرفة طاعته ، وأمره وأحكامه جل جلاله الى متوسط روحاني (كالملائكة) لا جسماني • هذا •

والحاصل إنهم موجودون في العالم من قديم الزمان ، ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات ، وكانوا يعظمونها تعظيما مفرطا ، ولما لم يتيسر لهم الاتصال بهم ذاتا نزعوا الى ما اعتبروه هياكل لهم كالكواكب السيارات ، وبعض الثوابت • ولما لم يكن لهم كتاب معلوم ادعوا الانتساب إلى النصرانية ، وبذلك خلصوا أنفسهم من بعض أمور تعتري غير الكتابيين • ولفظ الصابئة مأخوذ من صبأ أي مال • وفي العرف خرج من دين الى آخر لأن أساس اعتقادهم على عبادة الروحانيات ، ومنها الى عبادة الكواكب ، ثم الى أديان معتادة بحسب الأزمان من دين نوح أو ابراهيم الى داود أو المسيح ـ عليه السلام ـ وتحقيق أحوالهم في الدين والإعتقاد يحتاج الى مماشاة معهم ومداراة لهم دهراً طويلاً ، لا في بقعة واحدة فقط بل في بقاع كثيرة ، وهذا لا يمكن إلا لصاحب قدرة وثروة ونفوذ يرسل المفتشين إلى بلاد عديدة •

وحاصل ما تقرر في الفقه أنهم يدعون في زماننا الانتساب الى دين النصرانية فيسأل علماؤها إذا اعترفوا بهم اعترفنا بهم ، وإلا فلا •

وأما المجوس فهم يعبدون النار ويعظمونها وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني ما يدل على أنهم طوائف وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى ، وأنهم يقولون بالشرائع بخلاف الصابئة ، وأن لهم شبهة كتاب ، وأنهم يعظمون النار ، وأن بيوت النيران للمجوس كثيرة • وقال بعض في تحقيق لفظ (مجوس) أن أصله منج كوش أي صغير الأذنين ، وهو الذي أسس هذه النحلة • وقال بعض آخر : إن أصله موكوش يعني أنهم لا يحلقون شعر رؤوسهم فيتركونه حتى توصل شعور رءوسهم الى آذانهم •

والمراد بقوله (والذين أشركوا) عبدة الأوثان • وقيل يعمهم وسائر من عبد مع الله تعالى الها آخر من ملك أو كوكب • وحاصل معنى الآية : إن الله سبحانه وتعالى لا يترك الناس على ما اعتقدوه حقا أو باطلا ، وإنما يؤخرهم ليوم المحاكمة ، وهو يوم القيامة ،فيفصل فيه بينهم ، ويأخذ منهم كتاب أعمالهم ، وكل يجزى بما يستحقه ، ولا مجال لاختفاء أي واحد من حضور المحكمة التي يفصل فيها الباري سبحانه •

وقوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ؟) الخطاب فيه جار مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع كل من يمكن منه الرؤية • والرؤية هنا رؤية علمية • وفي معنى السجود أقوال كثيرة ، فجاء بمعنى الخضوع والتذلل ، وجاء بمعنى وضع الجبهة على الارض • والرأي المصيب هو أن المراد بالسجود هنا الإطاعة اختيارا ، فأسند الباري تعالى ذلك السجود الى المذكورات في الآية الكريمة • وكل منها يسجد للباري سبحانه وتعالى سجودا يعرفه هو لا غيره • وذلك على وزان قوله تعالى : (وإن من شيىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) • (و) كذلك (كثير

من الناس) وهم الموفقون (وكثير حق عليه العذاب) فلا يفتح له إلى السجود باب ، وذلك يصرف إرادته الى ما لا يرضى به الله ورسوله ، ويستمر عليه فيطبع على قلبه . وهذا الصنف من الناس أهانهم الله تعالى (ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مكرمٍ) إذ لا مجال لمعارضته إرادة الباري تعالى (إنّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ) .

(هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩) ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ(٢٠) ، وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ(٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها ، وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ(٢٢) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ(٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ(٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ)(٢٥)

قوله تعالى :(هذا خصمان) المراد به فريق المؤمنين وفريق الكافرين على الإطلاق ، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : تخاصم المؤمنون واليهود . فقالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى منكم وأقدم نبيا وكتابا . وقال : المؤمنون نحن أحق بالله تعالى ، آمنا بمحمد ـ صلى الله

عليه وسلم ــ وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا وتركتموه وكفرتم به حسدا . فنزلت الآية .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ إن كان يحلف حلفاً أنّ هذه الآية الى قوله تعالى (إن الله يفعل ما يريد) نزلت في الثلاثة ، والثلاثة الذين بارزوا يومَ بدر ، وهم حمزةُ بنُ عبدالمطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث من جهةٍ . وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عُتْبَة من جهةٍ أخرى . وفي الآية تقسيمٌ وجمعٌ وتفريقٌ . فالتقسيم (إن الذين آمنوا) الى قوله تعالى (والذين أشركوا) والجمع (إن الله يفصل بينهم) الى قوله (هذان خصمان اختصموا في ربهم) والتفريق في قوله تعالى (فالذين كفروا قُطِّعَت لهم ثيابٌ من نار) . وفي قوله تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) إستعارة تمثيلية تهكمية حيث شبهت الهيئة الحاصلة من أمواج النار المتراكمة وإصابتها لكل عضو من أعضائهم وتأثرهم بها تأثرا فاجعا بالهيئة الحاصلة من تقطيع الثياب على حسب حجم أعضاء البدن ولبس بعضها فوق بعض ، وذكر اللفظ الدال على المشبه به .

وقوله : (يصبّ من فوق رؤسهم الحميمُ) جملة مستأنفة لزيادة وجوه أُخر من أصناف التعذيب على ما ذكره . أي ويفاض من فوقهم الماء الحار الذي وصلت حرارته الى درجةٍ لا تطاقُ (يصهر به) أي يذابُ به (ما في بطونهم) من الأجزاء الباطنة كالكرش والإمعاء والأحشاء (والجلود) ذكرها لإفادة شدة تأثير النار بإيهام أن تأثيرها في الباطن أَقدمُ من تأثيرها في الظاهر ، مع أن ملابستها بالعكس (ولهم مقامعُ من حديد) أي وَأعد لهم عند الزبانية مطارق من حديد (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أي كلما أشرفوا على الخروج من النار (من غم) أي من أجل الهرب عن غم عَرَضَ

عليهم (أعيدوا فيها) أي ردوّا الى أعماقها (وذوقوا عذاب الحريق) أي ويُقال لهم : ذُوقُوا عذاب الحريق • ذلك أحوال الفريق الكافرين •

وأما أحوال فريق المؤمنين فقد أفادها بقوله الكريم : (إِنَّ الله يُدخلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، يُحلونَ فيها) منْ جانب الملائكة بأمره تعالى (من أساور من ذهب ولؤلؤاً) عطف على محل الجار والمجرور (ولباسُهُمْ فيها حريرٌ) ناعِمٌ يلتذ به بشرة الإنسانِ (وهدوا إلى الطيب من القول) أي وارشدوا الى القول الطيب وهو (الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض تتبوأ من الجنة حيث نشاء) • (وهُدوا إلى صِراطِ الحَميد) أي في الدنيا • وحاصله أنهم لما أرشدوا في الدنيا الى صراط الله العزيز الحميد وهو الإسلام وعملوا بمقتضاه هُدوا في الآخرة الى الطيب من القول ، فكان مبدأهم ومُنتهاهم خيراً •

(إن الذين كفروا ، ويَصُدّون عَنْ سبيل الله والمسجد الحرامِ) أي ان الذين كفروا بالله ورسوله ويصدون الناس عن السلوك في سبيل الله أي الإسلام أي يمنعون الناس عن أن يسلِموا ، وعن الدخول في المسجدِ الحرامِ لاجل العبادة أو لطواف بيت الله (الذي جعلناه للناس) أي المسجد الحرامَ الذي قررناه للمسلمين من الناس (سواء العاكف) أي المقيم (فيه والبادي) أي الطارىء الوارد عليه من الخارج (ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم) أي ومن يرد فيه أيَّ سوء بالناس حالكونه متلبساً بإلحاد أي ميل عن الحق الى الباطل وقوله (بظلمٍ) أي إما في معنى الإلحاد فيكونان حالين مترادفين ، أو بدل من قوله بإلحاد ، أو متعلق به وقوله (نُذقْهُ من عذاب أليم) جواب الشرط ، وخبر إِن محذوف يدل عليه هذه الجملة ، أي فلهم عذاب أليم •

وهذه الآية نزلت في مشركي مكة الذين منعوا دخول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه مكة لأداء نسك العمرة عام الحديبية حيث منعوهم عنه ، ثم صالحوه على عودهم في العام القابل • وقد استشهد بها بعض الأئمة على عدم جواز بيع دور مكة وإجارتها ، وإلا لما استوى العاكف فيها والباد • وقد ورد التصريح بذلك في بعض الأحاديث الشريفة • واتفق فقهاء الحنفية على جواز بيع بيوتها ، وأما أراضيها فعند الإمامين جائز بلا كراهة • وعن الإمام أبي حنيفة روايتان : الجواز ، وعدمه • والمفتى به الجواز • وأما الشافعي فيجوز عنده بيع البيوت والأراضي التي أحْيَوْها، كما دلت عليها الأخبار ، ولم يزل الناس يتبايعونها • وأما خبرُ (مكةُ لاتباع رباعُها ، ولا تؤجر دورها) فضعيف • وأما قوله تعالى (سواءٌ العاكف فيهِ والبادِ) فالمقصود مساواة المقيم وغيره في المسجد الحرام وما ألحق به من محلات أداء المناسك • والوعيد في الآية الكريمة لمن يصدون الناس المسلمين عن زيارة المسجد الحرام وأداء المناسكِ مِن الحج والعمرة •

جرت مناظرة بمكة بين الإمام الشافعي وإسحاق ابن راهويه ـ رضي الله عنهما ـ • وكان إسحاق لا يُرخص في كراء دور مكة • فاحتج الشافعي بقوله تعالى : (أُخرِجوا من ديارهم بغير حق) فأضيفت الديار إلى مالكيها • وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وبأنه قد اشترى عمر ـ رضي الله عنه ـ دار السجن ، أترى أنه اشترى مِن مالكيها أو غير مالكيها ؟ قال إسحاق : فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركتُ قولي •

(وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ(٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً ، وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ ، فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا البائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَاحِلَّتْ لَكُمُ الأَنعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ ، فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) حُنَفاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ(٣١) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)(٣٣)

قوله تعالى : (وإذ بوأْنا لإبراهيم مكانَ البيت) أي اذكر لهؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيلِ اللهِ وَعن المسجد الحرام وقتَ جَعْلِنا مَكان البيت مَباءَةً لجدهم إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، أي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة ، أو بينا له مكان البيت ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون اليه ويحجونه (أن لا تشرك بي شيئا) أن مفسرة لبوّأنا من حيثُ أنه تضمن معنى تعبدنا لأن التبوئة من أجل العبادة ، أو مصدرية موصلة بالنهي ، أي فَعَلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وَوَصل أن بالخبر والإنشاء سائغ (وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) أمره الله

تعالى بتطهير بيته للجمع المذكورين ، والطهارة يراد بها ما يشمل الحسية بأن يطهر من الأوساخ والأقذار ، والمعنوية كعبادة الأوثان والأعمال اللاغية للإنسان . والمراد بالطائفين الذين يطوفون بالبيت لأداء النسك وبالقائمين المصلون . وذكر الركع السجود لإفادة معظم أركانها مع القيام . ويجوز أن يُراد بالطائفين الناسكون القادمون من خارج الحرم وبالقائمين المقيمون فيه منهم فيبقى الركع السجود لبيان المصلين فيه .

(وأذِّنْ فِي الناس بِالحج يأتوكَ رِجالاً وَعلى كُلِّ ضامِرٍ يأتِينَ مِنْ كل فج عميق) اَذن أمر من التأذين بمعنى النداء والإعلان ، ورجالا جمع راجِلٍ كقيام جمع قائم ، والضامر البعير المهزول ، والفج الطريق ، والعميق البعيد . أو المراد به الطريق الغائر في الأرض لكثرة عبور الغابرين عليه . روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما فرغ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بناء البيت قال : رب قد فرغتُ ، قال أذِن في الناس بالحج . قال : يا رب وما يبلغُ صوتي ؟ قال أذن وعليّ البلاغ . قال : رب كيف أقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس كُتب عليكم الحج الى البيت العتيق . فسمعه أهل السماء والأرض . ألا ترى أنهم يجيبونَ من أقصى البلاد يلبون ؟ وفي الآية دليل على جواز المشي والركوب في الحج . والحاصل أنك لما بنيت البيت بأمري أعلن وناد بالناس ليأتوا الى الحج مُشاة عَلى الأقدام أو ركبانا على كل حيوان مهزول يأتين من كل طريق بعيد من مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها . وقد نادى وأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء . وإيقاع الإتيان على ضمير المخاطب في يأتوك لأنه أول مَنْ نادى ، فكأنّ المجيبين أتوه على ندائه . وقوله (ليشهدوا منافع لهم) أي ليشهدوا منافع دنيوية أو دينية على سبيل منع الخلو ، وذلك كالتجارة واشتراء ما يراه من الحاجيات التي قلما توجد في غير الحجاز ، والإطلاع على

البيت ومحلات أداء المناسك ، والعلم بكيفية السلوك والمسالك ، والتفاهم مع العلماء والقادة الوافدين من سائر الممالك .وبذلك يتبصر العاقل لأموره في مستقبل حياته . (ويذكروا اسمَ اللهِ) عند النحر والذبح (في أيام معلومات) وهي أيام التشريق : يوم العيد وثلاثة أيام بعده (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) الإبل والبقر والضأن والمعز السليمة من العيوب المخلة باللحم ، فإذا ذبحتموها (فكلوا منها وأطعموا البائس) الذي أصابه بؤس أي شدة من المرض والعمى والعرج وغيرها (الفقير) المحتاج . وذكر البائس الفقير للترغيب في رعايته لا للتخصيص ، فإن الضحايا يأكل منها أصحابها والأغنياء والفقراء ، ولا يختص بالفقراء إلا المنذورة ونحوها على ما فصل في الفقه .

(ثم ليقضوا تفثهم) أي يزيلوا عنهم كقضاء الواجب الفائت ما يتوسخ به الإنسان من العوارض أي يزيلوا ذلك بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب، وحلق الرأس ونتف الإبط والعانة ، فإن إزالتها ممنوعة بعد الدخول في الإحرام بالنسك (وليوفوا نذورهم) ما ينذرون به من أعمال البر في حجتهم (وليطوفوا بالبيت العتيق) أي الكعبة الشريفة طواف الإفاضة ويسمى طواف الزيارة ، وهو ركن من أركان الحج . ويوصف بالعتيق لأنه عتق من استيلاء الجبابرة عليها أو يعتق من الخلود في النار من يطوف به مؤمنا بالله ورسوله. (ذلك) أي الأمر ذلك (ومن يعظم حرمات الله) أي التكاليف التي احترمها الشارع وحرّم على الناس الإعتداءَ فيها بأن يأتي بها على الوجه المشروع المقرر علما وعملا (فهو خير له عند ربه) أي فتعظيمه خير له لأنه يثاب عليه عند ربه . وليس المراد بالخير التفضيل لأنه لا فضل في المقابل ، وإذا كان المراد بالتعظيم الأداء على الوجه الأكمل فللتفضيل وجه وجيه لأن أداءه كاملا خير، وذلك خير منه. وقوله تعالى:(وأحلت لكم الأنعام) جملة معترضة مقررة لما

قبلها من الأمر بالأكل والإطعام دافعة لما عسى أن يتوهم أن الإحرام يُحرم ذلك كما يحرم الصيد . وقوله (إلا ما يُتلى عليكم) أي يتلى عليكم تحريمه إستثناء متصل بناءً على أنّ ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهلّ به لغير الله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الرجس الشيء المستقذر ، ومن للبيان أي فإذا تبين لكم الحج المشروع وأنه زيارة بيت الله لذكره والإختصاص به والتزام دينه وهو التوحيد فاجتنبوا وابتعدوا عن الشيء المستقذر وهو الأوثان . ولما كانت ذواتها ووجودها في أماكن العبادة مما يوهم عبادتها والإشراك لها مع الله سبحانه وتعالى صارت من جملة المستقذرات ، وإن كان المستقذر هو طاعتها واحترامها (واجتنبوا قول الزور) أي مطلق الكذب في أي موضوع وفي أي بابٍ كان ، أو شهادة الزور مطلقا ، أو على استحقاق الأوثان للعبادة .

(حنفاء لله غير مشركين به) أي مائلين عن الباطل إلى الحق حالكونكم غير مشركين شيئا من الأشياء جامدا أو ناميا ، نباتا أو حيوانا أو إنسانا (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفهُ الطيرُ) أي فتأخذه وتأكله او (تهوي به الريح) أي تسقِطه وتقذفه (في مكان سحيق) أي بعيد عن المعمورة لا يجده من يتفقده فينمحي ذاتا وأثراً ، فإن الإنسان بفطرته السليمة في مقام عال والمسلم المنقاد لله كذلك فاذا ضيع صفاء الفطرة أو ترك ما هو عليه من علو التوحيد وأشرك بربه فيشبه إنسانا قائما على مقام عال وبينما هو كذلك إذ سقط إلى الأسفل وتمزق وخطفت أجزاءه الطيور الضارية ، أو رمت به الريح من فوق ذلك المكان العالي الى محل ناصٍ غائرٍ لا مجال فيه للراحة . وحاصل المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكتْ نفسه هلاكاً يشبه الهالكين .

(ذلك) أي الامر ذلك (ومن يعظم شعائر الله) أي أركان عبادات الله من الحج وغيره ، أو يعظم الأنعام التي يذبحها في الحج بأن يأخذها كثير اللحم وفير الشحم (فإنها) أي فتلك الشعائر باعتبار اتخاذها أي اتخاذها كما أمرنا (من تقوى القلوب لكم فيها منافع الى اجلٍ مسمى) أي لكم في الشعائر بمعنى الأنعام منافع من : الدرّ ، والنسل ، والصوف ، وركوب الظهور ، إلى وقت معين وهو وقت اعتبارها هديا (ثم محلها الى البيت العتيق) أي وجوب نحرها منتهٍ إلى البيت العتيق أي إلى ما يليه بعلاقة أداء المناسك فيه وهو المنحر كمنىً .

(ولِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ، فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ، كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها ، وَلا دِماؤُها ، وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ، كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)(٣٧)

قوله تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكاً) عطف على قوله سبحانه (لكم فيها منافع) والمنسك إما اسم مكان أي مكان النسك ، أو مصدر ميمي

وهو في الأصل بمعنى العبادة مطلقا ، وشاع استعماله في أعمال الحج ، وبالخاصة الذبح . أي ولكل أهل دين جعلنا متعبدا أو قربانا يتقربون به إلى الله تعالى وذلك (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) عند ذبحها دون غيره تعالى (فإلهكم إله واحد) أي وإنما جعلنا ذكر اسم الله غاية في النسك لأن إلهكم إله واحد هو الله تعالى فلا اعتبار ولا صحة لذكر غيره (فله أسلموا) أي فله تعالى أطيعوا وانقادوا (وبَشِّر) يا رَسُولي (المخبتين) أي المتواضعين له تعالى .

(الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) خافت قلوبهم من فيضان أنوار الإيمان عليها (والصابرين على ما أصابهم) من متاعب الإستقامة في دين الله وتحمل ما يعرض عليهم من الواجبات كالجهاد وإرشاد العباد وغيرها من مهمات المسلم (والمقيمي الصلاة) في أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) أي يصرفون المال المرزوق الموجود عندهم بطريق أداء الواجبات المالية كالزكاة والنذور والكفارات ، أو الصدقات التطوعية كالهدايا وماشاكلها (والبدنَ جعلناها لكم من شعائر الله) البدن جمع بدنة وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة ، وفي القاموس هي من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم أي وجعلنا البدن لكم من أعلام دين الإسلام التي شرعها الله تعالى (لكم فيها خيرٌ) أي نفع في الدنيا وأجْرٌ في الآخرة (فاذكروا اسم الله عليها صوافٌ) بأن تقولوا : بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك ، عند ذبحها حالكونها قائمات قد صففنَ أَيديَهُنّ وأرجُلَهُنّ . فقوله (صَوافٌ) جمعُ صافةٍ ومفعوله مقدر كما ذكرناه (فإذا وَجَبَت جُنُوبُها) أي سقطت جنوبها على الارض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها وأطعموا القانع) أي الذي يرضى بما يُعْطى من غير سؤال (والمعترّ) أي المعترض للسؤال . والمقصود تعميم الإعطاء

للسائل وغيره (كذلك سخرناها لكم) أي مثل ذلك التسخير سخرناها لكم حتى تذبحوها مع كمال قوتها ومنعتها (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم •

(لن ينالَ اللهَ لحومها ولا دِماؤها) أي لن يصيب رضا الله تعالى لحومها المتصدق بها ولا دماؤها المُهْراقَةُ (ولكن يناله التقوى منكم) أي ولكن يصيب رضاه مايصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى ذبحها تقرباً (كذلك سخرها لكم ، لتكبروا الله على ماهداكم) أي مثل ذلك التسخير سخرها لتعظموا ربكم سبحانه وتعالى وتعرفوا عظمته على هدايته لكم على التقرب بذبحها إلى الله وحده ، أو على طريق تسخيرها (وبشر المُحسنين) أي المخلصين لله تعالى فيما يأتون ويذرونَ •

(اِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذينَ آمَنوا اِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوّانٍ كَفورٍ(٣٨) اُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ(٣٩) الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، إِلاَّ أَنْ يَقُولوا رَبُّنا اللهُ ، وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ ، وبِيَعٌ ، وصَلَوَاتٌ ، وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ(٤٠) الَّذينَ اِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ، وآتَوُا الزَّكاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوا عَنِ المُنْكَرِ ، وللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ)(٤١)

قوله تعالى : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) كلام سيق لإفادة استقرار قلوب المؤمنين وترغيبهم في الاستقامة على ما أمروا به وتأكيد اعتمادهم على الله ببيان أن معهم التأييد من الله ، وأنه يدافع عن الذين آمنوا

وكلما احتاجوا إلى معونة ومدد أعانهم الله وأمدهم وأنه لا يحب الكافرين لأنهم خائنون مع أهل الحق ومع أمتهم ومجتمعهم وأنه لا يحب كل خوان كفور • وقوله تعالى (أذن للذين يـُقاتلون) الآية أول آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيف وسبعين آية على ما روى الحاكم في المستدرك • وعن أبي العالية : إن أول آية نزلت فيه قوله تعالى (وقاتِلوا في سبيل الله الذين يـُقاتلونكم) وفي الإكليل : إن أول آية نزلت قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وروى جماعة أنها نزلت في أناس مؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاتبعهم كفار قريش فأنزل الله تعالى لهم في قتالهم • والمعنى إن الله تعالى رخص لهم أن يقاتلوا الكفار بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم • وقوله (إن الله على نصرهم لقدير) وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر •

(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله) أي لا موجب لإخراجهم إلا توحيدهم لله فالكلام من قبيل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　　بهن فلول من قراع الكتائب

وقوله : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) تحريض للمؤمنين على القتال المأذون فيه ، ويفيد أن هذا القتال فيه فائدة كبيرة إذ لولا دفع الله الناس بعضهم الظالمين ببعض من المحاربين الأبطال المدافعين عن الحق (لهدمت) المعابد من (صوامع) الرهابنة (وبيع) النصارى (وصلوات) اليهود أي كنائسهم سميت بذلك لأنها يصلى فيها (ومساجد) للمؤمنين (يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره) أي من ينصر دينه (إن الله لقوي) على نصرهم (عزيز) لا يمانعه شيء وقوله (الذين إن مكناهم في الأرض) وصف للذين أخرجوا أي إنهم الذين إن مكناهم في

الأرض (أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور) والمراد بالصلاة والزكاة الركنان المعلومان للإسلام ، والمراد بالمعروف كل أمر واجب أو مندوب ، والأهم التوحيد ، والمراد بالمنكر كل حرام ومكروه والمهم هو الشرك بالله • ومعنى قوله (ولله عاقبة الأمور) إن مرجعها إلى حكمه تعالى ، وتقديم الظرف للحصر والاهتمام •

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وثمودُ(٤٢) وقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وقومُ لُوطٍ(٤٣) وأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِير ؟(٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاها وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ؟(٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ فَإِنَّهَا لاتَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ؟)(٤٨)

قوله تعالى (وإن يكذبوك) ••• الآية تسلية للرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ما جرى عليه من التعب والملال في تبليغ رسالته فيقول الباري تعالى (وإن يكذبوك) فاصبر على أذى التكذيب كما صبر الرسل السابقون على تكذيب قومهم لهم إذ (قد كذبت قبلهم) أي قبل قريش (قوم نوح) نوحا (و) كذَّبَتْ (عادٌ) هودا (وثمودُ) صالحاً (و)

قوم (إبراهيم) إبراهيم (وقوم لوط) لوطا (و) كذبت (أصحابُ مدْين) شُعيباً (وكذبَ مُوسى) من جانب الأقباط (فأمليتُ للكافرين) أي أمهلتهم (ثم أخذتهم) أي أخذت كل فريق منهم (فكيف كان نكير ؟) أي إنكاري عليهم بتغيير ما هم عليه من الملذات • (فكأين من قرية أهلكناها) أي أهلكنا كثيرا من القرى (وهي ظالمة) والحال أنها ظالمة (فهي خاوية على عروشها) أي فهي ساقطة على سقوفها بأن لم تتحمل البنيان السقوف فسقطت أولاً ثم انهارت الحيطان عليها (وبئر مُعَطلة) أي وكم بئر معطلة لا يُستقى منها لموت أهلها (وقصر مشيد ؟) أي وكأين من قصْر مشيدٍ مرفوع البنيان أخليناه عن ساكنيه • (أفلم يسيروا في الأرض) حث لهم على التجوال في العالم ليروا معالم بيوت الهالكين (فتكون لهم قلوب يَعْقلونَ بها) أي يعلمون بها ما يجب أن يعلم من توحيد رب العالمين (أو آذان يسمعونَ بها) ما يجب أن يسمع من الوحي ومن أخبار الأمم التي يعتبر بها المعتبرون • وسبحان الرب الخالق من أحوال الناس الذين نسوا الإعتبار بكلمات الوحي ، وأهملوا التفكير في ما ينفعهم من الآثار الدالة على وجوب إتباع الحق والإستفادة من أخبار الأمم الماضية فإن قوما لم يكونوا كذلك قلوبهم معمية لا تدرك الحقائق ، وهي المصيبة العظمى (فإنها لا تعمى الأبصار) أي لا يضر عمى الأبصار بعد إدراك البصائر (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي ولكن المضر هو عمى القلوب التي أودعت في الصدور للتفكر في ما ينفع وما يضر والإحتراز عن الثاني والإقتراب من الأول •

(ويستعجلونك) أي مشركو قريش (بالعذاب) الذي تتوعدهم به (وَلَنْ يخلفَ الله وعده) بأي شيء في الدنيا أو في الآخرة ومن أصدقُ من الله قيلا والزمان البعيد عندكم قريب عند الله تعالى والايام الكثيرة عندكم

قليلة عند الله (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) وهذه الجملة مستأنفة وبيان لِتمادي صبره وتأنيه بحيث يستقصر المُددَ الطوال يعني إنه يأتيكم العذاب الموعود إن لم تتوبوا الى الله ولم تؤمنوا به وبرسوله ولو بعد مدة طويلة عندكم فإن الطويل عندكم قصير عندنا ، أو إن الجملة لبيان طول الآخرة ومدة عذابهم فيها ، ولهم في العذاب أحقاب وأيام لا نهاية لها وإن يوما من ايامه في الآخرة كألف سنةٍ مما تعدون . أو لبيان شدة عذابهم عند التعذيب فيوم من أيام عذابهم كألف سنة مما يعدون . (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة) أي كم من سكنة القرى باشروا بالظلم أعمالا فاسدة وأمهلناهم الى وقت مقدر لتعذيبهم (ثم أخذتها ؟) بالعذاب والنكال بعد طول الإمهال هذا في الدنيا (وإليَّ المصير) أي مصيرهم في الآخرة فأعاقبهم بما يستحقون .

قُلْ : يا أَيُّها النَّاسُ إنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٤٩) فالَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحاتِ لهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ(٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوا في آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الجَحِيمِ(٥١) وَما أَرْسَلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إلاّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ اُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلوبُهُمْ ، وإنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٤) ولا يَزالُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)(٥٧)

قوله تعالى : (قل يا أيها الناس) خطاب عام للمؤمن والكافر والمنذر به قيام الساعة • أي أيها الناس إنما أنا لكم منذر إنذاراً بينا واضحا بقيام الساعة وما بعدها من الأهوال فالكافر العاقل يجب أن يتفكر في عواقبه ولا يستمر في ضلاله ويتوب إلى الله ويؤمن به وبرسوله ، والمؤمن يجب أن يزيد في أعماله الصالحة ولا يغتر بها ويخاف من عواقب أمره في مستقبله حتى لا يقع في المتاعب بعد قيام الساعة • (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي حتى وافاهم الأجل (لهم مغفرة) من الله لزلاتهم وأخطائهم (ورزق كريم) في الجنة • (والذين سعوا في آياتنا) أي بذلوا الجهد في معارضتها وإلقاء الشبه الى قلوب الناس منها حالكونهم (معاجزين) أي مسابقين للمؤمنين ومعارضين لهم في أفكارهم وأعمالهم (أولئك أصحاب الجحيم) وملازموها إلى أبد الآبدين •

ولما أنزل الله تعالى هذه الآية الدالة على وجود أناس كافرين مشاكسين له ولأتباعه المؤمنين ، وأنهم سعوا وبذلوا ما في طاقاتهم لمعارضة الرسول وإيقاع الشكوك والشبه في قلوب الناس واستمروا على ذلك أنزل سبحانه وتعالى ما يكون تسلية لقلبه الشريف فقال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي ما أرسلنا قبلك أحدا منهما إلا بحيث اذا قرأ مانزل عليه من الله ألقى الشيطان الشبه في قراءته

وفيما يقرأه الى أوليائه من شياطين الإنس والجن حتى يوسوسوا بها في قلوب المؤمنين ليرتدوا عن دينهم وفي قلوب الكافرين حتى يستمروا على الكفر ولا يدخلوا في الإيمان . وهذه الآية نظير قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وقوله : (وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم بالباطل) ومثال تلك الشبه كما قالوا عند سماع قوله تعالى : (حرم عليكم الميتة) ... الآية مابال هذا الرسول يحل ذبيحته ويحرم ذبيحة الله ؟ ومرادهم بها الميتة وكقولهم عند سماع قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم) أنه عبد عيسى من قبل النصارى وعزير من قبل اليهود والملائكة من قبل قريش فيلزم أن يعذبوا في نار جهنم وقوله تعالى : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) معناه فيبطل ويمحو الله تعالى تلك الشبه التي ألقاها الشياطين في قلوب أوليائه وألقاها أولياؤه في قلوب الناس بسبب توارد الآيات الواضحة الخالية عن مظانّ الإحتمالات الواهية وبتوفيق الله تعالى لرسوله في رد تلك الشبه (ثم يحكم الله) آياته أي يثبت الله تعالى تلك الآيات بإظهار معانيها الواقعية المحققة (والله عليم) بأحوال عباده (حكيم) في أعماله بحيث لا يخلو شيء منها عن حكمة جلية أو خفية يدركها أهل البصائر .

ومن جملة الحكم في الآيات الإحتمالية إختبار أهل القوة في الإيمان وامتيازهم من أصحاب الضعف فيه . ومنها تصدي المؤمنين لرد تلك الشبه حتى ينالوا الأجر منه تعالى وحتى يتمرنوا في الدفاع عن الدين . ومن جملتها ظهور أهل الزيغ بين الناس حتى يعرفهم المسلمون كما يظهر من قوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان) أي الشبه التي ألقاها الشيطان في قلوب أوليائه وهم ألقوه في قلوب المؤمنين (فتنة للذين في قلوبهم مرض) أي بلاء ومحنة وزيغا وانحرافا للذين في قلوبهم مرض من الكافرين والمنافقين

وضعفاء الإيمان (والقاسية قلوبهم) أي وفتنة للكفار الذين قست قلوبهم وأبت عن قبول الحق كأبي جهل وأبي لهب والنضر وعتبة (وإن الظالمين) من الفريقين المذكورين يعني الذين في قلوبهم مرض والذين قست قلوبهم (لفي شقاق بعيد) أي لفي عداوة شديدة ومخالفة كاملة لله ولرسوله وللمؤمنين . (وليعلم الذين أوتوا العلم) أي العلم الصحيح الموافق للواقع (أنه الحق من ربك) أي أن تلك الآية المنزلة التي جعلوها وسيلة لإلقاء الوسوسة في قلوب الناس هي الحق من ربك ولا كدر ولا غبار عليها (فيؤمنوا به) أي فيؤمن الناس به من الذين لم يؤمنوا بعد ، ويثبت الذين آمنوا على الإيمان به أو يزداد إيمانهم به (فتخبت) أي تتواضع (له قلوبهم) فتنقاد وتطيع (وإن الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) من النظر الصحيح الموصل الى كشف معاني الآيات بحيث لا يتمكن أي كافر من إلقاء الشبه فيها .

(ولا يزال الذين كفروا في مرية منه) أي في شك من النازل إلى الرسول (حتى تأتيهم الساعة بغتة) أي فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) شديد العسرة لا مجال فيه للإلتجاء الى أي واحد .

وفي روح المعاني : ما نصه وقيل (تمنى) قدر في نفسه ما يهواه و (أمنيته) تشهيه وما (يلقيه الشيطان) ما يوجب اشتغاله في الدنيا . وجعله فتنة ما يظهر منه من الاشتغال بأمور الدنيا ، ونسخه إبطاله بعصمته عن الركون إليه والإرشاد الى مايزينه إنتهى .

ومعنى الآية الكريمة على هذا : أنه (ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى) واشتهى مقاصده الخيرية من نصر الله تعالى له ونشر دينه وكثرة أتباعه (ألقى الشيطان في أمنية) ما يخالف مقامهما ويعارض كرامتهما كالاعتلاء على الناس والعظمة والشهرة (فينسخ الله) تعالى برعايته

لهما وصيانتهما عن الرذائل (ما يلقي الشيطان) الى قلوبهما ويحكم آياته أي آثاره الناتجة من نصرهما وإعزازهما بحيث لا تشوبها المفاسد وتكون صافية عن الأكدار والأقذار حتى لا يبقى من آثارهما الا ما يناسب مقامهما إنه عليم بكل ما يختلج في القلوب وحكيم في حفظ أحبابه من العيوب وهذا المعنى أوفق بالواقع من الاول ، لأن النبي هنا عام مقابل للرسول . والعام المقابل للخاص يراد به غيره ، والرسول له الكتاب والقراءة غالبا ، وقد لا يكونان للنبي فلا تكون عنده آيات مقروءة حتى يلقي الشيطان فيها ما يوسوس به في صدور المؤمنين الضعاف أو الكافرين ما ينحرفون به عن الحق وسلوك سبيل الرشاد . لكنه يحتاج هذا المعنى الى تأويل الآيات بالآثار الدالة على قدرة الباري ونصر الأنبياء والمرسلين .

(الملك يومئذ لله) أي السلطنة والعظمة يوم تأتي الساعة أو عذابها لله وحده لا شريك له (يحكم بينهم) بمقتضى عدله (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهم أهل العقيدة الثابتة والأعمال الصالحة (في جنات النعيم) لا يتحولون عنها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) وهم الذين يستمرون في المعارضة والمقارعة والقاء الشبه الواهية (فأولئك لهم عذاب مُهين) محقر مرذل . وهنيئا لمن حقر الحق التحقير والترذيل ولمن أهان الإسلام ونظام السعادة الإهانة والتذليل .

(وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذلِكَ

بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الباطِلُ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ)(٦٢)

قوله تعالى : (والذين هاجروا في سبيل الله) أي في سبيل إعلاء كلمة الله ، ثم قُتِلُوا في الجهاد أو غيلةً ، (أو ماتوا) أي في تضاعيف المهاجرة أو بعد الوصول الى المهجر (ليرزقنهم اللهُ) أي في البرزخ (رزقاً حسنا) ممتازا عن أرزاق سائر المؤمنين • وفي الآية تشريفهم وتبشيرهم بهذا الوعد الصادر ممن لا يخلف الميعاد • ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشرين من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ (وإن الله لهو خيرُ الرازقين) فإنه يرزقُ من يشاء بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحدٌ غيره (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) وظاهر الآية واتصالها بما قبله أن الإدخال يتحقق في البرزخ أي أن مدخلهم واسع جامع للذات الروحية بعيد عن المنغصات • ويحتمل أن يراد به مدخله في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وإن الله لعليم) بأعمالهم وما يستحقونه من درجات النعيم (حليم) في السماح وصرف النظر عن هفواتهم في الدنيا •

(ذلك) أي الامر ذلك (وَمَن عاقبَ بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه) مرة ثانية (لينصرنه الله) قيل إن الآية نزلت في قوم قاتلهم المشركون في محرم فقاتلوهم ، ثم عاد المشركون عليهم فحاربوهم ونصرهم الله على أولئك المشركين (إن الله لعفو غفور) للمنتصر حيث اتبع هواه في الإنتقام وأعرض عما ندب إليه من الصبر والسماح (ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ،

ويولج النهار في الليل) أي ذلك النصر على المشركين بسبب أن الله تعالى قادر على كل شيء فيقدر على تغليب بعض مخلوقاته على بعض كما هو قادر على تحريك الكرة الأرضية مع كبر حجمها إلى أن تغرب عنها الشمس ثم تحريكها الى أن تطلع عليها مع التصرف في هذا التحريك بجعله على مدارات متعددة ، في بعضها يتساوى الليل والنهار ، وفي بعضها يدخل بعض أوقات الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار ، وفي بعضها يعكس ذلك (وإن الله سميع) بكل المسموعات و (بصير) بكل المبصرات ، ومن جملتها ما يقع من الأقوال والأعمال الموافقة للحق والمخالفة له و (ذلك بأن الله هو الحق) الثابت المتصف بالكمالات الذاتية (وان ما يدعون من دونه هو الباطل) أي وأن ما يعتبرونه إلها معبودا بالحق هو في ذاته باطل ، أي معدوم من حيث الألوهية ولا يستحق الاعتبار (وأن الله هو العلي) العالي على جميع الاشياء المعتبرة (الكبير) المتعالي عن أن يكون له شريك في ذاته أو صفاته أو أفعاله .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الحميد(٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ؟ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ(٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى

مُسْتَقِيمٍ(٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ : اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ(٦٨) أَللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماء وَالْأَرضِ ؟ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ)(٧٠)

قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) إستئناف لتوجيه العقلاء الى النظر في آثار قدرة الله ليستدلوا بها على وجوده ووحدته وكماله ولا يدعوا من دونه أحدا • فقال تعالى (ألم تر) يا من يمكن منه الإبصار للأعيان والعلم بالأشياء (أن الله أنزل من السماء) أي من جهة العلو (ماء) على أرض هامدة فتصبح (الأرض) أي فتصير (مخضرة) بالنبات ؟ (إن الله لطيف) بعباده يعاملهم برفق ومجاملة فيحول الأرض التي هي كالفرش تحت أقدامهم من اليبس والجمود إلى الإخضرار بالورود و (خبير) بدقائق الحقائق وجلائلها ، ويسري علمه في الأشجار والاوراق الحاصلة منها ، والأوراد الناشئة عليها (وله ما في السماوات وما في الارض) خلقاً وملكا (وإن الله لهو الغني) عن الناس ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم ، وإنما يأمرهم بالإعتقاد السليم لتتنور قلوبهم فتهيج جوارحهم على اقتضائها لعبادة ربها فيفوزوا برضاه عند لقاه (الحميدُ) بإنعامه على عباده •

(ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض) أي جعل ما فيها منقادة لكم بالذات أو بالقوة المودعة عندكم المسيطرة عليها (والفلك تجري في البحر بأمره) أي ألم تر أن الفلك تجري في البحر بأمره أي بقدرته التي جعلت المياه قابلة لسير السفن عليها والإنسان عالما بكيفية سوقها وإرسائها وتحريفها يمينا وشمالا (ويمسك السماء أن تقع على الارض ؟) أي ألم تر أنّ الله يمسك السماء كراهة أن تقع على الارض فتدمرها وتهلك من عليها وذلك

بخلق جاذبية في المواد العلوية والسفلية تجذبها في الجو الى مراكزها أو قوله (إلا بإذنه) استثناء مفرغ من أعم الأسباب أي أمسكها أن تقع على الارض بسبب من الاسباب إلا بسبب إذنه لها في الوقوع عليها لأنها إذا انشقت السماء وانفطرت وتلاشت وقعت أجزاء منها على الارض • (إن الله بالناس لرءوف رحيم) حيث سخر لهم ما سخر ومنع السماء من وقوعها عليهم •

(وهو الذي أحياكم) أي خلق الحياة فيكم بعد أن كنتم مادة لا حياة فيها (ثم يميتكم) بعد انتهاء مدة بقائكم أحياء (ثم يحييكم) إذا جاء وقت البعث والحشر (إن الإنسان لكفور) أي لجحود بالنعم مع وصولها إليه (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) أي لكل أمة قررنا شريعة تمشي عليها، وأمة الإسلام أمة من الأمم (فلا يُنازعنك في الأمر) أي أمر الدين ، ولا حق لهم فيه ولا يحق لهم النزاع معك (وادع الى ربك) أي الى توحيده وعبادته حسب شريعتك (إنك لعلى هدى مستقيم) أي إنك على طريق مستقيم بلا شك وشبهة (وإن جادلوك) في أمر الدين بعد ظهور الحق (فقل : الله أعلم بما تعملون) أي إنه تعالى أعلم منكم بأعمالكم وبجزائها وسترون الجزاء عن قريب (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ويميز الحق من الباطل ويعين المحق عن المبطل فيرى كل جزاءه موافقا لعقيدته وعمله (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض ؟) فلا يخفى عليه شيء (إن ذلك في كتاب) أي ما في السماء والارض في كتاب هو اللوح المحفوظ (إن ذلك على الله يسير) سهل •

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(٧١) وإذَا

تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ في وجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ ، يَكادُونَ يَسْطُونَ بالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنَا ، قُلْ : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمْ ؟ : النَّارُ وَعدَها اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٧٢)

قوله تعالى (ويعبدون من دون الله) حكاية لبعض أباطيل الكافرين فيقول : (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سُلطاناً) أي حجة (وما ليس لهم به علم) أي وأوثانا ليس لهم علم باستحقاقه العبادة ، أي لا دليل عقليا على جواز عبادته كما لا دليلَ نقلا عليه ، وما دام دأبهم ذلك فهم من الظالمين (وما للظالمين من نصير • وإذا تتلى عليهم آياتنا) حالكونها (بينات) أي واضحات (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) أي الشيء المنكر والمراد به علامة الإنكار (يكادون يسطون بالذين يتْلونَ عليهم آياتنا قل) يا رسولي : (أفأنبئكم) أي أخاطبكم أو أتسمعون فأخبركم (بشر من ذلكم) الذي فيكم من غيظكم على الذين يتلون القرآن عليكم وهو (النار وعدها الله الذين كفروا) يعني إنكم الآن مبتلون بنار في صدوركم وهي العداوة مع المسلمين التالين لآيات الله ، وفي الآخرة تبتلون بنار أشدّ من هذهِ النار (وبئس المصير) أعاذنا الله منها •

(يا أيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ولَو اجْتَمَعوا لَهُ ، وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ !(٧٣) ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤) أَللهُ يَصْطفي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً ، ومِنَ

النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ، وإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمورُ)(٧٦)

قوله تعالى : (يا أيها الناس ضُربَ مَثَل) أي بين لكم قصة بديعة عجيبة (فاستمعوا له) استماع تفكر للإعتبار وهي التي تذكر في قوله تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أي إن جميع ما تدعونه من دون الله باعتبار أنها آلهة لا يقدرون على خلق ذباب واحد مع صغر حجمه ، ولو اجتمع كلهم ، فإن اجتماع الجامد مع الجامد لا يلزم منه إلا المزيد في الجمود ، واجتماع الضعيف مع الضعيف في العقل تحصل منه قوة فيه لكن لا يبلغ مبلغ الاقتدار على الإبداع للمعدوم وإيجاد الروح في ما لا روح له • ومن لوازم الإله السيطرة والتصرف في الممكنات بالإيجاد وخلق الروح والصفات الفاضلة بحسب تعلق إرادته ، وعلاوةً على أن لا قدرة لهم على الإفادة لا قدرة لهم على الإسترداد لما فات (وإن يسلبهم الذباب شيئا) أي شيء كان (لا يستنقذوه منه) أي لا يقدرون على استرداده منه (ضعف الطالب) وهو عابد غير الله (والمطلوب) وهو الإله المفتعل المَصنوعَ العاجز عن كل شيء حتى عن أن يبالَ عليه فضلا عن التصرف فيما لديه • (ما قدروا الله حق قدره) يعني إن أولئك الذين اتخذوا آلهة من دون الله ما عرفوا الاله الذي يستحق العبادة فما عرفوا الله الجامع للكمالات الواجب الوجود المهيمن على كل موجود الخالق المعبود (حق قدره) حق معرفته وإلا كانوا يخجلون من نسبة الآثار الى غيره تعالى (إن الله لقوي) على جميع الممكنات (عزيز) أي غالب على ما تعلقت به مشيئته في الكائنات • وبيده العزة والجبروت يُعز ويذل وينبىء ويرسل •

(الله يصطفي من الملائكة رسلا) بأوامره في العالم ويتوسطون بين ذاته وبين رسله من البشر بالإيحاء (و) كذلك يصطفي (من الناس) رسلا

إلى عباده لتبليغ الاحكام (إن الله سميع بصير) بجميع المسموعات والمبصرات ويعلم ما وراءها من الأفكار والنيات ، (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) من أحوالهم من كل باب (والى الله ترجع الأمور) كلها للجزاء لا الى غيره .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧) وجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ، هُوَ اجْتَبيكُمْ ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ ، هُوَ مَوْليكم ، فَنِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصِيرُ)(٧٨)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) لما قرعَ أسماع المشركين بالدليل القاطع على جهالتهم وضلالتهم نظر إلى عباده المهتدين الراشدين وقال : (يا أيها الذين آمنوا) بالله ورسوله وسلكوا سواء سبيله أدوا صلواتكم بكمال أركانها ، واهتموا بأقوى أركانها (واركعوا) لمن ركعت له السماوات (واسجدوا) لمن سجدت له جباه الممكنات (وافعلوا الخير) أي ما هو خير من كيفيات الإتيان بالفرائض والنوافل من آدابها ، فخذوا الأكمل بدل الكامل حتى تؤدوها خير الأداء ، فإنها صلة بين العبد وربه ومعراج المؤمن للوصول الى غاية إربه ، أو افعلوا الخير من سائر الوجوه من الصدقات والصيام ، وإطعام الطعام وإسعاف المحتاجين من الأنام لتؤدوا حق الاسلام (لعلكم تفلحون) أي وحالكم أنتم راجون الفلاح من الله تعالى .

(وجاهدوا في الله حق جهاده) أي جاهدوا لإعلاء كلمة في سبيل مرضاة الله لا لغاية أخرى ، أو جاهدوا النفس في كبح جماحها ، والشيطان في رد تلبيسه فإن هذه المجاهدة في غيرما إذا كان الجهاد فرض عين أكبر من جهاد الكفار كما يشعر به ما أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال قدم على رسول الله قوم غزاة فقال : « قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » وفي إسناده ضعف مغتفر في مثله (هو اجتبيكم) أي هو جل شأنه اختاركم من بين الأمم (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أي ضيق خارج عن نطاق القدرة ويشتد القيام به (ملة أبيكم إبراهيم) منصوب بفعل دل عليه ما قبله أي قبل نزول القرآن (وفي هذا) أي وفي القرآن وتلك التسمية جرت في أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم (هو سماكم المسلمين من قبل) قوله : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) (ليكون الرسول شهيدا عليكم) يوم القيامة أنه قد بلغ الدين إليكم (وتكونوا شهداء على الناس) روي أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لانبيائهم : هل بلغتم أممكم ؟ فيقولون نعم بلغناهم ، فينكرون ، فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا ، فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) أي اعتمدوا عليه وثقوا به في جميع أموركم (هو موليكم) أي متولي أموركم وناصركم (فنعم المولى ونعم النصير) هو إذ حق النصير حق النصرة أن يكون قديرا ، والقدير المطلق هو الله تعالى وحده •

فهرست المجلد الخامس من كتاب مواهب الرحمان

الصفحة	الموضوع

سورة الرعد

٦	الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها
٧	حديث عن العرش والسماوات
٨	تدبير أمر السماوات
١٠	وإن تعجب فعجب قولهم
١٢	ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة
١٣	بعض صفات الله تعالى
١٤	المعقبات وحفظهن لما كلفن به بأمر الله
١٥	شيء عن الدعاء والتسبب
١٧	هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا
١٨	الخوف والطمع
١٩	استجابة الدعوات ، ودعوة إبليس
٢٠	يسجد كل شيء لله
٢٠	قل : من رب السماوات والارض ؟
٢٢	بعض من أفعال الباري
٢٣	افتداء الكفار
٢٤	أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ؟
٢٥	الذين يوفون بعهد الله
٢٦	والذين ينقضون عهد الله
٢٧	الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر

الصفحة	الموضوع
٢٨	الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب
٢٩	ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض
٣١	ولقد استهزىء برسل من قبلك
٣٢	مثل الجنة التي وعد المتقون
٣٣	والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك
٣٣	ولقد أرسلنا رسلا من قبلك
٣٥	الكلام في يمحو الله ما يشاء
٣٦	هل القضاء يتبدل ؟
٣٧	وإما نريك بعض الذي نعد أو
٣٨	أو لم يروا أنا نأتي الأرض
	سورة ابراهيم
٤٠	الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات
٤١	بعض صفات الكفرة
٤٢	وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه
٤٢	ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات
٤٤	ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم
٤٥	قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والارض ؟
٤٧	وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا
٤٨	استفتاح الانبياء وخيبة كل جبار
٤٩	مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد
٥٠	أعمال الكفار ودرجات عذابهم عليها
٥٠	ألم تر أن الله خلق السماوات والارض بالحق ؟
٥٢	بين الشيطان والمخذولين
٥٣	ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة

الصفحة	الموضوع
٥٤	معنى الكلمة الطيبة
٥٥	ومعنى التثبيت
٥٦	ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا
٥٨	الله الذي خلق السماوات والارض
٥٩	وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا
٦٢	ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون
٦٤	وقد مكروا مكرهم
٦٥	وترى المجرمين يومئذ مقرنين

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

الصفحة	الموضوع
٧٠	مورد نزول ربما يود الذين كفروا
٧٠	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا
٧٢	ولقد أرسلنا في شيع الأولين
٧٤	ولقد جعلنا في السماء بروجا
٧٤	اسماء البروج والمنازل
٧٦	الشهب ورجم الشياطين
٧٦	كروية الارض ، والرواسي فيها
٧٧	وإن من شيء إلا عندنا خزائنه
٧٨	ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ
٧٩	خلق الجان من النار
٨٠	شيء عن الجن والملائكة
٨٢	إباء إبليس عن السجود

الصفحة	الموضوع
٨٣	إن كان إبليس من الملائكة فكيف خالف أمر الله ؟
٨٤	عداوة إبليس للإنسان
٨٥	إن المتقين في جنات وعيون
٨٦	ونبئهم عن ضيف إبراهيم
٨٧	البشرى بغلام حليم
٨٨	قوم لوط وإهلاكم بسبب الفاحشة
٩٠	مكان قوم لوط
٩٢	قوم شعيب
٩٢	أصحاب الحجر
٩٤	ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم
٩٥	المقتسمون
٩٦	المقتسمون وصد الناس عن الدخول في دين الله
	سورة النحل
٩٨	أتى أمر الله فلا تستعجلوه
٩٩	الانعام ومنافعها
١٠٢	هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر
١٠٣	وسخر لكم الليل والنهار
١٠٤	وهو الذي سخر البحر
١٠٥	الاهتداء بالنجوم
١٠٥	أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟
١٠٦	والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا
١٠٧	وفي لاجرم أقوال
١٠٧	وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟
١٠٨	قد مكر الذين من قبلهم

الصفحة	الموضوع
١٠٩	وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟
١١٠	سبب نزول (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم)
١١١	للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة
١١١	وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا ...
١١٣	ولقد بعثنا في كل أمة رسولا
١١٤	والذين هاجروا في الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم
١١٦	ومما ينبغي أن يعلم
١١٧	فوائد مهمة
١١٨	أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء
١١٩	ولله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة
١٢٠	وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين
١٢١	وما بكم من نعمة فمن الله
١٢٢	وإذا بشر أحدهم بالأنثى
١٢٢	ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم
١٢٣	قيل : إن الاستئخار معقول فما معنى الاستقدام ؟
١٢٤	ويجعلون لله ما يكرهون
١٢٥	والله أنزل من السماء ماء
١٢٦	الفرث والدم
١٢٦	ومن ثمرات النخيل والأعناب
١٢٧	وأوحى ربك إلى النحل
١٢٨	والله خلقكم ثم يتوفاكم
١٢٩	والله فضل بعضكم على بعض في الرزق
١٣٠	والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا

الصفحة	الموضوع
١٣١	ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء
١٣٢	وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم
١٣٣	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا
١٣٤	ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء
١٣٥	والله جعل لكم مما خلق ظلالا
١٣٦	ويوم نبعث من كل أمة شهيدا
١٣٧	وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم
١٣٧	ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم
١٣٩	المـراد من كل شيء
١٤٠	إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى
١٤١	والمراد بالعـدل
١٤٢	والمـراد بالإحســان
١٤٣	وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم
١٤٤	ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة
١٤٥	ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكـم
١٤٦	فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم
١٤٨	ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشـر
١٤٩	من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان
١٥٠	سبب نزول آية من كفر بالله
١٥١	وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة
١٥٢	إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير
١٥٤	إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا
١٥٥	ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا
١٥٦	ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

الصفحة	الموضوع

الجزء الخامس عشر

سورة الاسراء

١٦١	سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى
١٦٢	الكلام عن الإسراء
١٦٣	أبو بكر وتصديق الإسراء
١٦٤	الحديث عن المعراج
١٦٦	هل الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد ؟
١٦٧	مهمتان
١٦٧	وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل
١٦٨	وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين
١٦٩	متى تكون المرة الثانية
١٧١	عسى ربكم أن يرحمكم
١٧٢	إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم
١٧٤	وجعلنا الليل والنهار آيتين
١٧٥	وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا
١٧٦	حكم الناس المتوطنين في المناطق النائية
١٧٦	وكم اهلكنا من القرون
١٧٧	من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد
١٧٨	وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه
١٨٠	هل تؤدى الاولاد حقوق الوالدين ؟
١٨١	وآت ذا القربى حقه

الصفحة	الموضوع
١٨٢	ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك
١٨٣	ولا تقربوا الزنا
١٨٤	ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق
١٨٥	ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن
١٨٧	أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا
١٨٨	استحالة وجود شريك لله
١٨٩	وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا •
١٩٠	وقالوا : أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا
١٩١	وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن
١٩٣	قل ادعوا الذين زعمتم من دونه
١٩٥	وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون
١٩٦	وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس
١٩٧	شيء عن قدرة الله
١٩٨	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
١٩٩	إن عبادي ليس لك عليهم سلطان
٢٠٠	وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه
٢٠١	ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر
٢٠٢	التفاضل بين البشر والملائكة
٢٠٣	يوم ندعوا كل أناس بإمامهم
٢٠٤	وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك
٢٠٥	وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها
٢٠٧	تحديد أوقات الصلوات
٢٠٨	النافلة والمقام المحمود

الصفحة	الموضوع
٢٠٩	وقل جاء الحق وزهق الباطل
٢١٠	وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين
٢١٠	الدعاء وآيات الشفاء
٢١٢	وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه
٢١٣	قل كل يعمل على شاكلته
٢١٤	الشاكلة
٢١٤	ويسألونك عن الروح
٢١٥	بعض معاني الروح
٢١٦	وهنا بحثان
٢١٨	مستقر الأرواح
٢١٩	عدم تقيد أرواح الأنبياء والرسل بمستقر واحد
٢٢٠	ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك
٢٢١	وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا
٢٢٢	قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين
٢٢٣	ومن يهد الله فهو المهتد
٢٢٤	رد على الكفرة المنكرين للبعث والإعادة
٢٢٥	قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق
٢٢٥	ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات
٢٢٧	إغراق فرعون ومن معه حين أراد استفزاز موسى
٢٢٧	وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث
٢٢٨	الخرور على الأذقان
٢٢٩	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن
٢٣٠	اسم الله الأعظم

الصفحة	الموضوع
٢٣١	ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا
٢٣٢	قول « الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا »
	سورة الكهف
٢٣٣	الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا
٢٣٥	فلعلك باخع نفسك
٢٣٦	أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟!
٢٣٧	أصحاب الكهف والرقيم ، وهل هما طائفة واحدة ؟
٢٣٨	أصحاب الكهف
٢٣٩	قصة أصحاب الكهف
٢٤١	تزاور الشمس عن كهفهم
٢٤٢	بعثهم من مكانهم
٢٤٤	بعث أصحاب الكهف دليل على إحياء الموتى
٢٤٦	عددهم
٢٤٧	ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله
٢٤٨	واذكر ربك إذا نسيت
٢٤٩	مدة لبثهم في الكهف ، والحساب على السنة الشمسية
٢٥٠	واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك
٢٥١	واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة ... وسبب نزولها
٢٥٣	وقل الحق من ربكم
٢٥٤	واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين
٢٥٦	ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله
٢٥٨	إشكال وجوابه
٢٥٨	واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه
٢٦٠	ويوم نسير الجبال

الصفحة	الموضوع
٢٦١	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
٢٦٢	هل كان إبليس من الملائكـة
٢٦٣	أفتتخذونه وذريته اولياء من دوني
٢٦٤	وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى
٢٦٦	ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها
٢٦٧	وإذ قال موسى لفتـاه
٢٦٧	زعم نوفـا البكالي
٢٦٨	سؤال موسى ربه عن الأعلم والاقضى والاحب الى الله
٢٦٩	موسـى والخضـر
٢٧٠	القول في خضـر
٢٧٤	هل الخضر حي الآن ؟
٢٧٧	قال له موسى : هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا ؟
٢٧٨	كيف يتعلم موسى من رجل أقل منه مرتبة ؟
٢٧٩	فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها
	الجزء السادس عشر
٢٨٣	قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ؟
٢٨٤	تفسير الامور التي لم يستطع موسى الصبر عليها
٢٨٧	ما فعله خضر أمور خاصة نتوقف عن التعمق فيها
٢٨٩	أمـر ذي القرنين
٢٩٢	ثم أتبـع سببا
٢٩٦	قصة يأجوج ومأجوج وجذورها في التأريخ
٢٩٧	المبحث الاول
٢٩٨	المبحث الثاني في الكلام على إفسادهم في الارض
٣٠٠	المبحث الثالث قال تعالى حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج

الصفحة	الموضوع
٣٠١	رسـالة جنگيزخان
٣٠٣	المبحث الرابـع
٣٠٣	المبحث الخامس
٣٠٥	أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ؟
٣٠٧	قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمـات ربـي
٣٠٨	ومما يجب أن يعلم أن التوحيد الخالص لله تعالى يتم بتوحيده
	سورة مريم
٣١٠	كهيعص • ذكر رحمة ربك عبده زكريا
٣١٢	دعوة زكريا
٣١٣	بشـارة الله لزكريـا
٣١٤	كيف تعجب زكريا من تلبية دعائه ؟
٣١٥	إعطـاء الكتـاب ليحيى
٣١٦	واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا
٣١٧	مريم والرسول الموكل بأمرها
٣١٨	مريم وحملهـا بعيسـى
٣١٩	وجوه الإعجاز في أمر مريـم
٣٢٠	مريم تحمل عيسى الى قومها
٣٢١	عيسى الرضيع يتكلـم
٣٢٢	ذلـك عيسى بـن مريم
٣٢٣	فاختلف الاحزاب من بينهـم
٣٢٤	ابراهيم ينصح أبـاه
٣٢٦	أبو إبراهيم يهدده بالرجـم

الصفحة	الموضوع
٣٢٧	واذكر في الكتاب موسى
٣٢٨	واذكر في الكتاب إسماعيل
٣٢٩	واذكر في الكتاب إدريس
٣٣٠	فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
٣٣٢	لا يسمعون فيها لغوا
٣٣٣	ويقول الإنسان : أإذا ما مت لسوف أخرج حيا ؟
٣٣٤	وإن منكم إلا واردها
٣٣٥	وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات
٣٣٦	أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا ؟
٣٣٧	سبب نزول أفرأيت الذي كفر ...
٣٣٨	ألم تر أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ؟
٣٣٩	وقالوا اتخذ الرحمن ولد
٣٤٠	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا
	سورة طه
٣٤١	طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى
٣٤٢	القول في استيلاء الرحمن على العرش
٣٤٤	وهل أتاك حديث موسى
٣٤٦	الإيحاء الى موسى
٣٤٧	عصا موسى
٣٤٨	بعض آيات موسى
٣٤٩	بعث موسى الى فرعون
٣٥٠	نعم الله على موسى
٣٥٣	إرسال هارون مع موسى الى فرعون

الصفحة	الموضوع
٣٥٥	فرعون يجادل موسى
٣٥٧	موسى وموعد يوم الزينـة
٣٥٩	فرعون يجمع السحرة
٣٦٠	دفـع توهم
٣٦١	السحرة يؤمنون لموسى
٣٦٢	فرعون يهـدد السحرة
٣٦٣	الحق والإيمان به أقوى من التهديد
٣٦٤	موسى يسري بالمؤمنين
٢٦٥	موسى يعجل الى ربـه
٣٦٧	فتنة السامري وعودة موسى الى قومه غضبان
٣٦٨	موسى يناقش هـارون
٣٧٠	ويسأل موسى عن أمر السامري
٣٧١	ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا
٣٧٣	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن
٣٧٤	وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً
٣٧٥	ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي
٣٧٦	وسوسة الشـيطان إلى آدم
٣٧٩	أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون
٣٨٠	فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك
٣٨١	ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم
٣٨٢	وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه !

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

٣٨٥ إقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون

٣٨٦ استهزاء الكفرة بالذكر والقرآن

٣٨٧ اتهام الرسول ـ ص ـ بكونه شاعرا و ••• وطلبهم منه أن يأتي بأمـور عجيبـة

٣٨٨ سفاهة آرائهـم

٣٨٩ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم

٣٩١ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمـة ؟

٣٩٢ وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما لاعبين

٣٩٣ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا

٣٩٤ أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ؟

٣٩٥ برهـان التمانـع

٣٩٦ ام اتخذوا مـن دونـه آلهـة ؟

٣٩٧ وما أرسـلنا مـن قبلـك من رسـول

٣٩٨ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ••• ؟

٤٠٠ فلك القمـر ومداره والخـرق والالتئـام

٤٠١ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ؟

٤٠٣ قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ؟

٤٠٥ أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها ؟

٤٠٦ ولقد آتينـا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين

٤٠٧ ولقد آتينـا ابراهيـم رشـده

٤٠٩ قالوا : من فعل هـذا بآلهتنـا ؟

الصفحة	الموضوع

٤١٠ منطق الحق ينتصر على منطق الضلال
٤١١ قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين
٤١٢ إنجاء إبراهيم
٤١٣ ولوطا آتيناه حكما وعلما
٤١٤ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث
٤١٥ قضاء داود وسليمان
٤١٦ ما أنعم الله به على داود
٤١٧ تسخير الريح لسليمان
٤١٨ كشف الضر عن أيوب
٤١٩ وذا النون إذ ذهب مغاضبا
٤٢٠ محنة يونس في بطن الحوت
٤٢٢ وزكريا إذ نادى ربه
٤٢٣ إن هذه أمتكم أمة واحدة
٤٢٤ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم
٤٢٦ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر
٤٢٧ المراد بالزبور
٤٢٨ قل : إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد

سورة الحج

٤٣٠ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شي عظيم
٤٣١ المراد من زلزلة الساعة
٤٣٢ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب
٤٣٣ مراحل خلق الانسان في بطن أمه

الصفحة	الموضوع
٤٣٤	السعيد من سعد في بطن أمه
٤٣٥	شيء عن الكسب والاختيار
٤٣٧	ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى
٤٣٨	ومن الناس من يعبد الله على حرف
٤٣٩	من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ...
٤٤٠	إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئين
٤٤١	شيء عن الصابئة
٤٤٢	ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات والأرض
٤٤٣	هذان خصمان اختصموا في ربهم
٤٤٤	سبب نزول هذان خصمان اختصموا ..
٤٤٥	إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام
٤٤٦	سبب نزول هذه الآية
٤٤٧	تبوئة مكان البيت لإبراهيم
٤٤٨	التأذين في الناس بالحج
٤٥٠	مثل من يشرك بالله
٤٥١	ولكل أمة جعلنا منسكا
٤٥٢	الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم
٤٥٣	إن الله يدافع عن الذين آمنوا
٤٥٤	ولولا دفع الناس بعضهم ببعض
٤٥٥	وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد
٤٥٧	قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين
٤٥٨	وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي

الصفحة	الموضوع

٤٦٠ معنـــى تمنـــى

٤٦١ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلـــوا

٤٦٣ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ٠

٤٦٤ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض

٤٦٥ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به ســـلطانا

٤٦٦ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له

٤٦٨ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكـــم

تم

طبع المجلد

الخامس من كتاب

مواهب الرحمن

في تفسير القرآن الكريم

للشيخ عبدالكريم المدرس

وسوف يليه المجلد السادس

من هذا التفسير

بعون الله

تعالى

●

دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م